التيسير في التفسير

الجزء الثاني

النساء - الأنعام

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي — محمد بدر الدين الحوثي



التيسير في التفسير

تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه

تحقيق: السيـد/ عبدالله بن حمـود العـزي ، السيـد/ محمـد بـدر الـدين الحـوثي

الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)

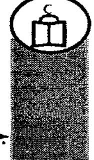
عدد المجلدات: (٧)

الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠١٣/٣٢٥م)



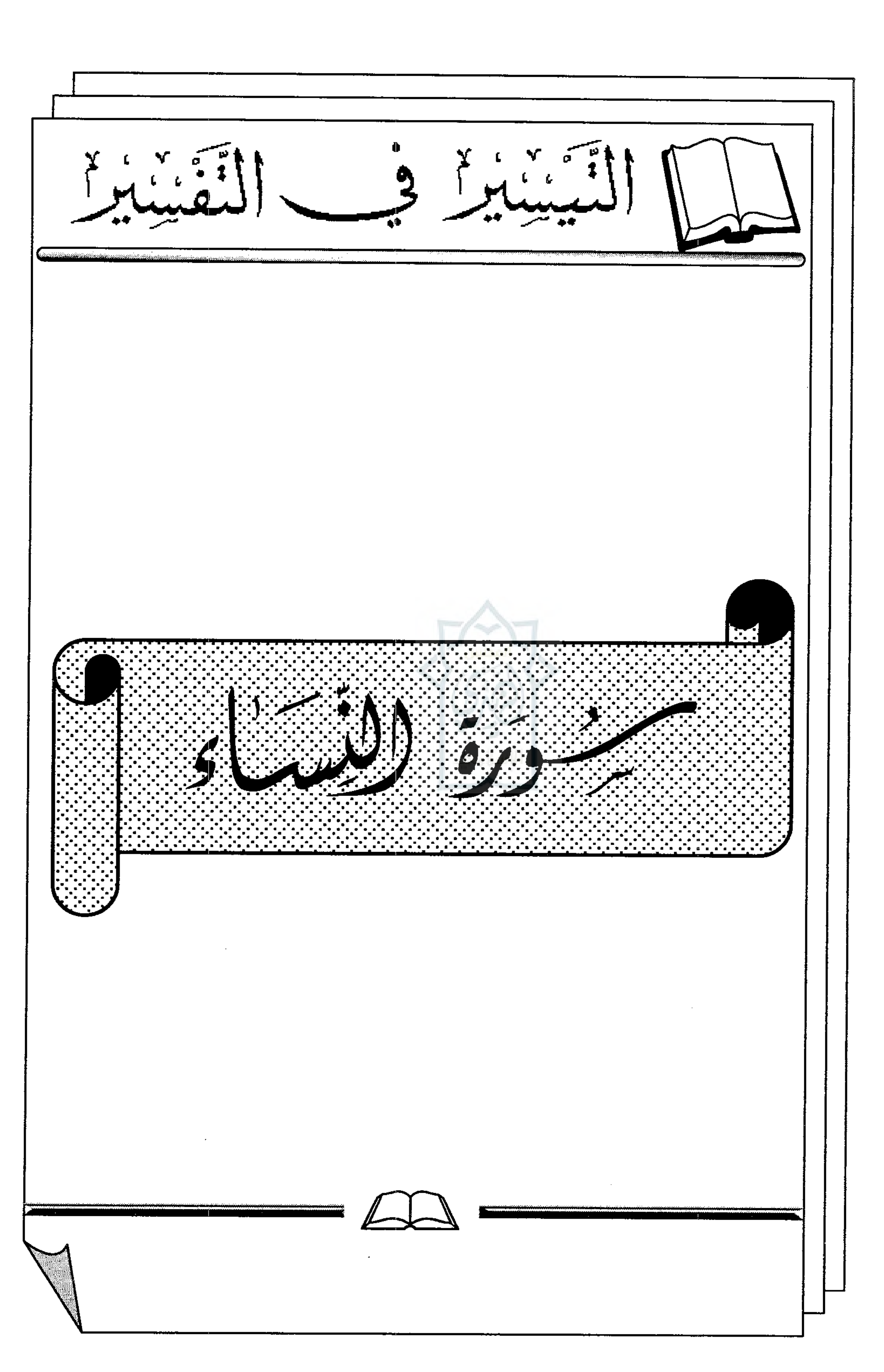




اليمن ـــ صعدة

جوال: (٠٠٩٦٧.٧١١٣٧٢٧٦٢) - (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) - (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)

بريد: almostafa.ye@gmail.com - hbhbhd@gmail.com


التيسير في التفسير
سورة النساء



سُورَةُ النِّسَاءِ — ترتيبها ٤ — آياتها ١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟

تفسير (سورة النساء) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ **هذا خطاب عام للناس أمرهم الله بتقواه، فقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ ليذكروا أنه مالكهم الذي تجب عليهم طاعته.**

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فأصلكم واحد فلا تتظالموا، فمن التقوى تقوى الله من بعضكم في بعض ﴿وَ﴾ خلق من النفس الواحدة التي هي آدم عليه السلام ﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي أم بني آدم ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ من آدم وزوجه في أقطار الأرض ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ وذلك دليل على قدرته ورعايته لخلقه ورزقه لهم حتى كثروا، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يهملهم فهو إعداد لما يأتي في السورة من التكاليف على بعضهم لبعض.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ لعلمكم أنه رقيب عليكم، ومعنى ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ يقول بعضكم لبعض: «أسألك بالله» ﴿وَ﴾ اتقوا ﴿ٱلْأَرْحَامَ﴾ أن تقطعوها في المواريث أو غيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ في الحال والماضي فيما قد ظلمتم فيه النساء واليتامى وقطعتم فيه الأرحام وغير ذلك.

ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ

﴿٢﴾ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾ أموالهم في حال إنفاقها عليهم، وعند إيناس رشدهم إذا بلغوا النكاح، والخبيثُ: الحرام، والطيبُ: الحلال، فقد يرى الرجل شيئاً من مال اليتيم يستحسنه ويرغب فيه، فيأخذه لنفسه ويجعل لليتيم بدله ليزعم أنه هو نصيب اليتيم وقد غش نفسه؛ لأنه تبدّل الخبيث بالطيب.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بضم مال اليتيم إلى مال الرجل ودعوى أن الكل للرجل ليس لليتيم منه شيء، وأكثر ما يقع هذا من الذي يتلف ماله فيحتاج إلى مال اليتيم فيتلفه كما أتلف مال نفسه فعبر عنه بالأكل لأن أكثر الإتلاف يكون في الأكل للحاجة إلى الأكل كل يوم وعموم الحاجة للكبير والصغير ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ في (مفردات الراغب): «الحوب: الذنب» ومثله في (الصحاح) وفي (الكشاف): «الحوب: الذنبُ العظيم» وكذا في (المصابيح)، وهو في (لسان العرب) عن الفراء، والأول في (لسان العرب) أيضاً عن أبي عبيد والزجاج، وقد وصفه الله بالكبر، فإذا كان معناه: الإثم العظيم، فهو مثل العذاب الأليم فهو عظيم جداً.

﴿٣﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهن ولا ترغبون في نكاحهن بل ترغبون في تركه فاعدلوا عنهن، وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ بأن حلَّ ووافق رغبتكم، ولا تنكحوا اليتامى رغبةً في مالهن مع الرغبة في ترك نكاحهن للعشرة، لتسلموا ظلمهن بمنعهن ما لهن أو مهورهن أو ما يحق لهن من النفقة الواجبة على الزوج أو غير ذلك مما وجب لهن ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ﴾ أي لهذا اثنتان وهذا اثنتان ﴿وَثُلَٰثَ﴾ لهذا ثلاث من النساء وهذا ثلاث ﴿وَرُبَٰعَ﴾ لواحد أربع ولغيره من الرجال أربع.

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ فيهن أو بينهن ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ أنكحوا واقتصروا عليها أو مملوكة أحدكم يستغني بها عن الزواج حذراً من الحيف وعدم القيام بحق الزوجة، ذلك الإقتصارُ على واحدة أو المملوكة ينكحها مالكها بالملك أدنى وأقربُ لئلا تحيفوا بسبب تعدد المنكوحات.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: دلت هذه الآية على تحريم الجور من الولاة على اليتامى لكثرة الزوجات فقصرهن على أربع، فأباح تزويج ما دون الأربع إلى أن قال سبحانه: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ يريد سبحانه في العدل بين الزوجات، وكذلك في العدل في أموال اليتامى لأجل الزوجات ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ ودلَّ ذلك على وجوب تجنُّب ما يكون سبباً للجور أو أي قبيح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي ذلك الذي هو الاقتصار على أربع فما دون إلى الواحدة، أو ما ملكت اليمين أقربُ شيءٍ إلى نفي الميل عن العدل في حق اليتامى وفي حق الزوجات.

مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟

العولُ هاهنا: هو الميل، من قولهم: عَال الميزان: أي مَالَ، وقولهم: عالَ في مشيته: إذا مال متبختراً، وعلى وجوب إيفاء النساء صدقاتهن وهي مهورهن، وأن المهور نحلة أي هبة، فمن نحل امرأته ما تستحق فيه الشفعة لا يشفع لأنه نحلة وليس عوض مال و[على] إباحة ما طبن به نفساً من المهور» انتهى.

﴿٤﴾ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ ﴿ءَاتُوا۟﴾ الزوجات مهورَهن حال كونها ﴿نِحْلَةً﴾ أو نُصِب على أنه مفعول مطلق على أن ﴿ءَاتُوا۟﴾ بمعنى انحلوا، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: اعطوا، و ﴿صَدُقَـٰتِهِنَّ﴾ مهورُهن و ﴿نِحْلَةً﴾ عن طيب نفس» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «والنَّحلة، والنِّحلة: عطية على سبيل التبرع» انتهى المراد. وفي (الصحاح): «والنُّحل ـ بالضم ـ: مصدر قولك: نحلته أنحله نحلاً، والنُّحلى: العطية على فُعْلَى، ونحلت المرأة مهرها عن طيب نفس من غير مطالبة، ويقال: من غير أن يأخذ عوضاً، يقال: أعطاها مهرها نِحْلَةً ـ بالكسر ـ» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «والنُّحل ـ بالضم ـ إعطاؤك الإنسانَ شيئاً بلا استعاضة، وعَمَّ به بعضُهم جميعَ أنواع العطاء» انتهى المراد. وقال: وفي الحديث: «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدبٍ حسنٍ» النُّحل: العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق، وفي حديث أبي هريرة: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين كان مال الله نُحْلاً» أراد: يصير الفيء عطاءً من غير استحقاق على الإيثار والتخصيص، انتهى.

وقولهم: من غير استحقاق أرادوا ليس أجرا على عمل إلا هذا القول الأخير، ولا يستقيم في المهر؛ لأنه مستحَق، وقد سماه الله أجراً في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠] فلا بُد من أن أحدهما مجاز إما نحلة وإما أجورهن، وسواءً كانت نحلة حقيقة أم مجازاً فقد أفاد وجوبها على الزوج لا في مقابل خدمتها له، وأن تكون بطيبة نفس لأنها حق من الله، وأن لا يحوجها إلى المطالبة كما هو شأن النحلة أن يكون الباعث عليها الرغبةَ.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ مما ءاتيتموهن ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيـًٔا﴾ سائغاً لا تنغيص فيه و ﴿مَّرِيـًٔا﴾ مثله تأكيد، أو هو بمعنى: نافعاً مغذياً، بأن ينهضم بسهولة، وهو معنى قولهم: ما يحمد عاقبته، واستعمل الأكل في المهر مع أنه قد يكون فضة أو ذهباً أو حرثاً؛ لأن المراد أخذه والانتفاع به سواء كان مأكولاً أو غيره واستعمال الأكل فيه مجاز، و ﴿هَنِيـًٔا مَّرِيـًٔا﴾ ترشيح.

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ جمع سفيه، قال في (الصحاح): «السفه: ضد الحلم» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل وفي الأمور الدنيوية والأخروية..» إلى قوله: «.. قال في السفه الدنيوي ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾» انتهى المراد.

وقال الشرفي رحمه الله، عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي عليه السلام: «وأصل السفه خفّة الحِلم، فلذلك وصف به الناقص العقل، ووصف المفسد بذلك لنقصان تدبيره، ووصف الفاسق لنقصانه عند أهل الدين والعلم» انتهى المراد.

وقال في (الكشاف): «السفهاء: المبذرون أموالهم، الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا يَدَيْ لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها» انتهى، وقوله: لا يدَي: أي لا طاقة.

وقال الشوكاني في (فتح القدير) في تفسير: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣] في تفسير السفاهة: «وهي رقة الحلوم، وفساد البصائر، وسخافة العقول» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وقال المرتضى عليه السلام - أي محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهم السلام -: السفهاء ها هنا فهم الأبناء والإخوة الذين أوجب الله على الآباء النفقةَ عليهم إذا كانوا فقراء، فأمر الله - عزَّ وجل - إذا علموا منهم الإفساد لها أن لا يدفعوا إليهم منها ما يفسدون أو به على معصية الله يستعينون، والسفهاء فهم سفهاء الرأي وسفهاء العقول الذين لا تمييز لهم ولا نظر في أمور نفوسهم» انتهى.

وظاهره: عموم السفه بالنقص الخُلقي، والسفه في الرأي بإهمال العقل، ويدل على الثاني قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣] وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠].

ومعنى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ أي قواماً لمعيشتكم وصلاحاً، وقياماً لكم بأن تسلموا الضعف الذي يقعدكم عجزاً عن العمل أو تحيراً عن وسيلة ما يسد الخلة، فكأن الإنسان يعتمد في قيامه على ماله، فإذا عدم عجز عن القيام أو لم يجد ما يقوم لأجله، فالمال قوام له.

ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ

وقوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ أي في أموالكم وذلك إذا سلمت التبذير أمكن أن تكون رأس مال ترزقونهم من أرباحه أو يُشترى بها مالٌ ترزقونهم من غلوله أو كرائه، فيكون لهم فيها رزق مع بقاء رأس المال، هذا إذا كانت نقداً، فأما إذا كانت حرثاً أو غيره مما له غلول فرزقهم فيها رزقُهم من غلولها مع بقاء رقاب المال.

والرزق: هو العطاء الجاري وهو هنا عبارة عن المأكول ونحوه من المتلفات، بقرينة قوله: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ وهذا فيمن تجب نفقته من القرابة وغيرهم، فأما من لا قرابة بينك وبينه، فالوجوب على قرابته إن أعسر، فأما من لا قرابة له فعلى المسلمين من مال المصالح، فالآية عامة للناس، وتخصيص القرابة بالآيات الأُخَر.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قولاً ليّناً رفيقاً، والمجانين داخلون في عموم الآية أو لاحقون بقياس الأولى؛ لأنهم أشد ضعفاً، ويترجح: أن الآية في سفهاء العقول الذين لا يستطيعون التدبير لمصالحهم فأما سفهاء الرأي المهملون لعقولهم مع صحتها فليسوا مظنة أن يقال فيهم: وارزقوهم فيها واكسوهم تبعاً لسفاهتهم، إنما يكون ذلك لمجرد الإعسار.

﴿٦﴾ ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ ﴿ٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ لتعرفوا رشدهم إن كانوا رشيدين

وسفاهتَهم إن كانوا سفهاء ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ للإختبار، والشرطُ الأول هو (إذا) والشرط الثاني وجزاؤه هما جواب الشرط الأول، وهما غاية الإختبار وشرط تسليم أموالهم إليهم، وبلوغ النكاح: بلوغ القوة والحاجة إلى النكاح وقت إنزال المني عند النكاح.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ أدركتم وعرفتم، وعبارة الإيناس تفيد: أن الرشد مطلوب كما هو شأن من لا يطمع في مال اليتيم، والرشدُ: صواب الرأي في التصرف في المال، ويكفي من الرشد القليل؛ لقوله تعالى: ﴿رُشْدًا﴾ فمتى دلَّ الإختبار على وجود معرفةٍ للرأي السديد في الإنفاق، وجب بعد بلوغ اليتيم تسليمُ ماله إليه كله.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ ﴿إِسْرَافًا﴾ مجاوزةً للحق الذي حدَّه الشرع، والبِدار: المبادرة والمسابقة إلى أكله قبل أن يكبر اليتيم، أي مبادرة كبر اليتيم ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا﴾ له مال يقيمه ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عن الحرام عن أكل مال اليتيم وغيره من الحرام وما يعاب أكله، والإستعفاف: التنزُّه، وفي (معلقة عنتره):

يخـبرك من شهد الوقيعـة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا﴾ محتاجاً حاجةً ماسَّةً لقُوت أو سترِ عـورة أو نحو ذلـك من الضروريات له أو لعائلته زوجته وأولاده الصغار، وحاصلها: مـا يبعث الخائف على ذمته وعرضه إلى أن يقترض أو يسأل فهو فقير ومفتقر ومحتـاج، ولا يقال له في اللغة غني ما دام هكذا، وهذا مـأخوذ مـن قولـه تعـالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة:٩١-٩٣] أي يجـدون مـا ينفقـون علـى أنفسهم في الجهاد راحلةً وزاداً.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] أي يحسب عندهم ما يسد خلتهم لأنهم لم يَسألوا، فهم عند الجاهل أغنياء عن الصدقة، فالفقير له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف.

والمعروف: ضد المنكر، وهو الإقتراض بقدر الضرورة، وأجرة ما عمل وليُّ اليتيم بنية الأجرة بقدر عمله، ولا يبعد أن من المعروف الفضلة التي لا تخزن في العادة ولا تنفق للبيع، مثل: فضلة الحقين من اللبن التي تعطى للجيران حيث لا يباع ولا يشترى لو عرض للبيع.

وقلت في الإقتراض: بقدر الضرورة؛ لأن قدر الضرورة لا إشكال فيه، أما الزائد فإنه ينكر على من لا يظن التمكن من القضاء.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ في وقت ذلك، كما مر ذكره ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ شهيدين ممن ترضون من الشهداء، يشهدان دفْعَ ما دفعتم إليهم حتى إذا جحد يتيمٌ شهدا عليه؛ لأن الوصي ونحوه إذا قال: قد دفعت إليك مالك وجحد اليتيمُ، كان المدعي هو الوصي، والمنكر هو الذي كان يتيماً ـ وهو صاحب المال ـ فالبينة على المدعي، وإذا لم تكن له بينة كانت اليمين على المنكر، فإن حلف بطلت دعوى تسليم ماله إليه وحكم عليه لليتيم بماله، فقد أرشد الله الأوصياء ونحوهم إلى الإشهاد لتبين بالشهادة براءةُ ذمتهم، وظاهر الأمر الوجوب.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية الكريمة على وجوب اختبار اليتامى بعد بلوغهم، فإن عرف رشدهم وجب تسليم أموالهم إليهم وإن لم يعرف رشدهم وجب على الولي حفظه،

وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

ويجب الإشهاد عليهم حين رد الأموال عليهم، وتجب العفة عن تناول أموالهم على من كان متولياً عليهم، ويباح للولي القريب الوارث حيث يجب الإنفاق عليه من قريبه أن يأكل بالمعروف وهو نفقة مثله من مثله من تجب عليه ممن يرثه» انتهى.

وقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح) أيضاً: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: إنما أطلق الله للفقير أن يأكل من مال اليتيم إلا بمنزلة الأجير، وإذا قام بالمال اشتغل به عن الكسب لنفسه وضاع، إلا أن يقتات ببعضه فأطلق الله له ذلك برحمته وعدله» انتهى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على مال اليتيم؛ لأنه هو العليم بالخفيات الذي لا يضل ولا ينسى، فيوكل إليه تعالى ما خفي من مال اليتيم، وإنما يبين على ما يدفع ويعترف به من مال اليتيم، أما ما ادعى إنفاقه على اليتيم فيكفي فيه يمينه إن اتهمه اليتيم وأمره إلى الله وهذا فيما خفي، فأما لو كان لليتيم بينة على مال جحده الوصي عمل بها، أو ادعى إنفاقه ولليتيم بينة أنه أنفقه لنفسه خيانةً عمل بها.

﴿٧﴾ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ الأب والأم، وما تركا ما خلفا بعد موتهما من الميراث ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الأصول والفروع: البنون وبنوهم وبناتهم وبنو بنيهم ما سفلوا من الذكور، وكذلك الأصول: الآباء والأجداد من طريق الآباء والجدات من طريقهم

وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٨﴾ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ

والأمهات وأمهاتهن، فالوالدان قد ذكرا والأجداد والجدات مع عدمهما كما هو مفصل في الفرائض، وكذلك من الأقربين الإخوة لأبوين أو لأب أو لأم وميراثهم في بعض صور الميراث.

وفي هذه السورة تفسير مواريث الوالدين والإخوة والأولاد، فصَّل فيها ما أجمل في هذه الاية المباركة التي أسست ميراث النساء ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَ﴾ وقد كانت الجاهلية لا يورثونهن فيما يقال، وآثارها باقية إلى الآن فعند بعض الجاهلين الظالمين يكون ميراث المرأة اسماً بلا مسمى، وقد جعله الله ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ فرضه الله لهن وأوجبه لهن.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الذين بينهم وبين الميت قرابة، والقسمة هي بين الوالدين والأقربين، ويلزم حضورهم لأنهم المتقاسمون فمع المقاسمة بينهم إذا حضر غيرهم من ذوي القرابة ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ من المقسوم والضمير له أو لما ترك.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وذلك تأنيس لذوي القربى الذين لا ميراث لهم، ورعاية لقربهم من الميت، وتمييز بينهم وبين الأجانب عنه، وتأنيس لليتامى أو سد خلة، وسد خلة للمساكين، والمروءة والعادات تحدد مقدار ما يرزقون، ولا حرج مع التزام المروءة وصلاح النية والسلامة من الشح، فلا يقال: لو كان واجباً لحدّه الله.

والأقرب: أن الأمر للورثة بقوله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ ﴿وَقُولُواْ﴾ فيعطون بعد القسمة ليعطي كل واحد من قسمه مارضي به، أو قبلها إن تراضوا

بقدر ما يعطون، والتكليف للبالغين، فأما الصغار فلا شيء عليهم؛ لأنهم غير مكلفين، ولم نعرف أن هذا حق في المال، وإنما هو من واجب المروءة والمواساة، والقولُ المعروف: القول الحسن الذي لا جفاء فيه كالترحيب بهم.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: وإنما أمر الله بالكلام الجميل لما فيه من سرور العباد والتألّف لهم إلى دين الله ذي العزة والأياد ولأن ذلك يدعو إلى المودة والإئتلاف وينفي ـ كذا ـ بعد الضغاين والإختلاف، فلم يرض عز وجل لأوليائه الكرام بطبائع الجفاة الكفرة اللئام الذين لا يلفظون بطيب من الكلام لما هم عليه من الخساسة وسفه الأحلام والتجبر والكبر على ضعفة الأنام والإحتقار والجفاء للمساكين والأيتام» انتهى.

قال الشرفي: قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: «دلت على جواز الصدقة بل على وجوبها لأولي القربى واليتامى والمساكين عند قسمة الميراث، وعلى أن يقال لهم قولاً [كذا] معروفاً» انتهى.

ولا يقال: قد نسخت الزكاةُ كلَّ إنفاق؛ لأن الله تعالى قد أوجب غير الزكاة في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] وقد أوجب الله الإنفاق في سبيله، وأوجب الخمس وغيره، فما يروى: «ليس في المال حق سوى الزكاة» إما عام مخصَّص بهذه الأوامر القرآنية وغيرها، وإما ضعيف لمخالفته القرآن.

وقد ذكره السيوطي في (الجامع الصغير): عن ابن ماجة، عن فاطمة بنت قيس: أنها سمعته ـ تعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول ـ: «ليس في المال حق سوى الزكاة» وقد روى هو وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك» وروي عن أنس حديث الأعرابي وفيه: «..لا أدع منهن شيئاً ولا أجاوزهن، ثم وثب» فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن صدق الأعرابي دخل الجنة».

والأولى: أن هذه الروايات منسوخة، وأنها كانت قبل نزول الآيات في وجوب غير الزكاة، وفي (الترمذي) (باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة) فأورد عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: سألت أو سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الزكاة فقال: «إن في المال لحقاً سوى الزكاة..» ثم تلى هذه الآية في (البقرة): ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧] أورده من طريقين: عن شريك، عن أبي حمزة ـ ثم قال الترمذي ـ: هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعَّف، انتهى.

قلت: هذا السند هو سند حديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة» في (سنن ابن ماجه): حدثنا علي بن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس: أنها سمعته تعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ليس في المال حق سوى الزكاة» فلا معنى للقدح في روايات (ليس) بأبي حمزة؛ لأنه في ضدها فالأولى تساقط الروايتين لتناقضهما واتحاد راويهما، والعمل بالقرآن لأنه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولأن أول القضاء ما في كتاب الله، فهو الناسخ كما حققته في (تحرير الأفكار).

وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ

﴿٩﴾ ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ ﴿وَلْيَخْشَ﴾ حذف مفعوله؛ لدلالة السياق عليه أي: ليخشوا الله.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾ عامٌّ في الأوصياء فعليهم أن يتقوا الله في اليتامى وأن يقولوا قولاً سديداً، وكذا فيمن حضر حين الوصية، فعليه أن يتقى الله ولا يأمر بخلاف الحق في الورثة بتحويزهم بإقرارٍ كاذب أو وصيةٍ غير جائزة، وكذا فيمن يتصل باليتامى أو بأموالهم ولو غير الأوصياء، فعليهم أن يتقوا الله في اليتامى فلا يظلموهم بضرب أو أذية أو دَعٍّ عن حق من حقوقهم أو تغريم بدعوى في مالهم أو دعوى دين على مورثهم أو غصب أو أي ظلم لهم ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لأنه رقيب عليهم وسيجزيهم بما ظلموا، وكذا في ضعاف الورثة من النساء والشيوخ والمرضى وغيرهم ﴿وَلْيَقُولُواْ﴾ لهم وفيهم ﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾ أي قولاً صواباً، ليس فيه ظلم، ولا أذى، ولا غلظة، ولا جفاء، بل قول معروف حق.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ هذا وعيد مؤكد لما تقدم من الأمر والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا..﴾ الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا..﴾ الآية، ولعل سبب التأكيد أمور:

الأول: أنهم كانوا يأكلون أموال اليتامى في الجاهلية وكانت عادةً يحمل عليها الحرص وحب المال، ومثل ذلك لا يتركه الحريص إلا بالتأكيد والوعيد.

الثاني: أن من اليتامى يتامى الشهداء والمؤمنين، وكان ذلك كثيراً في وقت النبي ﷺ لكثرة الشهداء والمؤمنين، ولا ينبغي إلا أن تحسن لهم الخلافة في يتاماهم فضلاً عن أن يظلموا.

الثالث: أن الحرص على المال شديد ثابت في الإنسان كالغريزة كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠] ومال اليتيم يكون معرّضاً للأخذ لضعفه عن الدفاع، مع مجاورة ماله لمال قرابته أو مخالطتها في الغالب، أو تزوج أمه بمن يسبب زواجها به لأكل ماله كما قد يسبب لظلم اليتيم باستخدامه بغير فائدة له، أو شغله بالخدمة عن قراءة ما ينفعه من الدروس والقرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي أن عاقبة ما يأكلونه أن يكون ناراً في بطونهم إما بنفسه كما في الكنز أو بسببه كما قال الشاعر:

إن لنا أحمرةً عجافاً يأكلن كل ليلة إكافا

أي ثمن إكاف، ويمكن اجتماع الأمرين فما أتلفه الظالم من كسوة أو غيرها من غير المأكول يكون ناراً في بطنه حقيقة أو بسببه، ولا إشكال أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجاز باعتبار الحال العاجلة؛ لأن المراد: أنه إنما سيكون ناراً في الآخرة في بطنه ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ناراً ذات لهب.

أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الإمام عليه السلام ـ يعني القاسم بن محمد ـ: دلت الآية الكريمة على تحريم أموال اليتامى، وأن أخذه ظلم من الكبائر» انتهى.

﴿١١﴾ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ هذا الخطاب لمن أشرف على الموت فهو نسخ لأمره بالوصية في قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠] وهذا مفهوم من توجيه الخطاب إلى المأمورين بالوصية ومن تسمية هذه الفرائض ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ في أولها وآخر الآية الثانية فهي مثل صبغة الله.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حيث كان الأولاد ذكوراً وإناثاً أو ذكراً وأنثيين أو ذكرين ومعهما أنثى أو أكثر، فالمراد: للأنثى مثل نصف حظ الذكر، وللذكر مِثلا حظِّ الأنثى، ولكن جعلت الأنثى أي نصيبها أصلاً تأكيداً لإرثها.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي لم يكن معهن ذكر حتى يكون لكل اثنتين مثل حظه بل انفردن فكنَّ نساءً، وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: ولو فوق اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وترك النص على اثنتين لظهوره من حيث: أن للواحدة الثلث إذا كان معها ابن وله الثلثان، ومن حيث أن الواحدة لها النصف إذا انفردت، فلا بد أن تكون طريقة الإثنتين

مثل طريقة ما فوق الإثنتين؛ لأنا لو جعلنا طريقتهن طريقة الواحدة لزم أن يأخذن المال كله لكل واحدة نصف، فإذا كان ما فوق الإثنتين ليس لهن إلا الثلثان، فبالأولى الإثنتان مع أن الله قد فرض للأختين الثلثين في آخر السورة فلا ينقص البنتان عنهما، لأن البنتين أقرب، فظهر: أن لهما الثلثين.

﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي نصف ما ترك أبوها، وانتهى التقسيم بين الأولاد فظهر منه: حكم الأولاد إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، وحكم ما فوق الأثنتين من البنات المنفردات، وحكم الواحدة، واكتفى بذلك عن ذكر ميراث الإبن إذا انفرد عن الإناث والإبنين والأبناء، كما اكتفى بذكر فوق اثنتين عن ذكر اثنتين؛ لأن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فالواحد له الكل، والإثنان فما فوق لم يمكن لهما أكثر من الكل، فللواحد الكل ولما فوقه الكل، ولأن الله قد نص في آخر السورة ما يفيد: أن الأخ يرث الكل فالإبن أقرب، وهذا إيجاز محكم.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أبويه لأبيه وأمه إن كان له ولد ذكر أو أنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ فإن ورثه مع الأبوين غيرُهما ـ ولا يتصور ذلك إلا إذا كان الزوج ـ فإنه ينقص ميراث الأم عن الثلث؛ لأن الزوج يأخذ ميراثه كما يأتي والباقي تأخذ الأم ثلثه وللأب الباقي.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ مع أنه لا شيء للإخوة مع وجود الأب لكنه يعود لهم إذا مات الأب قبلهم. قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «لا خلاف أن الأخت الواحدة لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس وأن الثلاث يحجبن، واختلفوا في الثنتين فكل الصحابة والتابعين على أنهما كالثلاث، غير ابن عباس فإنه لا يحجب بهما، وقد سقط خلافه بإجماع التابعين» انتهى.

وهذا مشكل ففي (مجموع الإمام زيد بن علي عليهم السلام) من حديث: عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: «وكان يحجب الأم بالأخوين ولا يحجبها بالأختين، وكان لا يحجبها بأخ وأخت، وكان لا يحجب بالأخوات إلا أن يكون معهن أخ لهن» انتهى.

قال في شرحه في (تتمة الروض النضير): «وقد قال زيد بن ثابت لما أنكر - أي ابن عباس - حجبها بالأخوين: إن العرب تسمي الأخوين إخوة كما أخرجه الحاكم وصححه وقال هو على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في (سننه) ثم احتج صاحب التتمة بقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ فقوله: ﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يصدق بالإثنين، وقد تناولهما ضمير الجمع، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾» انتهى.

ومن استعمال لفظ الجمع في المثنى قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] ولعله بسبب الإضافة إلى المثنى فأغنت، وهناك فرق بين استعمال الجمع في عموم الثلاثة فأكثر والإثنين وفي الإثنين وحدهما، فدخولهما في العموم لا يبعد أنه حقيقة بخلاف استعمال الجمع فيهما وحده، وهذا إذا كانا ذكرين، فأما إذا كانا أخاً وأختا أو أختين، فظاهر الحديث في المجموع: أنهما لا يحجبان، وما ذلك إلا لأنهما لا يسميان إخوة؛ لأن فيه جهتين من التغليب: تغليب الجمع على المثنى، والمذكر على المؤنث، واللغة لا تثبت بالقياس، فالعمدة ما صح من النقل.

قال في (تتمة الروض): «وقد روى في (الجامع الكافي): أن علياً، وابن مسعود، وزيد بن ثابت: كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس بالإثنين من الإخوة والأخوات» انتهى.

وقد نص الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) على حجب الأم بالثلاث الأخوات وحدهن، وقد جعل المؤيد بالله حجب الأختين وحدهما للأم بطريق النظر، واعتمد النظر في جعل الإثنين بمنزلة الجمع، قال: «لأن إلحاقهما بالثلاثة أقرب من إلحاقهما بالواحد» وبيَّن لذلك نظائر في المواريث، وطريقة المؤيد بالله عليه السلام أحسن من تحميل القرآن خلاف الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ أي هذه الفرائض إنما تكون للورثة من بعد وصية يوصي بها أو دين، وفي تنكير وصية إشعار بأنها غير الوصية المعهودة التي كانت شرعت للوالدين والأقربين؛ لأنها لو كانت هي المراد لقال تعالى: (من بعد الوصية).

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ أي على الميت ولا يشترط أن يوصي به بل يكفي ثبوته ولعله أخر الدين ليكون فرض الدين على الميت مستبعداً، إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن الحذر من تخليف الدين بقدر المستطاع، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ مطلقٌ يصدق بالقليل والكثير، حتى لو لم يبقَ من التركة إلا أقل القليل.

فأما الوصية فقد دل الدليل على أنها لا تزاد على الثلث، إلا بإذن الورثة أو إجازتهم، فإن زاد ولم يرضوا لم يصح منها إلا الثلث، ولعله يستفاد من قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ بخلاف الدين؛ لأنه واجب على الميت ولا خيار له فيه بعد ثبوته في ذمته، فيلزم الوفاء به كله.

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ الأرجح عندي: أن الخطاب للمورثين الذين خوطبوا في أول الآية، فالمشرف على الموت لا يدري من هو الأنفع له بعد موته أبوه أم ابنه ليقضي دينه وينفذ وصيته، ويرفق بمن يخاف عليه من الورثة الضعاف، فلا يدري من الأحق بميراثه، وعلى هذا فعليه أن يرضى بقسمة الله ويتكل عليها ولا يلتفت إلى عاطفةٍ لابنه أو أبيه.

أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يسأل عنها الميت في تفضيل وارث على وارث؛ لأنها قسمة الله التي فرضها وأوجبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو أعلم بما هو الخير من القسمة وما هو مقتضى الحكمة، وهو الحكيم الذي كل أحكامه على الحكمة.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ في هذه الآية وجّه الخطاب في أولها إلى الورثة وأغنى عن خطاب المورِّث قولُه تعالى في آخرها: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وتوجيه الخطاب إليه في الأولى المفيد للنسخ.

وقوله تعالى: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ يفيد: حجب الزوج بالولد مطلقاً ذكراً أو أنثى من هذا الزوج أم من زوج قبله أم كيف ما كان فليس له مع الولد إلا الربع.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ هذا

الخطاب للمورِّث، ولعل السرَّ فيه: أن المقصود توجيه الخطاب إلى الرجال لأنهم الحكام والقاسمون، والربع إذا تعددت الزوجات، أو الثمن يقسم بينهن، لأنه لم يقل: لكل واحدة الربع أو الثمن، كما قال: ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ في موضعين بل جعل لهن الربع أو الثمن من غير فرق بين حالة تعدد أو انفراد.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «المراد هنا بالإخوة: الإخوة لأمّ إجماعاً» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالكلالة من لم يرثه أب أو ابن، والكلالة: الإخوة والأخوات من الأم» انتهى.

وحاصله: أن الكلالة يطلق على المورث المذكور وعلى الإخوة أو الأخوات في حال عدم الأب والإبن، لكنه في الآية ظاهرٌ في الأول، أي: يورث حال كونه كلالة.

وفي (نهاية ابن الأثير): «وقيل: الأب والإبن طرفان للرجل فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه فسمي ذهاب الطرفين كلالة» انتهى، وفي (حاشيتها): «القائل هو القتيبي، كما في الهروي» انتهى.

وقوله: «فسمي ذهاب طرفيه كلالة» أي لأن الكلالة في الأصل مصدر من (كَلَّ) بمعنى: الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، كما في (المصابيح) و(الكشاف) وغيرهما، والمشهور في تفسير الكلالة: من لم يترك ولداً ولا والداً، أو ما خلا من الوالد والولد.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وروي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً سأله عن الكلالة؟ فقال: أما سمعت الآية التي أنزلت في الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ من لم يترك ولداً ولا والداً فورثته كلالة، وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: الكلالة ما خلا من الوالد والولد، وذلك الصواب عندنا» انتهى.

وقد احتج الإمام الهادي عليه السلام لذلك بالقرآن في (باب القول في ميراث الكلالة) ولا تضارب في التفسير، فكلال القرابة أي ضعفها يصبح نسبته إلى الميت وإلى وارثه القريب، فكلاهما كلالة، وإنما يختلف التفسير باختلاف السياق الدال على قصد كلالة قرب الموروث، أو كلالة قرب الوارث.

وقال في (لسان العرب): «والكلالة: الرجل الذي لا والد له ولا ولد، ثم قال: والعرب تقول: لم يرثه كلالةً، أي لم يرثه عن عُرض بل عن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثتم قناة الملك غير كلالة ... عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

ثم قال: وقال الليث: اعلم أن الكلالة في الأصل هي مصدر كَلَّ الميّت، يكِلّ كلاً وكلالة فهو كَلٌّ: إذا لم يخلف ولداً ولا والداً يرثانه هذا أصلها، قال: ثم قد تقع الكلالة على العَين دون الحدث، فتكون اسماً للميت الموروث وإن كانت في الأصل اسماً للحدَث على حد قولهم: هذا خلق الله: أي مخلوق الله، قال: وجاز أن تكون اسماً للوارث على حد قولهم: رجل عدل: أي عادل، وماء غور: أي غائر..» إلخ.

وفي (لسان العرب) حاكياً عن الأزهري: «ودل قول الشاعر أن الأب ليس بكلالة وأن سائر الأولياء من العصبة بعد الولد كلالة، وهو قوله:

فإن أبــا المــرء أحـمـى لـــه   ومولــى الكــلالـة لا يغضب

أراد: أن أبا المرء يغضب لـه، إذا ظُلـم، ومـوالي الكلالـة وهـم الإخـوة، والأعمام، وبنو الأعمام، وسائر القرابات لا يغضـبون للمـرء غضـب الأب انتهى، وفيه حكاية عن ابن بري وقال عامر بن الطفيل:

وما سودتني عامـر عن كلالـة   أبى اللــه أن أسمـو بـأم ولا أب»

انتهى.

وقال ابن الأثير في (النهاية) حاكياً عن الهروي: «قد تكرر في الحديث ذكر الكلالة، وهو أن يموت الرجل و لا يَدَع والداً ولا ولداً يرثانه» انتهى.

وفي (الصحاح): «الكَلُّ الذي لا ولد له ولا والد، يقال منه كَـلّ الرجـل يَكِلّ كلالةً، والعرب تقول: لم يرثه كلالـةً، أي لم يرثـه عـن عُـرُض بـل عـن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثـتـم قنـاة الـملك غير كلالة   عن ابني مناف عبد شمس وهاشم»

انتهى.

والتعبير في تفسير (الكلالة) بلفظ: نفي الوالد والولد، هو في (القـاموس) ولم أجد التعبير بعدم الأب والإبن، إلا في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) وهو كاف، إلا أن الشهرة بخلافه أرجـح، كمـا حكيـت عـن أحكـام الإمـام الهادي عليه السلام وعن (لسان العرب) و(الصحاح) ومثله في (القاموس).

وفي (تفسير الطبري): «واختلف أهل التأويل في الكلالة، فقـال بعضـهم: هي ما خلا الوالد والولد، ثم رواه عن أبي بكـر وعمـر بأسـانيده، ثـم رواه عن ابن عباس بأسانيده عن سليم بن عبد، أنه قال: ما رأيتهم إلا قـد اتفقـوا

أن من مات ولم يدع ولداً ولا والداً أنه كلالة رواه بأسانيد، ثم رواه عن الحكم وابن زيد، ثم رواه عن قتادة والزهري وأبي إسحاق، قال: الكلالة من ليس له ولد ولا والد..

ثم قال: وقال آخرون: الكلالة ما دون الولد، ثم قال: وقال آخرون: الكلالة: ما خلا الوالد، هكذا قال، ولكن روى في إسناد القول بذلك عن شعبة قال: سألت الحكم عن الكلالة؟ قال: فهو ما دون الأب، ثم روى بإسناده عن ابن زيد قال: عن ابن زيد: الكلالة: الميت الذي لا ولد له ولا والد والحي كلهم كلالة، هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة» انتهى.

نعم يمكن تفسير (الوالد) بالأب وحده وإن أمكن دعوى العموم للأم في قوله: لا والد له بطريقة التغليب لكن الأم تسمى والدة ولا تسمى والداً والتغليب خلاف الأصل، ألا ترى أنه قد غلب عليها اسم الأب في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولا يلزم دخولها في نفي الأب، فكذا في نفي الوالد، ويؤكد هذا: أن ذكر الأب قد ورد في قول الشاعر:

وما سودتني عامر عن كلالة   أبى الله أن أسمو بأمٍ ولا أب

فهو ظاهر: في أن الكلالة ما عدا الأب دون الأم، وقد وقع التصريح به في بعض المواضع، كما مرَّ عن الحكم، وكما روى ابن جرير في (تفسيره) بسنده عن قتادة: «قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ والكلالة: الذي لا ولد له ولا والد لا أب ولا جدّ ولا ابن ولا ابنة فهؤلاء الأخوة من الأم» انتهى.

فما بقي الإشكال أنه سواء قيل: لا والد أو لا أب، وبقي الإشكال في قولهم: ولا ولد، فالولد يعم الذكر والأنثى، وقد قال تعالى في الكلالة:

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ فالأقرب: أن البنت تخرج الإخوة عن الميراث بالآية وإنما يرثون بالحديث، أعني الإخوة لأبوين أو لأب من حيث أنهم عصبة يأخذون ما أبقت السهام، ولا تعارض لأن هذا فيما أبقت السهام والآية فيما ترك الميت جملة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ أي الأخ أو الأخت ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد أو واحدة ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ لا يزادون عليه بسبب زيادة عددهم إن زادوا على اثنين، قالوا ويقسم بينهم بالسوية؛ لأن الله سوى هنا بين الأخ والأخت، فجعل لكل واحد منهما السدس، ولأنه في موضع التفضيل ينص عليه فقد ذكره في الأولاد وذكره في الإخوة أي لأب وأم أو لأب، ولم يقتصر على أحدهما فكان تركه هنا مرجحاً للتسوية، وهذا الميراث كغيره ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أما المضاررة بالوصية، فهي: الزيادة على الثلث، وأما المضارة بالدين، فهو: بالتبرع في المرض المخوف والغبن الفاحش المسبب للدين، وكلاهما يتصور في اشتراء ما يتبرع به بثمن دين، والغبن في اشتراء ما يُغبن فيه غبناً فاحشاً بدين، وكذلك في النكاح بأكثر من مهر المثل في المرض المخوف.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للزوجين والإخوة للأم، كما أوصى للأولاد فوصية الله أوثق من وصية الميت للورثة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ فحكمه الحق وفرضه الواجب؛ لعلمه بوجوه الحكمة، وقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾ يحتمل: أنه ذكر هنا إشارةً إلى حلمه ـ تعالى ـ عما سبق في الجاهلية من ظلم النساء واليتامى

ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن

وغير ذلك، أو إلى أنه يقسم الميراث كما فرضه الله، من غير فرق بين البر والفاجر، إذا وحدت الملة الوارث والموروث، ولم يكن مانع من الإرث منصوص عليه كالقتل.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ الحدود المذكورة من أول السورة في اليتامى والزواج والميراث وغير ذلك كلها ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الذي له الملك يجب أن يطاع ولا يتعدى حد من حدوده ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في المواريث وسائر الحدود المذكورة وغيرها من أمر الله ونهيه ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾ بساتين غليظة تجن أمكنتها في جنة النعيم، خالداً لا يموت باقياً فيها ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ والظفر والفلاح ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ لما فيه من الملك الكبير والنعيم الدائم ولما يستلزمه من الزحزحة عن النار.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بقطيعة رحم، أو أي مخالفة في حدود الله المذكورة في السورة أو غيرها ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ في المواريث أو غيرها ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا﴾ وهي نار جهنم ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ باقياً فيها لا يموت ﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لما في جهنم من أنواع الإهانة بالعذاب المتنوع.

شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ

﴿١٥﴾ ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فالزانية لا تجلد حتى يشهد عليها أربعة شهداء، وفائدته: أن لا يعمل بالظن وأقوال الناس التي يتناقلونها حتى يعتقدوا أنها زانية، بل لو فرض أنها زانية في الواقع فلا حكم لذلك حتى يشهد عليها أربعة من المسلمين، فأما الإقرار فإنما يثبت حكمه بالدليل الخاص.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وكذلك قول الله حين يقول: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فكان هذا أول ما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في أمر الزانيين حتى أنزل عليه ما أنزل من الحدود، فكان ذلك السبيل الذي ذكر الله أنه يجعله» انتهى. وفيه تفسير الفاحشة وتفسير السبيل، وقد فسر البعض الفاحشة هنا بأنها جريمة المساحقة.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي يأتيان الفاحشة فآذوهما كالتعزير والإهانة وقد فسروهما بالزاني والزانية، ولكن عطفه على قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ مع تفسيره بالزواني يُبعِّد ذلك، والأقرب: أنه في اللوطيين للمقابلة بهما للإناث، والمذهب: أنه يُحَد حد الزاني، وجعلوه داخلاً في حد الزنا، وفي الحديث: «اقتلوا الفاعل والمفعول به».

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

والأولى: أن هذا ليس من النسخ، بل إضافة إلى الأذية القتل، أو أن الجلد والقتل نوع من الأذية، فهو من الإطلاق والتقييد لا من النسخ؛ لأن هذه الآية لم تعين نوعاً من الأذى.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾ فاتركوا أذيتهما من بعد التوبة والإصلاح لخروجهما عن استحقاق الإهانة بالتوبة، ولعل هذا قبل وجوب الحد بشهادة الشهود فأما بعده فلا تتحقق التوبة والإصلاح؛ لأن الخوف من الحد يبعث على إظهار التوبة، والأقرب: أن هذا كان قبل شرع الحد بالجلد والرجم، فكانت الأذية تجب حتى التوبة، وإذا سارع إلى التوبة سقطت الأذية، ولا يسقط الجلد بالتوبة لأنه حكم آخر وإن كان قيداً للأذية قبل سقوطها، لأن الله أوجبه إيجاباً مؤكداً ولم يستثن التائب منه، وشرعه شرعاً مستقلاً لا وصفاً للأذية، فلا يسقط بسقوط الأذية بغير الحد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿تَوَّابًا﴾ رجّاعاً من إيجاب العقوبة إلى العفو ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده التائبين إليه توبة نصوحاً.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ بيَّن تعالى من يتوب عليه وأوجب على نفسه أن يتوب عليه، لأن الحكمة تقتضي ذلك، مع كرمه ورحمته وهو من يتوب إلى الله ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ أي من وقتٍ قريب، وهو ما دام في دار الخيار فتاب مختاراً قبل حضور الموت، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «كل شيء دون الموت فهو قريب» انتهى.

وقد بيَّن تعالى في الآية التي بعدها: أن ما كان عند حضور الموت أو يوم القيامة فهو من بعيد، والقرب والبعد اعتباريان، فلما كان وقت حضور الموت لا تقبل فيه التوبة اعتبر وقتاً بعيداً؛ لأنه تأخر عن وقت قبول التوبة، و﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: الذنب.

وقوله تعالى: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي يعملونه بجهالة وسفاهة، وعدول عن اتباع العقل والحكمة، وهو يسمى في اللغة: جهلاً، وجهالةً، قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن علي عليه السلام: «إذا اعتكف الرجل فلا يرفث ولا يجهل..» إلخ، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه بعمد».

وفائدة هذا القيد: دفع توهم أن الله يتوب عليه بسبب عمل السوء؛ لأنه جهالة لا يصلح إلا أن يكون سبباً للعقوبة، وإنما ذكره ليرتب عليه ذكر التوبة من العبد التي هي سبب توبة الله عليه والعفو عنه، فأحكم الحاكمين لا يحب عمل السوء ولا يرضاه لعباده لأنه جهالة لا يرضاها حكيم، فما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون ليغفر لهم» بعيدٌ من الحسن، ظاهره: الضعف؛ لأن مثل هذا التعبير لا يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي ظاهره الترغيب في الذنب، والله تعالى أرسله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:٤٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يتوب من قريب ومن لم يتب، وعليماً بمن يستحق التوبة عليه ومن لا يستحق ﴿حَكِيمًا﴾ لا يتوب إلا على من يستحق ذلك، لأن مقتضى عزته وحكمته أن يعذب من لم يتب.

يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

﴿١٨﴾ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تتكرر منهم، ويصرون عليها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كفارٌ لنعمة الله بالمعاصي والإصرار عليها حتى الموت، هذا أحد معاني الكفر والسياق يُعَيِّنُه، لأنه في مقابلة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ فالسياق في المعاصي مطلقاً لا في كفر الجحود.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم لم يتوبوا من قريب، وقد بسط الناصر عليه السلام في (البساط) الإحتجاج على أن أهل الكبائر المصرين عليها يُسمَّون كفاراً فراجعه.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «أصل ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا، فأبدل الدال تاءً، وقيل: أصله من العتاد وهو عُدَّة الرجل، والمعنى: هيَّأنا لهم عذاباً أليماً موجعاً» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب الأصفهاني) وإذا كان من العتاد فهو تهكُّمٌ بهم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران:٢١].

قال في (الصحاح): «العتيد: الشيء الحاضر المهيَّأ، وقد عتّده تعتيداً وأعتدَه اعتاداً: أي أعدَّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف:٣١] ثم قال: والعتاد: العدة، يقال: أخَذ للأمر عُدَّته وعَتَاده: أي أهبته وآلته» انتهى المراد.

ويظهر من قوله: «الحاضر المُهيَّأ» أن فيه معنى الإعداد، ولكنه مع ذلك يفيد الحضور كما يفيده الإعداد، ومثله في (لسان العرب) وذكر الخلاف:

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

«فقيل: أعد يُعِد إنما هو اعتد يعتَد، ولكن أدغمت التاء في الدال، وأنكر الآخرون، فقالوا: اشتقاق أعد من عين ودالين؛ لأنهم يقولون: أعددناه فيُظهرون الدالين..» إلى قوله: «قال الأزهري: وجائز أن يكون عتَد بناءً على حِدَةٍ وعَدَّ بناء مضاعفا، قال: وهذا هو الأصوب عندي» انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ وراثتهن كرهاً منهيٌّ عنها كيفما كانت، *وتتصورها*: في أن يتزوجها قريبها الذي تحل له أي ابن عمها وهي كارهة له غير راضية بزواجه وهو يريد بتزوُّجها أن يرثها إذا ماتت ما يرثه الزوج، وهذا يتصور إذا كانت صغيرة لَمَّا تبلغ، وكذا إذا زوجها إياه أبوه وهو صغير ولكن أباه يريد أن يرثها لو ماتت عن ابنه ثم مات ابنه وهذه بعيدة.

الصورة الثانية: أن يحبسها وليُّها عن الزواج مع وجود الخاطب الذي ترضاه وترغب فيه، فيحبسها وليها عن الزواج ليبقى له ميراثها كله ولا يكون للزوج النصف أو للزوج وأولاده منها الكل او الأكثر، فإذا منعها الزواج كرهاً ليرثها الكل مثلاً، كان قد ورثها كرهاً إذا ماتت في حياته ولم تتزوج.

الصورة الثالثة: أن يتزوج رجل امرأةً فيكرهها وتكرهه ويحبسها وهو يسيء عشرتَها ويظلمها، ولكنه لا يطلقها ليرثَها إن ماتت قبله حيث يؤمل أنها تموت قبله لأنها أكبر سناً أو لأنها ذات مرض أو أمراض تتعاهدها في أكثر الأوقات، فهذه ثلاث صور داخلة في عموم الآية، لأن المراد: النهي عن إكراههن على سبب إرثهن بأي صورة.

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ يأتي تفسير هذه الجملة في كلام المرتضى عليه السلام، قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول المرتضى عليه السلام جواباً عمَّن سأله عنها؟ معنى ﴿أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ فهو ما يفعله كثير من الناس تكون عنده المرأة يكرهها ولا يحبُّها، ويكون لها مالٌ وسَعَة فيحمله حب المال والرجا لموتها على أن لا يطلقها، وهو غير محبٍّ لها ولا قائمٍ بما أوجب الله عليه في أمرها، بل هو ظالم لها غير مقيم لما أمر الله سبحانه فيها، فأخبرهم ـ عزَّ وجل ـ أنه لا يُحِل لهم ذلك، ولا أن ينبغي أن يظلموهن.

وأمَرَهم: أن يقوموا بما أمر الله من حقهن، أو ينفذوا فيهن ما أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ من سراحهن، ولا يحبسوهن ظلماً رجاءً منهم لورث أموالهن، فمنعهم الله من ذلك وزجرهم عنه، وكذلك ـ أيضاً ـ ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ فالعَضْلُ لهن: هو إمساك الرجال لهن من غير رغبة ولا محبة، ولا قيامٍ بما أمر الله ـ عزَّ وجل ـ به فيهنَّ، فيكون عند ذلك قد ظلمها في أخذه بما يعمل فيه من التضييق عليها حتى أخذ ما أعطاها، وهذا يفعله كثير ممن لا يتقي الله إذا كره المرأة وكان عليه لها مهر خشي إن طلقها أن تطالبه به وهو فليس في قلبه لها محبة فلزمها ليتعبها عند ذلك بالتضييق عليها، والخصومة لها، والإعتزال لفراشها، ويتبع كل أمر يعلم أنه يغمها، حتى يضطرها بفعله هذا إلى أن تفتدي منه، فإذا فعل ذلك فاعل فقد ظلم وجار، وأخذ ما لا يحل له أخذه، ولا يجوز عند الله سبحانه فعله».

قال عليه السلام: «والفاحشة: فهي كل أمر استُفحِش من الفعل واستقبح من ذلك إذا كانت مخالفة للدين مضادة للمؤمنين، ومن ذلك: إذا لم تقم بما

أوجب الله عليها من حقه، وفعلت في أمره ما ذكرنا أنه يفعل في أمرها من القبيح، ومن الفاحشة: التبرج، وإتيان ما حرم سبحانه، فإذا فعلت ذلك وطلبت المباراة وردّ ما أخذت منه، حل له أن يأخذه إذا كان منها لا منه.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فذاك أمر منه سبحانه ـ عزَّ وجل ـ لأزواجهن بالمعاشرة لهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف: فهو الحسن الجميل من الأمور الذي لا ظلم فيه ولا جور.

معنى ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فهو فإن أبغضتموهن وسئمتموهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يقول: (عسى) في هذه النساء من البركات واللطف وما يرزق الله منهن من النسل المبارك التّقيّ الذي يسر والده ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لم تعلموا به أنتم بعد، وسيكون منهن ما تسرون» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يلحق به بالأولى إذا أراد أن يذهب بكل ما آتاها من مهر ونفقة، وبالأولى إذا أراد الزيادة على ذلك، والفاحشة: المعصية لله الزائدة في قبحها كالزنا والقذف، والمبيِّنة: ما تبين فحشها واتضح وثبتت بالمشاهدة، أو البينة المعمول بها شرعاً، والمعروف: خلاف المنكر، وخلاف ما يستنكر ويعاب على الزوج في عرف بلده.

﴿﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تعتقدوا الخير في فراقهن، فمن الأمر القريب أن ﴿يَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إن أمسكتموهن، وهذا إذا كن صالحاتٍ لا فاجرات يبغضن لفجورهن المعلوم، وقد روي نهي عن الحمقاء، ولعله فيمن لم يكن قد تزوجها، فأما من قد تزوجها فيمسكها ما تمسكت بالدين وصبرت على ما في نفسها من الأوهام وسوء الظن، فإن أداها الحمق إلى الأذية لزوجها بغير حق، والتعدي لأجل سوء الظن، كانت من أهل

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٣٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ

الفاحشة البينة لأن الظلم قبيح، وظلم المرأة لزوجها أقبح لما له من الحق عليها، وهذا إذا أفرطت في بذاءة اللسان، وأفحشت في السباب أو خاصمته، وإلا فالأحوط الجاملة حتى تفتدي نفسها، أو الطلاق بدون عوض.

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ القنطار: مال كثير، وقد تقدم ذكره في (سورة آل عمران) وذلك: أن الزوج إذا رغب في إبدال زوجةٍ مكان التي قد تزوجها وقد آتاها مهراً كثيراً، ثم رغب في طلاقها وإبدالها، فإنه يرغب في استرجاع مهرها ليعطيه للأخرى، فهذا الموضع *الثالث* الذي ينهى فيه عن ظلم النساء، بسبب الحرص على المال في هذه الآيات.

والأول: إرثهن كرهاً.

والثاني: عضلهن لأخذ بعض المهر.

وذكر القنطار هنا؛ لأنه مظنةُ طمعِ الزوج فيه لكثرته ورغبته عنها وحاجته إليه للثانية. فالمعنى: ولو قنطاراً، فليس له أن يسترجعه لكثرته، وتخيّله أنها ظالمة له بأخذه كله وأنه جور عليه، ومثله ما دونه أو أكثر منه؛ لأنه كله ظلم.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا﴾ لعل البهتان هنا دعوى أن له حقاً فيه أو أنها لا تستحقه أو نحو ذلك من الكذب الذي يستعمله الزوج ليبرر في الصورة أخذه ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ إثماً بيّناً واضحاً؛ لأن الزوج ظالم لها بأخذ مهرها وليس له فيه أي حق.

وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ

﴿٢١﴾ ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ ﴿كَيۡفَ﴾؟ سؤال استنكار، ودلالة على أنه لا وجه لذلك. ﴿أَفۡضَىٰ﴾ صار في الفضاء وهو المكان الخالي ﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ أي صار إليها أو صارت إليه في المكان الخالي الذي يصلح فيه الجماع لخلوه من الناس ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وهو العقد الموجب لحقوقهن، ومن جملتها ما فرض لهن من مهر، فقد تناوله الميثاق الغليظ، وهو غليظ؛ لعظم حرمته، ووجوب الوفاء به، وقبح التهاون به.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «دلت الآية الأولى: على تحريم تزويج من يحل تزويجها من بنات القرائب نحو بنات العم وهن كارهات، وعلى تحريم تزويج امرأة القريب التي يحل تزويجها بعد موته وهي كارهة، وعلى وجوب معاشرتهن بالمعروف، ومن العشرة: النفقة، والكسوة، وعلى استحباب إمساك من كُرِهت من النساء؛ لما يجعل الله في ذلك من الخير الذي ذكره الله سبحانه.

ودلت الآية الثانية: على إباحة تبديل الزوجة بمن شاء ممن يحل تزويجها من أخواتها أو غيرهن، وعلى تحريم ظلمهن شيئاً من مهورهن، ذكر هذا إمامُنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام» انتهى.

وبعد بيان جملة من حقوق النساء في هذه السورة، بيّن تعالى جملة ممن يحرم منهن، فقال تعالى:

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ في الجاهلية

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

قبل الإسلام، ونكاحُها: تزوّجها وتسريها، أي اتخاذها للوطء بالملك ودخوله في النكاح، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فهو اسم لما يستحل به الوطء من زواج، أو ملك للتسري.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي نكاح من قد نكحها الأب ﴿فَٰحِشَةً﴾ معصية زائدة في قبحها ﴿وَمَقْتًا﴾ بغضاً شديداً من الله لفاعله، أي سبب بغض ﴿وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ طريقاً لقضاء النكاح، أي أنه سيءٌ مذموم، والآباء يتناول الأجداد، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: في هذه الآية الكريمة تناولُ ما نكح الآباء من قِبَل الأب، ومن قِبَل الأم من الأجداد، ومن قِبَل الأب من الرضاعة، ومن قِبَل الأم من الرضاعة» انتهى.

﴿٢٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ حرم الله نكاح (الأم) التي ولدتك، و(البنت) التي ولدتها ولو من الزنا، كما تحرم الأم من الزنا، و(الأخت) وهي تكون أختاً من الأم أو من الأب أو منهما، و(العمة) أخت الأب لأبويه أو لأحدهما، و(الخالة) أخت الأم لأبويها أو لأحدهما، و(بنات الأخ) كذلك و(بنات الأخت) كذلك.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في هذه الآية الكريمة: «فحرم الله تبارك وتعالى الأمهات، فحرم بتحريمهن كل من ولدهن من الجدات وإن علون فارتفعن وتباينّ في الولادة للأمهات فافترقن، لأنهن جدات والجدات فهن أمهات، وحرم الله تبارك وتعالى على المؤمنين بناتهم وما ولدن من الأولاد وأولاد الأولاد وإن سفلن في الولادات، فهن بحكم الله للأجداد بنات لا يحل لهم نكاحهن بما حرم الله من نكاح أمهاتهن.

وكذلك حرم ـ جلَّ جلاله عن أن يحويه قول أو يناله ـ الأخوات فحرم بتحريمهن بناتهن على عموماتهن وما ولدن بناتهن من البنات، وبنات البنات وإن بعدت مواليدهن على إخوة جداتهن؛ لأنهم وإن تباعدوا منهن أعمامهن، والحكم فيهن وإن سفلن بالتحريم على أعمام جداتهن كحكم أخواتهم اللاتي نطق الكتاب بتحريمهن عليهم؛ لأنهن في المعنى كبناتهن إذ هن بنات أخواتهم.

وكذلك حرم الله العمات والخالات؛ لأنهن في عداد الآباء والأمهات، وحرم الله تبارك وتعالى بنات الإخوة وبنات الأخوات؛ لأنهن من العمومة كالبنات تعظيماً منه لقريب القرابات، وتأكيداً منه على عبيده في صلة الولادات، فصار حكم بنت أخي المسلم كحكم بنته عليه وكذلك حكم بنت أخته لديه» انتهى المراد.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ أي التي صارت أمّاً لأنها أرضعتك، وهذا دليل على تحريمها ولو لم ترضع إلا مرة؛ لأنها قد أرضعت، فهو ناسخ لما روي من عشر ثم خمس رضعات محرمات، أعني: أنه ناسخ للعدد؛ لأن الحكم هنا عُلِّق على الرضاع لا على عدد من الرضاع.

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «ثم حرم سبحانه الأمهات المرضِعات لمن أرضعن من البنين والبنات على البنين وأبناء البنات والبنين وإن سفل ميلادهم؛ لأنهن بإرضاع الآباء وإن بعدن أمهاتٌ للأبناء» انتهى.

قلت: دخول ذرية الرضيع هو بالسنة، والأخت من الرضاعة يعم: الأخت التي رضعتَ من أمها ولو لم ترضع هي من أمك، ويعم: الأخت التي رضعت هي من أمك ولو لم ترضع من أمها، ويعم: الأخت التي رضعت أنت وهي من امرأة ثالثة غير أمك وغير أمها فهي أمكما من الرضاعة وأنتما أخوان من رضاعها، ولا فرق بين من رضعت معها في وقت رضاعها أو قبلها ولو قبل وجودها أو بعدها ولو بعد فطامها ولو بعد فطام من بعدها من أخواتها أو إخوتها، فأنتما أخوان إذ قد حصل الرضاع.

ولا يعتبر في الرضاع اجتماع على لبن ولادة واحدة، فأما الأخت من الأب أي من زوج المرضعة الذي أرضعت من اللبن الحادث بعد علوقها بولد له ففيها خلاف لأنها لم ترضع من أمك ولا رضعت من أمها ولكنها بنت زوج المرضعة، فإن كانت تسمى في اللغة أختاً فقد دخلت في العموم في قوله تعالى: وأخواتكم من الرضاعة؛ لأن سبب أخوَّتها هو الرضاع من امرأة أبيها أو من امرأة أبيك أو من امرأة زوج مرضعتك، بأن رضعتَ من امرأة ورضعتْ هي من ضرَّتها، فإذا كان زوج المرضعة يسمى أباً وبنته تسمى أختاً من الأب في اللغة دخلت في عموم الآية، وإلا فتحريمها بالسنة، وظاهر الكشاف دخولها في الآية.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فهي محرمة على الإطلاق، ولا يشترط في تحريمها الدخول ببنتها؛ لأن تحريمها مطلق غير مشروط بالدخول.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام) قال: «حرم الله من النسب سبعاً ومن الصهر سبعاً، فأما السبع من النسب: فهي: الأم، والإبنة، والأخت، وبنت الأخ، وبنت الأخت، والعمة، والخالة، والسبع من الصهر: فامرأة الأب، وامرأة الإبن، وأم المرأة دخل بالإبنة أو لم يدخل بها، وابنة الزوجة إن كان دخل بأمها وإن لم يكن دخل بها فهي حلال، والجمع بين الأختين، والأم من الرضاعة، والأخت من الرضاعة» انتهى.

وظاهره: التفسير للآية؛ لقوله في أول الكلام: «حرم الله..» ولأنه لم يذكر غير من في الآية وجعل لغيرهن كلاماً آخر، ولم يدخلهن في هذا الحصر سبعاً وسبعاً. وفي (أمالي أحمد بن عيسى) [٢/٩٦٨] من تخريجها (رأب الصدع) بإسناده: عن الحكم بن عتيبة: أن رجلاً سأل ابن مسعود بالكوفة عن رجل تزوج امرأة فماتت قبل أن يدخل بها أيحل له أن يتزوج أمها؟

قال: فكأن ابن مسعود رخّص له فيها، فتزوّجها فولدت له، فعرض في نفس ابن مسعود منها شيء فلقي علياً فسأله فقال: «لا تحل له» فقال: أليس الله يقول: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾؟ فقال علي: «هذه قد فسرت وهذه مبهمة» قال: فرجع ابن مسعود ففرق بينهما، انتهى.

وفي (الأمالي) أيضاً هناك [ص٩٦٩] بسنده: عن السدي في قوله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ قال: قال علي بن أبي طالب: «إذا تزوج الرجل الجارية دخل بها أو لم يدخل بها، لم تحل له أمها لأنها محرمة مبهمة في كتاب الله عزَّ وجل» وفيها هناك في [الصفحة] بسنده: عن ابن عباس قال: هي مبهمة ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾» انتهى.

ومعنى (مبهمة): ليس فيها تفصيل بين المدخولة بنتها وغير المدخولة بنتها، وهذا واضح ولا يصح دعوى أنها مقيدة مع الربائب؛ لأن ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ هي لابتداء نسبة الربيبة، وبيان مصدر هذه النسبة مثلها في قولك: هو أخي من أبي أو من أمي أو منهما لبيان مصدر الأخوة، ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ النسبة بينهن وبين الزوج ولا معنى لأن يقال: هي أمها منها، أي أم البنت من البنت، فجعل القيد راجعاً إليها تمحل ودعوى خلاف الظاهر.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الربيبة: هي بنت الزوجة من غيرك، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فربيبة الرجل: بنت امرأته، و﴿فِي حُجُورِكُم﴾ معناه: في بيوتكم» انتهى.

وفي (الصحاح): «وحَجر الإنسان وحِجره ـ بالفتح والكسر ـ والجمع: حجور» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «ويقال: فلان في حِجر فلان، أي في منع منه عن التصرف في ماله وكثير من أحواله، وجمعه: حجور، قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ وحِجر القميص ـ أيضاً ـ اسم لما يجعل فيه الشيء فيمنع» انتهى.

لعله يعني بقوله: في منع منه، أي في حماية منه وحفظ، فلعل (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) أراد به هذا؛ لأنهن إذا كنَّ في البيوت كنَّ في الحماية. وقال (صاحب القاموس): «ونشأ في حِجره: أي في حفظه وسَتره» انتهى.

وفي (لسان العرب): حَجر الإنسان وحِجره ـ بالفتح والكسر ـ حضنه، وفي (سورة النساء): ﴿فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ واحدها حَجر ـ بفتح الحاء ـ يقال: حَجر المرأة، وحِجرها: حضنها، والجمع الحجور، وفي حديث عائشة (رض): «هي اليتيمة تكون في حَجْر وليّها» ويجوز أنه من حَجْر الثوب وهو طرفه المتقدم؛ لأن الإنسان يرى ولده في حِجره، والولي: القائم بأمر اليتيم ـ ثم قال في موضع آخر ـ: ونشأ فلان في حَجر فلان وحِجره، أي حفظه وستره» انتهى.

قال في (الكشاف): «فإن قلتَ: ما فائدة قوله: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾؟ قلت: فائدته التعليل..» إلخ.

يعني: أنه ليس للتقييد وإخراج من ليست في الحجر، لكنه سواء كان للتعليل أو للتقييد قد صير الكلام خاصاً بمن في الحجر، ويحتاج من ليس في الحجر إلى دليل لتحريمها.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ الحلائل: الزوجات، الواحدة حليلة، والزوج حليل ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لتحقيق الأبناء، لئلا يتوهم دخول المتبنى الذي كانوا يسمونه ابناً، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] وفي قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧].

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ في الجاهلية قبل الإسلام فهو مغفور، فالإستثناء بمعنى لكن، وهو نظير قوله تعالى: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فهو يغفر لمن تاب ويرحمه، ومن ذلك: من أسلم بعد الجاهلية فقد جَبَّ الإسلامُ ما قبله، وجعل الإستثناء هنا كالأول؛ لقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولولا ذلك لأمكن أن يكون هنا متصلاً أي إلا ما قد سلف فلم يُحَرِّم، والجمع بين الأختين الجمع في زواج واحد أو تسرّ.

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي من المزوجات حُرّمن عليكم ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي المملوكات السبي فالمسبيَّة حلال لمالكها، وعليه أن يستبرئها بحيضة، وإذا كانت حاملاً كفّ عنها حتى تضع ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتبَ الله عليكم هذا التحريم لمن مر في الثلاث الآيات كتاباً.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ النكاح المحرم في الآيات، أو ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ الكتاب أي ما لم يتناوله من النساء، وهذا العموم قد أخرج منه نكاح المشركات، ومن حرمت بالرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ بدلٌ، أي: أحل لكم أن تبتغوا أي تطلبوا النكاح ﴿بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ عن الحرام بالحلال ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي زانين كما يبتغى الزنا بالمال، ولكن بالمهور، وثمن الإماء السريات.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ ﴿مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فليس للزوج أن يؤخر المهر بعد الدخول بزوجته، بل إذا استمتع بها ولو مرةً وجب عليه تسليم مهرها، والدخول استمتاع وفي (معلقة امرء القيس):

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتَّعت من لهوٍ بها غير معجل

والإستمتاع: الإنتفاع القليل المدة، ففي (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام) في (الحج): عن علي عليه السلام في (مواقيت الإحرام): «فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ ذا الحليفة..

ثم قال ـ: فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ العقيق ـ ثم قال ـ: فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ الجحفة ـ ثم قال ـ: فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ يلملم..» إلخ.

واعتبرت مدة الحياة الدنيا قصيرة، فقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ﴾ [التوبة:٦٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠].

وأخرج أحمد بن حنبل في (المسند) [١٦٨/٢]: عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» وهو في (سنن ابن ماجة: ١/ ٥٧١) وراويه عبد الله بن عمرو عربي اللسان.

فإن قيل: إنه يجب تسليم المهر بالعقد؟

قلنا: إن صح هذا وأنه لا يجوز تأخيره إلى بعد الدخول، فإن العقد قد يشرط فيه التأجيل، ففائدة الآية: بطلان الشرط بالدخول.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام: أن امرأة أتت علياً عليه السلام ورجل قد تزوجها ودخل بها، وسمى لها مهراً، وسمى لمهرها أجلاً، فقال له علي عليه السلام: «لا أجل لك في مهرها إذا دخلت بها، فحقها حالّ فأدّ إليها حقّها»، وهذا في (أمالي أحمد بن عيسى) [٢/ ٩٨٩] من (رأب الصدع): حدثنا محمد، قال: حدثني أحمد بن عيسى، عن حسين، عن أبي خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه.. فذكره.

وفي الآية الكريمة فائدة أخرى، وهي: وجوب المهر معجلاً بالدخول، ولو لم يكن سمي، و﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، كما قال تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠] فظهر: أنه لا يصح الإحتجاج بالآية على تشريع المتعة المؤقتة.

وما روي من قراءة: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل) فالقرآن محفوظ، فلو كانت منه لحفظت كما حفظ، ولكتبت في (المصاحف) فأما جعل القراءة الشاذة روايةً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغير متعين؛ لأنه في بعض المواضع يحتمل: أن الصحابي ذكره على جهة التفسير، كما ذكروا أنها حرقت المصاحف لما اختلط بها من التفسير. وإذا كان تفسيراً فهو رأي لصاحبه، ولا يلزم اتباعه؛ لجواز الخطأ عليه، ولما ثبت من اللغة العربية أنه غير متعين، وأنه صالح في الدخول بالزوجة.

فأما قولهم: إن الإستمتاع قد صار حقيقة شرعية في المتعة المتنازع عليها، فهو غير مسلم ولا دليل عليه، إنما اشتهر في العرف من عهد عمر في متعة النساء أنها هي المؤقتة لا في الإستمتاع، والقرآن لا يفسَّر بالعرف الحادث بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن

﴿فَرِيضَةً﴾ مسماة مهراً، فلا تجزي عنه التبرعات ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾ فما أسقطته بطيبة نفسها برئ منه أو أرجعته له، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ﴾ يخرج به التراضي بأن لا مهر لها من أول الزواج وقبل الفرض، فهذا لا يصح ويلزمه المهر ويبطل الشرط.

وفي (أمالي أحمد بن عيسى) [٢/٩١٥]: بإسناده: عن علي عليه السلام في رجل نكح امرأة فأصدقته المرأة واشترطت أن بيدها الطلاق والجماع، فقال علي: «خالَفَت السنة، ووَلَّت الحق من لم يولّه الله، فقضى أن عليه الصداق، وبيد الزوج الجماع والفرقة، وقال: ذلك السنة» انتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بأحوالكم وما تقتضيه الحكمة من تكليف أو ترخيص، وعليم بما يصدر من تراضٍ حقيقي عن طيبة نفس وما ليس كذلك، وعليم بكل شيء، وحكيم في كل أفعاله وأقواله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿طَوۡلًا﴾

تحصيل طول من المال يتزوج به، والطول: سعة وزيادة على القوت الضروري ونحوه، واستطاعته: إما أن يكون موجوداً عنده يستطيع إنفاقه في الزواج لا يحتاجه للقوت الضروري ونحو القوت، وإما أن يستطيع كسبه حلالاً بسبب يستطيعه كمضاربة وإجارة عمل، فإذا كان يستطيعه فلا يدخل في هذه الإباحة للتزوج بالأمة، و﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنا الحرائر.

وقوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي فلينكح مما ملكت أيمانكم أيها المؤمنون، فليس له أن يتزوج مملوكة لكافر، وقوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ الفتاةُ: هي الشابة، وعلى هذا: فليس له أن يتزوج أمة صغيرة، ولا عجوزاً قد بلغت الستين، أما الصغيرة فلعدم صلاحيتها للجماع، وأما الكبيرة فلأن نفسه لا تقنع بها لتحفظ دينه لنقص لذتها.

والأرجح: أنها لا تحرم بمجرد المفهوم بل لا مفهوم له، لأن ذكرها لكونها مظنة الفائدة ومظنة التحصيل لا لإخراج غيرها، فإذا لم يجد فتاة ووجد عجوزاً وخاف العنت حلت له؛ لأن الأصل الحل لدخولها في عموم ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يخرج الكافرات فلا يحل نكاحها، فأما الفاجرة المسلمة فلعلها تلحق بالمؤمنة إذا كان فجورها بغير الزنا؛ لأنهم في المعاملات يلحقون بالمؤمنين فيما ليس فيه موالاة ويحتمل أن تلحق بالكافرة، والإحتمالان يرجع فيهما إلى دليل آخر.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ فليس عليكم إلا العمل بظاهر الإيمان لأنكم لا تعلمون منه ما يعلمه الله سبحانه ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الأحرار والعبيد جنس واحد، فإذا جمعهم الإيمان فلا غضاضة في الزواج منهم.

﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ المالكين لهن أي تزوجوهن بإذنهم، فلا بد من إذنهم إذا كان المزوج لهن قرابتهن أو غيرهم، وإن تولى المالك العقد فهو أذن وزيادة ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن وفي تسليمه إليهن تأنيس لهن، وإن كان عليهن تسليمه إلى المالكين لهن، وقد جرت العادة أن يستلم مهر الحرة وليها ثم لا يعطيها منه شيء فما أبعد هذه العادة من الدين ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بأن يكون مهر زواج لا أجرة بغاء.

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ مصونات ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ كالتفسير لإحصانهن الذي هو حفظهن من الريبة، والمسافِحات: الزانيات، والمتخذات أخدان: المتخذات أخلاء من الرجال الأجانب، فهن متهمات بالزنا، غير محفوظات منه؛ لكثرة المخالطة وقوة الحب، واطلاع كل منهما على سر الآخر، قال في (الصحاح): «الخِدْن، والخَدين: الصديق، يقال: خادنت الرجل، ومنه: خِدْن الجارية، قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾» انتهى.

ولا بد في تحريمها أن تكون هي اتخذت خديناً، فأما لو كان الأجنبي يحسن إليها ويقضي لها أغراضها وهي لا تخالطه ولا تسارّه بأسرارها، ولكنها في بعض الحالات تحسن إليه مكافأة لإحسانه لا توصُّلاً إلى صداقته فلم تتخذه خديناً.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالزواج الكاسر للشهوة ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فعلى الحرة مائة جلدة، وعلى هذه الأمة نصف المائة، فأما الرجم فلا يتنصف لأن النصف لا يوقف له على حد.

وقد ذكر الإمام الهادي عليه السلام: أن العبيد إذا أقروا بالزنا أربع مرات جلدوا سواء كانوا محصنين أو غير محصنين، وهذا قريب لعموم الأدلة في جلد الزاني وورود روايات عديدة في جلد الأمة الزانية من غير فصل بين

محصنة وغير محصنة، فالآية هذه دليل على تنصيف الحد في الأمة المزوجة وتقاس عليها في التنصيف بالأولى غير المزوجة، وقيس عليها العبد بجامع الرق، ولا إشكال أنه العلة في تنصيف حد الأمة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي التزوج بالأمة إنما يجوز للحر إذا خشي العنت أي الوقوع في الفاحشة، سميت عنتاً؛ لأنها ضرر شديد فُسِّر به لقرينة السياق، وكون مهمة الزواج حفظ الدين فهو الغالب.

مع أن العنت يحتمل أن يفسر بالمشقة العظيمة تشبيها لها بالضرر الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي في شأن أموال اليتامى بالتكليف الشاق الزائد في مشقته، والمعنيان متقاربان شدة المشقة من الشبق وخوف الوقوع في المعصية بسبب شدة الحاجة، وهذا أقرب لقوله تعالى:

﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي تصبروا على الحاجة مع العفاف ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الزواج بهن لخشية العنت، فأفاد: أن المراد بخشية العنت خشية عدم الصبر على الحاجة، أو خشية المشقة الشديدة بمصابرة الحاجة، فأما خشية الضرر الشديد في البدن كالجنون فهو نادر يبعد أن يعلق عليه جواز نكاحهن، ويبعد الترغيب في الصبر مع خشيته، وهذا هو ظاهر كلام الشرفي رحمه الله في (المصابيح) و (صاحب الكشاف) فأما (صاحب الصحاح) فقال: «العنت: الإثم وقد عنِت الرجل، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يعني: الفجور والزنا، والعنت -أيضاً- الوقوع في أمر شاق، وقد عنِت وأعنته غيره، ويقال للعظم المجبور إذا أصابه شيء فهاضه: قد أعنته فهو عنِتٌ ومعنَتٌ، وجاءني فلان متعنتاً: إذا جاء يطلب زلتك» انتهى.

قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ

فظهر منه: أن ما فسرنا به أرجح، وأنه لا يقال: العنت في العظم المكسور بل الإعنات، وفي (لسان العرب): «العنت دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة» انتهى، وقد زاد: أنه قد يستعمل بمعنى الهلكة، ولكن هذا لا يستقيم في سياق هذه الآية مع أنه زائد على الحقيقة كما يظهر من كلامهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا موجب للمبالغة في الحذر من تزوج الإماء بل متى وجد الإنسان من نفسه خشية العنت جاز له أن يتزوجها ولا يضره احتمال أنه يصبر، وكذلك متى كان ظاهرها الإيمان جاز له تزوجها وليس عليه جناح إن أخطأ الواقع، وكذلك متى كان الظاهر عنده العجز عن تحصيل طَول حرة لأنه لم يجد وسيلة وقد نظر فلم يخطر بباله وسيلة لطَول حرة صح له تزوجها من هذه الجهة ولا يضره لو كان مخطئاً في ظنه.

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تشجيع على هذا الزواج متى كان الظاهر تكامل شروطه ليتزوج الأعزب المحتاج اتكالاً على مغفرة الله ورحمته لما في ذلك من مصلحة الإحصان وسدّ الذريعة على الشيطان.

﴿٢٦﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ إنزال الآيات السابقة في هذه السورة ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ حتى تعرفوا ما شرع فيها ولا يخفى إلا على معرض عن تفهم القرآن، وهذه (اللام) التي يقال: إنها زائدة، أعتقد أنها تأتي حيث يحذف المراد الحقيقي ويذكر ما لأجله أريد، فهي (لام التعليل) كما قال الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثّل لي ليلى بكل سبيل

فالمعنى: أريد أن أتناسى ذكرها لأنسى ذكرها، فحذف المراد الحقيقي اختصاراً لدلالة العلَّة عليه وأقيمت علته مقامه، فقيل: اللام زائدة بناء على أن العلة هي المراد، فالآية الكريمة على ما فسرت تبيِّن لماذا أراد الله ما سبق من الآيات، وإذا قلنا: يريد الله أن يبين لكم فات هذا المعنى.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما نزل في أوائل هذه السورة ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الذين أنعم الله عليهم من النبيئين وأتباعهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا اتبعتموه وتركتم ما كنتم عليه في الجاهلية من ظلم اليتامى والنساء وتزوج امرأة الأب والجمع بين الأختين والزيادة في عدد الزوجات المفرطة وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما تحتاجون إليه من ذلك وما هو الخير لكم وما تقتضيه الحكمة وكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأحكامه وأفعاله وكل شأن من شأنه سبحانه وتعالى.

(٢٧) ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فانظر كيف لم يأت باللام، ولو أتى بها لكان تكراراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فبان الفرق، وأن (اللام) هي (لام التعليل) لا زائدة، فهنا يبين: أنه يريد أن نطيعه ونتوب إليه ليتوب علينا، إلا أن هذه الإرادة ليست إرادةَ جبر أو إلجاء.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا﴾ وهذا تحذير من ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ لئلا يستميلونا عن سبيل الله فنميل ﴿مَيْلاً عَظِيمًا﴾ كما يريدون، و﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ما تشتهي الأنفس من أغراض الدنيا، فـ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ هم الذين يتبعون ما تهوى الأنفس، وهو يعم ما تهواه بالأصالة كالنساء، وما تهواه لغضب أو عداوة أو نحوها

ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

وإن كان في الأصل مما تكرهه النفس لولا الغضب أو العداوة أو نحوها فهو عام للمعاصي كلها؛ لأنها لا تخرج عنه، فينبغي الحذر ممن يتبع هواه على الإطلاق.

﴿٢٨﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ التخفيف: ضد التثقيل، فالمراد: تخفيف التكاليف بما سهل من أسباب تيسير التكليف، كإباحة تعداد الزوجات، وجعل ميراث الأنثى في بعض المواريث نصف ميراث الذكر، وإباحة الإماء للضرورة، وغير ذلك من الأحكام ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ ضعيف الصبر، وضعيف الإرادة والعزم، وضعيف الثبات، فاحتاج إلى تخفيف الله عنه فخفف عنه برحمته وكرمه وحكمته.

﴿٢٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ يعبر بالأكل عن أخذ المال للتصرف فيه سواء كان مأكولاً أو غير مأكول وذلك على طريقة التغليب، أو للتشنيع، كما قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا﴾ [الفجر:١٩].

وقوله ﴿بَيْنَكُم﴾ يشعر بالتعامل والأخذ والإعطاء الذي يكون المال فيه بين الآخذ والمعطي في مكان التعامل، وقوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بالسبب الباطل الذي لا يثبت به حق كالربا وحلوان الكاهن وكسب المغنية وكسب الزانية والرشوة والأجرة على حق واجب على العامل ونحو ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ فهي حلال للبائع والمشتري، والتجارة يقصد فيها تحصيل الربح، وهو في الصورة إلى غير مقابل ولكن الله أحله، ويلحق بذلك التبايع بدون ربح فحله أظهر، وقوله: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ يخرج ما كان أحد المتبايعين مُكرَهاً أو كلاهما فلا يحل به المال المأخوذ به.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعم قتل الإنسان نفسه وقتله أخاه المؤمن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ أَنْتُمْ هَـؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٨٤-٨٥] وذلك أنها جعلت الجملة كالشيء الواحد، فالفرد كالعضو إذا جَرَح عضواً من صاحبه قيل جرح نفسه، وهذا المعنى يشير إلى أن ضرر القتل على الجملة لأن المقتول نقص منها، ونظير ذلك قول الشاعر:

قومي همو قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللاً ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

مع أنه لا سواء؛ لأن الإسناد في الآية إلى الجملة كما ذكرت بخلاف البيتين.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال بعضهم: اتفقوا على أن هذا نهي عن أن يقتل بعضهم بعضاً، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: المؤمنون كنفس واحدة، ولأن الجنس واحد، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض؛ ولأن العرب يقولون: قتلنا ورب الكعبة، إذا قتل بعضهم..» إلخ.

عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا

قلت: وفي القرآن الكريم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] ولا إشكال في أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ يعم قتل المؤمن نفسه بأي وسيلة، ويدخل فيه الغسل من الجنابة في البرد القاتل وغير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ فلا يرضى أن تقتلوا أنفسكم بغير حق، ولعله يخرج منه فداء الإسلام والمسلمين مما يكون الضرر فيه أشد من قتل الواحد كالمترس بهم في الحرب ليؤخذ أرض المسلمين، وكالفدائي الذي يقتل بالمتفجرات أمةً من الكفار ليخرج الكفار من أرض المسلمين، ولكن هذا الإستثناء يحتاج إلى دليل، فإن كان العقل يدل عليه فهو يجري مجرى التخصيص بالقول؛ لأنه يستغني بعلم السامع عن التخصيص بالقول.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ يقتل نفسه أو غيره الإشارة إلى الآخر وهو الذي في (المصابيح) و(الكشاف) وقرينته قوله تعالى: ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ وإن كان الكل ظلماً ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا﴾.

قال في (الصحاح): «ويقال: صَلَيت الرجل ناراً إذا أدخلته فيها وجعلته يصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاءً كأنك تريد إحراقه. قلتَ: أصليته بالألف وصلّيته تصلية، وقرئ: ﴿ويُصَلَّى سَعِيْراً﴾ ومن خفف فهو من قولهم: صَلِي فلان النار بالكسر يَصْلَى صُلِيّا احترق» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لـ(غريب القرآن): ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: «معناه: نشويهم بالنار وننضجهم بها» انتهى.

كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن

وفي (الصحاح) أيضاً: «وصليت اللحم وغيره أصليه صلياً، مثال: رميته رمياً إذا شويته، وفي الحديث: إنه عليه الصلاة والسلام: أتي بشاة مصلية، أي مشوية» انتهى.

ونحو هذا في (مفردات الراغب) و(لسان العرب)، وفي (لسان العرب): «قال الكسائي: المصلية المشوية، فأما إذا أحرقته وأبقيته في النار قلتَ: صلَّيته بالتشديد وأصليته» انتهى، فهو عنده أشد من الإنضاج.

وقول الإمام زيد معناه: نشويهم، يشعر بمباشرتها لأجسادهم وأرواحهم، كما تباشر ما يشوى من اللحم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فلا مشقة عليه من أجل رقة تحصل عند ذلك، أو مُدافع ينصرهم، أو نقص عليه في ملكه بهلكهم.

﴿٣١﴾ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كالقتل عدواناً وظلماً، فخرج القتل خطأً فهو صغير، وقد قيل الخطأ غير داخل في النهي، قلنا: بل هو داخل فيه وإن لم يدخل في الوعيد، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ يعم العمد والخطأ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء:٣٢] كذلك.

فإن قيل: إنه لا يستطاع اجتنابه فليس معصية، وعموم الأدلة مخصوص بالعقل؟

قلنا: ليس كله لا يستطاع تركه، ألا ترى أن بعضه يمكن تركه باستعمال الحذر والإحتياط وهو مستطاع، ولعل ذلك سبب إيجاب الكفارة في القتل

خطأ وإيجاب الدية والأرش على كل حال في العمد والخطأ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

ولعل هذا خاص بالإكراه على الزنا؛ لأن ما يبيحه الإكراه لا يسمى معصية، كيف وقد أذن الله به.

فالحاصل: أن الخطأ الذي يمكن الإحتراز منه معصية وكذلك النسيان، وإذا كانت معاصي فهي صغائر بلا إشكال، والعمد كبائر بالنسبة إلى الخطأ والنسيان، ومع هذا فالكبائر متفاوتة في الكبر فما وصف في القرآن أو السنة بالكبَر أونحوه فهو كبير بالنسبة إلى ما هو دونه من المعاصي المتعمدة، وكذلك ما جاء فيه وعيد خاص به؛ لأنه يفهم من تخصيصه أنه زائد في القبح زيادة سببت للوعيد عليه بخصوصه.

فإن قيل: ما عدا الموصوف بالعظم ونحوه والمتوعد عليه بخصوصه من سائر المعاصي يحتمل الصغر والكبر؟

قلنا: قد حققنا أن المتعمَّد من ذلك كبير بالنسبة إلى الخطأ والنسيان، ولا ينافي ذلك أن بعضه صغير بالنسبة إلى تلك الموصوفة بالعظم أو المتوعد عليها بخصوصها؛ لأن ما هو كبير بالنسبة إلى الخطأ والنسيان قد دخل في عموم: كبائر ما تنهون عنه، ولا ينافي ذلك وصفه بالصغَر بالنسبة إلى ما هو أعظم منه؛ لأن الحكم في الآية الكريمة معلق على الكبر، ولا ذكر فيها للصغر، فما صدق عليه اسم الكبَر من حيث هو منهي عنه متعمد بلا تأويل لا يخرجه منها كونه صغيراً بالنسبة إلى العظائم المخصوصة؛ لأن ذلك لا يرفع عنه اسم الكبَر من حيث هو منهي عنه متعمد بلا تأويل؛ لأن قبحه كبير من حيث هو معصية لله ـ جلَّ جلاله ـ المنعم بالنعم العظمى المستمرة

التي لا نحصيها عدداً، ومن حيث قد قامت الحجة على فاعله وعظمت بالمواعظ والعبر وغير ذلك، فالإساءة إلى الله المالك المنعم باستعمال نعمه في معصيته أو الإشتغال عن طاعته باستعمال نعمته إساءة قبيحة عظيمة القبح، فالمتعمَّد بلا تأويل كله كبير.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قلت: وعند الناصرية، وهو ظاهر كلام الهادي عليه السلام، وصريح قول المرتضى وقول القاسم بن علي العياني عليهما السلام وغيرهم، وبعض البغدادية: كل عمد كبيرة» انتهى المراد.

وقد يعترض هذا القول: بأن الخطأ والنسيان لا يؤاخذ به صاحبه ولو لم يجتنب الكبائر؟

والجواب: أنه قد مرّ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣] أن تكفيرها سترها بحيث لا يرونها في الآخرة حسراتٍ عليهم، وليس المراد نكفر عنكم سيئاتكم الخطأ والنسيان فقط بل كل السيئات الماضية قبل الإيمان.

وقد روى الناصر عليه السلام في (البساط) قال: وحدثنا بشر، قال: حدثنا وكيع بن الجراح، قال: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قلنا يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء أخذ بالأول والآخر» انتهى، بشر وثقه (صاحب طبقات الزيدية) في (نسمات الأسحار).

وروى عنه الناصر عليه السلام في (البساط) فأكثر وهو من مشائخه، والحديث في (جامع البخاري) المسمى (الصحيح) [٨/٤٩]: حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا سفيان، عن منصور والأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكره بتمامه.

وهو في (مسلم) [١/ ١٣٥] عنوانه في (شرح النووي): (باب هل نؤاخذ بأعمال الجاهلية): حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل.. إلى آخر السند، والحديث بلفظ: «أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها، ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام».

ثم قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي ووكيع، وحدثنا أبوبكر بن أبي شيبه، واللفظ له، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل..إلى آخر السند والحديث..

ثم قال: حدثنا منجاب بن الحارث التميمي أخبرنا علي بن مُسْهِر عن الأعمش بهذا الإسناد مثله.

وأخرجه ابن ماجة في (سننه) في (أبواب الرقاق) [٢/ ٥٦٠]: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا وكيع، وأبي، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله.. فذكره، وشقيق هو أبو وائل.

وهو في (سنن الدارمي) و(مسند أحمد) من طرق، فهذا الحديث شاهد لما فسرنا به الآية الكريمة، وقد احتج الناصر في (البساط) لذلك فراجعه.

﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ والمدخل الكريم: هو الجنة، فيها كرامة أولياء الله، ووصفت بالكرم؛ لما تعطي أهلها من الإكرام والإحسان.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية الكريمة على وجوب اجتناب الكبائر، وعلى أن اجتنابها سبب للتوفيق الموصل إلى التوبة التي يكفر الله بها سائر الذنوب» انتهى المراد.

فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المواريث وغيرها؛ لأن هذا التمني يستلزم كراهة بقاء النعمة لصاحبها الذي فضله الله بها، وذلك حسد فلا ينبغي لمؤمن، ولا بأس بتمني مثله بشرط الرضى بقسمة الله والصبر عليها ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ لما كان التفضيل بين الرجال والنساء ظاهر ومتعدد الجهات خصهم الله بهذا، يبين أن لكل منهما نصيباً مما اكتسب، فالفرصة في هذه الحياة متاحة للرجال أن يكتسبوا لأنفسهم من خير الدنيا ومن خير الآخرة، وهي للنساء كذلك وإن اختلف الكسب، وكأن هذا الكلام تسلية للمفضل عليه بالملك القهري أن الله قد مكنه من كسب الخير الكثير في دينه ودنياه.

فأما قوله تعالى: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا﴾ ولم يقل للرجال ما اكتسبوا وللنساء ما اكتسبن، فالأقرب عندي ـ والله أعلم ـ أنه تزهيد في كسب المال؛ لأنه يشير إلى أنه لا ينتفع به كله، فكأن مالا ينتفع به ليس له كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لكل امرئ في ماله شريكان: الوارث، والحوادث» بل في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت».

﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وهذه وسيلة عظمى ينال بها الخير ممن بيده الخير فلا ضرورة لتمني ما في يد الغير وبدلاً من ذلك يستغني المرء بالإكتساب والدعاء الذي ينال به الداعي من فضل الله الذي لا يعسر عليه خيراً كثيراً، وينبغي السؤال لما ينجي من النار ويؤدي إلى الجنة والدرجات العلى فيها؛ لأن ذلك الخير الباقي فأما كثرة المال فلا تبقى لصاحبها ولا يبقى صاحبها لها.

نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو عليم بمن يتمنى وتمنيه، ومن يصبر وصبره، ومن يكتسب ومن يدعوه، وما اكتسب المكتسب، وما طلب الداعي وعليم بكل احوالهم وبكل شيء، فهو بصير بقضاء الحاجات وتفريج الكربات ودفع المصيبات، لطيف لما يشاء فينبغي اغتنام الدعاء.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ فقد قسم سبحانه ما ترك الوالدان والأقربون، فالقسمة باقية لا تنسخ بما يجعل للموالي بالموالاة، وقوله: ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ هم الوراث الذين هم أهل ما قسم لهم، فكأنه تعالى قال: جعلنا أهلاً ومُلاكاً، كقول الشاعر:

وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عاهدتموهم على علاقة تقوم مقام الأخوة في النسب، قال في (المصابيح): «أي ماسحتموهم بأيديكم حال المحالفة، والمراد هنا مولى الحِلف لا مولى العتاق» انتهى.

قال (صاحب الكشاف): «وكان الرجل يعاقد الرجل، فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف فنسخ» انتهى، فظهر: أن المعاقدة، والتعقيد: هي العقد بالكلام، ونُسِب إلى الأيدي لاقترانه بالمصافحة.

فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ

﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ من التركة، ظاهره: أنه نصيب معهود فلعله السدس وليس ميراثاً؛ لأن الله تولى قسمة المواريث فلا تثبت بعهد ولا تنتفي ولكنه وصية فوجب إيتاؤه ولم ينسخ إلا كونه ميراثاً بالولاء، وإنما جعلته وصية لقولهم: ترثني وأرثك وعلى هذا فله حكم الوصية كالإقرار بالوارث وهذا هو المفهوم من جملة الآية أنه ليس وارثاً ولكن يؤتى نصيبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ فهو شهيد على عقد المحالفة، وشهيد على إيتائهم إن أوتوا، ومنعهم إن منعوا فتجب مراقبته والحذر من معصيته.

﴿٣٤﴾ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ المرأة ضعيفة بالنسبة إلى الرجل من أصل خلقها وطباعها، ومن أجل اشتغالها بالحمل والرضاع وحضانة أولادها، فهي محتاجة إلى قيام الرجل عليها لحفظها وحمايتها وصيانتها والإنفاق عليها والقيام بأمورها التي يقوم بها الرجال فـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ مثال مبالغة لقائمين لتكرُّر القيام وتعدد جهاته.

فالمرأة تقوم على أطفالها، والرجل قائم عليها وعلى أولاده، فهو مدير الأسرة والقائم بأمورها ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ﴾ وهم الرجال ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي على النساء، فالرجل أصلح للقيام بالأسرة وعليها لما عنده من الكفاءة لهذه الوظيفة، وبما أنفق من ماله على زوجته وعياله، فقد أغناها عن السعي للمعيشة، ومكنها من القيام بعملها في البيت لتحضن أولادها لشدة

حاجتهم إليها، ولتحفظ نفسها عما يؤدي إليه التكسب من مخالطة الأجانب في كثير من الحالات، ولتبقى في بيته ليسكن إليها بما أنفق من مهرها فيستغني بها عن الحرام وتستغني به.

فالقيام على المرأة هو القيام بمصالحها، وهو يستلزم الأمر والنهي في هذا الشأن، وليس معناه مجرد ولاية أمر ونهي كيف شاء الرجل ولو خارج مصلحتها وحقِّه الواجب عليها له الذي ثبت بدليل آخر.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات لا يتكبرن عما يجب عليهن لأزواجهن، بل يخضعن لأمر الله ويتواضعن للأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (الغيب) ما غاب عن الزوج من أنفسهن ومسكنهن وما بأيديهن من ماله وأولاده، فهن أمينات على ذلك لا يقصرن في حفظه، وحفظها لذلك إنما هو بحفظ الله ومعونته ووقايته، فعليهن وعلى أزواجهن طلب الحفظ منه وشكر نعمته عليه.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ﴿ٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ خلاف الصالحات لخروجهن عن القنوت بإظهار الترفع على الزوج والإستخفاف به، وعدم المبالاة بحقه، أو إظهار عدم الرغبة فيه، أو إظهار الرغبة في غيره، أو نحو ذلك من مقدمات النشوز ودلائله التي يخرجن بها عن حقيقة الصالحات ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ ازجروهن عن النشوز بتذكيرهن عقاب الله وشدة عذابه، وأن الله هو الذي أوجب حق الزوج عليهن كما أوجب عليه حقوقهن، فعليها أن تراقب الله وتخشاه، ومن الوعظ تخويفها بأي شيء يحق له كالضرّة، قال في (مفردات الراغب): «الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف».

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ هجرها: تركُ وصلها والإعراض عنها، والمراد: أن يهجرها مؤقتاً، ليكون ذلك تاديباً لها، وليس المراد إخراجها من داره أو تحوله في دار أخرى، إنما هو أن يكون في مضجعه ويتركها في مضجع آخر ولو في منزل واحد، والمضجع: مكان مدّ الجسم للنوم أو غيره، قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ والمراد: ضرب تأديب لإصلاحهن لا الضرب الشديد؛ لأنه موحش ومسبب للفرقة، وفي الحديث عنه ﷺ: «الرفق يمن، والخرق شؤم».

ولعل المراد الترتيب في هذه الأدوية لإصلاحهن كما رتبن في الآية، فيبدأ بالوعظ بقدر ما يستطيع بكلام رفيق ولين، وبدون سبّ وتأثيم منفر فلا يقل: يافاجرة يا عدوة الله، ثم إذا لم ينفع الوعظ انتقل إلى هجرها في المضجع مؤقتاً ولو ليلة أو أكثر ما لم يؤد إلى يأسها منه أو تصلح بأقل مدة منه، فإذا لم ينفع انتقل إلى قليل من الضرب ليدل به على شدة استنكاره لنشوزها ويخيفها به من زيادة الضرب إن لم تصلح.

ولا ينبغي للزوج المبالغة والإستقصاء في طلب حقوقه عليها، بل ما كان معلوماً كالجماع إذا عرف أنها تمتنع منه لغير عذر بل تمرداً، فأما لعذرٍ كجوع أو تعب أو حزن فيمهلها ولا يحوجها إلى النشوز باستعمال التأديب ونيتها طاعته؛ لأن ذلك غير المقصود في الآية، وأما إذا امتنعت عن أمر فيه خلاف أيجب عليها أم لا؟، فيبدأ بمحاكمتها، إما لتعرف الواجب عليها، وإما لمنع الشقاق وهو أعم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ الآية.

خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ لا تطلبوا سبيلاً لأذاهن أو للتقصير في حقوقهن بالتماس ما تجعلونه ذنباً منهن تجعلونه وسيلة لإساءة عشرتهن وهذا قد يقع من الزوج ليؤذيها إلى أن تفتدي نفسها منه كما مر وقد يقع منه عملاً بأوهام لا يعمل بها في الشرع، وقد يكون سبَبها مرضٌ فيه وضرر في أعصابه كما يصدر ممن يكثر من القات، وقد يكون جهلاً من الزوج وميلاً إلى الشقاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وعُلُوّه لا بالجهة، وكبَره لا بكبَر الجثة بل هو عليّ كبير بكمال قدرته، ونفاذ مشيته، وذِكر هاتين الصفتين في هذا الموضع في غاية الحسن وبيانه من وجوه:

الأول: أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النسوان، والمعنى أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الإنتصاف منكم، فالله سبحانه عليٌّ قاهر كبير قادر ينتصف لهن منكم ويستوفي حقهن منكم، فلا ينبغي أن تغترُّوا بكونكم أعلى يداً منهن..» إلخ كلامه.

فمن حيث أن الله عَلِيٌّ ينبغي أن نخشاه؛ لأنه القاهر فوق عباده الغالب على أمره، ومن حيث أن الله كبير ينبغي أن يخشاه ويستحيي منه عبدُه الحقير الذليل المحتاج إليه في كل حال، بل يخشع له لعظمته وجلاله.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خطاب لقيادة الأمة القائمة بشؤونها أهلِ الصلاح والصلاحية لذلك، فعليهم أن ينظروا في أمور المسلمين، ومنها مشاكل الأسرة التي هي مظنة الشقاق ثم الطلاق، فيسعوا لحل المشاكل ببعث حَكَمين أي إرسالهما إلى محل الأسرة أحدهما من أهل الزوج أي قرابته، والآخر ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي قرابتها.

ويتخيروا الحكمين من عقلاء الرجال الذين هم مظنة الإصلاح لا التعصب للقرابة بالميل مع القريب فهما مظنة تقوية الشقاق إذا لم يكوْنا صالِحَين مصلحَين.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ إن يرد الزوجان إصلاحاً من الحكمين وكانت نيتهما صلاح الزواج وحل المشكلة ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ عند حضور الحكمين إما بإصلاح الحكمين أو بأن ينتبه المخطئ لخطأه عند حضورهما إذا خشي أن يشددا عليه أو أتهمهما بقصد الإفساد، فبتوفيق الله بينهما يذهب الشقاق ويخلفه الوفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ فهو يعلم ما في قلوب الزوجين من النيات الصالحة أو الفاسدة، ويعلم ما يصلح شأنهما وهو عالم بخبرهما وباطن سرهما؛ لأنه عليم بكل شيء، خبير بكل سر.

فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بطاعته والخضوع له، وإخلاص العبادة لـه، فهـذه عبادتـه لا تتم إلا بأن نجعل أنفسنا عبيداً له وحده لا شريك له، فلو عبدنا غـيره لم تـتم لنا عبادته.

ألا ترى أن الأنبياء يأمرون قومهم بعبادة الله مـا لهـم مـن إلـه غـيره فقـد جعلوهم غير عابدين لله حين كانوا مشركين لأنه لا يقبل مـنهم مـع الشـرك بعض عبادة؛ ولأنهم لم يجعلوا أنفسهم في حال الشرك عبيداً لله وحـده، فلـم يعبدوه، بدليل قوله تعـالى: ﴿لَـنْ يَسْـتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُـونَ عَبْـدًا لِلَّـهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

فدل على أن معنى العبادة: أن تجعل نفسك عبداً لله، فإذا جعلـت نفسـك لله ولشريكٍ معه فلم تجعل نفسك لله إنما جعلت بعضك، وعلى هـذا جـرى خطابُ الأنبياء لأممهم انظر (سورة الأعراف).

وقول نوح: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩] وقول هود مثل ذلك، وصالح، وشعيب عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ نهيٌ عن أن نجعل له شـريكاً في شـيء من صفاته وما يتبعها كعلم الغيـب والقـدرة الخارقـة والمشـاركة في الملـك أو في الحكم أو في الربوبية، وكونه تعالى لا شريك له في ذلك حجةٌ علـى مـن أشـرك بعبادته غير الله، أو بالرئاء، فمفهوم الإشراك به غير مفهوم الإشراك بعبادته.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «واتفقوا على أن هاهنا محذوفاً، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤] أي فاضربوها.

ويقال: أحسنت بفلان وإلى فلان، كقول كثير:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقليَّةَ إن تَقَلَّت»

قلت: أعتقد أن الإستعمال الشائع تعديةُ الإحسان بـ(إلى) فإذا كانت تعديته بـ(الباء) قليلاً فالأولى جعله من التضمين لمعنى اللطف أو الرفق.

وكذلك (أسيئ بنا) فالشائع أن يقال: أساء إليه، فالأولى: أنه أراد أوقعي بقلوبنا السوء بالهجر ونحوه، فعداه بـ(الباء) لئلا يوهم، أو صلي إلينا سوءاً بقولٍ أو فعل؛ لأنه لا يريد وصفها بالتعدي والظلم أو أنها مظنة ذلك.

والإحسان بالوالدين: شكر لنعمتهما على الولد، فإذا وجب لحقّهما على الولد فبالأولى أن تقبح الإساءة إليهما، وقد جاء في الحديث الزجرُ عنها وأنها من الكبائر، وفي رواية: «من أكبر الكبائر».

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فقد أمرنا أن نحسن بهؤلاء.

و(ذو القربى) صاحب القرب من النسب، وفسرهم أهل المذهب: بمن ولده جدا أبويه، فعم هذا التفسير: الأعمام والأخوال وذرياتهم، مع الأخوة والأخوات وذرياتهم، وعم الوالدين والأولاد وذرياتهم، وعم الأجداد والجدات الأسفلين، وهذا في ذي القربى.

فأما الأقربون ففيه تفضيل في قرب النسب، فلا يعم أهل القربى كلهم وإنما هم من جاء ذكرهم في المواريث في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٣٣] فهم الإخوة مع الوالدين والأولاد، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] فشمل الأعمام فهم أقرب من سائر العشيرة بعد هم.

وفي (لسان العرب) ـ من رواية عن الزجاج ـ: والقرابة، والقربى: الدنو في النسب، والقربى في الرحم وهي في الأصل مصدر، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ثم قال: وأقارب الرجل وأقربوه عشيرته الأدنون، وفي التنزيل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] وجاء في التفسير: أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً: «يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس، يا صفية» إلخ.

وأقول: إنه قد اعتمد الرواية في تفسير (الأقارب) وألفاظُها مختلفة، فأخرج الطبري في (تفسيره) بإسناده عن عائشة، قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبدالمطلب.. إني لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم» وروى مثله بسند آخر، ثم روى بإسناده مثله عن عروة بن الزبير.

وقال الطبري: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] قام رسول الله ﷺ على الصفا ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه فبين رجل يجيء وبين آخر يبعث

رسوله، فقال: «يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني..، يا بني..» إلخ.

وهذه الرواية لا تدل على أنهم كلهم عشيرته الأقربون؛ لأنه نذير للأقربين والأبعدين، فمن الجائز أنه عم بالدعوة ليأتي الأقربون والأبعدون ليعم الكل ويخص الأقربين بقوله: «يا بني عبد المطلب..».

ويدل على ذلك ما رواه الطبري بإسناده عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، قال: فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى ما أناداهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره فصمتُّ حتى جاءني جبريل، فقال: (يا محمد إنك إن لا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربك) فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رِجْل شاة، واملأ لنا عُسّاً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً.. إلى آخر الرواية، وهي في (تفسير الطبري) وفي تاريخه نحوها بسند آخر تقوي هذه الرواية وإن لم تكن مثلها في اللفظ، ورواها أبو نعيم في (دلائل النبوة) والبيهقي في (دلائل النبوة).

فظهر: أنهم الأقربون من العشيرة، فأما الأقربون من ذوي القربى: فهم الوالد والولد، وألحقنا بهم الإخوة لدخولهم في تفصيل ما أجمله قولُه تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فأما الأعمام فإنما ورثوا بالتعصيب، والدليل على ذلك: أن العمة لا ترث إلا مع ذوي الأرحام بخلاف الأخت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ قد مر ذكرهم والتحذير من ظلمهم، وهذا أمر بالإحسان إليهم لتأنيسهم والجبر من ضعف يتمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ هم مثل اليتامى فيحسن إليهم ولو لم يعطوا، فالإحسان أعم من العطاء فلا يترك الإحسان بالقول ونحوه عند تعذر العطاء، وقد مر تفسيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ﴾ هو المجاور في المسكن أي مَن كان مسكنه قريباً من مسكنك، وقد جاء في أهل المقبرة: «جيران لا يتزاورون» وأنشِد لأمرئ القيس:

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا مقيمان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وللسموأل:

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

فلا يشترط في الجوار الملاصقة.

وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تنبيهٌ على أن له حق الجوار مع كونه قريباً، وكانت الجاهلية غافلة عن هذا، وكانت تفتخر بحماية الجار الأجنبي، مع أن الجار ذا القربى له حق الجوار وحق الرحامة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجنب: الأجنبي، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والإحسان إليهم: بالمواساة، والنصرة، وحسن العشرة، وكف الأذى» انتهى.

قلت: الأذى إساءة فتحريمه من المفهوم، ولعله يدخل في حسن العشرة التعليمُ للقرآن والتربية الدينية إن أمكن، والنصائح التي يحتاجها الجار، وطلاقة الوجه، والإبتسامة، والكلمة الطيبة وغير ذلك، فالإحسان لا حدّ له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ﴾ الذي يصحبك ويكون معك مستمراً أو في حالة الصحبة، وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡجَنۢبِ﴾ يخص الذي حولك فيخرج المبتعد عنك، وهو يعم الصاحب في السفر حال السفر، والصاحب: الزميل في طلب العلم مثلاً، والصاحب في معمل وغير ذلك، حتى الصاحب في السجن، وقد دخلت فيه الزوجة التي تكون معك في مسكن أو غيره، فهي صاحبة للزوج والزوج صاحب لها، فقد دخلا في عموم الآية، ولذلك فسره الإمام زيد بن علي عليه السلام بالمرأة، وروي ذلك عن علي عليه السلام، وحقوق الصحبة تختلف وتتفاوت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قالوا: هو المسافر الذي انقطع عن بلده، وعبارة الراغب: «ابن السبيل: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السبيل لممارسته إياه» انتهى.

قلت: لعله نسب إلى السبيل ليحسن إليه ولو كان غريباً مجهولاً لغربته فيحسن إليه لأجل السبيل، أي لكونه فيه غريباً، ولا يوقف الإحسان إليه على معرفته ومعرفة أبيه.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والإحسان إليه إيواؤه ومعونته وإعطاؤه حقه» انتهى. يعني: إطعامه وسقيه، وإيواؤه: جعله في بيت يبيت فيه، وهذا الإحسان غير حقه من الزكاة، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ العبيد والإماء والبهائم، قال الشرفي رحمه الله: «حتى الهرة والدجاجة».

قلت: ويحتمل: أنه خاص بالعبيد والإماء، لأن السياق في الناس، ولأن هذا الإسم كثر استعماله في الإماء خاصة وفي الإماء والعبيد، ولعله بسبب نسبة الملك إلى اليمين، بخلاف الأنعام فقد قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١] وهذا هو الراجح، وإن كان الإحسان إلى الأنعام من خُلُق أهل الدين، وقد جاء الحث في الحديث على الإحسان اليها أو الرفق بها، لكن لم يثبت نسبة ملك اليمين إليها، بل الملك فقط بدون ذكر اليمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لَمَّا أمر الله تعالى بالإحسان وَوَسع مواقعه وكان امتثال ذلك شأنَ أهل الإيمان عقّب ذلك ببيان أنه تعالى لا يحب من كان على ضد صفات أهل الإحسان، ونفي الحب تعبير عن تركهم من الألطاف ونحو ذلك مما يفعله الله لأوليائه.

والمختال: ذو الْخُيَلاء ومَن لازمه الكبر؛ لأن سبب الخيلاء إعجابه بنفسه، وقال الراغب: «والخُيَلاءُ: التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه» انتهى.

وفي (الصحاح): «والخال، والخُيَلاءُ، والخِيَلاء: الكبر، تقول منه: اختال فهو ذو خيلاء وذو خال وذو مَخيِلَة، أي ذو كبر، قال: والخال ثوب من ثياب الجُهّال» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالمختال ذو الخيَلاء والكبر» انتهى، ومثله في (المصابيح) وفي (الكشاف): «المختال: التيَّاه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه..» إلخ، وهو موافق لما مرّ، قال في (المصابيح): «والفخور: المفتخر على عباد الله» إلخ.

أقول: (فخُور) يدل على كثرة ذلك منه؛ لأن فعولاً من أمثلة المبالغة فهو لإعجابه بنفسه يكثر تعداد ما يدعيه فضلاً على غيره ليثبت بذلك ما يعتقده في نفسه من تفوقه على غيره، وقد فسر الفخور في (لسان العرب) بالمتكبر، ولعله: يعني المتكبر على غيره بالفخر عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ فالبخل كما قال الراغب في (مفرداته): «إمساك المقتنيات عمّا لا يحق حبسها عنه، ويقابله: الجود» انتهى، ولعله هو المعنى الحقيقي وغيره مجاز كالبخل بالسلام، والبخل بالعلم، وفي الحديث: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» اللهم صلِّ على محمد وآله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ بيانٌ لصفة المخالفين الذين لا يحبهم الله، لأنهم على صفات ضد صفات المؤمنين، ومِن أمرهم بالبخل قولهم: ﴿لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] وهو من الأمر بالمنكر الذي هو من عادة الكفار والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعم كتمان المال عمّن يستحق أن يعطى أو يقرَض وكتمان العلم ومنه كتمان ما في التوراة مما كانوا مطالبين بإظهاره من صفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أعتدنا بمعنى أنه أعدّه لهم وهيأه سواء كانت التاء أصلية أو أصله أعددنا كما مر، والكافرين أهل الصفات المذكورة، إما لأنه كفر النعمة ـ وهو الأقرب ـ أو الكفر بالإيمان. والعذاب المهين: عذاب جهنم، وذكر الإهانة مناسب لاختيالهم وتكبرهم وفخرهم.

قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فهو ذم يدل على انقسام أهل الخيلاء، والفخر قسمين: قسم البخلاء، وقسم المنفقين مالَهم رئاءَ الناس، والرِّئاء فِعال من الرؤية، فأصله محاولة أن يراهم ويرونه منفقاً ليمدحوه أو يعتقدوا فيه الجود، والواقع: أنهم لا يبذلون المال إلا لطلب الثناء من الناس أي لغرض دنيوي راجعٍ إليهم، ولكنه أشنع من الإنفاق في أغراض النفس المباحة؛ لأن الرياء إشراك لغير الله في العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ بيانٌ للعيب الثاني من عيوب هذا الفريق، ولعله يشير إلى من يدعي ذلك دعوى كاذبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] وهم من المنافقين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ يفيدُ: أن الشيطان قرينٌ لهم ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ فهو قرين سيءٌ؛ لأنه كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥] فهو يزين لهم باطلَهم المستقبل ليفعلوه والماضيَ ليصرُّوا عليه ولا يتوبوا منه، ليكونوا من أصحاب السعير.

تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ أيُّ ضرٍّ عليهم لو آمنوا، وأيُّ نقص لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله إنفاقاً مقبولاً ليس الإنفاق رئاء الناس فهو لا يعدّ إنفاقاً محموداً بل هو مذموم، وهذا زيادةُ احتجاجٍ عليهم وبيان أن الله تعالى لم يكلفهم ما يضرهم أو يكون عيباً عليهم، فلا عذر لهم في ترك الإيمان والإنفاق، وهذا دليل على أنهم كانوا قادرين على الإيمان والإنفاق؛ لأنهم لو لم يكونوا قادرين لما صح توبيخهم والاحتجاج عليهم.

ومعنى أنهم كانوا قادرين على ذلك: أنهم كانوا سالمين من الآفات المانعة، مستطيعين للدخول في الإيمان، فإذا قلنا: إنهم كانوا في حال كفرهم قادرين على الإيمان، فالمراد: أنهم في حال الكفر قادرون على الخروج منه إلى الإيمان، وليس المراد: أنهم قادرون على الجمع بين الكفر والإيمان، وهذا واضح.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنه يجزيهم في الآخرة بسوء ما عملوا في الدنيا؛ لأنه عليم بهم على ما هم عليه.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وهذا زيادة في الاحتجاج على أولئك الفريقين، وكلهم يبخلون على اختلاف نوعي البخل، فهو يبين أنهم لو أنفقوا مع أن يكونوا مؤمنين لَما ضاع عليهم مثقالُ ذرة مما أنفقوا وأحسنوا، بل كان يضاعف لهم كل حسنة من الإنفاق والإيمان وغيره، وقد مرّ تفسير مضاعفتها، ويؤتون في الآخرة ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وهو ثوابها ضوعف كما ضوعفت حسناتهم وهذا عام لهم ولغيرهم فهو ترغيب في فعل الخير وإنفاق الخير.

كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا

﴿٤١﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾

﴿فَكَيْفَ﴾ بهؤلاء المتكبرين أهل الخيلاء والفخر والبخل وترك الإيمان كيف بهم يوم القيامة ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يوم القيامة يشهد بما رأى وعلم منهم من خير أو شر ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الموجودين في عهدك الذين شاهدتَهم وعلمتَ المطيع منهم والعاصي ﴿شَهِيدًا﴾ تشهد عليهم بسيئاتهم التي توجب عليهم العذاب، فلا ينفعهم جحد وإنكار ولا اعتذار ولا تقبل منهم توبة وما للظالمين من أنصار كيف بهم في هذه الحال.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿يَوَدُّ﴾ أي يحب ويرغب أو يتمنى في نفسه ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ يصيرون في بطن الأرض ويُعفَّى أثرهم كأنهم غير موجودين في بطنها ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أراده منهم وهو يعم جواب السؤال عما قدموا وما قدموا من الكلام في الدنيا فلا يكتمون شيئاً، ولعله بعد شهادة الشهداء عليهم وانتباههم أنه لا يغني عنهم الإنكار شيئاً، والأمة: الجماعة الذين يجمعهم أمرٌ، قال تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى الحاضرين فهم أمة، وليس المراد أنه شهيد على من قبله من الأمم، ولا من سيوجد بعده ﷺ ولكن من في عهده وعلم حالهم، فهو شهيد عليهم بما علم منهم وشاهده، كما قال عيسى

تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ

عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] وهذا هو سبب استعمال اسم الإشارة هنا وفي (سورة النحل) ثم الأخيار ممن معه شهداء على من في عهدهم من التابعين وغيرهم، وهكذا الأخيار من التابعين شهداء على من شاهدوه من التابعين ومن بعدهم.

والحاصل: أن كل أمة يشهد عليهم خيارهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩] وقال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

والخيارُ عندنا: هم الخيار من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل: علي، والحسنين، وعلي بن الحسين، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ويحيى بن زيد.. وغيرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لا تتأهبوا وتقاربوا أن تفعلوها، فلا تتوضأوا، ولا تدخلوا المسجد، ولا تؤذِّنوا، ولا تقيموا، ولا تصلُّوا، فهو من قسم الكناية ﴿وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ فاجتنبوا سبب السكر عند الصلاة، وليس هذا إباحة للسكر في غير وقت الصلاة، بل هو مسكوت عنه، كما لو قال: لا تطف بالبيت وأنت عريان، فالنهيُ موجهٌ إلى السكر كما أنه موجَّه إلى العري في هذا المثال.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ تعليلٌ للنهي عن السكر المانع من العلم بما يقولون في الصلاة من القراءة والأذكار، وفيها دلالة على وجوب إحضار الذهن لما يقول المصلي، ولعل ذلك في القدر الواجب من القراءة والأذكار.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ أي ولا تقربوا الصلاة جُنُباً ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ وقد قلنا: من معنى قرب الصلاة: الإستعدادُ لها، فالإستثناء هذا محمولٌ على حال الإستعداد لها والذهاب للتطهر، فالمعنى: إلا عابري سبيل توصُّلاً إلى الصلاة، وتقرباً إليها بالعبور لفعل شرطها، ولما كان دخول المسجد هو من مقدمات الصلاة تناوله قرب الصلاة، وكانت لهم بيوت موجهة أبوابها إلى المسجد، فكانوا يحتاجون المرور من المسجد، فربما توهَّموا أن ذلك منهيٌ عنه فقال: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ ليرخص لهم في المرور إلى خارج المسجد ليتطهروا، وتوجيه الأبواب إلى المسجد قد نسخ بسد الأبواب إلا باب علي عليه السلام، فما بقي ضرورة للعبور من المسجد، ولكن يبقى الحكم لحال الضرورة كمن احتلم في المسجد.

وحديث (سد الأبواب إلا باب علي عليه السلام) له أسانيد عديدة، أوردها ابن حجر في (القول المسدد) وصحح بعض أسانيده، وصحح الحديث، ومن ألفاظه قولُ ابن عباس رضي الله عنهما في أثناء حديث: «وسد أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد وهو جنب وهو طريقه ليس له طريق غيره» انتهى.

ويؤخذ من الآية وجوب تقديم الغسل على الوضوء، وعلى الأذان والإقامة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ بالمسافر عادم الماء.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿وَإِن كُنتُم﴾ حين تريدون الصلاة ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾ جمع مريض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وأقل السفر بريد حالتان المرض والسفر مظنة فقدان الماء ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهو المكان المنخفض من الأرض يستتر فيه لقضاء الحاجة فهو قد بال أو تغوط.

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فأنتم جنب ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ لتغتسلوا به من الجنابة إن كانت؛ ولتوضئوا به من أثر الحدث ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ اقصدوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وتوجهوا إليه.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «والملامسة: الجماع، وفيه: فالتيمم: التعمُّد، والصعيد: وجه الأرض، والطيب: النظيف» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «والصعيد: يقال لوجه الأرض» انتهى. وفي [الصحاح]: «الصعيد: التراب، وقال ثعلب: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠]» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الصعيد: المرتفع من الأرض، وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، وقيل: ما لم يخالطه رمل ولا سبخة، وقيل: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠] وقال جرير:

إذا تيم ثوت بصعيد أرض ... بكت من خبث لؤمهم الصعيد

وقال في آخرين:

والأطيبين من التراب صعيداً

وقيل: الصعيد: الأرض، وقيل: الأرض الطيبة، وقيل: هو كل تراب طيب، وفي (التنزيل): ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وقال الفراء ـ في قوله ـ: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٨] الصعيد: التراب، وقال غيره: هي الأرض المستوية.

وقال الشافعي: لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار.. إلى قوله.. وقال أبو إسحاق: الصعيد: وجه الأرض..إلى قوله..لا أعلم خلافاً فيه أن الصعيد وجه الأرض..» إلخ.

وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن وجه الأرض: هو التراب، وليس منه الجبال قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:٩-١٠] وغير ذلك، فوجه الأرض تراب، وإذا مسه الماء كان طيناً.

والإشكال في الطين هل يجزي للتيمم؟

الأحوط: استعماله إذا عدم الماء والتراب، وفي الحديث: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» قال الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ انتهى من حديثٍ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام) وفيه دلالةٌ على أن الصعيد من الأرض، فلا يصح التيمم بالأحجار والنورة ونحوها.

وتفسير الطيب: بالنظيف الطاهر، هو الأقوى، فأما اعتبار الإنبات فيه فلعله يصح بناء على أن الأصل في التراب الإنبات فإذا لم ينبت فهو فاسد فلا يوصف بالطيب.

وأما الاحتجاج لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:٥٨] ففيه نظر؛ لأن طيب البلد باعتبار مصلحة السكان؛ ولذلك قال: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] فجعله خبيثاً لفوات مصلحة أهله وإن كان منبتاً نباتاً نكداً.

فالحاصل: أن خبث البلد وطيبها غير طيب التربة من حيث هي صعيد لا من حيث هي بلد، وقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي منه كما يفيده التفريع على تيممه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ كثير العفو، ومن العفو الترخيصُ بالعدول إلى الصعيد الطيب ﴿غَفُورًا﴾ كثير المغفرة، وفيه تشجيع على استعمال الرخصة عند ظهور وقتها، وترك المبالغة في الحذر من الخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب:٥].

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت هذه الآية الكريمة على وجوب فراغ القلب للصلاة، وأن لا يقرَب الصلاةَ مَن به سكَرُ النوم، أو كان ذاهلاً حتى لا يعلم ما يقول في صلاته، وعلى أن لا يصلي الصلاة مَن كان جنباً حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولم يجد الماء، فإنه يتيمم كما صرحت به الآية الكريمة، وكذلك من جاء من الغائط أو لامس النساء ولم يجد الماء.

والمراد من الملامسة: الجماع، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا..﴾ الآية [الأحزاب:٤٩] ونحوها: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ..﴾ إلى قوله ﴿.. وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ..﴾ [البقرة:٢٣٦-٢٣٧] وعلى أن التيمم ليس إلا الوجه واليدين، وعلى أن الله جعل ذلك غفراناً ورحمة، أي تخفيفاً على عباده» انتهى.

وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

﴿٤٤﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ **كلمة تعجب من قصة هؤلاء اليهود** ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا﴾ **من التوراة، أي علموا نصيباً منها، أي بعضاً وكان من حقهم أن ينتفعوا بذلك البعض، ويكونوا أبعد عن السعي بالفساد، ولكنهم على العكس من ذلك يستبدلون الضلالة بدل أن يهتدوا بما علموه، ويريدون من المؤمنين أن يضلوا ويغووا عن سبيل الله.**

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ **وليكم وهو** ﴿أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ **فلن يضركم كيدهم ومحاولتهم لإفسادكم؛ لأن الله كاف لمن تولاه لا يحتاج غيره** ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧] **لأن الله وليه ومتولي هدايته** ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ **لأوليائه فلن يضروكم بالقهر وإبطال عزة الإسلام.**

﴿٤٦﴾ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ **هؤلاء الذين ذكروا بالتعجيب من قصتهم هم** ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ **أي من اليهود الذين عادتُهم أن يسعوا في الأرض فساداً** ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ ﴿ٱلۡكَلِمَ﴾ **من بيان الحق، يحرفونه: يحولونه إلى غير محله، ليستطيعوا لبس الحق بالباطل، وتضييع فائدة سياق الكلام التي بها يتضح المراد ولا يمكن فيه جدال.**

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يقولون ﴿سَمِعْنَا﴾ قول الرسول ﷺ أو ما تلاه من القرآن ﴿وَعَصَيْنَا﴾ تمرداً وعناداً واستخفافاً بكلام الله ورسوله ﷺ ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهذا من كلماتهم، ومعناها: الدعاء عليه بالصمم، ولكنها مغلَّفة باحتمال الدعاء له بأن لا يسمع قولاً يسوءه ﴿وَرَاعِنَا﴾ وهذه كلمة يقولونها للرسول ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ يوهمون أنه طلب المراعاة، ولهم فيها مقصد فاسد. قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يقولون: ﴿رَاعِنَا﴾ واعتقادهم: راعناً بالتنوين، من الرُّعونة التي هي الحمق والسفه لعنهم الله تعالى».

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ ﴿لَيًّا﴾ أصل اللي: الفتل، وهو هنا: تحويل الكلام إلى المعنى الفاسد ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ من حيث يزعمون أنه لو كان نبيئاً لافتضحوا وانكشف زيفهم ومقاصدهم الفاسدة، أو لنَزل بهم العذاب، كقولهم في أنفسهم: ﴿لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨] فقد افتضحوا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من تلك الكلمات المذمومة التي هي وبال عليهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ لأن هذا كلام قيّم لا عوج فيه بخلاف كلامهم المذكور آنفاً.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته بسبب كفرهم، وهذا الطرد: سلب التوفيق وخذلانهم بسبب كفرهم، ولذلك لا يؤمنون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان ببعض ما في التوراة لفساد قلوبهم، ونصب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه قائم مقام المفعول المطلق ولو كان الاستثناء من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لرفع على البدل؛ لأنه أرجح في مثل هذا مثل: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ

﴿٤٧﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ خطاب للعلماء بالتوراة؛ لأن الحجة عليهم أعظم لعلمهم بما في (التوراة) من صفات محمد رسول الله ﷺ وما فيها مما جاء به القرآن من أخبار الأولين وغير ذلك؛ ولأن فسادهم إن لم يؤمنوا بالقرآن أعظم؛ لأن لهم أتباعاً يغترون بكفرهم ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ بالقرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ من التوراة أو من كتب الله جملة.**

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وعيدٌ إن لم يؤمنوا بطمس وجوه منهم، وليس عاماً ولكنه تخويف لكل واحد أن يكون وجهه من الوجوه التي يطمسها الله، وطمسها إزالة صورتها فلا يبقى أنف ولا شفتان ولا عينان ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ بإدخال صورة الوجه إلى جهة القفا حتى تكون على القفا مبالغة في طمسها ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ لعناً خاصاً بأن نخزيهم ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ كما أخزيناهم، ويحتمل: نجعلهم قردة كما جعلنا أصحاب السبت المذكورين في (سورة الأعراف) وفي (البقرة) وهذا أظهر.

قال في (المصابيح): «وقيل: لما نزلت هذه الآية، أتى عبد الله بن سلام إلى النبي ﷺ وقال: ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي، وسمع كعب بن عمر هذه الآية، فقال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت» انتهى.

وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ

فظهر: أن هذه الوجوه هي وجوه علماء (بني إسرائيل) الذين آمنوا، فكانت تطمس لو لم يؤمنوا ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو ما قضى أنه يفعله أو ما شاء أن يفعله (مفعولاً) فهو واقع لا يتخلف؛ لأن الله على كل شيء قدير.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يظهر أن هذه الآية متصلة بما قبلها، كالتعليل للوعيد في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا..﴾ الآية، وهذه الآية تعظيم للشرك، ودلالة على أن صاحبه لا يعذر بحال من الأحوال، أما ما دونه من أنواع المعاصي فإنه قد يقع على وجه يُصيّره معفواً، ألا ترى أن قتل النفس بغير حق قد يقع خطأً، وكذا الزنا قد يقع غلطاً، وشرب الخمر قد يقع ممن يجهل أنها خمر.. وهكذا سائر المعاصي، أما الشرك فلا يكون على وجه يعفى؛ لأنه لا يكون إلا عمداً لمعنى الشرك فلا يعذر صاحبه.

وفيها دلالة على أنه لا يعذر مَن أشرك ولو جهل أنه مشرك كالذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

ولعل اتصال هذه الآية بما قبلها دلالة لأهل الكتاب المذكورين أنهم مشركون لاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] واتخاذه رباً، ولعل بعض اليهود لا يعتقد أنه مشرك وفيه نوع من الشرك.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ لأنه جعل لله شريكاً في عباده أو في ملكه أو في حكمه أو في قدرته أو في علمه بدون برهان، وإنما هو

عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ

افتراء واختلاق اتبع فيه ظنه وهواه، فكان افتراؤه ذلك ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكبه، وهذا دليل على ما قلتُ من أن الشرك لا يكون إلا عمداً، والمراد أن ما هو شرك في الواقع تعمده المشرك ولو لم يعلم أنه شرك فهو لا يغفر لتعمد المعنى، والإثم: الفجور.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟ سؤال تعجيب من ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ يدعون لأنفسهم الصلاح، ولا معنى لذلك؛ لأنه لا يفيدهم شيئاً ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ فهي التزكية بالحق النافعة لمن زكّاه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ لا ينقصون مما يستحقون بزكائهم شيئاً ولو مقدار فتيل، والفتيل: يكون في بطن نواة التمر كالخيط، يضرب به المثل في القلة، كما يشبه بالنقير: وهو كالنقطة الصغيرة في ظهر النواة، والقطمير: وهو قشرة رقيقة على النواة.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فهو أبعد عن الزكاء بل هم المجرمون، وافتراؤهم على الله كنسبتهم إليه الولد، وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران:٢٤] ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بالافتراء على الله ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ إثماً بيناً، وفجوراً مكشوفاً ينافي تزكيتهم لأنفسهم.

﴿٥١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ ﴿أُوتُوا۟

نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿نَصِيبًا﴾ من (التوراة) فقد حصل لهم طرف من العلم، ومع ذلك ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الذي هو باطل لا يخفى بطلانه على من أوتي نصيباً من الكتاب.

وفي (مفردات الراغب): «ويقال لكل ما عبد من دون الله: جبت، وسمي الساحر والكاهن جبتاً» انتهى، وفي (الصحاح): «الجبت: كلمة تقع على الصنم، والكاهن، والساحر، ونحو ذلك» انتهى.

وقد اختلف المفسرون في معنى (الجبت) و(الطاغوت) ففي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «قال زيد بن علي عليهما السلام: فالجبت: السحر، والجبت: الكاهن، والطاغوت: الشيطان» انتهى المراد.

وفي (تفسير الشرفي) أعني (المصابيح) ما لفظه: «وروي عن القاسم عليه السلام أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: كل ما أطغى وأضل عن الحق من الأصنام وغيرها» انتهى.

ولعل هؤلاء المؤمنين بالسحر، هم الذين، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ..﴾ الآية [البقرة:١٠٢] وأما إيمانهم بالطاغوت فلعله تحاكمهم إلى الطاغوت، كالمذكور في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو من يحكم بغير حكم الله من الكهنة وغيرهم.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يقولون في الذين كفروا أي كفروا بالله ورسوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الكفار ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً﴾ أي أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد بالسبيل: الطريقة، أي الدين.

فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

﴿٥٢﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون بالجبت والطاغوت، القائلون للذين كفروا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ..﴾ فهم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعينهم وحقيقتهم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وهذا الطرد هو الخذلان، وسلب التوفيق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ بل ألهم نصيب من الملك؟ إشارة إلى أنهم كرهوا رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرضوا بحكم الله فيها، كأنهم شركاء لله في ملكه، لا يرسل إلا من يريدون، وليس لهم نصيب في الملك ولو كان لهم ﴿نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لبخلوا بما لديهم فلا ﴿يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ لبخلهم، والنقير: نقرة تكون في ظهر نواة التمر، يمثّل بها في القلّة.

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بل أيحسدون، إضراب انتقال إلى احتجاج على اليهود الزاعمين أن الكفار أهدى من الذين آمنوا وسلكوا طريقة أهل الحسد، الذين يكرهون حصول النعمة لمن أعطاه إياها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام ـ والمراد به أينما ذكر في (المصابيح) محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليهم السلام ـ: هؤلاء المذكورون في الحسد هم أهل الكتاب حسدوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما خصه

سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

الله به وأعطاه وحسدوا المؤمنين ومن تبعه من المسلمين فقال الله سبحانه: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ فأخبر سبحانه بما آتى الأنبياء وهذا دليل على أنهم أرادوا النبوة فيهم وحسدوا رسول الله ﷺ ما خصه الله به من الملك وأنزل عليه من الوحي، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾ فلم ينتفعوا إذ كان ذلك في داود وسليمان حتى صدوا عنه وأبعدوه ـ كذا ـ وكرهوه ونابذوه» انتهى.

فحاصل المعنى: أم يحسدون محمداً ﷺ من آل إبراهيم ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ وهو ما كان لداود وسليمان، فمن أهل الكتاب من آمن به ومنهم من صد عنه: فالمعنى قد سبق منهم هذا الحسد لآل إبراهيم، وليس بدعاً منهم حسدهم لمحمد ﷺ، أو فقد صد بعضهم عن آل إبراهيم لغير داعي الحسد والأول أظهر.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ هذا وعيد عام لمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب ولسائر الكفار الذين جحدوا كون القرآن من الله وكذبوا بالآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ من القرآن وغيره ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾ نجعلهم فيها تباشر أجسامهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ ليبقى إحساسهم بالحريق.

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ليطعموه أي ليجدوا ألم العذاب في قلوبهم وأنفسهم أو هو تعليل لإصلائهم وتجديد جلودهم في كل لحظة أو نحوها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ فمقتضى عزته الانتقام من أعدائه الذين ظلموا واستعملوا نعمه في معاصيه وأطاعوا عدوه وعصوا رسله ﴿حَكِيمًا﴾ ومقتضى حكمته أن يجزيهم بما عملوا ولولا الجزاء ما صح تمكينهم من المعاصي وتخليتهم يظلمون؛ لأن ذلك لولا الجزاء يكون إهمالاً مخالفاً للحكمة كما هو مخالف للعزة.

﴿٥٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ بساتين ذات أشجار مغطية لأرضها وهي في الجنة التي وعد المتقون ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فلا تظمأ، أكلها دائم وظلها، لا تتساقط أوراقها، وهذا مع جمال اجتماع الخضرة والماء الجاري من تحت الأشجار.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يموتون بل باقين فيها أبداً ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض ومن كل ما ينافي النظافة، فهي نظيفة من أصل فطرتها لا تحتاج إلى تنظف بشيء مما تستعمله نساء الدنيا ولا سعال ولا مخاط ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ معطوف على سندخلهم جنات فاجتمعت لهم لذة الجنات وجمالها وجمال الأنهار ونعمتها ولذة الظل الممدود الذي لا يتخلله شعاع من الشمس ولا ينسخه.

تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ ﴿ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾ عامٌّ لكل أمانة، مثل: الودائع، والرسالات، وأموال اليتامى، وقضاء الدين، وثمن المبيع المؤجل من ذلك، وأداؤها: تسليمها، وأهلها: ملاكها ومن لهم ولايتها، ومن الأمانات: الضالَّةُ، واللقطة، فهي أمانة عند من أخذها، ومنها: ما أخذه المصدق من الزكوات وغير ذلك.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن الله يأمركم ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ والعدل: هو الحق خلاف الجور، فلا يجوز الحكم بغير علم يميز بين العدل والجور، ولا يجوز الحكم بالجور اتباعاً للهوى أو بغضاً للمحكوم عليه كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨] وكذلك لا يجوز الحكم قبل تبين الحق، فلا يحكم لأحد الخصمين قبل سماع ما يقول الآخر أو قبل أن يدلي كل من الخصمين بحجته إن كان له حجة، ويحتاج الحاكم إلى أن يكون له ورع يحجزه عن الجور والميل لهوى النفس أو الغضب أو الخوف أو العجلة، وكلها راجعة إلى اتباع الهوى، والله تعالى يقول: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦] وقد قام قوله تعالى: ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ مقام ذكر الشروط من العلم والورع والتثبت وكل ما لا يتم العدل إلا به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ يعظكم عن الخيانة والجور في الحكم بما في القرآن من المواعظ والوعيد وإكمال الحجة عليكم بحكمة الله ورحمته فنعم

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ

هذا الذي يعظكم بـه الله فقـال في أول الآيـة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وقـال هنـا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ فهو تأكيد للأمر، ودلالة على أن الله قد أتم الحجة عليكم، وقطع المعذرة بما وعظكم به في هذا القرآن من المواعظ العظيمة الـتي هي نعم المواعظ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فلا تخفى عليه خيانة خـائن، ولا جور جائر في حكمه فراقبوه.

﴿٥٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بطاعة الله في كل شـيء وطاعتـه وجبت بها طاعة الرسـول وأولـي الأمـر ولـذلك فصـل طاعـة الرسـول وأولـي الأمر؛ لأنـه لا شـركة لهمـا في الملـك، فقـال تعـالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فطاعة الرسول بأمر الله وهي تبع لرسالته، قال تعـالى: ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِـنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَـا يَنْطِـقُ عَـنِ الْهَـوَى * إِنْ هُـوَ إِلاَّ وَحْـيٌ يُـوحَى﴾ [النجم:٣-٤] فوجبت طاعتـه في كـل شـيء، ولـذلك قـال تعـالى: ﴿فَلْيَحْـذَرِ الَّـذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الآية [النور:٦٣] وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وأما طاعة ولي الأمر الولاية العامة فهي كذلك بأمر الله، وهو قائم مقـام رسول الله ﷺ في إقامـة الـدين والحكـم بـالحق والعـدل، وهدايـة النـاس، والدعوة إلى الخير، وجهاد الكفار والظالمين، والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر، ونحو ذلك مما به صلاح وسعادة الناس في الدنيا والآخرة.

وهذه مهمة كبرى، ومسئولية عظمى، لا يتهيأ القيـام بهـا إلا لمـن ارتضـاه الله واختاره من ورثة كتاب الله الذين دل عليهم القرآن الكـريم والرسـول ﷺ،

وهي لذلك ولاية شرعية مستمدة من القرآن، فلا ولاية شرعية إلا ما كان مصدره القرآن الكريم، ولا اعتبار للولاية بالوراثة أو الملكية أو ما يسمى بالديمقراطية ونحو ذلك مما صدر عن القوانين الكفرية الواردة من أعداء الإسلام المغايرة لشريعة الله.

ولقد عمل الظالمون في الماضي والحاضر على تضليل الناس، ولبس الحق بالباطل من خلال استغلال هذه الآية الكريمة لتثبيت ملكهم، وردع الناس عن مخالفتهم، وإلزام الناس بطاعتهم، فاعتبروا أنهم أولوا الأمر المقصود في هذه الآية، تضليلاً على الناس وغشاً لهم، وكذلك افتروا على النبي ﷺ واختلقوا كثيراً من الأخبار الموجبة لطاعة ولي الأمر حتى وإن كان ظالماً فاسقاً جائراً، وهذا ضلال كبير، وفساد عظيم يتنافى مع القرآن والرسول الكريم ﷺ وحاشا لله أن يريد ذلك، وحاشا لرسوله ﷺ أن يصدر منه كذلك، والله المستعان.

وأما طاعة الأمراء المتولين لولاية خاصة كأمراء السرايا ونحوهم فهي واجبة تبعاً لأمرهم، فلا تجب إلا في حدود أمر الأمير، فمن حيث أن الأمراء كلهم ليس لأحد منهم أن يأمر بمعصية الله أو ينهى عن طاعة الله، بل الواجب عليهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤١].

فإمرة الأمراء كلهم محدودة بأن يأمروا بالحق وليس لهم أن يأمروا بمعصية، فالأمر بالمعصية خارج عن حدود ولايتهم ولا تجب طاعتهم فيه من

حيث هم أمراء بل تجب مخالفتهم طاعة لله ورسوله، وهذا فيمن لم يثبت أنه مع الحق وأنه لا يأمر إلا بالحق فنفس أمره ونهيه دليل على الحق.

وأما سائر الأمراء صغارهم وكبارهم فلا أمر بطاعتهم على الإطلاق بل في حدود إمرتهم؛ لأن الحكم معلق عليها، فأمير السرية يطاع في حدود إمرته وذلك فيما يتعلق بالمقصود الذي أرسل له لا في كل شيء وكذلك الأمير على بلد لأعمال مخصوصة تذكر في عهد الوالي الذي ولاّه، فإمرته محدودة بها.

وبهذا يظهر: أنه لا يجب في كل صاحب ولاية أن يكون معصوماً، ولا حاجة إلى اشتراط العصمة؛ لأنه ليس مشرعاً ولا طاعة له إن أمر بمعصية، نعم ينبغي في الإمام الأعظم أن يكون الظاهر من حاله لعلمه وورعه وزهده وسعة صدره وقوته على تحمل هذا الأمر أنه لا يتحول في المستقبل إذا تمكن في الأرض وهذا يمكن فيمن كمل اختباره في سفره وحضره ورضاه وغضبه وغير ذلك من أحواله حتى ظهر منه أنه لن يتحول، ومن كان هكذا فالظاهر من حاله العصمة.

وعلى هذا: يحمل ما حكي عن أبي العباس الحسني من اشتراط العصمة في الإمام، وأن المراد العصمة في الظاهر، لا اشتراط أن تثبت عصمته بدليل، ومرادنا بالعصمة: التسديد من الله والتوفيق والألطاف، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «من العصمة تعذر المعاصي».

والمراد ـ أيضاً ـ العصمة عن تعمد الظلم، ومخالفة الحق عمداً، لا الخطأ والنسيان وما أشبه خطايا الأنبياء، ويمكن الاحتجاج لهذا القول بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

﴿بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤١] والله أعلم، وفي اشتراط هذا نظر لاحتمال الدليل فإن وجد مَن ظاهره كما ذكرنا فلا إشكال أنه أولى ممن ليس كذلك وإن لم يوجد فعدمه دليل على أنه لا يشترط.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ دليلٌ على أنه لا طاعة لكافر؛ لأنه ليس منا، وكذا المنافق والفاجر المسرف الغاش لرعيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ ولأن الواجب نهيه عن المنكر والأخذ على يديه من الظلم، وقد كفرهم الإمام الهادي عليه السلام وأوجب البدء بقتالهم، واحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] ولعل هذا فيمن يدعي الباطل الواضح البطلان ويدعي أنه حق بناء على قانون كفري أو لمجرد اتباع هواه.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلاً﴾ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ خطاب للذين آمنوا فهو يعم الولاة والرعايا، فعليهم أن يردوا ما اختلفوا وتعارضوا فيه وتطالبوا إلى الله والرسول.

وفي (أمالي المرشد بالله عليه السلام) في (الحديث الرابع والثلاثين) [٢/ ٢٣٥] قصة التحاكم بين أمير المؤمنين علي عليه السلام ويهودي في درع لأمير المؤمنين عليه السلام بعد حرب صفين.

وفي (أمالي أبي طالب عليه السلام) بسند آخر عن الشعبي قال: وجد علي بن أبي طالب عليه السلام درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شريح يحاكمه.. إلى آخر القصة وهي في (الباب الثالث) [ص٥٥-٥٦].

ولعل هذا هو السر في الإتيان بـ(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ ويحتمل أن الإتيان بـ(الفاء) للتفريع على طاعة الله وطاعة الرسول المأمور بها في أول الآية، ولكن هذا يشمل أولي الأمر في إيجاب الرجوع إلى الله ورسوله، ويدل على أن الرد إلى أولي الأمر لا يغني عن الرجوع إلى الله ورسوله؛ لأن على أولي الأمر إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بحكم الله ورسوله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل: (وأولي الأمر منكم).

فظهر: أن الواجب الرد إلى الله ورسوله، وأنه لا يستغنى عن ذلك بالرد إلى أولي الأمر، فأما التحاكم إلى أولي الأمر الذين يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله بناء على أنهم كذلك، فليس استغناء عن كتاب الله وسنة رسوله بل توصل إلى حكمهما، بحيث لو ظهر مخالفة الحاكم لهما وقطع بذلك لرد حكمه كسائر الحكام، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] وعلى هذا فلا دلالة في الآية على أن قول الأمير حجة بمنزلة الكتاب والسنة.

ومعنى الرد إلى الله: الرد إلى حكمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:١٠] والرد إلى الرسول: الرد إلى حكمه؛ لأنه يحكم بحكم الله في كتابه أو فيما أوحى إليه من وحيه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله الرد إلى سنته الجامعة غير المفرقة».

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ حثٌّ على الرد إلى الله والرسول ويدل على أن ذلك من مقتضى الإيمان ومن شأن المؤمن، وهو

إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

يفيد: أن من امتنع من الرد إليهما وأصر على الشقاق فليس بمؤمن، وكذلك من ردّ إلى غيرهما كحكام الطاغوت من الكهنة وغيرهم، كما يأتي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا..﴾ إلى آخر الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ فهو ترغيب في الرد إلى الله والرسول عند التنازع؛ لأنه يقطع الخلاف ويقرب من الائتلاف، ويوضح الحق لمن كان غالطاً، ويدفع الكبر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ فالرد إلى الله والرسول يؤول بالمتنازعين إلى مآل محمود ويصير بهم إلى عاقبة مرضية؛ لأنه يقطع تطور النزاع وتسلسل الخلاف بين المتنازعين، بل وبين ورثتهم ومن يتبعهم حتى تبقى فائدة الحكم يتوارثها الأجيال، كما أن ترك الرد إلى الله ورسوله قد يؤدي إلى القتال وتسلسل القتال، فلعظم أهمية الرد إلى الله والرسول جاء في الحث عليه هذه الآية والآيات التي تليها.

﴿٦٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من قصتهم وتوجيه للسامعين إليها ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ يدّعون ذلك دعوى ويقولونه بألسنتهم أنهم آمنوا ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ بالقرآن أنه من الله، وأنه حق، أو بما أنزل إليك من الوحي كله أنه حق من الله، ومع هذه الدعوى ما يكشف كذبها، وهي أنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى الكاهن مثلاً ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ أن يكفروا بكل حاكم يحكم بغير حكم الله.

تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أن يغويهم غواية بعيدة عن طريق الصواب؛ لأنهم أطاعوه فتسلط عليهم، وظاهر الآية: أن الخصمين أرادا التحاكم إلى الطاغوت، فما يروى: أن سبب نزولها أن أحدهما طلب التحاكم إلى أبي القاسم أي النبي ﷺ، والآخر طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف ونحو هذه الرواية، فذلك غير صحيح لمخالفته ظاهر الآية.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي إذا دعوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول رأيتهم ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً؛ لأنهم منافقون غير مؤمنين كما زعموا.

﴿٦٢﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ بنفاقهم وطلبهم التحاكم إلى الطاغوت وسائر معاصيهم ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ للتخلص من المصيبة أو لتغطية نفاقهم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ بطلب التحاكم إلى الطاغوت ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ فيما بيننا وتيسيراً من كل منا لخصمه لسهولة التحاكم إلى الطاغوت مثلاً ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ فيما بيننا وقطعاً للخلاف لا الفرار من التحاكم لديك فادع لنا بكشف المصيبة أو فلا تتهمنا بالنفاق.

﴿٦٣﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يحلفون بالله إن أردنا، أي الذين

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا

في قلوبهم خلاف ما يزعمون قد علمه الله، فلا يفيدهم الحلف شيئاً ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ اتركهم ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ أزجرهم عن النفاق وادعهم إلى الإيمان لينجوا من النار ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغًا﴾ قال في (الكشاف): «أي قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم، مؤثراً في قلوبهم..» إلخ.

أقول: الظاهر: قل لهم في أنفسهم أي قل لهم كلاماً فيهم تخبرهم عن حكمهم عند الله وتنذرهم عاقبة نفاقهم ونحو هذا من كشف زيفهم بما يعلمون به أن الله قد أطلعه على ما يكتمون أو نحو هذا ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغًا﴾ ينفذ إلى قلوبهم ويؤدي إليها الخوف والغم بسبب ما قدمت أيديهم، والإعراض هنا مثله في قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة:٩٥] فهو ترك العقاب العاجل أو الإعراض عن محاورتهم فيما يعتذرون منه وهذا أقرب؛ ولذلك صح تقديمه قبل قوله تعالى: ﴿وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فليس لأحد أن لا يرضى بحكم الرسول، ولا يتم الإيمان بالرسول إلا باتباعه وطاعته وتحكيمه.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بطلب التحاكم إلى الطاغوت وصدودهم عنك ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ طلبوه أن يغفر لهم ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ لأنهم قد تابوا ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا

تَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ

رَّحِيمٗا﴾؛ لأنه لو تابوا تاب عليهم ورحمهم وأخبرهم بذلك الرسول فكان هذا خيراً لهم من الحلف بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ تكذيبٌ لدعواهم أنهم آمنوا بعد بيان الدليل على بطلان الدعوى كما لو قالوا قد آمنا، فقال لا، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ﴾ قسم على إبطال دعواهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى آخر الآية، دليلٌ على أن الإيمان لا يكون إلا مع تحكيم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا يكفي التحكيم بل لا بد من أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكفي ذلك بل لا بد من التسليم والانقياد للحكم.

وقوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي فيما وقع بينهم من مشكلة تنازعوا فيها، قال في (الصحاح): «وشجر بين القوم: إذا اختلف الأمر بينهم..» انتهى.

قلت: معنى اختلاف الأمر: اختلاف وجوهه التي لأجلها تنازعوا فيه، ولعل أصل معنى شجر هنا من شجَرَه الرمحُ إذا شبكَه، قال:

يذكرني (حم) والرمح شاجر ... فهلا تلى (حم) قبل التقدم

والحرج: الضيق، فإذا وجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكم الرسول الذي حكم به بينهم فليسوا مؤمنين، والتسليم: الانقياد بتنفيذ الحكم والعمل به.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: هذا نص صريح في عدم إيمان من يجد في صدره أدنى حرج من حكم ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» انتهى.

وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن

قال في (الكشاف): «تسليماً تأكيدٌ للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم» انتهى.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ السياق في الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وهم يزعمون أنهم آمنوا، بدليل العطف في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فهم في صدودهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يصدون عن الشريعة اليسرى، ولو أمروا بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم لامتنعوا، ولم يبق تستر بالأيمان الفاجرة: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

والضمير في قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ عائد إلى أحد الشيئين، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ يفيدُ: أن القليل منهم يصلحون في المستقبل مطلقاً، أو لو كلِّفوا أحد الأمرين، ويحتمل: أن القليل منهم لو خيِّر بين قتل نفسه والخروج من داره لاختار الخروج من داره وامتثل به؛ لأنه لم يؤمر بقتل نفسه على التعيين.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا﴾ ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ ما يؤمرون به زجراً لهم عن الباطل، كالتحاكم إلى الرسول لئلا يقعوا في أحد باطلين: إما التحاكم إلى الطاغوت، وإما المغالبة المؤدية إلى الجرح أو القتل أو نحو ذلك إذا تركوا المحاكمة ﴿لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾ لأنه أمر علاَّم الغيوب أحكم الحاكمين الذي لا جور فيه ولا غلط الذي يريد اليسر ولا يريد العسر ﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا﴾ لكم على الحق وطريق النجاة؛ لأن طاعة الله وتقواه مع الإيمان سبب للتثبيت، كما أن المعصية قد تكون سبباً للزيغ.

يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَإِذًا﴾ لو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴿لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا﴾ ثواباً ﴿عَظِيمًا﴾ فاجتمعت لهم فائدة العاجل بإصابة الحق الذي هو ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ والتثبيت على الحق لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، وفائدة الثواب في الآخرة، وفائدة زيادة الهدى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

ولعله قدم ذكر الأجر لكونه أبلغ في الترغيب وزيادةُ الهدى سببٌ لزيادة الأجر، والصراط: الطريق القوي الواضح قال الشاعر:

دعسنـــا أرضهـم بالخيل حتى   تركناهـــا أذل من الصـــراط

والمستقيم: الذي لا عوج فيه، والمراد به: سبيل الله الذي هـو دينـه، فتـدل الآية على: أن الانقياد لأمر الله ونهيه سبب للعلم النـافع الـذي هـو معرفـة الدين وسببٌ للتوفيق للعمل به.

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ هذا عام للمؤمنين المطيعين بأنهم يكونوا ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ في الجنة يرافقونهم فيها يواصلونهم فيها ويلاقونهم ويزورونهم مثلاً فكما هداهم في الدنيا لصراطهم جعلهم في الجنة رفقاءهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

قال في (الكشاف): «فيه معنى التعجب، كأنـه قيـل: ومـا أحسـن أولئـك رفيقـاً» انتهـى، ومثلـه في (المصـابيح). والأقـرب: أن المـراد بالصـديقين: السابقون إلى الأنبياء المصدقون بما جاءوا به.

ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ

وقد روى الحاكم في (شواهد التنزيل) في الآيات من (سورة الحديد) بسنده: عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠] وحزبيل مؤمن آل فرعون، هو الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨] وعلي بن أبي طالب الثالث وهو أفضلهم» انتهى.

وأخرجه ابن المغازلي [ص١٥٩-١٦٠] بسنده عن ابن أبي ليلى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ فذكره، وخرجه المحمودي في طبعة (شواهد التنزيل) الثالثة من عدة كتب، فأفاد: أنه رواه أبو نعيم في كتاب (معرفة الصحابة) وابن عدي. قال: «ورواه ـ أيضاً ـ في (الروض النضير) [٥/٣٦٨] عن ابن النجار، وأبي نعيم في (المعرفة) ورواه ـ أيضاً ـ السلفي في المشيخة البغدادية» انتهى.

وأما الشهداء فيحتمل: أنهم الشهداء على الناس، وقد مر ذكرهم عند قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ..﴾ وهذا أظهر.

ويحتمل: أنهم الذين قتلوا في سبيل الله، ولا يبعد أنهم سموا شهداء لأنهم يشهدون على الناس، فيكون المعنى واحداً.

والصالحون: هم الكاملون في الإيمان والتقوى والعمل الصالح الذين سلموا من المعايب ومن الجهل، فهم أهل العلم النافع والعمل به، وهذا لأن السياق يدل على تفوقهم في الصلاح.

﴿٧٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كون المطيع لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم المذكورين هو ﴿ٱلْفَضْلُ﴾

العظيم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ الذي ينبغي أن يسعى له كل عاقل ويطلبه بكل جهد؛ لأنه الفضل من الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥] أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، لا ينقصه عطاء، ولا يثقل عليه تفضل؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بمن أطاع وبما يحق له من الفضل.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية الكريمة على أن جميع ما أنعم الله به على عباده المؤمنين من الهداية والثواب فضل من الله تفضَّل به على أوليائه وليس ذلك بواجب عليه، تعالى الله عن أن يجب عليه واجب» انتهى.

قلت: يعني أنه لا يجب على الله تعالى على حدٍّ وجوب الأجرة للأجير لأن الطاعات وجبت للمالك المنعم فلا يجب للعبد أجر عليها ولكنه يستحق الثواب، بمعنى أنه أهل له، كما أن العاصي يستحق العقاب بمعنى أنه أهل له وحقيق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بطاعة من أطاعه وما يستاهل من الثواب والتفضل وبكل شيء.

(٧١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ كونوا على حذر من أعدائكم وقد جعل الحذر مأخوذاً كالسلاح وأضيف إليهم؛ لأنه وقاية لهم يختص بهم كما يختص بهم السلاح ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي جماعات ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين كلكم، والنَّفرُ: الخروج إلى العدو أو هو عام لكل ارتحال في سرعة.

قال في (مفردات الراغب): «النفر: الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء، كالفزع إلى الشيء وعن الشيء» انتهى.

فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أي ممن قد آمن في الماضي ولكنه قد صار في قلبه مرض وذهب منه الإيمان، وأكد هذا بـ(إن) و(اللام) وتأكيد الفعل؛ لأنهم يستبعدون ممن قد آمن أن ينقلب مثبطاً عن الجهاد مائلاً إلى الدنيا ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليثبطن عن الجهاد ويخذل عنه.

﴿فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم﴾ في الجهاد ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ بوقوع قتل وجراح مثلاً ﴿قَالَ﴾ هذا المثبط: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي أنعم الله علي إذ لم أكن معهم فيصيبني ما أصابهم، ومعنى شهيداً: حاضراً وهذا القول منه من خذلانه؛ لأنه الخاسر بالتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكأنه أراد تبرير تخلفه وتبرير تثبيطه والزيادة في التثبيط بهذا الكلام.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ﴾ أي نالكم ﴿فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولحقكم نصر وغنيمة مثلاً ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ﴾ بالغنيمة ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وذلك أنه لا يهمه إلا الدنيا ومطالبها، فهي عنده الفوز العظيم.

ويظهر من هذا: أن الكلام في بعض من قد آمن ولم ينافق إنما في قلبه مرض قد ذهب عنه الإيمان واشتغل بحب الحياة ومطالبها، فتثبيطه ليس نفاقاً إنما هو ليوجَد متخلفون معه حتى لا ينفرد بالعار؛ ولهذا لو أصابوا غنيمة لتمنى أنه كان معهم، والمنافق بعيد من ذلك لأنه يكره نصر الإسلام على كل حال.

يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ فهذه مودة الإيمان استمرت فيه حتى ظهر أمره واستمرت فيهم كذلك بناء على إيمانه، وكانت هذه المودة تهيئ له الغزو معهم لوثوقه بهم في رعاية الصحبة والأخوَّة في الطريق وحال المعركة لكن تخلف ميلاً إلى الراحة وزهداً في الدين وقلة مبالاة بأمر الله ورسوله، وكثير من الناس أمثال هذا مسلمين غير منافقين لأن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ بالقتال في سبيل الله ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ أي يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بالحياة الآخرة أي حياة السعادة الدائمة في جنات النعيم، وهذه هي التجارة الرابحة لا تجارة عبيد الدنيا الذين خسروا الجنة وهم لا بد مفارقون للدنيا.

﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ شهيداً ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ ينتصر على العدو ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو ثواب الآخرة جنات النعيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فكأنه قيل للمؤمنين: قاتلوا في سبيل الله ولا تكونوا مثل هذا المثبط الخاسر، وفي هذه الآية دلالة على وجوب القتال في سبيل الله، وهي دلالة واضحة، كدلالة قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وفي ذلك دلالة على لزوم ما لا يتم إلا به من إعداد القوة، وصلاح ذات البين، واتخاذ قيادة صالحة ذات كفاءة كاملة في الشجاعة وحسن الرأي والتدبير، والنصح لله ورسوله، وبيع الدنيا بالآخرة.

وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ سؤال استنكار عن سبب ترك القتال ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع وجود الباعث عليه لمن آمن واتقى وضعف الصارف عنه بحيث لا ينبغي للمؤمن أن يعتذر به، كأن يقول السبب حب الحياة العاجلة ونسيان الآخرة؛ لأن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ وفي المستضعفين لأنهم إخوة في الدين مقهورون، وفيها دلالة على حق المؤمن على المؤمن، وأنه يشترك فيه الذكر والأنثى، والحر والعبد.

قال في (الصحاح): «والوليد: الصبي والعبد، والجمع: ولدان وولْدَة» انتهى. قال في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآيتان الكريمتان على وجوب القتال في سبيل الله، واستنقاذ الضعفاء المؤمنين الذين يحبون الهجرة ولا يستطيعون سبيلاً من الرجال والنساء والولدان» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ يدل على أنهم راغبون في الهجرة إلا أنهم لم يستطيعوا فدعوا الله أن يخرجهم من القرية التي هم فيها ساكنون؛ لأن أهلها ظالمون ولا يستطيعون الهجرة من بينهم ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى شؤوننا ويقوم بمصالحنا ويدفع عنا عدونا ونجاهد تحت قيادته ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا على أهل هذه القرية.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَـٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ

وقولهم: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ يفيد: أنهم طلبوا أن يجعل الله ذلك من عنده وهو الولي الذي يستطيعون معه العمل بدين الله الذي يرضاه الله لهم غير ولاة السوء، وكذلك قولهم: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فيظهر: أنهم أرادوا بهذا الدعاء طلب نصر الله لنبيه ﷺ حتى يفتح بلد الظلمة ويخلص المستضعفين من ظلم الظالمين؛ لأن ذلك هو الذي يتصور في تلك الحال.

﴿٧٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتثالاً لأمر الله، ورغبة في ثواب الله ومرضاته؛ لأن إيمانهم بالله واليوم الآخر المبني على اليقين يبعثهم على الخوف من الله والحذر من النار، بحيث يؤثرون طاعة الله على حب الدنيا؛ ولأنهم يغضبون لله على أعداء الإسلام، وتحركهم الحمية الإسلامية للجهاد، فمن هنا كان الجهاد من علامات الإيمان كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ والطاغوت: ما أطغى، يفسر بالشيطان وقادة الكفر، وسبيلهم الباطل ومحاربة الحق ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَـٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ﴾ هم المقاتلون في سبيل الطاغوت فقد صاروا بذلك من حزب الشيطان وصاروا مع الشيطان في الدعوة إلى الباطل، والصد عن سبيل الله.

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فلا يستطيع مقاومة أهل الحق إذا صبروا وكانوا حزب الله وجنده؛ لِما عندهم من قوة الإيمان، وما ينزل لهم من

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ

نصر الرحمن؛ ولأن حزب الشيطان يحبون الحياة ويؤثرونها بخلاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم من الله رغبة في الجنة ومرضاة ربهم، فهم في القتال يرجون إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة.

﴿٧٧﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تعجيب من قصتهم وتنبيهٌ للسامع للإصغاء لها قيل لهم كفوا أيديكم ولا تمدوها لإثارة الفتنة ومخاصمة الكفار، كما يفعل بعض الأتباع الذين يجرُّون المصائب على من هم معه قبل كمال الإعداد لقتال العدو وينفرِّون الناس عن إتباع الحق؛ لأن عدوانهم ينسب إلى أهل الحق لانضمامهم إليهم، وهم يصورون للناس أن الذي يفعلونه صلابة في الدين فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ عما تفعلون ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذلك يكفيكم عن الخصومة في هذا الأوان، واجعلوا جدكم الذي تزعمونه في الدين بدلاً من أن تجعلوه في الخصومات، اجعلوه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فهو العمل النافع إذا كان مع التقوى.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هؤلاء قوم ممن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنافقين يظهر بلسانه ما ليس في قلبه، وكانوا

يتبرعون إلى الفتنة والقتال ويمدون أيديهم فيما لا يجوز من الأفعال، فنهاهم الله عن ذلك، وكان فعل هذا من قبل أن يفترض الله ـ عزَّ وجل ـ على النبي ﷺ الجهاد، فأمر الله سبحانه بالجهاد وحكم به عليهم، وأطلق لنبيه ولهم، ثم نَكَلوا عما كانوا يقولون، ورجعوا عما كانوا من أنفسهم يُظهِرون.

ثم أخبر أنهم يخشون الناس ويفزعون من قتالهم كخشية المؤمنين لله الذين لا ينكُلون عن أمره ولا يرجعون عن حكمه، فذكر الله ـ عزَّ وجل ـ هؤلاء المنافقين أنهم يخشون الناس ويهابون كخشية الله وليس لهم خشية، ولو كانت لهم خشية لله وهيبة ومعرفة ما نَكَلوا ولا رجعوا ولا وَنَوا ولا قصَّروا، ولكن الله أخبر نبيئه والمؤمنين أن هؤلاء المنافقين يخشون الناس كخشية الله التي في قلب نبيئه وقلوب المؤمنين معه، فذم الله سبحانه أهل النفاق والكفر والشقاق بفعلهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]» انتهى.

قلت: لا يبعد عندي أنهم في أول أمرهم لـمَّا ينافقوا وأنهم إنما كانوا فاقدي الإيمان، ثم نافقوا بعد ما كتب عليهم القتال ـ والله أعلم.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ لما كتب عليهم القتال ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ جهلاً منهم بحكمة الله في القتال وعظم فائدته في الدنيا والآخرة وعدم مبالاةٍ بالدين والدفاع عنه، وهذا لأن معنى: ﴿لِمَ كَتَبْتَ﴾ لأيِّ سببٍ كتبت.

وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ﴾ طلب إمهالهم في الحياة إلى أن يموتوا بآجالهم وهي قريبة، فهم حريصون على الحياة مدة قليلة طلبوا أن يسقط عنهم القتال حرصاً عليها وتقريبهم للأجل، وتقليلهم للمدة في هذا الدعاء دليل

مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ

على جهلهم بقدرة الله وسهولة تعميرهم في هذه الحياة، فطلبوه كما يطلب المخلوق الشيء القليل ليسهل عليه إعطاء المطلوب.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ لا ينبغي أن تجعلوه أكبر همكم ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لما فيها من النعيم المقيم والملك الكبير فهي التي ينبغي أن تحرصوا عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ولا تنقصون من أجر الجهاد والعمل للآخرة شيئاً، والفتيل يضرب به المثل في القلة كما مر، وهو خيط صغير يكون في بطن نواة التمر. وفائدة قوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ دفع توهمهم أن الآخرة خير لهم على الإطلاق لو قال: والآخرة خير، فبين: أن الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ فإن اتقوا فهي خير لهم، وإلا فلا.

﴿٧٨﴾ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ أي يلحقكم فهو طالب لكم لا تفوتونه، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «البروج: القصور، الواحد برج» انتهى.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ(غريب القرآن): «﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ معناه: في حصون واحدها برج، والمشيدة: المطوّلة، والمشيد: المزيّن» انتهى.

قلت: الأنسب للسياق أن المشيدة هنا بمعنى: المطولة؛ لزيادة حصانتها بالطول، وقد يقال: إن طلاءها بالشيد الذي هو الجص زيادة في قوّتها، وحصانتها من حيث أن المشيد يصعب الطلوع فيه من خارجه، فيأمن ساكنه طلوعَ العدو من ظهر البرج.

وعلى *هذا*: فيحمل على المعنيين لعدم التنافي ولمناسبة كل منهما، وهذه الجملة من الآية تذكير بالموت، وأنه لا ينفع الفرار منه؛ لأنه لا بد منه، وإذا لم يكن الحياد منه إلا لتأخيره مدة قليلة فهي لا تساوي فوات فريضة الجهاد وثوابها والتعرض لعذاب الله بمعصية أمره بالجهاد.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا نوع آخر من كلام هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ يدل على فسادهم وإفسادهم واستعدادهم للنفاق. فإذا نالوا نعمة ولو كانت بسبب من رسول الله ﷺ لم يعترفوا له بالتسبيب للخير، بل قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ واقتصروا على ذلك، وإن نالتهم مصيبة قالوا للنبي ﷺ: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ ولولاك ما أصابتنا، وذلك على طريقتين:

إحداهما: ما كان بسبب وجود النبي ﷺ وعداوة الكفار له مثل مؤنة حفر الخندق، وهول يوم الأحزاب، وهذا يدل على فسادهم، وأنهم لا يريدون الدفاع عن الدين، ولا عن النبي ﷺ.

الطريقة *الثانية*: التشاؤم كما كان من قوم فرعون، وحكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١] وهذا كثير في الأولين والآخرين يتشاءمون بأهل الحق تنفيراً عنهم.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فالفتح، والنصر، والغنائم، والأرزاق.. ونحو ذلك، كلها من الله تعالى نعمة لعباده واختبار، والمصائب تنزل من الله اختباراً وتمحيصاً للمؤمنين وتمريناً لهم على تحمل الشدائد، وغير ذلك من الفوائد، وعقوبةً للعصاة المتمردين ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فلا

أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ

يرجعون عن جهالاتهم، ولا يهتدون بما بلغهم الرسول ﷺ من هدى الله ولا يحسنون إسلامهم ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً صادقاً بعد ما جاءتهم البينات.

﴿٧٩﴾ ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة وخير ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ تفضل ﴿وَمَا أَصَابَكَ﴾ من مصيبة كالمرض ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أنت سببت له، وهذا معنى نسبته إلى العبد أنه بسبب العبد مع أنه من الله، فلا تعارض، وقد قال في مصيبة (أُحُدٍ): ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] ولا يجب في التسبيب كله أن يكون معصية متعمدة، بل يمكن أن يكون خطأً ويكون سبباً للمصيبة، وليست عقوبة كأكل بعض الطعام الذي يضر بغير تعمد.

نعم قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ الظاهر: أنه خطاب للنبي ﷺ، ومن فائدة ذلك: أن يعرف الجاهلون الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أن يعرفوا أن ما أصابهم فبما كسبت أيديهم؛ لأنهم أولى لعصيانهم تعمداً بخلاف الرسول ﷺ.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ كسائر رسلنا مبشرين ومنذرين، فعلى هؤلاء المتشائمين أن يكون همهم معرفة ما أرسلت به من عند الله وإتباعك لا التشاغل عن ذلك بالأغراض الدنيوية وجعلها أكبر همهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على الرسول والمرسل إليهم والمتبع للرسول والمخالف له.

عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

﴿٨٠﴾ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ **لأن الله أمر الناس بطاعته لأنه مبلغ عن الله وما ينطق عن الهوى** ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ **عن طاعة الرسول وعصاه فأمره إلى الله، فهو الذي يجازيه، وليس على الرسول أن يحفظه عن العصيان الذي هو سبب هلاكه.**

﴿٨١﴾ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ **هم الذين قيل لهم:** ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**﴾ **يقولون: شأننا طاعة للرسول** ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ ﴿بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾ **ذهبوا من عندك وصاروا في فضاء من الناس** ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ **أي قالت في الليل قولاً قدرته لنفعها وسلامتها فيما تظن قولاً** ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ **لك أي خلاف الطاعة، فهي تبيت المعصية، ولعله تزيين النفاق والتآمر بينهم أن ينافقوا.**

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ **يحفظ** ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ **لا ينساه فيجزيهم به يوم القيامة، أو يكتب بأمر الحفظة أن يكتبوه** ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ **لا تعاقبهم ولا توبخهم** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ **اتخذه وكيلاً تكل إليه أمورك، واعتمد على نصره وحمايته وكفايته** ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ **لأنه عالم بحالك وكل شأن من شؤونك لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عنك لحظة، ومع ذلك هو قادر على نصرك وحمايتك وكفايتك، وهو مع ذلك برّ رحيم لطيف لما يشاء.**

لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لَمَّا كانت معاصيهم سببُها مرضٌ في قلوبهم دلهم على القرآن ﴿شِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧] فإنهم إذا تدبروه بإنصاف وطلب للحق وجدوه ناصحاً أميناً يهدي إلى طريق مستقيم، بما فيه من الوعد والوعيد، والتذكير بالله، والتحذير من الشيطان ومن الاغترار بالدنيا نفعهم إذا آمنوا به وأيقنوا أنه من الله أصدق القائلين، فلينظروا ليعلموا أنه من الله.

﴿وَ﴾ من الدليل على أنه من الله أنه: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ لأن المخلوق ضعيف تختلف حالته في النشاط وحضور الفكر والكسل والغفلة والقوة والضعف ونحو ذلك، فيختلف كلامه تبعاً لاختلاف حالاته، فيحسن نظمه تارة ويغيره تارة أخرى، فلذلك ترى قصائد الشاعر الواحد تختلف في الحسن والإتقان وتتفاوت.

بل القصيدة الواحدة تختلف في إحكام الكلام؛ لأن بعض المعاني تتجه إليه فكرته لرغبته فيه وقوة الباعث عليه من حب وشوق أو حزن أو غيظ وغضب أو طمع أو بغض أو غير ذلك، والبعض الآخر يتكلفه فالذي يسهل يكون أقدر على إتقان نظمه والذي يتكلفه يضعف عن إتقانه وهذا واضح.

أما كلام الله ـ جلَّ جلاله ـ فلا يختلف؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] و ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] وقد علم العرب هذا فلم يستضعفوا شيئاً من نظمه ولا انتقدوا شيئاً من تركيبه، ولو كان فيه اختلاف لسارعوا إلى نقده لكراهتهم للإيمان به ورغبتهم في إبطاله، وتدبر القرآن: تفهُّم معانيه وما يستفاد منها وتؤدي إليه.

قال في (الكشاف): «تدبر الأمر: تأمله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصُّر ما فيه» انتهى.

قال في (المصابيح) حاكياً: «وفي الآية دلالة على بطلان قول من يزعم أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ أو حجة الله تعالى؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن لدعاء المكلفين إلى التدبر في القرآن، وتوبيخهم على ترك الاستدلال به معنى» انتهى.

وقد بسطت في هذا المعنى في (تحرير الأفكار) جواباً عمن قال: «السنة حاكمة على القرآن» وهم يحتجون بقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

قالوا: والمراد لتبين بالسنة.

والجواب: لا نسلم أن المراد بالسنة، فهي دعوى لا دليل عليها؛ لأنه المبلغ للقرآن إلى الناس، فالمعنى: لتبينه بتبليغه تبليغاً بيناً بتبيين حروفه في تلاوته عليهم، ورفع صوتك به بحيث يسمعونه بتمامه؛ لأنه لو أغمض بعض الحروف بحيث تلتبس على السامع وخفض صوته به عند تلاوته عليهم فلم يسمعوه تماماً، لصح أن يقال: إنه لم يبينه لهم، وقد روي أنه ﷺ كان يرتل القرآن حتى لو أراد أحد أن يعد الحروف لعدها أو كما قيل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٧] أي قراءته لك، ثم للناس بتبليغك إليهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لك ثم للناس في تبليغك من الملك وتبليغك للناس.

يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ ليس معناه تراخي البيان؛ لأنه ليس المعطوف بـ(ثم) وإنما هي للترقي من درجة إلى درجة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] وكقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

ولو سلم أن (ثم) لتراخي وجوب البيان على الله عن وجوب قراءة القرآن، فلا يستلزم ذلك تراخي البيان؛ لأنه يمكن أنه سبحانه كتب على نفسه أن ينزل القرآن ويُقرأ على الرسول ﷺ ثم على الناس، ثم كتب على نفسه أن يجعله بيناً للرسول وللناس؛ لتقوم به الحجة، ويتبين به قصد السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

وهذا على سبيل الفرض والتقدير، ولا يلزم منه تراخي البيان عن قراءة القرآن، فلا يلزم التغاير بين القرآن وبيانه، وقد وصف الله آيات القرآن بأنها (بينات) كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩] فدل ذلك على أن بيان القرآن صفة له لازمة لا مفارق له مغاير.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال في (الكشاف): «هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال، ولا استبطان للأمور، كانوا إذا جاءهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به، وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر منهم، وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور

أو الذين كانوا يؤمرون ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لعلم تدبير ما أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها» انتهى.

وفيه نظر من وجوه:

الوجه الأول: أنه قال: «هم ناس من ضعفة المسلمين..» إلخ، مع أن السياق، والعطف يفيد أنهم المذكورون في الآيات قبلها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وقد دلّت على فسادهم، وأنهم مظنة النفاق فمسارعتهم إلى إذاعة ما سمعوه إما لفساد نياتهم، وإما لعدم مبالاتهم بما تؤدي إليه الإذاعة.

الوجه الثاني: أنه قال: «كانوا إذا جاءهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..» والآية الكريمة لا تدل على قصر الذي جاء من الأمن أو الخوف على ذلك بل ولا عليه نفسه، ومن الجائز: أن الأمن أي سبب الأمن، مثل خبر يفيد أن العدو اختلفوا مثلاً فأضربوا عن ملاقاة المسلمين في معركة متوقعة يجب على المسلمين الاستعداد لها، فيؤدي الخبر إلى ترك الاستعداد للجهاد، مع أن الخبر كذب والاستعداد ضروري، ومن الجائز: أن الخوف مثل خبر عن كثرة العدو المهاجم وكثرة عدته من الخيل وغيرها، ليرجف على المسلمين ليثبط ضعفاء الإيمان، ليتخلفوا عن الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلعل هؤلاء من الذين قال الله فيهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠].

الوجه الثالث: أنه قال: «وهم كبراء الصحابة..» وقدمه قبل قوله: أو الذين كانوا يؤمرون، مع أن أولي الأمر في الحقيقة في هذه الآية هم الذين

أَمَّرَهُم رسول الله ﷺ وتسمية من لم يؤمر ولي أمر مجاز، ولعل فائدة ذكرهم لوقت غيابهم حيث يرسلهم رسول الله ﷺ فإذا أذاع المفسدون خبراً تضر إذاعته فعليهم أن يسألوا أميرهم عن حقيقة ذلك الخبر؛ لأن الأمراء أهل رأي وذكاء وشجاعة، وإرجاع الخبر إليهم يفيد: إما تكذيب الخبر، وإما الاستعداد بحيلة أو قوة تعارض الخبر أو نحو ذلك، وأمير المؤمنين علي عليه السلام مقدم فيهم ويلحق سائر أئمة الهدى بالقياس؛ لأن الآية في حوادث مضت، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾ وفي أولئك الذين كانوا في وقت الرسول ﷺ، لأن (الواو) في أول الآية عطف على الكلام فيهم، والضمير في ﴿جَآءَهُمْ﴾ عائد عليهم، و(جاء) فعل ماض، و﴿أَذَاعُواْ﴾ فعل ماض، و﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أناسٌ مضوا كان رسول الله ﷺ يؤمرهم.

وأما قول بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ﴾ وأن المعنى: ولو ردوا القرآن إلى أولي الأمر منهم، لعلم معناه الذين يستنبطونه، أي يستنبطون معنى القرآن منهم فهو مشكل؛ لأن الظاهر: عود الضمير إلى أقرب ملفوظ؛ ولأن التوصل إلى ذلك قد يؤدي إلى جعل فهم القرآن من خصائص الأئمة، وهو مذهب بعض الإمامية ليتوصلوا به إلى اشتراط أن يكون الإمام معصوماً، وبالتالي منصوصاً عليه، وهو أيضاً مذهب الباطنية.

وقد رد عليهم قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ﴾ كما مر في تفسيرها، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤] فعلى قول الباطنية على القلوب كلها أقفالها، إلا قلوب الأئمة، وبالله التوفيق.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فكيف يحكم بين الناس وهم لا يفهمونه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] فكيف يهتدون بما لا يفهمونه، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ..﴾ [المائدة:١٥-١٦] فقال: ﴿جَاءَكُمْ﴾ أفاد: أنهم مخاطبون به، فكيف يتعذر فهمهم له وهو خطاب لهم، فهل خاطبهم الله بما لا يفهمونه؟ ثم قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ فعم كل مؤمن، وقال: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ فلو كان رموزاً لا يفهمها إلا الإمام لما كان مبيناً.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ عام في كل ما يتعلق بالحروب، وفيما يتعلق بسائر الأحكام الشرعية؛ لأن الأمن والخوف حاصل بكل ما يتعلق بباب التكليف، فثبت أنه ليس في الآية ما يوجب تخصيصها بأمر الحرب» انتهى.

قلت: الكلام حكاية فعل، فهو خاص بما جاء المذكورين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وجاء فيهم ما ذكره الله في الآيات الماضية، وليس يعم ما أنزل الله من الوعد والوعيد وما يتعلقان به من الطاعة والمعصية؛ لأن إذاعة الوعد بالجنة والوعيد بالنار غير مذمومة، وليس يتبادر من قوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ إلا الأمن من المخلوقين أو الخوف منهم.

فظهر: أنه فيما يرجع إلى الأمن من أعداء الإسلام أو الخوف منهم، ولو سلمنا أنه عام للأمن من المخلوقين والأمن من الخالق والخوف من المخلوقين والخوف من الخالق فالوعد والوعيد لا يجوز كتمانه ولا يعاب إذاعته فهو مخصوص من العموم لو سلمناه، وكيف تعاب إذاعة سبب الأمن،

وقد ذكره الله في الكتاب العزيز، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧] وإذاعة هذا غير مذمومة، وكذلك في القرآن كثير من أسباب الخوف، مثل: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ..﴾ إلى آخر السورة [الهمزة] ومثل: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٧-٨] وإذاعة هذا غير مذمومة.

وفي هذه الآية دلالة على أن المذكورين فيها يفهمون آيات الله ولو كان فهمها خاصاً بالإمام لم يقل فيهم: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٨] لأن من لا يفهمها يكون كأن لم يسمعها، فلا يعاب عليه أن يسمعها ثم يصير غير متأثر بها ولا متعظ بها ولا مهتد، بل هو ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ وهذا واضح.

ومن الدليل قوله تعالى في القرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] واللسان العربي يفهمه العربي ولا يختص الإمام بفهمه، وقد وصفه بأنه مبين فدل على سهولة فهمه لكل من يفهم اللسان العربي فلا يختص بالأئمة.

ولا إشكال أنه ينبغي الإستعانة بتفسيرهم لأجل ما لهم من زيادة الفهم، فأما حجر القرآن عن غيرهم فهو فساد كبير مخالف لما علم من الدين ضرورة، وأئمة الهدى يدعون الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، لأنهم مخاطبون بهما، ويحتجون عليهم بالآيات والأحاديث بناء على أنهم يفهمونهما، وقال قائلُ الأئمة (عليهم السلام): «أطيعوني ما أطعتُ الله فإن عصيت

الله فلا طاعة لي عليكم» فكيف يعلمون أنه عصى الله لولا أن عليهم أن يتمسكوا بكتاب الله، وأنهم يفهمون الكتاب والسنة فيعرفون الطاعة والمعصية، وكيف يتمسك بالكتاب من لا يفهمه؟!!

وفي حديث الثقلين: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي» فقدم الكتاب، وفي بعض روايات الحديث: «.. كتاب الله حبل طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا» فكيف يتركه فيهم لينجوا من الضلال ويحثهم على التمسك به، وهم لا يستطيعون فهمه بل فهمه خاص بالإمام؟!!

وفي (وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام) رواها أبو طالب عليه السلام في (أماليه) وهي في (الباب الرابع): «أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا..» إلى قوله عليه السلام: «... واللهَ اللهَ في القرآن لا يسبقنكم إلى العمل به غيركم..» إلخ.

وهذه الوصية رواها الكليني في (الكافي) [٧/ ٥١-٥٢] وهي في (نهج البلاغة/ رقم ٤٧) في (باب المختار من كتبه عليه السلام) وفي (النهج) غيرُها من الحث على العمل بكتاب الله كما في (عهده عليه السلام للأشتر) ومن خطبة له عليه السلام (رقم ١٧٥) في قسم (الخطب) يقول فيه: «واعلموا أنه ليس لأحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال..» إلى قوله عليه السلام: «..فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغِشُّوا فيه أهواءكم» انتهى.

وفي (الكافي) للكليني [ج٢] من الأصول [ص٥٩٨-٥٩٩]: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكونيّ، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس إنكم في دار هدنة..» إلى قوله.. فقام المقداد فقال: يا رسول الله وما دار الهدنة ؟ قال: «دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، وماحلٌ مصدَّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل..» الحديث.

وهو في (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (الباب الثالث عشر) وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) في (باب طاعة الإمام) بسنده عن علي عليه السلام قال: «حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يعدل في الرعيّة، فإذا فعل ذلك فحقٌّ عليهم أن يسمعوا وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا، وأيما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة له» انتهى.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب (مديح القرآن الكبير) بعد أن أورد آيات من القرآن في فضل القرآن وما فيه من الهدى ما لفظه: «ومن لم يهتد في أمره بكتاب الله لم يهتد بغيره للحق أبداً..» إلى قوله عليه السلام: «..فالويل كل الويل لمن لم يكتف في أموره وأمور غيره بتنزيل رب العالمين، كيف عظم ضلاله وغيّه، وضلت أعماله وسعيه..» ثم قال عليه السلام: «..فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبيانه، أدخله الله كما قال سبحانه: ﴿مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾ وهداه به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى لم يعم بعده أبداً..» إلخ.

وقال عليه السلام في كتاب (الدليل الصغير): «الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكملاً، ونزّل برحمته للعباد منه بياناً مفصلاً، فيه لمن استغنى به أغنى الغنى، ولمن اجتنى ثمرات هداه أكرم مجتنى..» إلى قوله عليه السلام: «..فاتخذوه هادياً ودليلاً..» إلخ.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «يجب على الإمام أن يكتب إلى الباغين كتاباً قبل مسيره إليهم يدعوهم فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم» انتهى.

وقال عليه السلام فيها في (باب القول في معاونة الظالمين) في الكلام في أعداء أهل البيت الذين يُحمِّلون البريء ذنب المذنب منهم: «وَيْح من فعل ذلك من هذه الأمة، أما يسمع قول الله سبحانه حين يقول في ذلك وفيمن كان من الخلق كذلك: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤]..» إلى قوله عليه السلام: «.. بل قد سمعوه ووعوه، ولكن عاندوا في ذلك الحق..» إلى قوله: «.. كأن لم يسمعوا الله سبحانه كيف أمر نبيه أمراً بأن يفرض على الأمة مودتهم فرضاً فقال: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] بلى قد سمعوا ذلك بآذانهم، وفهموا فرض الله فيهم بقلوبهم، ثم رفضوا من بعد ذلك رفضاً..» إلخ.

وفي (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (قصة عن بعض أعداء الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام) أنه قال في الناصر نكرهه؛ لأنه يحسن مثل هذه الحجة؛ ولأنه يرد متقلداً مصحفه وسيفه، ويقول: قال أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» فهذا هو كتاب الله أكبر الثقلين، وأنا عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد الثقلين، انتهى المراد.

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً

فهذه الجملة تفيد: أن أئمة أهل البيت عليهم السلام وخيارهم يدعون إلى كتاب الله، ويحتجون على الأمة به، ومعنى هذا: أن فهمه ممكن للأمة، وإلا لما كان لدعوتهم إليه معنى، ولا ينافي هذا أن الخاصة قد يفهمون من القرآن معاني ما يرتقي إليها فهم العامة في جوانب معينة، ولهذا أمر الله بسؤال أهل الذكر في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾[الأنبياء٧] وقد طال الكلام ومعناه أمر مفروغ منه في هذا العصر في بلادنا، ولكن لا يبعد تغير الحال عن قريب والله المستعان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه الذين هداهم الله وعصمهم عن أن يكونوا مثل المذكورين في الآيات من قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ إلى هذه الآية، فبيَّن للمؤمنين أن ذلك للمؤمنين كان بفضل الله ورحمته وتوفيقه وهدايته، فعليهم: أن يشكروا نعمته بما أنزل من الإنذار، ولا يعجبوا بأنفسهم فإنها قريبة التحول إذا لم يكن لها من لطف الله عاصم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي منكم، ولعله: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي عليه السلام، وأبو ذر رضي الله عنه ونحوه.

﴿٨٤﴾ ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ﴿فَقَٰتِلْ﴾ يا محمد ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا﴾ أن تبذل ﴿نَفْسَكَ﴾ لله وتجعلها في الجهاد في سبيله، وليس عليك أن يقاتل من معك من المؤمنين، إنما عليك أن تحرضهم على القتال. قال في (الصحاح): «والتحريض على القتال: الحث والإحماء عليه ـ ثم قال ـ: والحَرَّاضُ: الذي يُوقِدُ على الحُرُض ليتخذ منه نورة أو جصاً» انتهى.

يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ

قلت: قوله: والإحماء، معناه: إثارة الحمية والغضب على العدو؛ ولعل ذلك هو سبب اختيار التحريض مكان الحض ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بجهادكم في سبيل الله، فالمعنى قاتل ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على القتال رجاء أن ينصركم الله على الذين كفروا فيكف عنكم بأسهم بنصركم عليهم ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾؛ لأنه القاهر فوق عباده وبطشه شديد فالعاجل منه قد كان في القرون الماضين كقوم عاد وثمود، والآجل عذاب النار ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ قال الراغب في (مفرداته): «ونكّلت به، إذا فعلت به ما ينكل غيره واسم ذلك الفعل نكال» انتهى، فالمعنى: تعذيباً زاجراً عن فعل سبب ذلك التعذيب.

﴿٨٥﴾ ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ (الشفاعة) أن تطلب للمحتاج حاجته إما نيل خير وإما سلامة من شر، وفي حديث في (صحيفة الإمام الرضا): «الشفيع جناح الطالب».

قال (صاحب الكشاف) ـ ونعم ما قال ـ: «الشفاعة الحسنة، هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جُلب إليه خير، وابتغِي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز» انتهى.

والأولى أن يقال بدل حق مسلم، غرض صحيح ليشمل الحد ما فيه مصلحة، ولو كانت الشفاعة لذمي أو لأسير أو من يرجى إسلامه أو صلاحه بسبب العفو عنه أو ترك ظلمه.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ قال في (المصابيح): «والكفل: النصيب، ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨] أي نصيبين» انتهى باختصار.

والشفاعة السيئة: ما كانت معاونةً على الإثم والعدوان، أو موادّة لمن حاد الله ورسوله ليست لمصلحة دينية، ومعنى ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ الثواب في الخير والعقاب في الشر، ولو أطلقت الشفاعة السيئة على المحْلِ بالمؤمن مثلاً، أي التبليغ بقوله الضار أو فعله الضار لصح المعنى، ولكنه مجاز مشاكلة لفظية والأصل الحقيقة.

قال في (الكشاف) ومثله في (المصابيح): وقيل الشفاعة الحسنة، هي الدعوة للمسلم؛ لأنها في معنى الشفاعة إلى الله، وعن النبي ﷺ: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك».

قال في (تخريج الكشاف): أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بلفظ: «قالت الملائكة: آمين، ولك بمثله» انتهى. قال في (الكشاف): «فذلك النصيب والدعوة على المسلم بضد ذلك» انتهى، فأدخل (صاحب الكشاف) المحل في الشفاعة.

والحديث أخرجه أحمد، ومسلم، عن أبي الدرداء بلفظ: «ولك بمثلٍ» وليس فيه كلمة (ذلك) وقوله: «ولك بمثلٍ» هو آخر الحديث، وفي (سنن ابن ماجة) في (المناسك) هذا الحديث وآخره: «ولك بمثله» وهو في (سنن أبي داود) وآخره: «ولك بمثلٍ» بدون (هاء) الضمير، ولم أجده بلفظ: «ولك مثل ذلك».

﴿مُّقِيتًا﴾ قال في (المصابيح) للشرفي رحمه الله: «في المقيت قولان: أحدهما ـ وهو قول المرتضى عليه السلام ـ: أن المقيت القادر على الشيء، وأنشدوا للزبير بن عبد المطلب:

وذا ضغــن كففـت السوء عنه وكنــت على إساءتـــه مقيتــا

أي قادراً قال عليه السلام: وقد قال بعض المفسرين: إن معنى مقيتاً: هـو شـهيداً، وليس هذا عندي بصواب» انتهى. قلت: وفي (لسان العرب): «الفـراء: المقيـت: المقتدر، والمقدر كالذي يعطي كل شيء قوته، وقال الزجـاج: المقيـت: القـدير ـ ثم قال ـ وقال أبو إسحاق الزجاج: إن المقيت بمعنى الحافظ والحفيظ» انتهى.

وعلـى تفسـيره بــ(المقتدر) يكـون المعنـى: إن الله ﴿كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً، فهو مقتدر على جـزاء الشـافع بـالخير وبالشـر، يجـزي كـلاً بمقدار ما يستحق، وأخذ التقدير في معناه مناسب؛ لاشتقاقه من القوت.

قال في (المصابيح): «وقال إمامنا عليه السلام: دلَّ ذلك على حسـن سـعي مـن سَعى إلى الخير للغير، وعلى قبح ضده» انتهى.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ قال في (مفردات الراغب): «فالتحية أن يقال: حياك الله، قال: وأصل التحية من الحياة، ثم جعل ذلك دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن الحياة أو سبب حياة» انتهى المراد.

فالتحية تصدق على الألفـاظ المختلفـة وأحسـنها السـلام، وظـاهر الآيـة العموم فتعم قولهم: عم صباحاً، وقولهم: صـباح الخـير ونحـوه، وقـد ورد في المنافقين: «تحيتهم لعنة» ومعناه: إذا لقي بعضهم بعضـاً لعنـه مكـان التحيـة، فهي مشاكلة تقديرية، ولا يدخل في التحية قولهم: كيـف أصبحت؟ وكيـف أمسيت؟ وكيف الحال؟ مما ليس دعاء.

﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ أجيبوا مَن حياكم بأحســن مـن تحيتـه فـإذا قـال: السـلام علـيكم، فقولـوا: وعلـيكم السـلام ورحمـة الله ﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ حيُّـوه بتحيته أي بمثلها، فإذا قال: (السلام عليكم) فالرد لها: (وعليكم السلام).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ﴾ يصلح للتخيير حيث صلح الأمران، وللترديد بين حالة صلاحية أفضل، وحالة أن لا يصلح إلا الرد، ومنه إجابة الذمي بقول المجيب: وعليكم، ولا مانع من ذلك؛ لأنه من الإقساط إليهم، وقد قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ..﴾ الآية [الممتحنة:٨] مع أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ عام لتحية المسلم والذمي والذكر والأنثى.

بل وظاهره عموم تحية الكافر الحربي، فإن ثبت مخصص لتحيته عمل بالمخصص وإلا عمل بهذا العموم؛ لأن الرد ليس من الموالاة ولا الموادّة، بل هو من شأن المسلم الإنصاف والإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] فعم الناس.

فإن قيل: إن معنى السلام الأمان، ولا ينبغي تأمين الحربي؟
قلنا: لا مانع من تأمينه وقتاً قصيراً لينظر ما يقول بعد السلام، ثم إذا لم يرد الاستجارة ولا طلب الأمان لغرض صحيح أعلن له بالبراءة من أمانه إن لم يسلم ثم قتل حيث لا أمان له، ولا مانع آخر من قتله، وظاهر الآية: وجوب الرد أو الأحسن، ولو سلم واحد على جماعة وجب على كل واحد الرد أو الأحسن، ولكن لعله يجزي جواب الواحد عن الجماعة إذا وكلوه فكان جوابه عنه وعنهم.

وعليه يحمل الحديث إن صح عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يجزي عن الجماعة إذا مرت أن يسلم أحدهم، ويجزي عن القعود أن يردّ أحدهم» رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (أماليه) وهو في (الباب السابع والثلاثين) [ص ٣٤٤] وهو في (سنن أبي داود) في (باب ما جاء في رد الواحد عن الجماعة) [٤/ ٣٥٤] ورقم الحديث [٥٢١٠].

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا

والظاهر: أن السند واحد من سعيد بن خالد، وسعيد هذا ليس بالمشهور، وقد ضعفه عدد من القوم، والعمدة: أنه ليس لنا معرفة بحاله، فالراجح: أن الرد فرض عين أو الأحسن، ولا يبعد أنهم لو وكلوا واحداً منهم فأجاب عن نفسه وعنهم معلنا للإضافة إليهم فقال: وعليكم السلام عني وعمن عندي أن يجزي ذلك، وأن ذلك لا يعني أنه فرض كفاية، ولكن الأحوط: أن يجيب كل واحد ـ والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسب على الصغير الذي يتهاون به الناس وغيره ولا يترك.

﴿٨٧﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ هذه أصول الدين تدل على أهمية طاعة الرسول والنصح له لدعوته إلى هذه الأصول حين كان أكثر الناس مشركين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بكتابه، واعتبر يوم القيامة فاصلاً بين العباد مجازياً لكل عامل بعمله، فالناس يجمعهم الله إلى هذا اليوم الذي يقسمون فيه فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وجمعهم إليه جمعهم فيه له، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، وأصل الريب قلق النفس من الشك، كما قال الشاعر:

لقد رابني من عامر أن عامراً ... بعين الرضى يرنو إلى من جفانيا

أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ لا أصدق من الله حديثاً، خرج النفي مخرج السؤال؛ لأنه لا يدعي أحد انه أصدق ولا يدعَى لأحد أنه أصدق من الله، فوعده بجمع الناس ليوم القيامة صدق، وكلما في كتابه صدق وحق؛ لأنه غنى كريم لا يحتاج إلى الكذب ولا يريده؛ لأن إرادته إرادة حكمة لا إرادة شهوة وهوى، وهو عالم أنه غني عن الكذب والباطل، وأن ذلك قبيح لا يصدر من غني حكيم كريم.

﴿٨٨﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ تفريع على ما تبين من أهمية طاعة الرسول واتباعه والنصح له.

قال في (الكشاف): «﴿فِئَتَيْنِ﴾ نصب على الحال، كقولك: مالك قائماً» انتهى، وهو سؤال استنكار لاختلافهم في المنافقين وتنازعهم بحيث صاروا فئتين، قال الراغب في (مفرداته): «والفئة: الجماعة المتظاهرة، التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي أنها نزلت في قوم قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسلمين، فأقاموا بالمدينة ما شاء الله، ثم قالوا: يا رسول الله نريد أن نخرج إلى الصحراء فأذَن لنا فيه، فأذِن لهم فلما خرجوا لم يزالوا يرحلوا [كذا] مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فتكلم المؤمنون فيهم، فقال بعضهم: لو كانوا مؤمنين مثلنا لبقوا مثلنا وصبروا كما صبرنا، وقال قوم: هم مسلمون وليس لنا أن ننسبهم إلى الكفر حتى يظهر أمرهم» انتهى المراد.

ولعل استنكار التنازع راجع إلى أنهم لم يسارعوا إلى ردّ أمرهم إلى الله والرسول كما أمر سبحانه، فالإنكار لثباتهم على التنازع بحيث أنهم فئتان، أو أنهم تنازعوا فيهم مع وضوح حالهم في عدم الإيمان، أو الخروج من الإيمان لأنهم تعربوا بعد الهجرة، وهذا أظهر؛ لأن الإنكار جاء مقيَّداً بالحال الذي هو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ فلم يكن ينبغي التنازع فيهم، بل كان ينبغي أن تتخلوا عن أمرهم، وتجعلوا أمرهم إلى الرسول ﷺ ليرى فيهم رأيه أو يحكم الله فيهم؛ لأنهم بترك الهجرة قد خرجوا من ولايتكم لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال:٧٢].

وقد ظهر نفاقهم لأنه لازم لرجوعهم إلى قومهم؛ لأنه لا يتهيأ لهم إلا بإظهار المودة لقومهم وأنهم معهم، ولولا ذلك لطردهم قومهم عند وصولهم لاختلاف الملة فكيف تنازع فيهم المسلمون وصاروا فئتين وقد تبين نفاقهم وأن الله ﴿أَرۡكَسَهُم﴾ أي ردهم في الركس، والركس: النجس ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ بمعاصيهم السابقة التي سهلت لهم النفاق والرجوع عن الهجرة.

قال في (المصابيح): «وقال المرتضى عليه السلام: معناه: خذلهم وتركهم من التوفيق لشرارتهم وبعدهم من طاعة ربهم، فهلكوا بذلك وصاروا من المعذبين، وعند الله من المقبوحين» انتهى.

قلت: الآية من المتشابه، ولا إشكال أن ليس المراد: أن الله أرجعهم في الرجس جبراً، وإنما هو: التسبيب له بالخذلان، وترك الشياطين تؤزهم، فنسب إلى الله على طريقة المجاز، ليدل على أنه غني عنهم لا يبالي بهم، وأن

خذلانه لهم عقوبة من الله على ما كسبوا من قبل، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ولو كانوا مجبورين على الزيغ لكان زيغهم مترتباً على إزاغته لهم، فكان سبحانه وتعالى إذا أخبر بذلك قال: (فلما أزاغ الله قلوبهم زاغوا) بدلاً من أن يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ لكن الزيغ منهم باختيارهم كان سبباً لعقوبتهم بالإزاغة، التي هي التسبيب لزيغ أقبح من الزيغ الأول، بإهمالهم وخذلانهم، مع استعدادهم لذلك بعصيانهم الماضي.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ سؤال إنكار على من يجادل عنهم ويعتبرهم مسلمين، كأنه يريد أن يحكم لهم بالهدى، وقد حكم الله بضلالهم فهذا هو الذي ينكر عليهم، فأما محاولة هداية الكفار والمنافقين بالترغيب في الدين والتألف للكفار، فلا يعاب على من فعله، وقد أرسل الله رسوله إلى الناس جميعاً يدعوهم إلى الإيمان والهدى.

قال الشرفي في (المصابيح): فالآية دالة على تحريم الحكم بالهدى لمن ضل ذكره إمامنا المنصور بالله عليه السلام ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ لأنه قد عدل عن سبيل الله ولا يوجد سبيل غيرها يؤدي إلى بلوغ الخير والسلامة في الآخرة، وقد شبهوا بمن ضل في متاهة ولن توجد لهم طريق أبداً فهم هالكون لا محالة.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أنه إنكار على من يرى تألفهم إلى الدين والرفق بهم فشبه بمن يريد أن يهدي من يعلم أن الله قد أضله بحيث لا يرجع إلى الهدى أبداً، فالكلام تسجيل عليهم بالضلال الدائم لا إنكار على من يحاول هدايتهم، لأنه سؤال لتشبيههم بمن يريد ذلك وهذا أنسب لآخر الآية.

يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ

﴿٨٩﴾ ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ هؤلاء الذين رجعوا إلى بلاد الكفر قد رجعوا إلى الكفر و ﴿وَدُّواْ﴾ أحبوا ورغبوا ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ في الكفر لرغبتهم في الكفر، وأن لا يبقى فيه مخالف، أو ليأمنوا جانبكم وهذا أظهر.

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي حتى يؤمنوا ويهاجروا في سبيل الله، ولكونه لا يكفي إسلامهم في دار الكفر لوجوب الهجرة عليهم، فموالاتهم حرام حتى يهاجروا في سبيل الله، والهجرة في سبيل الله: هي الهجرة لنصر دين الله، ولطاعة الله في الدين كله.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الهجرة في سبيل الله مع الإيمان من جديد ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ خذوا منهم من شئتم واقتلوا من شئتم، وهذا تخيير بين الأخذ والقتل على التوزيع، مثل: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

وقوله تعالى: ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ يحتمل في أي موضع من الأرض لتخويفهم في بلادهم وفي غيرها، وقيل حيث وجدتموهم ولو في الحرم، والأقرب أنه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ..﴾ [التوبة:٥] وأن الحرم مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..﴾ [البقرة:١٩١].

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا﴾ لوجوب معاداتهم ولو ادعوا أنهم باقون على الإسلام؛ لأن الله تعالى قد بيَّن أنهم قد كفروا ﴿وَلَا﴾ تتخذوا منهم ﴿نَصِيرًا﴾ في قتال غيرهم ينصركم لأن حكمهم حكم سائر المشركين.

وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

﴿٩٠﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ ﴿يَصِلُونَ﴾ عند ﴿قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد على ترك القتال، فإذا وصلوا عندهم مقبلين إليهم فاتركوهم، قيل: إذا وصلوا إليهم لاجئين إليهم، ولعل اشتراط اللجوء مفهوم من حيث أن الذين بينهم وبينهم ميثاق لا يقبلونهم إلا إذا كانوا لاجئين؛ لأنهم ليس لهم أن يؤوا محارباً لله ورسوله، فلا بد أن يكون لاجئاً أو يخرج من بينهم ولا يبقى حكمه حكمهم.

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ فهم مثل الذين يصلون إلى من بينكم وبينهم ميثاق؛ لأنهم جاؤوكم طالبين للسلم لا يريدون قتالكم ولا قتال قومهم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ضاقت وانقبضت واحتبست؛ لكراهتهم قتالكم وكراهتهم قتال قومهم، فهم داخلون في الاستثناء من قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ فلا تخالفوا نهي الله عن قتالهم وكفوا عنهم كما أمركم الله، واشكروا نعمة الله عليكم بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى حصرت صدورهم أن يقاتلوكم، فلو شاء قوى قلوبهم ومكنهم من قتالكم وأذهب عنهم الرعب، ولو كان ذلك لقاتلوكم لأنه لم يمنعهم من قتالكم إلا نصر الله لكم بإلقاء الرعب في قلوبهم.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ هذا زيادة توضيح وتفسير للاستثناء في قوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ

المعطوف على المستثنى، وبيان أن المراد بقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ هو مجيئهم لطلب السلم لا بقاؤهم عند المسلمين فليس شرطاً ولا هو المراد، بل متى طلبوا السلم وانصرفوا عنكم معتزلين لكم في مكان من الأرض لا يقاتلونكم وطلبوا المضى في السلم والبقاء عليه وأبلغوكم أنهم متمسكون بالسلم أو أنهم مسالمون لكم، فلا يجوز قتالهم، ولعل هذا كان قبل نزول (براءة).

هذا ويحتمل: أن قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فالمعنى: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو قوم جاء وكم حصرت صدورهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ فالراجح ما قلته أولاً: أنه تفسير للاستثناء، فهو راجع إلى المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ والمعنى: إلا الذين يصلون إلى معاهدين أو مسالمين.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي الواصلون إلى معاهدين أو مسالمين ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فلا تقتلوهم ولا تأخذوهم وأصل السبيل الطريق، والمعنى: ما جعل الله لكم سبيلاً إلى قتلهم أي ليس لكم حجة من الله ولا أذن بقتالهم أو أسرهم.

﴿٩١﴾ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾

﴿سَتَجِدُونَ﴾ قوماً ﴿ءَاخَرِينَ﴾ غير المذكورين في الآية السابقة يخادعونكم، فيظهرون لكم: أنهم يريدون الإسلام، أو أنهم مسلمون أو يطلبون منكم أماناً إذا جاءوكم لسبب من الأسباب ﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَن يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ ثم يرجعون إلى قومهم، فيظهرون لهم أنهم لا يتحولون عن دين المشركين ويدفعون توهم قومهم أنهم أسلموا أو أنهم يريدون الإسلام ليأمنوا قومهم.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ إلى اختبار قومهم لهم أنهم باقون على الشرك كأن يأمروهم بالسجود للصنم أو التقريب له أو يأمروهم بمعاونة الكفار على المسلمين ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ في الفتنة وفعلوا ما طَلَب منهم قومُهم فسجدوا للصنم مثلاً فلا هم مسلمون ولا قريبون من الإسلام.

وقوله: ﴿أُرۡكِسُواْ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ فهي من المتشابه، والركس: الرجس، وهو نجس الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] وفي حديث ابن مسعود: «أن رسول الله ﷺ أخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال إنها ركس».

وفي (الصحاح): «والركس - بالكسر -: الرجس» والأقرب: أنهم إذا جاءوا المسلمين، أظهروا لهم أنهم يريدون السلم وإذا رجعوا إلى قومهم فهم منهم، وكلما اختبرهم قومهم إذا شكُّوا فيهم بسبب ذهابهم إلى المسلمين فعلوا ما اختبروهم به، فهم كفار غير مظهرين للإسلام.

ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ فلو كانوا مسلمين ما أمروا باعتزال المسلمين، وليس في الآية أنهم يسلمون ثم يرتدون، بل ظاهرها: أنهم يريدون أن يجتمع لهم أمن المسلمين

مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا

وأمن قومهم، وذلك لا يكون بالإسلام تارة والردة تارة؛ لأنهم إذا أسلموا خافوا قومهم، وإذا ارتدوا خافوا المسلمين.

فالأقرب: أنهم يتوسلون بغير الإسلام إلى أمن المسلمين ليأمنوا المسلمين مع أمنهم قومهم ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فلا يدخلوا بلدكم ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ بإبلاغكم أنهم مسالمون لكم ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ تصديقاً لإلقائهم السلم حتى يذهب الخداع ويكونوا على أمر واضح، لا بد من اجتماع هذه الثلاث الخصال، وإلا ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ الأخذ: الإمساك والأسر ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث ظفرتم بهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ الأعداء المخادعون ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة وتسليطاً بيناً لقتلهم وأسرهم، وهو تسليط بحكم الله عليهم بذلك، وبنصر المسلمين عليهم نصراً عزيزاً.

﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ ما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، أي أن إيمانه يحجزه عن قتل المؤمن إلا خطأ؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يأمر بتقوى الله واجتناب سخطه خوفاً من عذابه، ولذلك قال تعالى في أهل الكتاب المدعين للإيمان بما أنزل عليهم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] وهذا تهكم بهم وتسجيل عليهم بكذبهم في دعوى الإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما قتلوا أنبياء الله، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١].

وقد تكرر في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ قال تعالى حاكياً عن الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١] فليس المراد أن ذلك لا يجوز لنا، وإنما المراد أنه لا يليق بحالنا؛ لأنا لا نقدر عليه إلا بإذن الله الذي يظهر الآيات على أيدينا، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥].

وقول يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي..﴾ إلى قوله: ﴿..مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف:٣٨] أي لا يليق بحالنا لمعرفتنا بالله ووحدانيته وخوفنا منه وعلمنا بقبح الشرك إلى غير ذلك من موانع الشرك؛ ولهذا فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ متصلٌ ولا حاجة لجعله منقطعاً.

والخطأ: ما ليس بعمد، كأن يرمي طيراً فيصيب مؤمناً وهو لا يريد أن يصيبه، أو يضرب رجلاً بعصى وهو لا يريد قتله ولا يظن ذلك، ومِن الخطأ وكْزُ موسى عليه السلام للقبطي لأنه لم يرد أن يقتله.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ تحرير رقبة: إعتاق رقبة، أي عبد، أو جارية مؤمنة، فلا يجزي الكافر، والمنافق المعلوم نفاقه، ولا الصبي الذي لم يبلغ حد التكليف والإيمان، والدية معروفة عند العرب مائة ناقة.

وفي الشرع: قال الإمام الهادي عليه السلام: «دية الرجل من الذهب في أصحاب الذهب ألف مثقال ـ ثم بين أصحاب الذهب من أهل البلدان ـ ثم قال ـ : والدية في أهل الدراهم عشرة آلاف درهم ـ ثم قال ـ : وفي أهل البوادي من العرب وغيرهم مائة من الإبل ـ ثم قال ـ : وفي أهل البقر مائتا بقرة، وفي أصحاب الشاء: ألفا شاة» انتهى باختصار.

﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ أي أهل المؤمن القتيل، وهم ورثته، والراجح أنها لهم جبر لمصيبتهم وتطييب لأنفسهم وصلاح لذات البين بين المؤمنين، فأما القتيل فعوضه في الآخرة، وقد سميت الدية ميراثاً، والأقرب: أنها لم تسم ميراثاً في الكتاب ولا في السنة، وإنما وقعت تسميتها ميراثاً في لفظ بعض الرواة فالتعبير منهم لاعتقادهم أنها ميراث، وإذا لم تكن ميراثاً فلا يقضى منها دين الميت إلا بإذن الورثة، فلهم أن يفعلوا ذلك، كما لهم أن يصّدقوا بها على القاتل فيتنازلوا عن الدية أو بعضها.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤۡمِنَةٍ﴾ يجزي لبراءة ذمة القاتل، ولا تلزمه الدية، وهذا يؤكد أنها ليست ميراثاً حقيقة؛ لأن الميراث إذا عدم الوارث لبيت مال المسلمين، والقوم العدو: هم الكفار.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤۡمِنَةٍ﴾ ﴿قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد على ترك القتال أي صلح موثق بالعهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ لمكان العهد ﴿وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤۡمِنَةٍ﴾ لأنه مؤمن كما يفيده السياق، وهو ظاهر كلام الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) وهذا يؤكد أن الدية ليست ميراثاً حقيقياً، وإنما هي جبر لأهل الميت، وقام العهد في استحقاق الجبر لأهل الميت هنا مقام اتحاد الملة.

وقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ثم ذكر حال المسلم المقتول خطأً إذا كان فيما بين أهل العهد وأهل الذمة، ولا شك أن هذا ترتيب حسن..» إلخ.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ رقبة؛ لفقره، أو لعدم العبيد والإماء، كما في زماننا ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ يكفيه بدل التحرير للرقبة، ولا بد من تتابعهما

فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ

﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ على القاتل؛ لكونه غير متعمد، والتوبة هي الرجوع، فالتوبة من الله هنا الحكم على القاتل بالدية والكفارة، لما في ذلك من الرحمة والتطهير وصلاح الشأن.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ومنه القتل وكونه خطأ ﴿حَكِيمٗا﴾ في كل شيء، ومنه حكمه على القاتل خطأ، والعهد المذكور هنا ـ أعني الميثاق ـ ذكر الإمام الهادي عليه السلام أنه نسخ بآيات (براءة) التي أبطلت العهود، هذا معنى كلامه.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ ﴿مُّتَعَمِّدٗا﴾ بأن يوقع به ما هو عالم أنه يقتل في العادة من جرح، أو سقي سم، أو إلقاء من شاهق، ولو لم يكن غرضه قتله بل غرضه البطش به وإيجاعه غير مبالٍ بقتله، وهذا قد يكون في حال الغضب ـ نعوذ بالله منه.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ عقوبته في الآخرة نار ﴿جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا﴾ باقياً لا يموت ﴿فِيهَا﴾ في نار جهنم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ فلا يفتر عنه العذاب، ولا تنفعه شفاعة، ولا تسمع له شكوى؛ لأن السياق يفيد أن ذكر الغضب للدلالة على غايته وما يؤدي إليه ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طرَدَه من رحمته، إما في الآخرة بإبعاده من الرحمة في جهنم تغلق عليه أبوابها، وإما في الدنيا بسلب التوفيق للتوبة، ثم في الآخرة.

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ إعداد الشيء من المخلوق: تحصيله ليستعمل في المستقبل حين يجيء وقت استعماله، كإعداد القوة للعدو لتستعمل في المستقبل عند القتال، أما إعداد الله سبحانه فيحتمل أن يكون هو الحكم

ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

بالشيء وتقديره؛ لأنه قادر على تحصيله في وقته فهو كالموجود، وهذا وإن كان مجازاً فهو قريب، ويحتمل: أن إعداد العذاب العظيم إيجاد جهنم كما روي عن النبي ﷺ، وحَمْل ذلك على المجاز يحتاج إلى قرينة.

فإن قيل: القرينة الدليل العقلي وهو أن الله قادر على إيجادها في وقتها ولا فائدة في تعجيل خلقها قبل وقتها لإعدادها؟

وقد يجاب: بأن نفي الفائدة يحتاج إلى دليل؛ لأن من الممكن أن في خلقها حكمةً لا نعلمها، أعني في إعدادها كما يخلق للإنسان رجلين قبل وقت المشي ويَدَين قبل وقت البطش وغير ذلك، ويمكن أن يكون في ذلك آية لمن يشاهدها من الملائكة وتذكير عظيم يزداد به إيمانهم أو غير ذلك من الحكمة والله أعلم.

﴿٩٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم في سبيل الله في الجهاد ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ حذراً من قتل المؤمن ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ أبلغكم السلم: ترك القتال، أي أبلغكم ما يوجب السلم، وهو كالنطق بالشهادتين، معلناً لكم للكف عن القتال لا تردوا عليه قوله بقولكم له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بقلبك إنما شهدت شهادة الحق لئلا نقتلك فتقتلوه بناءً على أنه كافر، والتبين: الكف عن قتاله حتى ينظر هل تم على إسلامه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، أو رجع إلى الكفر فيقتل متى رجع إلى الكفر.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تقتلوه قبل التبين لأجل أخذ ماله غنيمة، وهو يفيد: أن أخذه ميلٌ إلى الحياة الدنيا، وترجيح لمطلبها، فإيثاره بعد نزول هذه الآية لا يكون من مؤمن يأمره إيمانه بإيثار الآخرة على الدنيا لينجو من النار.

والآية تعم من ألقى السلم بذكر عهد بينه وبين الرسول مثلاً أو أمان قد سبق له، فعلى المجاهدين أن يكفوا عنه حتى يظهر ما يدل على صدقه، أو يتبين لهم كذبه فهي عامة، وإن كان قولهم: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إنما يكون فيمن نطق بالشهادتين للرد عليه.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الديات): ثم قال ـ عزَّ وجل ـ تحذيراً للمؤمنين، وتأكيداً منه في التحفظ إذا ضربوا في الأرض من قتل المؤمنين .. فذكر الإمام الهادي عليه السلام هذه إلى قول الله تعالى: ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ ثم قال الإمام الهادي عليه السلام: «فيقال: إن هذه الآية نزلت في أسامة بن زيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أرض (غطفان) ولم يكن بالمؤمر على السرية، فبلغ غطفان خبره فهربوا وتخلف رجل من غطفان يقال له مرداس بن نهيك فلما رآهم خافهم فألجأ غنمه إلى كهف في الجبل ثم استقبلهم فسلم عليهم وشهد بشهادة الحق فحمل عليه أسامة فطعنه وأخذ ماله.

فنزل جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخبره فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل صاحب السرية يثني على أسامة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معرض حتى إذا فرغ الرجل قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أسامة قال الرجل: (لا إله إلا الله) فقتلته؟ كيف لك بـ (لا إله إلا الله)؟!!» قال: يا رسول الله إنما قالها تعوّذاً منا قالها بلسانه ولم يكن لها حقيقة في قلبه.

غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ

فقال له النبي ﷺ: «أفلا شققت على قلبه فنظرت ما فيه؟!» فقال: إنما قلبه بضعة من جسده، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: (لا إله إلا الله) فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم وحسابهم على الله» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تطلبون بذلك عرض الحياة وعرض الحياة المال ونحوه من أغراض الحياة الدنيا؛ ولكون ذلك سبب نزول هذه الآية جاء على طريقة التوبيخ لمن فعل ذلك فلا مفهوم لها، وكما يدل عليه بقية الآية فلا يقال مفهومها إذا كان الغرض دينياً فلا بأس أن يقال: لست مؤمناً.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن مال من قال: (لا إله إلا الله) ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ حين قلتم: (لا إله إلا الله) ولا يعلم الناس ما في قلوبكم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول إسلامكم في تلك الحال ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ لأن حكم الله قبول الإسلام ممن أسلم ومعاملته على الظاهر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تخفى عليه سبحانه مخالفتكم لأمره إن خالفتم، وسيجزيكم بما عملتم.

مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿٩٥-٩٦﴾ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ رجع الكلام إلى الحث على الجهاد، والقاعدون: هم الذين تركوا الجهاد، وسموا قاعدين باعتبار أنهم لم ينفروا بل بقوا في بلدهم وقعدوا عن الجهاد، والقاعد: هو الجالس ليس بقائم ولا مضطجع، فذكرت حالتهم الغالبة في وقت النفر وهي القعود؛ ولعله قد صار عبارة عن البقاء في البلد وترك النفر من غير نظر إلى حالة جلوس أو غيرها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ وهم: أهل المرض، والعمى، والعرج، يفهم منه أن من أقعده عن الجهاد الضرر، ولولا الضرر لجاهد، فإنه قد يكون بمنزلة المجاهد.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ تقديم لتفسيره بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿دَرَجَةً﴾ لأنهم اشتركوا في الإيمان، واختص المجاهدون بفضيلة الجهاد، وذلك في مثل (يوم بدر) حين كان المتخلفون لم يؤمروا بالنفر من المدينة، فأما المتخلفون العصاة المتمردون فليس لهم فضل، وليسوا من المؤمنين؛ لأن شأن المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دلالة على أن المؤمنين القاعدين لهم ثواب الإيمان، و ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف، فإن كان التقدير: المثوبة الحسنى أو العاقبة الحسنى فهي ثواب الآخرة، وإن كان التقدير: العدة الحسنى فهي وعد الله للمؤمنين في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وقد قيل: إنها تدل على أن الجهاد فرض كفاية، وفي دلالتها نظر؛ لأنه قد يسقط عن المؤمن لا لأن الجهاد فرض كفاية، بل لحالة عارضة كما في بدر، وكما إذا تخلف لأجل الوالدين العاجزين المضطرين إليه، وكمن لا يجد ما يحمله للسفر وينفق على نفسه ونحو ذلك.

والأولى أن الجهاد واجب على كل مؤمن، وإنما يسقط لأعذار في حال الأعذار، والدليل (آية الحجرات) المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ الآية [التوبة:١١١] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وغيرها فهذه أوامر عامة لكل مؤمن.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعلهم القاعدون لغير عذر فهم غير مؤمنين، ففضل الله المجاهدين بالجنة وما فيها من الأجر العظيم الذي هو ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ لأهلها من الله على قدر أعمالهم، وفضل المجاهدين على هؤلاء ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ بصرف العذاب عنهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] فلا يناله ضر أبداً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن آمن وجاهد ولمن أطاعه واتقاه وتاب إليه، فالتفضيل هنا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:٤٠] وكثيراً يأتي التفضيل بدون مشاركة.

قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ

﴿٩٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾

﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ عاصين لله ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ﴾ في مكان طاعة لله أم في مكان معصية؟ فإن كنتم في مكان طاعة، فكيف عصيتم ﴿**وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾ [آل عمران:١٠١]؟ فهناك مكان الطاعة، وإن كنتم في مكان معصية فكيف لم تهاجروا إلى مكان الطاعة لتتمكنوا من طاعة الله؟!

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جواب غير مطابق للسؤال، كنا مغلوبين على أمرنا لا نستطيع طاعة ربنا ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الملائكة ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ لتتمكنوا من عبادة ربكم وتقواه، فليس الاستضعاف عذراً لكم مع تمكنكم من الهجرة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ لأنهم ماتوا وهم ظالموا أنفسهم بمعصية الله تعالى.

﴿٩٨﴾ ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ استثنى الله المستضعفين الذين ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ لطاعة الله ولا للهجرة ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ للخروج إلى حيث يتخلصون من قبضة المشركين ويطيعون ربهم.

﴿وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ الصغار الذين بلغوا حد التكليف ولم يبلغوا حد المعرفة كيف يتخلصون بسبب غفلة الصغر، أو هم العبيد والإماء على الإطلاق، وخصُّوا بالذِكر؛ لأنهم في الغالب يكونون في قبضة ملاكهم مغلوبين على أمرهم.

وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا

﴿٩٩﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المستضعفون حقيقة وصدقاً ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «صرّح الهادي، وابناه ـ أحمد الناصر، ومحمد المرتضى ـ عليهم السلام في تفسيرهم لكتاب الله: بأن ﴿عَسَى﴾ من الله واجب، وأنه ليس على وجه الشك» انتهى.

وفي الآيتين دلالة على وجوب الهجرة على من لم يستطع أن يتم دينه إلا بها، فهي كقوله تعالى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦] ويدخل في عمومها، من يضطر إلى معاونة الظلمة بالمال أو غيره على الظلم، ومن لا يستطيع تعلم دينه إلا بالهجرة، والمرأة التي يحملها زوجها على ترك الصلاة أو الصيام، أو يطأها وهي حائض ولا تستطيع الفرار منه، فلا يعذر إلا من لا يستطيع حيلة للتخلص ولا يهتدي سبيلاً، لا يدري من أين يذهب إلى حيث يتخلص.

فأما دليل وجوب الهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإلى إمام الهدى بعده، فهو في أواخر (سورة الأنفال) غير مشروط بظلم المكلف نفسه إن لم يهاجر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يفيد: أنه تعالى عفو غفور في الماضي مع الحال، فهو لم يزل عفواً غفوراً منذ خلَق العباد وكلّفهم.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة في سبيل الله، والمراغم: ما يراغم به أعداء الله.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «يقال: أرغمت الرجل: إذا فعلت ما يكرهه ذلك الرجل، واشتقاقه من الرُّغام وهو التراب» انتهى.

وقال الراغب في (مفرداته): «ورغم أنف فلان رغماً وقع في التراب، وأرغمه غيره، ويعبر بذلك عن السخط، كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم ارضها ولم أطلب العتبى ولكن أزيدها

فمقابلته بالإرضاء مما ينبّه دلالته على الإسخاط، وعلى هذا قيل: أرغم الله أنفه، وأرغمه أسخطه، وراغمة ساخطة، وتجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر» انتهى المراد.

فالمراغَم: محل استطاعة على إرغام العدو، وعلى الكثير بأنواع من أسباب سخط العدو كالجهاد، وتكثير أهل الحق وتقويته بهم وتقويتهم به، والسعة من وَسِعَ، وهي سعة مجال الهجرة كقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ويحتمل سعة مكان الهجرة تيسر الرزق فيه، والسلامة من الظلم والاضطهاد الذي يعتبر تضييقاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦] وقوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة:١١٨].

وهذا ظاهر لأن السعة في الأرض لا ترغب إلا مع الرزق فسعة مجال الهجرة بتيسير رزق المهاجر، وإن قل فهو كثير مع رضوان الله، ولا بد أن يصبر المكلف ويتوكل على الله، وإلا ترك الهجرة أو رجع عنها، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٦-٥٩].

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فقد امتثل أمر الله بخروجه من بيته مرتحلاً عنه للهجرة

ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ

إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الله الهجرة إلى دينه، والهجرة إلى رسوله الهجرة إلى محل هجرته للكون معه في دينه، فإذا خرج مرتحلاً بهذه النيَّة الصالحة ثم أدركه الموت قبل بلوغه مهاجَر الرسول ﷺ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

قال الراغب في (مفرداته): «الوقوع: ثبوت الشيء وسقوطه» انتهى.

قلت: قد يكون ثبوت الشيء حصوله، مثل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١] وإثباتُ الأجر له دلالة على حصوله، فأول حصوله عند حضور الموت وتبشير الملائكة له بالجنة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لتضمينه معنى وَجَب وَحَقّ، وقد يكون ثبت بمعنى استحقه وصار له تشبيهاً له بما قد حصل؛ لأنه واقع لا يتخلف، وهذا أظهر وأنسب؛ لقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولذلك قَبِل توبتَه عند خروجه، وغفر له ورحمه في وقت قصير قبل أن يبلغ دار الهجرة ويتعلم الفروض ويعمل.

﴿١٠١﴾ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ قال الراغب في (مفرداته) «والضرب في الأرض: الذهاب فيها هو ضربها بالأرجل» انتهى.

وفي (الصحاح): «وضرب في الأرض ضرباً ومضرباً ـ بالفتح ـ أي سار في ابتغاء الرزق» انتهى. وفي (لسان العرب): «يقال: ضرب في الأرض إذا سار فيها مسافراً» انتهى، ومثله في (المصابيح).

فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ

ولفظ (الكشاف): «الضرب في الأرض هو السفر» انتهى المراد، وهو لفظ يشعر بالعناء والمشقة حيث ذكر هنا، وفي الترخيص في قراءة القرآن ﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [المزمل:٢٠] وقصر الصلاة لأجل الخوف هو جعلها على الصفة المشروعة للخوف فقصر منها ما كان يفعله لولا الخوف.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وأن قول الله ـ عزَّ وجل ـ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ هو قصرها مع الإمام عما جعل الله من فرضها الذي هو ركعتان أي مع الإمام» ثم ذكر عليه السلام صفة صلاة الخوف إلى أن قال: «وكل أي من الطائفتين قد قسم صلاته قسمين وصلاَّها جزأين: جزءاً مع إمامه، وجزءاً وحده، فهذا معنى القصر ـ ثم قال ـ: لا أدري من كلامه أم حكاية عن جده القاسم عليه السلام وقصرها في هذه الآية إنما هو تنصيفها مع الإمام..» إلخ.

قلت: لعله سمي قصراً من حيث هو منعها وكفها عن متابعة الإمام في الركعة التي ينفرد بها المؤتمون، ونظيره: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الصافات:٤٨] أي لا يمددنها إلى غير أزواجهن، بل يقصرنه على أزواجهن ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الأقرب أنه تعليل للترخيص في قصر الصلاة المذكور، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾ أي بيِّنَ العداوة تحتاجون إلى الحذر منه لكفره وإيمانكم.

فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا

﴿١٠٢﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ إذا ضربوا في الأرض وخافوا أن يفتنهم الذين كفروا ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بإقامة المؤذن وشروعك فيها بالتكبير ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ في الركعة الأولى ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ استعداداً للعدو إن هجم وهم مصلون ليدافعوه وهم مصلون ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ فُسِّر بالسجدتين، واتفقت عليه الروايات في (صلاة الخوف) أي لا تكفي سجدة واحدة، فأما التفسير فقد فسرت بإتمامهم صلاتهم، تقول: سلم الإمام أي التسليمتين، فلا يستمروا مع الإمام في صلاتهم بل عليهم أن يصيروا من وراء المصلين محافظين عليهم مراقبين للعدو.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ ومفهومه: أن الطائفة الأولى قد صلت، فقيل: لأنها إذا سجدت قامت فأتَمَّت صلاتها بسرعة والإمام قائم منتظرٌ للطائفة الثانية، وقيل: تكفيها ركعة واحدة وتذهب تجاه العدو، وقيل: تؤخر الثانية ثم تقضيها وتعيين الحكم في الركعة الثانية للطائفة الأولى يرجع فيه إلى السنة، وقد اختلفت فيه الروايات.

وقد قيل: إن صلاة الخوف خاصة برسول الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ حكى هذا في (الكشاف) وهو قريب إلا أنها رويت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام أنه قال في صلاة الخوف: «يقسم الإمام أصحابه طائفتين..» إلخ، فأثبتها للإمام، والطائفة: اسم لناسٍ ولو قلّوا، والمراد: بعض الحاضرين معه.

وقوله: ﴿مَعَكَ﴾ أي يقوموا مصلين معك جماعة، وفيه دلالة على أهمية الجماعة، بل وجوبها عند إقامتها لهم بالأذان والإقامة والشروع فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ وهذا بعد انصراف الطائفة الأولى الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي لحمايتكم من العدو، وقوله: ﴿لَمْ يُصَلُّواْ﴾ يشعر بأن هناك غيرهم قد صلوا، فيؤكد أن الطائفة الأولى قد صلت.

وبذلك احتج الإمام القاسم عليه السلام على أن الطائفة الأولى تتم صلاتها قبل انصرافها إلى مواجهة العدو، كما رواه في صلاة النبي ﷺ (صلاة الخوف) ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ بقية صلاتك ويتموا لأنفسهم بعد تسليم الإمام كما في الأحاديث عن النبي ﷺ ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعل الحذر كالشيء الذي يؤخذ لدفع شر العدو كالدرع والدرقة، ولعله خص الطائفة الثانية بذكر الحذر؛ لأن العدو يزداد حرصهم على مهاجمة المصلين في الركعة الثانية من حيث هي عندهم فرصة كادت أن تفوت.

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾ في حال غفلتكم ﴿مَّيْلَةً

قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ

وَٰحِدَةً﴾ وهي الهجوم، ولعله سمي ميلة لكونه على غفلة، كأن العدو كانوا متجهين إلى أمورهم غير مقبلين عليكم فعدلوا إليكم، وتوحيد الْمَيلة لاجتماع العدو عليها ووقوعها دفعة واحدة لشدة عداوتهم وحرصهم على الأسلحة والأمتعة. والمتاع: ما ينتفع به، وهذا تأكيد للحث على الحذر والتيقظ وأخذ الأسلحة، أو تعليل لقصر الصلاة على الصفة المذكورة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ هذا ترخيص في وضع الأسلحة حالة المطر لمشقة حملها مع المطر، وكون حالة المطر ليست مظنة هجوم العدو، أما حالة المرض فلضعف المريض عن حمله، ومع هذا الترخيص أمِروا بأخذ الحذر، وهو الانتباه والنظر إلى جهة العدو في الحين بعد الحين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بيان لحال الكافرين أن الله مكنهم من محاربة المسلمين؛ لأنه أعد لهم عذاباً مهيناً، ولولا أنه يجزيهم بجرائمهم لما مكنهم، فلإعداد العذاب مكنهم؛ ولتمكينهم وجب أن تحذروهم؛ لأنه أعد لهم عذاباً جامعاً بين الألم والإهانة.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنهيتموها وفرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ في أحوالكم لتكثروا من ذكره، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥] والْجُنوب: هي الضلوع يضطجع عليها عند إرادة النوم وفي حالة التعب أو نحوه.

يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ ذهب الخوف ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اجعلوها قيِّمة كما أمرتم في حالة الأمن، ولا تجعلوها كصلاة الخوف ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ﴾ مكتوبة ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ محدودة بفروضها وشروطها.

ومعنى ﴿مَّوْقُوتًا﴾ محدوداً، وحدود الصلاة عدد ركعاتها وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها كما أمر الله، وأذكارها من التكبير والقراءة وغير ذلك، ومن حدودها: أن تكون جامعة لشروطها من الطهارة، واستقبال القبلة وغير ذلك، ولهذا لا يزاد فيها ولا ينقص منها، بل يؤتى بها على عدد ركعاتها وأركانها بلا زيادة ولا نقصان، وكذلك أذكارها.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿تَهِنُوا۟﴾ من الوَهَن ضِدُّ الصلابة و﴿ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ طلبهم، أي طلب أخذهم أو قتلهم، فالمعنى: اطلبوهم بصلابة وقسوة.

﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ في طلبهم بالسفر والقتال ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ فاصبروا ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بقتالهم وطلبهم ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من قتالهم إياكم، فأنتم ترجون الجنة و رضوان الله وهم لا يرجون ذلك فاصبروا لتنالوا الجنة ورضوان الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في نفوسكم وما في نفوسهم، وبكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في أمركم بقتالهم وفي كل ما يقضي وما يخلق.

أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

قال الشرفي رحمه الله: «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت الآية على أن خوف الآلام والأسقام في سفر الجهاد لا يرخص في تركه» انتهى.

قلت: لأن المعنى: ابتغوهم بصلابة وإن أَلِمتُم، لكن لعله الألم الذي لا يمنع من القتال كالحر والبرد والتعب والجراح وقتل بعض الأصحاب، فأما ألم المرض الذي يمنع من القتال فليس من توابع الجهاد العادية وقد رخص الله للمرضى، ويحتمل: أنه إذا لم يوقن بالمرض وجب الطلب حتى يمرض؛ لأن الحر والبرد ليسا عذراً مع أنهما مظنة التسبيب لمرض، فظهر: أن الظن للمرض ليس عذراً.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِتَحۡكُمَ﴾ به ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأن فيه الحقَّ، وهذا في الدلالة على أن القرآن هو الحاكم بين الناس، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ من الحق، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يستند في الحكم إلى ما أراه الله في القرآن أو في غيره مما أوحاه إليه.

فالمعنى: لتحكم بين الناس بما أراك الله في القرآن بالقرآن، وتحكم بسائر الوحي فيما لم تجد في القرآن، وبهذا تختلف هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ..﴾ [البقرة:٢١٣]؛ لأن هذه في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلم ما أُوحي إليه من غير القرآن ومن القرآن، أما مَن بعده فإنهم إذا لم يعلموا غير الكتاب واختلفوا في السنة لم يكن حاكم إلا الكتاب فيما اختلفوا فيه أَمِن السنة أم لا، وفي القضية التي هي غير الخلاف ذلك وليس هذا الاختلاف من التدافع لما بينت.

تُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ قال الشرفي رحمه الله: «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: قال المرتضى عليه السلام: أراد الله - عزَّ وجل - إكرام نبيئه وتعظيمه من بعد إقامة الحجة على أهل الشرك من أهل الكتاب أن لا يكون لهم خصيماً فيما قد بان لهم من الحق وعرفوه معه صلى الله عليه وآله وسلم من الصدق ووجدوه في كتبهم وثبت في عقولهم» انتهى المراد.

فحاصل المعنى: أنْ احكم بما أنزل الله ولا تجادل من أبى قبول الحق من أهل الكتاب الذين خانوا بكتمان ما عندهم من الحق كصفات النبي الأمي.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿اسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أطلبه أن يغفر ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ للمستغفرين ﴿رَّحِيمًا﴾ لهم وغفوراً كثير الغفران، رحيماً يرحم عباده؛ فلكونه يرحم تُطلب منه الرحمة بالاستغفار، وقد جاء عن أمير المؤمنين تفسير الاستغفار بستة معان، وهو في حق أهل الكبائر.

فأما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو مطهر من الأرجاس، واستغفاره يكون من الخطأ والنسيان، وما يقع بتأويل كالأذن لمن يستأذن؛ لأنه إن استأذن عن الجهاد لعذر فهو معذور، وإن استأذن لغير عذر فهو كاره للجهاد غير مأمون أن ينهزم فيضر غيره من المجاهدين أو يفسد، فأنزل الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣] فالاستغفار من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مثل هذا.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ كما نهي صلى الله عليه وآله وسلم عن مخاصمتهم، نُهي عن الجدال عنهم وعن

مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا

كل من يخون الله ورسوله وجعل مختاناً لنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١] فكأنه أخذ نفسه واسترقها بخيانته لله ورسوله؛ لأنه خسر نفسه بخيانته، فكأنه أتلفها خيانة وأخذها كما يأخذ الخائن المال خيانة لمن ائتمنه عليه، وكلمة افتعل تستعمل في أخذ الشيء نحو اقتطف واقتبس واشترى وارتدى وأتزر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ من يعتاد هذه الجريمة ويعتاد الإثم؛ لأنه مصر على الإثم، ولعل فائدة التكثير الإشارة إلى أنه مصرٌّ فيخرج من ذلك مَن صدرت منه وسارع إلى التوبة، أو إن ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ معناه: أنه تكرر منهم بغير توبة في خلاله ووقع منهم مراراً عديدة، كما يشعر به الفعل المضارع الذي يستعمل فيما يتكرر من فاعله ويصير عادة له مستمرة، فهو في أناس مخصوصين مثل المنافقين، فأقام قوله: ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ مقامَ لا يحبهم؛ ليفيد: أنه لا يحبهم بسبب خيانتهم وإثمهم الذي صار عادة لهم، فهو ذم لهم، وبيانٌ لكثرة خيانتهم وإثمهم، فأقامه مقامَ إن الله لا يحبهم لهذه الفائدة وليعم من كان مثلهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ للخيانة من المؤمنين فيُبَيِّتون التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول في مكان يستخفون فيه؛ ليخفى على المؤمنين ما يُبيِّتون ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بترك معصيته فلا يحاولون أن لا يراهم في معصيته ويسمع كلامهم المنكَر؛ لأنهم غافلون عن الله آمنون لمكره لا يستحيون منه.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ في حال كلامهم الذي لا يرضاه وهم يُبيِّتونه، أي يقولونه في البيَات؛ لإخفائه وهو معهم يسمع ويرى، أي لا يخفى عليه قولهم ولا يخفون عليه، وليس بينه وبينهم مسافة تُبعدُهم عنه، بل هو أقرب إليهم من حبل الوريد؛ لأنه معهم لا بمقارنة ولا ظرفية؛ لأن معيَّته ليست مثل مَعِيَّة الأجسام أو الأعراض؛ لأنه لا يحتاج إلى مكان ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قد أحاط بأعمالهم فلا تضر المؤمنين؛ لأن الله يمنع ضرَّها.

(١٠٩) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قال في (الكشاف): «ها، للتنبيه في (أنتم) و(أولاء) وهما مبتدأ وخبر و﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ لوقوع (أوْلاءِ) خبَراً كما تقول لبعض الأسخياء: أنت حاتمٌ تجود بمالك وتؤثر على نفسك» انتهى.

وجوّز فيه وجهاً آخر، ولكن هذا عندي هو الظاهر، و(أنتم) خطابٌ لبعض الصحابة جادلوا بناءً على حسن الظن، ولعل ذلك كان قبل النهي، أو لجهلهم بأن جدالهم من المنهي؛ لجهلهم بأن مَن جادلوا عنهم خائنون، وقد نزَّل بعض المفسرين تفسير الآيات على سبب خاص وهو بعيد، والأَولى أنها عامَّةٌ وقعت دستوراً، وإن كان السبب خاصاً.

﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي فيها يعمل الإنسان ما يشاء من حق وباطل، ويقول ما يشاء؛ لأن الله ترك عباده مخيرين لاختبارهم وتكليفهم حتى يطيع المطيع باختياره، ومن يعصى يعصي باختياره، فإن نفع الجدال عنهم في الحيوة الدنيا فهو متاع قليل ينتهي سريعاً ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ توكل أمورهم إليه ليدافع عنهم.

أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والوكيل: هو الذي فوِّض إليه تدبير الشيء والقيام عليه» انتهى، فالمعنى: أنهم يوم القيامة يردون إلى الله وما لهم من نصير ولا معين ولا شفيع.

﴿١١٠﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا إرشاد للعصاة الخونة والمجادلين عنهم إن كانوا أثموا ليتوبوا إلى الله؛ لأنه غفور للتائبين؛ رحيم يتوب عليهم برحمته، والاستغفار: طلب المغفرة، فمن طلب المغفرة وجد السبيل إليها، وليس المراد: أنه يغفر له مع الإصرار؛ لأن الاستغفار منه غير مقبول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا..﴾ الآية [آل عمران:١٣٥] وليس في الآية وعدٌ بالمغفرة لمجرد الاستغفار؛ لأن المراد الطلب الجاد لا باللسان وحده، والطلب الجاد يكون الباعثُ عليه الرغبة في المغفرة والخوف من العقوبة، والطالب بهذا المعنى قد قيل له: إنه ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلا يقنط ولكن يطلب ذلك من طريقه، ونظير هذا لو قيل لمريض: إذا أردت الشفاء فاذهب إلى الطبيب فلان فإنه طبيب، فالمراد أن الطبيب يستطيع أن يداوي مرضه لا أنه يُشفَى بمجرد الذهاب إليه.

﴿١١١﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فهو المسئول عنه والمعاقَب عليه، ولا يتعداه إلى غيره، فالمجادلون عن الخائنين إذا استغفروا الله ولم يكونوا تعمدوا المعصية، فليس عليهم شيء من إثم الخائنين؛ لأنهم لم يشاركوا فيه ولم يرضوا به ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالخائن والمجادل ومن يستحق العقوبة ومن لا يستحقها ﴿حَكِيمًا﴾ فهو يجازي من يستحق ولا يجازي من لا يستحق.

خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا

فإن قيل: هذه الآية وأمثالها من القرآن تدل على أن الآمر بالمعصية والراضي بها لا يشاركان فيها؟

قلنا: أما الآمر فهو كاسب لها بالأمر، وكذلك الراضي الذي ترتب وقوعها على رضاه، قال تعالى في (ثمود): ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩] وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧] فجعلهم مشاركين في عقرها، ونسبه إليهم كلّهم مع أن المباشر لعقر الناقة واحد من ثمود، فأما من رضي بالمنكر بعد وقوعه، فالدليل على إثمه ما روي فيه عن علي عليه السلام في (نهج البلاغة) وتسميته مشاركاً في المعصية مجاز استعاره.

﴿١١٢﴾ ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ قيل في تفسيرها: الخطيئة المعصية التي لم يتعمدها فاعلها والتي تعمدها، والإثم ما تعمده صاحبه، وقيل: الخطيئة: ما تخص فاعلها كترك الصلاة والإثم ما يتعداه إلى غيره، وقيل: الخطيئة الصغيرة والإثم الكبيرة، وهذا فيه إشكال؛ لأنه إن أراد بالصغيرة الخطأ فقد جعل في آخر الآية الإثم المبين هذه المعصية فهو متناقض، وإن أراد بالصغيرة بعض العمد على القول بذلك، فليس اشتقاق الخطيئة من الخطأ الذي هو ضد العمد، فمن أين سمي الصغير بهذا المعنى خطيئة؟!!

وقد قال تعالى في قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ..﴾ الآية [نوح:٢٥] وفي خطيئاتهم الشركُ وتكذيبُ رسولهم والدعوة إلى الشرك وهذه كبائر، والإشكال الوارد على هذا القول واردٌ على الأول؛ لأنه قال في تفسيرِ

يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ما معناه: أن البهتان الكذب والإثم فعله المعصية فهو مشكل مع جعل فعله المعصية يعم العمد والخطأ، والإشكال وقع بسبب تفسير الإثم المبين بالمعصية التي فعلها العاصي ورمى بها بريئاً، وهو بعيد لوجهين:

الأول: أنه أدى إلى الإشكال المذكور، *الثاني*: أنه قد فرض وقوعه في أول الآية فكيف يخبر به في آخرها خبراً مبنياً على فرضٍ وقوعه، فالراجح: أن قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ خاصٌ برمي البريء، معناه: برمي البريء احتمل إثمَ البهتان الذي هو الكذب؛ لأنه إثم ولو لم يكن رمياً لغيره بما فعل، كما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾ [النساء:٢٠] واحتمل برمي البريء إثماً مبيناً؛ لأنه ظلَمَه برميه وهو بريء.

وأعتقد ـ والله أعلم ـ أنه تعالى قال في أول الآية: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ لِئَلا يتوهَّم أن المراد في آخر الآية بالإثم المبين ذلك الفعل الذي هو متردد بين أن يكون خطيئة أو إثماً، فالحمد لله الذي بيَّن آياته وفصَّلها كما أنه بدأ بذكر فعله لها، لأن رميه لغيره بها مع كونه فاعلها دون الغير أشنع وأبلغ في القبح مما لو لم يكن هو الفاعل؛ ولذلك رتب عليه بقوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ﴾ فأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ لأنه أمر بعيد من حيث أنه لا يتوقع من فاعل المعصية إلا محاولة الستر، فأما رمي غيره بها بعد أن فعلها فذلك غير متوقع منه، فكان هذا كقول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلا بن حرة　　　يرى غمرات الموت ثم يزورها

عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الذين يختانون أنفسهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يستميلوه إلى الباطل فهموا بذلك، فلولا ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ على النبي ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ إياه لضل، وفضل الله ورحمته من جملته العصمة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأن همهم أن يضلوك ضلال منهم، وما يضرونك من شيء؛ لأن الله عصمك.

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فهداك بهما وثبتك على الهدى ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بهما ما لم تكن تعلم علماً نافعاً.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ بيان لعِظَم النعمة من الله عليه ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من قبل إنزال الكتاب وفي حال إنزال الكتاب والحكمة والرسالة، فهو فضل عظيم؛ لأنه سبب الكرامة في الدنيا والآخرة والشرف الأبدي والسعادة في الآخرة والمقام المحمود والدرجة الوسيلة وغير ذلك.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ أن جواب ﴿لَوْلَا﴾ قوله تعالى: ﴿لَهَمَّت﴾ فيكون المعنى: إن فضل الله ورحمته منعهم أن يهمُّوا بإضلال النبي ليأسهم من إمكان إضلاله وعلمهم بقوة إيمانه وثباته على دينه، وذلك لأنهم راغبون في إضلاله ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ برغبتهم في ذلك والله أعلم.

فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتۡ

﴿١١٤﴾ ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النجوى): الكلام الذي يكون بين متحادثين يكتمونه عن غيرهم، فلا خير في كثير من النجوى؛ لأن الداعي إلى كتمانها في الغالب كونها في ذلك الظرف تناجياً بالباطل الذي يخاف أهله من أن يُطّلع عليه، وقد يكون النجوى لأمرٍ بصدقة أو معروف فهذا حسن، وقد تقتضي الحال إخفاءَه لوجود من يعارِض الأمر ويثبط فيخفى ليسلم الأمر من المعارضة، أو لوجود من يطالب في الصدقة، فإذا علم بالأمر بها لغيره ألحَّ في الطلب وآذى وغيره أحق، وقد يكون الإخفاء لغير ذلك من الأغراض الحسنة.

وكذلك الأمر بمعروف إن أريد بالمعروف الإحسان، وإن أريد به الواجب، والظاهر: العموم، فقد يكون إخفاؤه أقرب لطاعة الآمر إذا كان المأمور يأنف من الأمر بين الناس كالنصيحة وكذلك الإصلاح بين الناس، فقد يوجد من يعارض الصلح ولو علم به لأفسد واحتال عند أحد الخصمين حيلة لئلا يقبل الصلح، ولعل هذا يشير إلى الاستعانة على الأمور بالكتمان، كما روي في (سلسلة الإبريز بالسند العزيز) عن النبي ﷺ: «استعينوا على الحوائج بالكتمان» انتهى. وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ﴾ يعم المنكر والمباح الذي يضيع به الوقت في غير مصلحة.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس

مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلباً لمرضاة الله وتوصلاً إليها، وفي هذا ترغيب عظيم؛ لأن مرضاة الله أهم ما يطلب ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فحصل له النجاة من غضب الله والفوز بثوابه العظيم، وقد قلّ من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، بل قد يصلح بين الناس بعض الكبراء لطلب حسن الصيت، أو لأخذ الأجرة من المتخاصمين، أو لمجموع الغرضين ﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً**﴾ [الإنسان:٢٧].

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ عام في الكفار والمنافقين الذين يختانون أنفسهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن الحكيم الذي عجّزهم أن يأتوا ﴿**بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ [البقرة:٢٣] فلم يفعلوا، وقال: ﴿**وَلَنْ تَفْعَلُوا**﴾ [البقرة:٢٣] فكان صدقاً مع شدة حرص أعداء الإسلام على إبطال الرسالة وتكذيب الرسول والقرآن، فقد تبين لهم الهدى بالمعجز العظيم الذي هو القرآن وغيره، ومع ذلك شاقوا الرسول.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين في إيمانهم الناصحين لله ورسوله الذين لا يتولون أعداء الله، ولا يتناجون بالإثم والعدوان، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [التوبة:٧١] فهذه سبيلهم، وهم الناس الذين إذا قيل للمنافقين:

﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣] وسبيل المنافقين ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ..﴾ إلى آخر الآية [التوبة:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ..﴾ الآية [المائدة:٥٢] وغيرها، فغيرُ سبيل المؤمنين سبيلُ من في قلبه مرض، فليس له إيمان يدعوه إلى الخير ويأمره بتقوى الله، بل يثقل عليه ما يسهل على المؤمن، وقد يحتج بالآية على: أن الإجماع حجة؛ لأن مخالف الإجماع متبع لغير سبيل المؤمنين.

والراجح: أن المراد بـ﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما يدعو إليه الإيمان من حيث دعوة الإيمان إليه وهي الخصال السابق ذكرها، ولكن لا يبعد دخول ما أجمع عليه المؤمنون ضمناً في حق من عَلِم الإجماع في المسائل الدينية؛ لأن إيمان أهل الإجماع بعثهم على الإجماع من حيث بعثهم على ما اتفقوا عليه طاعة لله ورسوله، فأما من لم يعلم الإجماع وهو ملتزم بصفات المؤمنين المذكورة في القرآن الفارقة بين المؤمن وغيره فهو متبع لسبيل المؤمنين، ولا يصدق عليه أنه متبع لغير سبيل المؤمنين؛ لأن سبيلهم في الحقيقة ما ذكرتُ وقد اتبعه، وهو المراد في الآية عندي ـ والله أعلم؛ لأن المراد بسبيل المؤمنين السبيل المعروفة التي دل عليها القرآن فهي المعهودة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥] فإن معناه: العمل بما تدعو إليه الإنابة إلى الله والرجوع إليه وهي طاعته، وإيثار طاعته على طاعة من سواه، وإلا لزم أن كل منيب إلى الله يجب اتباعه في مذهبه.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نخذله ونجعله والياً لما تولاه أي ما اختار لنفسه من مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك ببسط النعمة وسلب التوفيق ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ نعذبه بصليها ومباشرتها لجسده ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ما أسواها مصيراً يصير إليه نعوذ بالله، ولما كانت الآية الماضية في المنافقين وهم ينصرون المشركين ويتولونهم وفي المشركين عقَّبها بالتحذير من الشرك فقال تعالى:

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ قد مر تفسير أكثرها، والمرجئة يتمسكون بها ليجعلوا الآيات البينات مجملة، وذلك باطل؛ لأن المجمل يفسر بالمبين، ولا يجوز جعل المبين مجملاً بالمجمل، وإجمال من يشاء الله له الغفران بحكمته ورحمته يؤدي إلى إجمال المغفور من حيث أنه عمل من يشاء الله أن يغفر له لا كل عمل ولو لم يعمله من يشاء أن يغفر له، فلذلك كان مجملاً في العمل؛ لأنه لا نعلم من هو العامل الذي يغفر له فلا نعلم عمله تبعاً للجهل به.

وقد ظن (صاحب حاشية الكشاف) أنها وردت في السورة مرتين لتأكيد الإرجاء، والتحقيق: أنها تكررت للتحذير من الشرك واستدعاء السياق لها في الموضعين كما بينت، وقد جاء في هذه السورة الوعيد الجازم موجهاً إلى المسلمين بدليل السياق، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

وقوله تعالى عقيب (آيات المواريث): ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى ﴿..وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ

دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهي بيِّنة في عصاة المسلمين؛ لأنها لو كانت في الكفار لقال: أسلمت، أو آمنت كما قال فرعون، مع أن السياق قبل الآيتين في المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ والسياق في المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ..﴾ ولا إشكال أنهما في الذين أسلموا ولم يهاجروا، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ وظاهر الخطاب في أولها للمسلمين، فهذه سبع آيات في (سورة النساء).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ يفيد: تشبيه الضال عن الحق بالضال عن طريق السلامة في متاهة وقد ابتعد عن الطريق؛ ليفيد أن المشرك قد صار بينه وبين الحق مسافة بعيدة، والحق هو طريق السلامة.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ هذا في مشركي قريش ومن كان على طريقتهم؛ لأنهم يؤنثون أصنامهم، مثل: ﴿..اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ

الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠] وكأنهم يعتبرونها رمزاً للملائكة الذين يزعمون أنهم إناث، والآية الأولى في مشركي أهل الكتاب، والمخصِّص هنا العقل المخرج للمشركين من أهل الكتاب والحصر إضافي، أي ليست آلهة، وإنما هي إناث كقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ﴾ [النجم:٢٣].

﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ..﴾ ﴿وَإِن يَدۡعُونَ﴾ أي وإن يعبدون ﴿إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ لا الملائكة؛ لأنهم عبدوا الأصنام لا الملائكة، ونسبت عبادتهم إلى الشيطان لأنه سببها بالأمر والإغراء، فالحصر إضافي، ولا ينافي أنهم يعبدون الأصنام، وسميت عبادتهم للشيطان دعاءً مشاكلة؛ لأنها دعاؤهم لأصنامهم، والْمَرِيد كما في (الصحاح): العاتي، قال: «والمرود على الشيء: المرون عليه».

وقال في (لسان العرب) بعد أن فسر المارد بـ(العاتي): «وتأويل المرود أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف ـ ثم قال ـ والمريد: الخبيث المتمرد الشرِّير، وشيطان مارد ومريد واحد».

قلت: يؤكد هذا الحديث في فضل شهر رمضان حيث يفهم منه أن مردة الشياطين شر من بقيتهم، نعوذ بالله منهم.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ هذه صفة ثانية للمريد والأولى ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته، فهي خَبَر لا إنشاء، والصفة الثانية تفيد: أنه إبليس نعوذ بالله منه.

١١٩ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ الضميرين للنصيب المفروض الذي اقتطعه من بني آدم وغيرهم وفرضه لنفسه بتخلية الله تعالى ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ قال في

(لسان العرب) حاكياً: أبو العباس أحمد بن يحيى: التمني: حديثُ النفس بما يكون وبما لا يكون انتهى المراد.

والمقصود بحديث النفس: التأميل، فمعنى ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أوقعهم في التمني لطول العمر مثلاً والمغفرة مع الإصرار، وتأميل التوبة في آخر العمر، والتمني هذا غير التمني الذي يعبر عنه بـ(ليت) لأنه مأيوس.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «البتك: القطع، وسيف باتك: قاطع، والتبتيك: التقطيع» انتهى.

وفي تفسير الإمام زيد عليه السلام لـ(غريب القرآن): «معناه: يُقَطِّعُنَّ» انتهى. وفي (مفردات الراغب الأصفهاني) مثل ما ذكره الشرفي، وزيادة: أن البتك يقال في قطع الأعضاء والشعر، وبتك الآذان ظلم للأنعام، سواء فعلوه تقرباً لأصنامهم أم لعباً وعبثاً.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ تغيير خلق الله تحويل صورة المخلوق عن صفتها الأصلية التي خلقت عليها، مثل: وشر الأسنان، وخصي الفحل من الناس، وجعل البصير أعمى أو أعور، والسميع أصم، والسوي أعرج ونحو ذلك، ونتف شعر اللحية حتى يصير صاحبها أمرداً، ونتف شعر العانة، والوشم بشق الجلد وجعل الكحل فيه، وتشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، بتغيير الصورة أو الصوت.

ويدخل في هذا تحويل الذكر أنثى أو الأنثى ذكراً كما قيل بوقوع أحدهما أو كليهما في بلاد الغرب، فأما مجرد حلق الشعر الذي لم يثبت جواز حلقه وأصوله باقية بلا تشبه بالنساء أو العكس ففيه نظر، وأما التشبه بلباس أو عادة فلا يترجح دخوله في تغيير خلق الله، وإن كان داخلاً في حديث: «لعن من تشبه من الرجال بالنساء أو تشبهت من النساء بالرجال» أعني يشمله الحديث.

وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ

وقوله: ﴿وَلَأَمُرَنَّهُمْ﴾ مرتين تكبرٌ عليهم واستعلاء.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من يتبع الشيطان فتفوته ولاية الله ويتولاه الشيطان ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ خسراناً بيِّناً؛ لأن ولاية الله أن يلطف بعبده، وينصره، ويدبر له الخير في دينه ودنياه؛ لأنه يتولى أموره لإصلاح شأنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣-٤].

فتبين: أن ولاية الله هداية إلى السعادة الدائمة، وولاية الشيطان هداية إلى عذاب السعير حيث الشقاوة العظيمة الدائمة، وهذا خسران بيِّن لمن فاتته ولاية الله واستبدل بها ولاية الشيطان.

﴿١٢٠﴾ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهذه من ولاية الشيطان لمن اتبعه ﴿يَعِدُهُمْ﴾ وعداً يغويهم به، كوعدهم بطول العمر ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ يوسوس لهم بالأماني ليغويهم بها ويجرِّيهم على المعاصي ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إلا بأن يغرهم ويخدعهم.

قال الشرفي ﵀ في (المصابيح): «إيهام النفع بما فيه الضرر.. إلخ، وقال تعالى في يوم الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ..﴾ إلى قوله

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن

تعالى: ﴿..وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب:١٠-١٢]» انتهى.

أرادوا الوعد بإظهار الدين، وقالوا في (وقعة بدر): ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤].

﴿١٢١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ المأوى: الذي يأوي إليه الحيوان من مسكن أو غيره مما فيه غرض له ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:٤٣] ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩] ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠] ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة:٢٠] من التهكم بهم أو المشاكلة التقديرية؛ لأنها تكون لهم مستقراً ومقاماً كما يكون المأوى.

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي لا يجدون مكاناً يحيصون إليه، أي يعدلون من العذاب، قال الراغب في (المفردات): «أصله من حَيص بَيص: أي شدة، وحاص عن الحق يحيص: أي حاد عنه إلى شدة ومكروه» انتهى.

فعلى هذا: لا يجدون معدلاً يلجأون إليه، ولا معدلاً مكروهاً مثل الموت يلجأون إليه، والراجح: أن المحيص ما يلجأ إليه من الشر ولو لم يكن ما يلجأ إليه شر، ففي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: مَعدَل» وفي (الصحاح): «حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومَحاصاً وحَيَصاناً أي عَدَل وحادَ، يُقال: ما عنه محيص، أي محيد ومهرب» انتهى المراد.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾

يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ

قال في (الكشاف): «﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ مصدران مؤكّدان: الأول لنفسه، والثاني لغيره» انتهى.

قوله: «لنفسه» يعني: للوعد الذي هو قول الله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَقّٗا﴾ مؤكّدٌ للوعد بأن الموعود به حق لا يتخلف، والقيل: القول، وفي قصيدة عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدِمِ

وصدق الله لا أصدق منه؛ لأنه غني عن الكذب، وعالم لا ينسى، وقدير لا يعجز، وكل عسير عليه يسير، وفي الآية دلالة على وصف الوعد بالصدق فلو تخلف كان كذباً، وذلك من حيث أن وعده خبر عن الواقع الذي سيكون وهو عالم بالمخبَر به، أما المخلوق فوعده مبنيٌّ على عزمه ونيته وهو لا يعلم يبقى ذلك العزم أم يتحول، فكأنه إذا وعد إنما يخبر عن عزمه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعۡدَهُ﴾ [آل عمران:١٥٢] كهذه الآية.

﴿١٢٣﴾ ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ أي ليس يكون لكم بأمانيكم، أي ما وعد الله به في الآية التي قبل هذه، ونظير هذا التركيب الحديث: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل» أي لا ينال العبد أن يكون مؤمناً «بالتمني» أي بأن يمني نفسه أنه مؤمن «ولا بالتحلي» أي بإظهار بعض أوصاف المؤمن كالخشوع، والأماني: ما يمني نفسه أو يمنيه الشيطان أو غيره، أي يرجوه ويؤمله جمع أمنية، وروى أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) للإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية:

متى ترى للعدل نوراً وقد أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنية طال غرامي بها كأنني فيها أخو حلم»

انتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ دلالة على أنه لا يوثق بالظن، وأن من عمل ﴿سُوٓءٗا﴾ جزي به، والسوء والسيئة سواء ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾ وفيها دلالة على أن الشفاعة لا تكون لترك الجزاء، وإنما تكون لأهل الجنة في زيادة الخير ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ فيها ردٌّ على من يتوهم أنه سيكون له ولي يدفع عنه العذاب.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي دافع بينه وبين الله وهو تمثيل بما يكون ممن أراد أن يدفع عمن يضر به غيره فيتوسط بين الضارب والمضروب ليكف عنه، والولي: الذي يتولى رعاية الإنسان وإصلاح شأنه ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصره عند سوقه إلى جهنم فيتخلص من العذاب ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الانفطار:١٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ للمسلمين المصدقين بما وعد الله به في الآية التي قبل هذه، فالآية في عمومها لعصاة المسلمين واضحة الدلالة فأما المؤمن الصادق الإيمان فجزاؤه على الصغائر إن لم يكن منه سبب لتكفيرها ما يناله من المصائب، وأما خروج التائب من عمومها فأغنى عن ذكره كونه معلوماً من الدين؛ لأن رسول الله ﷺ أرسله الله إلى الناس ليتوبوا من الشرك وغيره ليغفر لهم، مع أن هذا غير مقصود في الآية؛ لأنه لا يقال في الخطأ والنسيان ونحوهما: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ ولأن الجزاء مع الإيمان لا ينافي تمنى الجنة فلا يناسب التفسير به أول الآية؛

ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي

ولأن الأقرب أنها تكفر باجتناب الكبائر لدخولها في العموم، فالأقرب: أن الصغائر وإن كانت سبباً فلا يدل ذلك على أن المسبَّب عقوبة.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ محمول على التسبيب للبلوى ليعوض أجرها الذي ينال بالصبر عليها، وعوضها ما نقص بسبب الصغيرة أي ما فات ـ والله أعلم، والروايات في هذا لعلها مما وضع للملوك لتسهيل المعاصي فلا يعدل عن القرآن لأجلها.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ فلا فرق في حكم الله، ولا تضر الأنثى أمانيّ أعدائها المتكبرين ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٩] فالأماني قد تكون للإنسان وقد تكون عليه، ووعد الله لا يتبع الأماني بل هو ما فصل به في كتابه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ شرط في الثواب على العمل، فلا ينفع العمل بلا إيمان ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ من أجل عملهم وإيمانهم ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم مقدار نقير، قال الراغب في (المفردات): «والنقير: وَقْبة في ظهر النواة يضرب به المثل في الشيء الطفيف، وقال: الوقب كالنقرة في الشيء» اهـ وكذا في (الصحاح): «النقير: النُّقرة التي في ظهر النواة» انتهى.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾؟! سؤال في معنى النفي وجعل سؤالاً

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي

لوضع معناه في الفطرة؛ لأن الله هو الخالق الرازق فهو المالك المستحق للعبادة، وإسلام الوجه لله أن تجعله لله خالصاً لا تتوجه به لعبادة غير الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] وغيرها.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مطيع لله، قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٣-٤] ولا يكون كذلك العاصي المصر ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ فأخلص لله وآمن به، وهي ملة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿حَنِيفًا﴾ خاشعاً لله أو خاشعاً لله محباً له.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً﴾ الخلة في الأصل: صداقة ومودة في الخليل لخليله، قال الراغب: «فإن الخلة من تخلل الود نفسه ومخالطته، كقول الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

ولهذا يقال: تمازج روحانا» انتهى. وقد بين أن ذلك أنما يصح في المخلوق، فأما الخلة من الله سبحانه وتعالى فالمراد بها: غاية ذلك ولازمه.

قال الزمخشري في هذه الآية: «هي جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب، كنحو ما يجيء في الشعر: والحوادث جمة، فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته» انتهى.

قلت: وتسمية النحاة لها اعتراضية أو معترَضَة لا يمنع مجيئها في آخر الكلام؛ لأنها كثيراً تأتي معترضة بين الكلام، وذلك كاف في صحة التسمية؛ لأنها اصطلاح لهم.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ فكلهم عباده ولا إله إلا هو، فالحق هو إسلام الوجوه له ولم يزل

ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ

﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ فكل شيء في قبضته، فمرجع العباد إليه وحده لا شريك له في ملكه.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فقد أفتى سبحانه بحكم النساء في الميراث والزواج في هذه السورة الكريمة وفي (سورة البقرة) و (سورة الطلاق) وغيرها.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ويفتيكم ما يتلى عليكم من الفتوى ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من الحقوق كالمهر والنفقة إذا تزوجتموهن وكالميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لعدم الرغبة فيهن، فتقدم فيهن من الفتوى قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أي فاتركوا نكاح اليتامى للرغبة في مالهن، وانكحوا غيرهن من النساء ما طاب لكم منهن.

ونزل من الفتوى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ ونزل: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا..﴾ الآية، فهذه الآية تأمر بالرجوع إلى ما سبق لأنها إحالة للمستفتي على ما مر، وتبين أن المراد في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ هو حكم اليتامى المذكورات هنا.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي وفي المستضْعَفين من الولدان: أي ما يتلى عليكم فيهم، أو يفتيكم فيهم ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ..﴾.

مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط أو ما يتلى عليكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى..﴾ وغيرها.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ فهو يجزيكم به لا يفوت منه شيء، وهو عام في كل خير، ويدخل فيه فعل الخير للنساء اليتامى أو عموماً، والمستضعفين من الولدان واليتامى عموماً.

﴿١٢٨﴾ ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ ﴿بَعۡلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ نُبوّاً عنها وترفعاً، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «والمراد: أنها خافت لما لاح لها من أمارات النشوز، وهو أن يمنعها ما يتوجه عليه من نفقة وحسن عشرة، والإعراض أن يقل محادثتها لطعن سن أو ملال أو طموح في أخرى أو غير ذلك» انتهى المراد، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾ فلا إثم عليه ولا عليها.

وقوله تعالى: ﴿صُلۡحٗا﴾ بالتنكير، أي: أيَّ صلح يرتضيانه ويتفقان عليه، والمراد: ما لا يحل حراماً أو يحرم حلالاً كما جاء في الحديث؛ لأن إباحة الصلح ليس إلا لترك بعض الحقوق الزوجية، وتحريم الحلال أو تحليل الحرام أمر خارج عن ذلك، فليس داخلاً في الآية ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ ترغيب في الصلح بين الزوجين وغيرهما.

ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ إشارة إلى الصلح بنقص النفقة أو تركها، فقد يكون الزوج ثقلت عليه النفقة وأشرف على النشوز من أجل شحه بالمال، فلا بأس بالصلح بالنقص أو الترك إذا كانت الزوجة تجد نفقة من مالها أو مال أبيها مثلاً، وذلك لاستبقاء الزواج بينهما.

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ ترغيب في الإحسان بعد الصلح، وأن لا يتكل الزوج عليه، وكذلك في الإحسان بأن لا يحوجها إلى الصلح وغير ذلك من الإحسان، وترغيب في التقوى؛ لأن الله يجزي بما عمل العبد من طاعة وإحسان جزاء موفوراً؛ لأنه بذلك خبير لا يخفى عليه قليل ولا كثير، وكذلك ما عمل العبد من سوء فالله كان به ﴿خَبِيرٗا﴾ يجزيه به الجزاء الأوفى.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ قد قال تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ فمن تزوج اثنتين أو أكثر فإنه يقع في المشكلة، فالميل ثلاثة أقسام:

الأول: الميل اليسير بسبب غلبة الحب مثلاً مع التسوية في المبيت والإنفاق الواجب، ومع إخفاء الميل بقدر المستطاع؛ لئلا يضر التي مال عنها بالغيظ والغم، فهذا لا يبعد جوازه، وقد روى في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾ قال: «هذا في الحب والجماع، وأما النفقة والكسوة والبيتوتة فلا بد من العدل في ذلك».

كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟

القسم الثاني من الميل: التقصير في التسوية في المبيت والواجب من النفقة، فهذا لا يجوز، ولكن تجوز المصالحة عند خشيته، كما في الآية التي قبل هذه، فإن أبى أحدهما الصلح فلا بد من العدل أو الطلاق.

القسم الثالث: ما نهي عنه في هذه الآية ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ فهذا لا يجوز ولا بالصلح؛ لأن الله نهى عنه، وإن أباح الصلح وخصه بالنهي دون ما دونه ـ والله أعلم.

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ بعد الفساد بتركها كالمعلقة وذلك بحسن العشرة أو المصالحة على بعض الحقوق ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله بالتوبة من ما مضى والطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يغفر ما مضى؛ لأنه ﴿كَانَ﴾ وما زال ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ومعنى ﴿كَانَ﴾ إثباتُ الشيء فيما مضى لا نفيه في الحال، فهو يكون في بعض الأمور منتفياً في الحال وفي بعض ثابتاً، ولم أقل: لم يزل؛ لأنه مفهوم كان ولكنه لأنه الواقع، أما ﴿غَفُورًا﴾ فمن حين خلق المكلفين وكثرت مغفرته لهم، وأما ﴿رَّحِيمًا﴾ فهو بمعنى مَن شأنه أن يرحم، فيكون صفة له في الأزل، فشأنه في الأزل أن يفعل ما يفعله الراحم، وهذا واضح لأنه في المخلوق صفة مشبهة ليس اسم فاعل.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بالطلاق أو غيره من أسباب التفرق ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ أي كلاً منهما عن صاحبه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ قال في (الكشاف): «والسعة: الغنى والمقدرة، والواسع: الغني المقتدر» انتهى.

ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن

والأولى أن تفسير السعة بالغنى أو الاقتدار، إنما يصح لسعة الحال التي تقابل ضيق الحال، فأما السعة المضافة إلى الله فهي ما يفيده وصفة بأنه واسع.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وإنما جاز وصف الله بذلك؛ لأنه واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم فلو ذكر الله تعالى أنه واسع كذا لاختص بذلك المذكور، لكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معين دل على أنه واسع في جميع الكمالات» انتهى، ونحوه في (مفردات الراغب الأصفهاني).

وقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾ دليل أنه جوز الطلاق بحكمته فالاعتراض على شرع الطلاق إنما هو جهل بالحكمة مع كونه كفراً، فقد يكون الطلاق فَرَجاً لأحد الزوجين أو لهما معاً، حتى كأنه خرج من السجن، مع أن الله قد رخص للزوج لئلا يضطر إلى الطلاق مع بقاء المصلحة في بقاء الزواج حيث رخص في تزوج ثنتين وثلاث وأربع، فلا يضطر الزوج إلى طلاق الأولى لرغبته في الثانية وهكذا.

وكذلك رخص في الصلح كما مر وفيه إبقاء للزواج، ومع شرعه تعالى للطلاق شرَع الرجعة إذا لم يكن خُلْعاً ولا ثالثاً وكانت مدخولة، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١] فقد يندم الراغب في الطلاق فتكون الرجعة تيسيراً له وإبقاءً للزواج، ثم إن الله أحكم الحاكمين قد حكم به فلا معنى لاعتراض الكفار.

﴿١٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

ٱلْأَرْضِ﴾ فيه دلالة على أن من فيهما عباده يحكم فيهم ما يريد، فالأحكام الماضية في السورة وغيرها كلها حق، ومن ذلك الصلح بين الزوجين والتفرق إن كان، فعلى العباد أن يطيعوه ليتقوا عذابه، ولقد وصى بتقواه الأولين والآخرين، فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس، وهي نعمة ورحمة لمن قبلَها.

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ نعمة الله وتخالفوا وصيته، أو وإن تكفروا بوصيته وتجحدوا أنها منه ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنما أنتم عبيد عصوا ربهم فاستحقوا العقاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر:٧] وهنا زيادة الإطلاق، فهو ما زال غنياً عن كل شيء ﴿حَمِيدًا﴾ مستحقاً للحمد أهلاً لئن يُحمَد ولو لم تحمدوه وكفرتم نعمته، وهذا يرجح تفسير الكفر هنا بكفر النعمة.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ فهو مدبر شؤون عباده بأرزاقهم وغيرها من أحوالهم، وبما شرع لهم من الأحكام، وبما أنزل من الكتب، وأوحاه إلى الرسل، وبما جعل من العقول والأسماع والأبصار، وتدبير أسباب سعادتهم في الآخرة، وسلامتهم من العذاب، وغير ذلك من تدبير شؤونهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ توكل إليه أمور عباده؛ لأنه القدير العليم الرحيم الكريم.

﴿١٣٣﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يتوفاكم ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ ليعبدوه ﴿وَكَانَ

سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ

ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ لم يزل قديراً على إذهابكم منذ خلقكم وعلى الإتيان بغيركم من قبل ذلك، وهذا تنبيه إلى معرفة رحمته ومغفرته كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وأكد أنه غني عن عباده، وأنه لا ينقصه إعدامهم وإنما تعليمهم وإرشادهم وما كلفهم به من الأحكام في هذه السورة وغيرها رحمة لهم ونعمة؛ لأنهم إذا أطاعوه صاروا إلى السعادة الدائمة.

﴿١٣٤﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من الله أو من عباده كالعامل بالأجرة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فليطلبه من الله بالدعاء وإخلاص العبادة فهو خير له من ثواب الدنيا وحده ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ لمن دعاه ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه عبادة مَن عبده فيجزيه خيراً، ويصلح له أمر دنياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

﴿١٣٥﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب لمن آمن؛ لأن إيمانه حجة عليه، وإذا كان إيمانه باقياً فهو يدعوه إلى الطاعة ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ لم يقل: قوموا بالقسط، بل أمر بملازمة القيام بالقسط حتى يكون

ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ

المؤمن قوّاماً بالقسط، يسمى بمثال المبالغة، وأمرهم بذلك أمراً يدل على الوجوب، وأكده بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأولاد والإخوة والأخوات، فيجب أن لا تأخذهم عاطفةٌ تصدهم عن القيام بالقسط بالعدل والشهادة بالحق.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ مَن عليه الحق، فاشهدوا عليه لا يمنعكم غنى الغني، ولا فقر الفقير ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ﴾ بالغني والفقير، فعليكم أن تطيعوا أمره فيهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ إما هوى في غني لأجل غناه، فكثير من الناس يداري الغني ويكره إغضابه أو فعل ما يكره، وكذلك الفقير قد تدعو الرحمة له إلى الرفق به، وأن لا يحمل ما يثقل عليه، وكلاهما من الهوى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ عن ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ بكلمة الحق والقيام بالقسط، ويظهر أن هذا خطاب عام للشهود والحكام.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ ليُّ الشهادة: تحويلها عن وجهها ليبطل الحق أو بعضه، والإعراض: الإعراض عن القيام بالقسط، والإعراض عن الشهادة بالحق كتماناً لها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً بما تعملون بظاهره وخبره الباطن، وهذا تخويف للمؤمنين بأنه يجزيهم إذا لَووا أو أعرضوا الجزاء الأوفى. قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلَّت على تحريم الشهادة بغير الحق، وعلى تحريم الإعراض عن أداء الشهادة بالحق» انتهى.

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

﴿١٣٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ هذه الآية ابتداءٌ في كلام يدعو إلى الإيمان ويحذر من الكفر والنفاق، وهي تدل على وجوب الإيمان بالله ورسله وكتبه، والأمر لمن قد آمن ليؤمن في المستقبل، ويثبت على الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ﴾ محمد وهو القرآن، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ عام لكتب الله المنـزلة على النبيئين الذين قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل تنـزيل الكتاب على محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ومن يجمع بين أنواع الكفر المذكورة ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأن كل نوع من الكفر ضلال، فإذا جمع الأنواع فقد صار بعيداً في ضلاله في متاهة واسعة فبينه وبين العودة إلى الطريق مسافات ومراحل، ولعل هذا فيمن يكفر بالبعث والجزاء استبعاداً للقدرة عليه ويكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبكون القرآن من الله ويكفر بالملائكة على معناهم الحقيقي، ويزعم أن إبراهيم كان مشركاً، ولا يؤمن بالرسل ولا بالكتب، وهم من أهل الجاهلية من العرب الذين ليس لهم كتاب وأشباههم من العجم.

﴿١٣٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هؤلاء قوم ممن آمن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجعوا إلى قريش وارتدوا عن الإسلام، ثم رجعوا ثم آمنوا ثانية، فرجعوا إلى الكفر فازدادوا فيه ومضوا عليه.

﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا

فأخبر الله أنهم حين ازدادوا كفراً ثم مضوا على ذلك، أن الله لا يغفر لهم ولا يهديهم سبيلاً، بل تركهم من التوفيق والتسديد والعون والتأييد، وحكم عليهم سبحانه عند ذلك بالهلكة والخذلان، بما استوجبوه من تركهم للحق والإيمان، فصاروا بذلك معذبين ولديه سبحانه من الهالكين، فأخبر سبحانه أن لم ينفعهم ما كان من إيمانهم أولاً وما كانوا عليه في إسلامهم؛ لأن ما ختموا به أعمالهم من الردة والكفر موجب لهم النار..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فيه تأكيد بقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ﴾ ودلالة على أنه لا يليق بعظمته وجلاله وعزته وحكمته أن يغفر لهم، ونظير هذا التعبير للتأكيد قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٣٣].

﴿١٣٨﴾ ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿بَشِّرِ﴾ تهكم بهم لأن البشرى الحقيقية ما كان إعلاماً بالخير، والمنافقين: قيل هم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام.

والراجح: ما قاله الناصر عليه السلام واحتج له في (البساط): أنهم الذين يتولون الكفار سراً ويظهرون الإسلام، سواء أضمروا الكفر أم كانوا مقرين في أنفسهم غير مؤمنين ولا جاحدين؛ لأن مفهوم النفاق اتخاذ الوجهين لإرضاء الفريقين، ولكن بعض المنافقين كفروا ولكن ذلك خارج عن مفهوم النفاق، ويظهر أن الله تعالى قد فسره عقيب هذا الوعيد بقوله تعالى:

﴿١٣٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ كما أفاده قوله تعالى في آخر الآيات الآتية في زجر المنافقين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

وقوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿..أَلَمْ تَرى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ..﴾ الآية [آية:١١] ففسر نفاقهم بهذا القول، ويدل على أن بعض المنافقين لم يكونوا كافرين وإن كانوا في حكمهم بسبب النفاق، يدل على ذلك قوله تعالى في بعض المنافقين: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧] انظر (البساط) للإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام وقد طبع والحمد لله.

﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ ﴿أَيَبۡتَغُونَ﴾ سؤال تبكيت للمنافقين، وبيان لغلطهم؛ لأن الباعث لبعضهم أو كلهم هو الخوف من غلبة الكفار للمؤمنين، والمنافقون لجهلهم وعدم الإيمان في قلوبهم ينظرون إلى كثرة الكفار وقوتهم من الناحية المادية، فهم أكثر سلاحاً وآلة حرب وأكثر أموالاً، فلاعتقادهم الراجح أن الغلبة ستكون للكفار سارعوا إلى اتخاذهم أولياء خشية أن تصيبهم دائرة، ولكنهم مع ذلك يرون قوة المؤمنين بإيمانهم فلا يجزمون أنهم سيغلبون؛ لأنهم قد انتصروا في بدر مع قلتهم وقلة خيلهم ومالهم.

فلذلك اختار أعداء الله الذين في قلوبهم مرض اختاروا لأنفسهم إظهار الإسلام للمسلمين واتخاذ الكفار ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأنهم كما قال الله تعالى: ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦] وأدّاهم الفَرَق مع عدم الإيمان إلى اختيار النفاق، فرد الله عليهم بأن الغلبة ستكون للمؤمنين؛ لأن ﴿ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ

سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ

جَمِيعًا﴾ وهذا واضح لا ينفيه المنافقون، فكيف لا يرجحون أن النصر يكون لأولياء الله الدعاة إلى عبادته وحده، ولعل ذلك لأنهم لا يوقنون بأنهم أولياء الله الدعاة إلى دينه لعدم الإيمان في قلوبهم، فنظروا إلى ظاهر الحال فاستحقوا التوبيخ لجهلهم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿١٤٠﴾ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ هذا خطاب للمؤمنين أو لهم ولكل من قد أسلم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ أي إذا سمعتم ذكرها والكفر بها والاستهزاء بها وأصل الكلام: آياتُ الله يُكفر بها ويُستهزأ بها مبتدأ وخبر، فنسخه ﴿سَمِعْتُمْ﴾ مفعولين بهما لـ(سمعتم) على طريقة (ظن وأخواتها) في نسخ المبتدأ والخبر، وقد عد صاحب الأجرومية (سمعت) من أخوات (ظننت) وهو واضح هنا.

والمنزل قوله تعالى في (سورة الأنعام): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ..﴾ الآية [آية:٦٨] وفي مجموع الآيتين دلالة على: أن خطاب الرسول ﷺ في مثل هذا يكون حكمه عاماً له ولأمته إلا ما خصه دليل ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ إذاً إذا قعدتم معهم وأنتم تسمعونهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها مثلهم في الإثم، وهذا يكفي في الزجر عن ذلك.

نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأن المنافقين يسمعون الكفار يكفرون بآيات الله فاجتمعوا في الدنيا على الإثم وفي الآخرة في العقاب، وهذا يؤكد أن معنى ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ هو مثلهم في العقاب.

﴿١٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم الدوائر؛ لأنهم يتوقعون أن يغلبكم الكفار، وقوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾ يُفهَمُ منه أنهم خائفون منكم أو كارهون لكم ويصبرون على ذلك لتوقعهم ذهابكم، وهم المنافقون يجاملون المسلمين ويبقون معهم تربصاً بهم الدوائر ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لم يرجعوا عن نفاقهم بل يستمرون فيه؛ فلذلك ﴿قَالُوٓاْ﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي أنا معكم، ما زلنا على دينكم فقد عرفتم ذلك منا من قبل اليوم وهذا لخوفهم من المؤمنين؛ لأنهم لم يتبعوا سبيل المؤمنين ويكونوا مثلهم في المحافظة على الجماعة والامتثال لأوامر الرسول ﷺ.

ومع ذلك قد نافقوا فهم يخافون أن يعتبرهم المؤمنون كافرين غير مقبول منهم دعوى الإسلام، وهذا حين رأوا قوّة المسلمين ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿نَصِيبٌ﴾ بأن حصلت لهم فيكم وقعة مؤلمة لكم؛ لأن الحرب سجال تتقلب فيه الحال لتقلب أحوال المسلمين كما كان (يوم أحد) وفي أول (وقعة حنين) ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكافرين تقرباً إليهم وتحبباً لديهم

لزيادة أملهم في أن الغلبة والقوة لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ نسيطر عليكم في الرأي ونغلبكم في التدبير ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أن تكونوا معهم، فاحتجوا بأمرين على صدقهم في أنهم مع الكفار:

الأمر الأول: الاستحواذ عليهم وغلبتهم في الرأي حتى حصلوا على النصيب بسبب رأي المنافقين وتدبيرهم، ويظهر: أن المنافقين كانوا زينوا للكفار حرب المسلمين ومنّوهم أنهم يغلبون المسلمين، وغلبوهم بهذا الرأي حتى قاتلوا المسلمين، فادعى المنافقون أن هذا بسبب رأيهم لهم في القتال.

الأمر الثاني: منعهم لهم أن يكونوا مع المؤمنين أي تحذيرهم من الإسلام، فهو دليل ثان على صدق المنافقين في أنهم مع الكفار، وأنهم غير جادِّين في إظهار الإسلام، وهذا حين رأوا قوة الكفار وتقوى أملهم في أن العاقبة للكفار، هذا على فرض أن المنافقين حرضوا الكفار على حرب المسلمين، فإن لم يكونوا فعلوا فالمعنى نسيطر عليكم في المنع من الإسلام، فهي في المعنى قضية واحدة أرادوا سيطرنا عليكم بالرأي والتدبير لكثرة تحذيركم من الإسلام حتى منعناكم فالمنع نتيجة التحذير.

والحاصل: أنهم أرادوا التقرب إلى الكفار كما صنعوا مع المسلمين حين كانت القوة لهم؛ لأنهم قوم يَفْرَقون ويخشون أن تصيبهم دائرة بأن يقتلهم الكفار إذا حاربوا المسلمين وغلبوهم في ظنهم وتوقعهم.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بين الفئات الثلاث: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ يغلبونهم بها ويقهرونهم ويضيع الإسلام، بل قد أراد إظهاره على الدين كله.

قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن

فهذا رد على تربص المنافقين بالمؤمنين دائرة السوء، وبيان: أنهم يتوقعون ما لن يكون، ويحتمل: أن المراد في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لا يزال النصر لأوليائه الناصرين له، وفي الآخرة لا يكون لهم عند المحاكمة حجة على المؤمنين؛ لأن المؤمنين قاتلوهم بأمر الله وأذنه، والكفار قاتلوا المؤمنين ظلماً وعدواناً، فالحجة للمؤمنين، ولن يُجعل للكفار سبيل يجادلون بها وتكون لهم بها الحجة على المؤمنين، وهذا هو الراجح حملها على المعنيين.

وقد يشكل على المعنى الأول غلبة الكفار للمسلمين في هذا العصر؟!

والجواب: أنهم لن يغلبوا المسلمين غلبة عامة للمسلمين وإن غلبوهم في قُطْر فذلك لا يضيع به الإسلام، مع أن ذلك يكون السبب فيه من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] فحزب الله هم الغالبون فما دام المؤمنون الصادقون في الإيمان حزباً وجنداً كما كانوا في عهد الرسول ﷺ فلن يغلبوا، أما إذا اختلفوا وتنازعوا وعصوا فاستحقوا الخذلان، فقد أنذرهم ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

﴿١٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يخادعون رسوله والمؤمنين ويحلفون على الكذب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١] ولما كانوا مخادعين لرسول الله ﷺ الذي بلغ دين الله ودعا إلى الله كان خداعهم له مكراً بدين الله فاعتبر خداعاً لله.

ويحتمل: أنهم استعملوا هذا الخداع وظنوا أنه ينفعهم في الدنيا وأن الله يتركهم لا يكشف أمرهم فاعتبروا مخادعين لله بهذا المعنى ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ وهو غالبهم في الخداع؛ لأنه ينعم عليهم بالأموال والأولاد، كأنه لا يعاقبهم على نفاقهم ومع ذلك يمهلهم ويملي لهم، وهم لا محالة صائرون إلى الدرك الأسفل من النار فأشبه هذا فعل المخادع الغالب، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أو هو على طريقة المشاكلة، والمعنى وهو غالبهم بأمره في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ لأنه لا دافع لهم إليها إلا الخوف من الناس؛ لأنهم لا يخافون العقاب من الله، ولا يرجون الثواب، ولا يحبون عبادة الله وذكره، ولا يرغبون في التقرب إليه ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريدون أن يراهم الناس عند قيامهم إلى الصلاة ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في الصلاة إلا قليلاً، أو ولا يذكرون الله لا في الصلاة ولا في غيرها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي ﴿إِلَّا﴾ ذكراً ﴿قَلِيلٗا﴾ فهم يذكرونه قليلاً؛ لأنهم مقرون بالله، فاجتمعت صفات المنافقين:

الأولى: ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الثانية: يتربصون بالمؤمنين الدوائر.

الثالثة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

الرابعة: ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

فأما قوله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فيحتمل: أنها في الصلاة، فتكون صفات لصلاتهم: كسالى، يراءون، ولا يذكرون الله في الصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيكون مجموع الثلاث هذه صفة واحدة.

تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

ويحتمل أن قوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾ غير خاص بالصلاة فهو صفة للمنافقين مستقلة، وقوله: ولا يذكر الله كذلك، والمعنى متقارب؛ لأن المرائي بصلاته يرائي بغيرها، ومن لا يذكر الله في الصلاة إلا قليلاً، فغيرها بالأولى أن لا يذكر الله فيه.

﴿١٤٣﴾ ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ قال في (الكشاف): «وحقيقة المذبذب: الذي يُذَبُّ عن كِلا الجانبين، أي يذاد ويدفع، فلا يقرّ في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمي به الرحوان، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذبّ، كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه» انتهى.

فالمنافق على هذا مدفوع ليس له قبول عند المؤمنين ولا عند الكافرين؛ لأنه ذليل خائف لا يعتز به الكفار فيرغبوا فيه؛ لأنهم لا يصدقونه في دعواه أنه معهم، والمؤمنون يعرفونه بعلاماته، فليس له قبول باسم مؤمن.

﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا إلى المؤمنين ينضمُّون ويرجعون، ولا إلى الكفار؛ لأنهم غير مؤمنين بقلوبهم ولا كفار ينطقون بالكفر صراحة وهذا في أول أمرهم، وقد صرح بعضهم بالكفر عند تطوره في الباطل، قال تعالى فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ومن يخذله ويسلبه التوفيق لكثرة معاصيه واستمراره على الإصرار أو لعناده بعدما تبين له الحق.

والإضلال في اللغة: التسبيب للضلال ولو بالحق، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى في (سورة المدثر): ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [آية:٣١] فالفاسق يضل بالحق لأنه يجعله سبباً لضلاله، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً﴾ تشبيه له بمن هو تائه في قفر بعيد من الطريق وليس حوله طريق يهتدي بها، وذلك لأن المنافق قد كره الحق وتزين له النفاق فلا تؤثر فيه موعظة مع قسوة قلبه وعدم الإيمان في قلبه ولا ينفع استدلال ولا احتجاج؛ لأن ذلك من كتاب الله أو كلام رسول الله عن الله وهو غير مؤمن بذلك فانسدت الطريق إلى هدايته؛ لأنه لا يفكر ولا يستعمل عقله بل لا يزال معرضاً إتباعاً لهواه في النفاق فهو بسبب إعراضه وانصرافه عن قبول الحق والإيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

فالإضلال هنا: التسبيب للضلال بالسبب الحق الذي ليس سبباً يؤدي إلى الضلال لا محالة وإنما هو سبب في حق الفاسق لأنه يجعله سبباً للضلال باختياره فخذل وولاه الله ما تولى عقوبة له، وقد حقق هذا الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) وبيَّن: أن الإضلال يكون عقوبة.

فأما الإضلال بمعنى خلق الضلال فليس معروفاً في لغة العرب؛ لأن المعروف الإضلال عن الطريق ولا يكون في العادة إلا بالتسبيب ولا يفهمون الإضلال بمعنى خلق الضلال، وكذلك الإضلال بالتسبيب لغير ذنب

فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

يستحق به وبسبب يؤدي إلى الضلال، حتى ولو وقع لمؤمن فهذا لا تجوز نسبته إلى الله تعالى؛ لأنه حكيم غني كريم رءوف رحيم لا يظلم العباد، ولا يحب الفساد، وليس في القرآن ذكر لهذا التسبيب إنما فيه إثبات العقوبة وهي لا تكون إلا بالحق كبسط النعمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] وهذه من المتشابه، إلا أنها قد أفادت المقصود هنا، وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧] وغير ذلك كثير.

﴿١٤٤-١٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا * إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ لما تم بيان صفات المنافقين المبشَّرين بالنار حذَّر من قد آمن كلهم من طريقة المنافقين، وبيَّن لهم عظم جريمتهم وشناعتهم ببيان ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وكفى بذلك تحذيراً من النفاق، وفي هذا دلالة واضحة أن حقيقة النفاق اتخاذ من قد آمن الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولكن من كان كذلك فإنه يفعل ما حكى الله عنهم من صفاتهم المذكورة فيما مر.

وقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي تجعلوا له حقاً في تعذيبكم، أو تجعلوا له عليكم سبباً في تعذيبكم، فالمراد سلطان الحكمة، فأما سلطان القدرة فهو حاصل، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾ أي بيِّناً

وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ

واضحاً، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «فجهنم أدراك: معناه: منازل وأطباق» انتهى المراد.

وفي (الصحاح): «ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات، والجنة درجات والقعر الآخر درْك ودرَك» انتهى، وهذا لا يدل على أن كفار الجحود ليسوا في الدرك الأسفل، وقد قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] والسياق في كافر النعم، ويمكن أن الدرك الأسفل وادٍ في سواء الجحيم فيكون أسفل مِن سَوائها ـ والله أعلم.

﴿١٤٦﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لما توعد الله المنافقين بالعذاب الأليم وبالدرك الأسفل من النار، بيَّن لهم أن باب التوبة في هذه الحياة وفي مدة الاختيار مفتوح لمن تاب وأصلح ما قد أفسد في نفاقه، واعتصم بالله فرفض ولاية الكفار، واستغنى بحفظ الله لأوليائه ونصره لهم وهو الاعتصام به ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ فرفضوا الرياء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ التائبون أهل الصفات الثلاث ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآخرة كما هم معهم في الدنيا ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ يوم القيامة وقد بينه في غيره هذه الآية.

﴿١٤٧﴾ ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ وهذا تأكيد للوعد بقبول التوبة، وبيان أن التوبة لا تتم بدون الإيمان والشكر، وتنبيه على كرم الله وسعة رحمته حيث يشكر عبده الشاكر لنعمته، ودلالة على علمه بتوبة من تاب وإيمان من آمن وشكر من شكر وبكل شيء.

بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿١٤٨﴾ ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾ رفع الصوت بالكلام، والسوء من القول: يعم كلمة الكفر ونحوها مما يقوله المكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ويعم الشكوى من الظالم، ويعم السوء من القول كلام الكفر وغيره من الباطل، والغيبة، والنميمة، والتقرير على الباطل بقول القائل أصاب أو أحسن أو نحو ذلك، وكان ﴿سَمِيعًا﴾ للقول كله وما هو مستثنى وما ليس بمستثنى ﴿عَلِيمًا﴾ بالعذر وبعدم العذر أي أنه لا عذر، و ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ لكل قول وبكل شيء.

﴿١٤٩﴾ ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ هذا في إظهار الخير ضد الجهر بالسوء وفي إخفاء الخير، وهو يفيد الترخيص في ذلك حيث لا يعلم سبب إثم، وترغيب في العفو بالدلالة على أنه محمود؛ لأن من صفات الله تعالى أنه عفو قدير، فهو يعفو مع القدرة على الانتقام.

وفي الآية هذه إشارة إلى أن إبداء الخير وإخفائه يشملهما العفو من الله؛ ولعل السبب أن إبداء الخير قد يكون فضولاً من القول ليس شكراً لنعمة ولا ذكراً لقدوة، والإخفاء قد يكون تقصيراً في كلام ينبغي أن يقال؛ لأنه شكر نعمة وليس المقصود به كتمانها فيكون غير معفو والمعفو ما لم يتعمد فيه معصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [الأحزاب:٥] فما كان خطأً وزل فيه صاحبه فهو معفو سواء كان أبدأ أم أخفى.

يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ

وأما النطق بالعفو عن السوء، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ قال في (الصحاح): «وعفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه» انتهى، وقال الراغب في (المفرادات): «وقولهم في الدعاء: أسألكم العفو والعافية، أي ترك العقوبة، والسلامة» انتهى.

﴿١٥٠-١٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ يتكرر منهم الكفر بالله مرة بعد مرة مثل حين عبدوا العجل فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي، ومثل حين شبهوه بخلقه وغير ذلك من كلامهم في الله بما هو كفر به ورسله، يتكرر منهم الكفر بالرسل بتكذيبهم في دعوى الرسالة جملة أو في بعض ما جاؤوا به، يتكرر منهم ذلك المرة بعد المرة، كجدالهم في طالوت بقولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧] ومثل حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] وهذا رد لخبره.

وقد دل على جراءتهم في تكذيب الرسل قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧] ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يردوا ما تأتي به الرسل ويزعموا أن حكم الله غيره.

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ

فإذا قيل: حكم الرسول بكذا، قالوا: هذا قاله من تلقاء نفسه وحكم الله خلافه ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ من الرسل ومما أنزل الله كقوله: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة:٩١].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ بين الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه والكفر بذلك ﴿سَبِيلاً﴾ طريقة وديناً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ هم الكافرون بحقيقتهم و ﴿حَقّٗا﴾ إنهم عين الكافرين وإن سبيلهم هو الكفر بعينه؛ لأن إيمانهم غير صحيح بما آمنوا به ولا مقبول فهم كفار خلص، وقد رد الله عليهم دعواهم الإيمان بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] فقد عبدوا العجل وعصوا موسى، فقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] ودخلوا الباب على خلاف ما أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ..﴾ [آية:٥٨] ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا..﴾ [آية:٥٩] راجع (سورة البقرة).

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أعتدنا للكافرين عموماً وهؤلاء قد دخلوا في العموم؛ لأنهم الكافرون حقاً فقد أعدلهم عذاباً مهيناً مُذِلاً محقّراً مناسباً لتكبرهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢٨٥] ومن اتبع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ قال في (المصابيح): «و﴿أَحَدٍ﴾ يستعمل في الواحد المذكر والمؤنث والمثنى والمجموع منهما» انتهى، ومثله في (الكشاف) و (مفردات الراغب الأصفهاني) وفي (المفردات) تفصيل جيد.

﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب كل منهم بقدر ما يستحق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلا يمنعهم ثوابهم لما يصدر من زلات غير متعمدة، أو لم يصروا عليها كما مرَّ في صفة المتقين، وهذا فارق بينهم وبين عصاة أهل الكتاب المصرِّين على الكبائر الراضين بما سلف من أوائلهم، فكانت معاصيهم مضادة للإيمان، دالة على أنهم غير صادقين في دعوى الإيمان.

﴿١٥٣﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا﴾ يخصهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولعلهم أرادوا أن ترقى في السماء وتنزل عليهم بنفسك كتاباً يتضمن إثبات نبوتك غير القرآن، لأن القرآن قد كفى لو أنصفوا، لكن للتعنت سألوا كتاباً ينزل عليهم إما بأسمائهم يقول: إلى فلان وفلان وفلان اتبعوا محمداً فإني أرسلته، وإما أن ينزل بالكتاب محمد إليهم خاصة، فيبلغهم عن الله أن محمداً نبي ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فهم أهل التعنت وهو عادتهم فلا تبال بهم يا محمد.

قال الشرفي رحمه الله: «ومعنى ﴿جَهْرَةً﴾ أن يريهم الله معاينة ومشاهدة» انتهى. وقال الراغب في (المفردات): «جهر، يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع» انتهى.

فعلى هذا: طلبوا معاينة جلية واضحة وهذا أظهر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ في طلب المحال وطمعهم فيه وجهلهم بالله حيث ظنوا انه من المواد التي ترى، وجهلهم هكذا قد سبقه جهلهم حين قالوا: ﴿يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للترقّي إلى ذكر جهالة أعظم وأبشع وأقبح من طلب الرؤية، وهي (اتخاذهم العجل) الذي ادعوا أنه إله موسى ولم يكتفوا بالشرك كقول الشاعر:

يرى غمرات الموت ثم يزورها

ويحتمل: أن اتخاذ العجل كان من أهله بعد أن أخذت الصاعقة الذين طلبوا الرؤية، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الوقوع، والأول أظهر عندي؛ لأن المتخذين للعجل غير الذين طلبوا الرؤية، وإنما جمعهم التراضي بطلب إله من جنس آلهة المشركين كما شاركهم الآخرون بالرضا فشاركوهم ونسب إلى الجملة، فحمل ﴿ثُمَّ﴾ على الترقي في المعنى أظهر؛ لأن اتخاذ العجل ليس انتقالاً من طلب الرؤية، بل بعضهم طلب الرؤية وكانوا مع موسى في الميقات أربعين ليلة، وبعضهم اتخذ العجل وكانوا مع هارون خلفه موسى عليهم حين ذهب للميقات، وفي (سورة البقرة): ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ..﴾ [آية:٥١].

وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أن ذلك منكر وباطل، حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩] و﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الدالة على خالق السموات والأرض، القادر على كل شيء، كفلق البحر لموسى ومن معه وجعله فيه طريقاً يبساً، وإنجائهم من فرعون وقومه، وإغراق فرعون ومن معه بنفس البحر الذي انفلق لموسي ومن معه، وآيات الله لا تحصى.

﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ ﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ حين تابوا أو عفونا حين وصل موسى ونسف العجل فلم يعاجلهم الله بالعذاب، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ..﴾ الآية [الكهف:٥٨].

﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا﴾ قوة وهيبة لأجلها انقادوا له حين رجع إليهم ونسف العجل في البحر، وكذلك آتاه الله سلطاناً حين طلبوا الرؤية فأخذهم بالصاعقة، وهذا يدل على أن موسى لم يطلبها طمعاً فيها، ولكن لإقناع قومه بما يكون من الله بسبب الطلب.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ حقق معناه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧١] ﴿بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ على قبول التوراة بقوة وجدّ وصبر وعزم صادق على اتباعها، كما قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ..﴾ الآية [البقرة:٦٣].

وقال (صاحب الكشاف): «﴿بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه» انتهى. ولا يبعد أن (الباء) للمصاحبة، وأنهم أعطوا الميثاق حين ظنوا أنه واقع بهم، أو أن رفعنا فوقهم الطور مضمَّن معنى أمرناهم وكلفناهم؛ لأن رفع الطور فوقهم بعثهم على الميثاق ـ والله أعلم.

وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ

والمقصود: أن تخويفهم بهذه الآية بعثهم على العهد، إما باختيارهم بسبب الخوف؛ لأنهم لم ينذروا بوقوعه إن لم يعاهدوا ولكن خافوا فعاهدوا فلم يكن اضطراراً، وهذا أظهر، وإما أنهم أكرهوا على العهد ليحذروا في المستقبل وقوع مثل ذلك التخويف والاضطرار إلى العهد.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ﴿سُجَّدًا﴾ بمعنى خاضعين لله، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] أي ادخلوا الباب خشعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار والخشية لله الواحد الجبار، ولم يرد في هذا الموضع سجودا على الوجوه وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا» انتهى من تفسير (سورة الأعراف).

وحكى الشرفي عن المرتضى عليه السلام مثله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [آية: ١٠٦] آخر (سورة الأعراف).

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ ﴿لا تعدوا﴾ أي لا تعتدوا ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان أو غيره مما هو محرم في السبت في دينهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ على أن لا يعتدوا في السبت، أو على ذلك وغيره، والأقرب: أنه ميثاق خاص بالسبت غلظ حرمة السبت.

﴿١٥٥﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (الباء) سببيه أي بسبب نقضهم لميثاقهم ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي يأتي بها الأنبياء الذين كذبوهم.

مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ

﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ ﴿بِغَيۡرِ﴾ استحقاق للقصاص مثلاً، وقتل الأنبياء لا يكون بحق، ولكن فيه إشارة إلى أن المكلفين سواءٌ أمام العدل لا هوادة ولا لين لأحد، فيفيد: أن الأنبياء لو قَتَلوا بغير حق لاستحقوا القصاص، فكذلك من قتلهم بغير حق في أن ذلك جريمة عظيمة.

﴿وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ أي لا نفهم ما جاء به النبي من الأنبياء الذين كذبوهم أو قتلوهم، أو ما جاء به خاتمهم عليه السلام و﴿غُلۡفُۢ﴾ جمع أغلف أي مغطى بغلاف ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا﴾ فهم يفهمون، ولكن قلوبهم لا تقبل الحق، فكأن عليها طبعاً وختماً يمنع دخول الإيمان إليها ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ من الإيمان.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «ذَمٌّ لهم بأن جعلها كالمطبوع عليها التي لا تفلح أبداً، أي خذلها وسلبها الألطاف؛ بسبب كفرهم، وفعل الكفر يوجب العقاب، فبان أن الطبع والختم إنما هو على وجه العقوبة» انتهى المراد.

وفي إسناد ذلك الطبع إلى الله تعالى وفوائده وكذلك وجه صحة النسبة للمانع من الإيمان إلى الله، كلام قد مر مفصلاً عند تفسير قول الله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [آية:٧] من (سورة البقرة) فراجع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾ معطوف على نقضهم.

﴿١٥٦﴾ ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ هذا عطف على ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ وكفرهم؛ لعله هنا كفرهم بعيسى وبالآيات التي جاءهم بها، ويحتمل: العموم لهذا ولكفرهم بأنبياء غيره مثل سليمان، كما قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ

والبهتان العظيم: رميها بالفاحشة مع أن الله قد برأها من ذلك، ومع بعدها من ذلك القبيح ونزاهتها الكاملة ومع فضلها وعلو شأنها في الدين، ومع أن غرضهم برميها فيما بعد ظهور الآيات جحد الآيات والتكذيب بخلق الله لعيسى من غير أب والتكذيب بكونه رسولاً من الله والتكذيب بآيات الله التي جاء بها، فتظاهرت أسباب قبح رميها بالفاحشة.

قال الراغب الأصفهاني في تفسير (البهتان): «أي كذب يبهت سامعه لفظاعته ـ وقال أيضاً في تفسير: بُهت ـ : أي دهِش وتَحيَّر» انتهى.

﴿١٥٧ـ١٥٨﴾ ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾ عطف على ﴿نَقْضِهِمْ﴾ وهذا القول جريمة مع كونه كذباً؛ لأنهم افتخروا بما يدعونه وهو منكر عظيم لو كان والجمع بين الأسماء لتحقيق أنه المقصود بالافتخار بقتله، وهذه جرأة منهم عظيمة، ودليل على عناد شديد، و﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾ و ﴿عِيسَى﴾ اسمان مترادفان و﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وصف محقق لدفع استبعاد أن يكون هو المقصود، وللدلالة على أنهم لم يبالوا بكونه رسول الله.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ الصلب: تعليق الإنسان على خشبة أو نحوها مشدود إليها، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح) ـ حاكياً عن المرتضى محمد بن الهادي إلى الحق عليه السلام، وهو المراد أينما ذكره في (المصابيح) ـ قال: «أراد الله سبحانه بذلك عيسى صلوات الله عليه لما أخذه الظالمون ليهلكوه وسجنوه في البيت لقتلوه [كذا والصواب: ليقتلوه] فسلمه الله من كيدهم ودفع عنه ما هموا به من عظيم كفرهم، وألبس الكافر الذي يحرسه

شبه عيسى في صورته وخلقه فلم يفرقوا عند ذلك بينه وبين عيسى عليه السلام في شيء من أمره فلما أن نهضوا لقتل عيسى ـ صلى الله عليه ـ وجدوا صاحبهم في مكانه فقتلوه ولم يشكوا فيه عندما عاينوه أنه عيسى ـ صلى الله عليه ـ فأخبرهم ـ عزَّ وجل ـ عنه، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ثم رفعه الله عنهم، وأخرجه من بينهم سالماً مسلّماً» انتهى.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أهل الكتاب الكافر برسالته والمدعي لإلهيته، والمدعى أنه ابن الله كلهم في ﴿شَكٍّ مِّنْهُ﴾ وإن ادعوا أنه قتل وصلب فهم مترددون في ذلك، والشك التردد في الشيء تردداً متساوياً أو راجحاً ومرجوحاً فيسمى شكاً باعتبار التردد وعدم العلم، ولذلك يعبر عن العلم بنفي الشك فتقول هذا الأمر واقع لا شك فيه.

قال في (الصحاح): «الشك خلاف اليقين» انتهى، وفي (لسان العرب): «الشك نقيض اليقين» انتهى، وفي (القاموس): «الشك: خلاف اليقين انتهى.

فقوله تعالى: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ إثباتٌ لترددهم في قتله وصلبه، ثم قال تعالى تصريحاً بعدم علمهم بذلك فقال: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ فهو تأكيد لإثبات الشك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي لكن اتباع الظن زعموا أنهم قتلوه في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ والظن اعتقاد راجح مع بقاء التردد، فهم اتبعوا الظن في دعوى قتله بسبب أنه شبه لهم فظنوا أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي وما تيقنوا أنهم قتلوه هذا حاصل المعنى.

قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾

فكأنه قيل: وما قتلوه قتلاً يقيناً، أي متيقناً ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ كما مر في (سورة آل عمران) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فرفع عيسى لم يكن لقوة أعدائه؛ لأن الله لو شاء أهلكهم في لحظة، ولكن اقتضت حكمته رفعه فرفعه مع عزته وحكمته، ومن العجيب دعواهم أنه إله، مع أنهم يقولون: إنه قتل وصلب، ويحملون صورة الصليب ويتبركون بها في ملابسهم، وذلك دليل على أنهم أهملوا عقولهم.

﴿١٥٩﴾ ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾وما من أحد إلا ليؤمنن به أي بعيسى عليه السلام قبل موته.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ بكذبهم في دعواهم قتله وصلبه، وهذا لا ينافي قوله تعالى حاكيا عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ [المائدة:١١٧]؛ لأن هذه الشهادة العامة بما فعلوا وهو حاضر فيهم مشاهد لهم، أما هذه الخاصة بتكذيبهم فيما افتخروا به من قتله وصلبه فإنها جارية مجرى الشهادة بالمحسوس من حيث أنه عالم أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، فصح أن يشهد على المدعين لقتله وصلبه بكذبهم، وعلى سائر أهل الكتاب الذين أطبقوا على أنه قتل وصلب.

وقد دل سياق هذه الآيات: على قبح هذه المقالة، ولعل السبب أن أصلها من أعدائه الذين افتخروا بها فأخذها النصارى بجهالة؛ لأنها تنفي كرامة الله لرسوله بمجرد قول أعدائه الظالمين الذين شبّه لهم أو اتّباع الظن مثلهم.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ على أهل الكتاب بجميع أفعالهم لكنها خاصة بمن كان فيهم قبل أن يتوفاه الله.

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿١٦٠﴾ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي فبذلك المذكور من أول الآيات من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال في (الكشاف): «بدل من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾» انتهى.

فهو كالإعادة للتعليل، وفيه زيادة فائدة: أن هذه الأشياء كانت علة للتحريم؛ لكونها ظلماً عظيماً؛ ولعلهم أنفوا من تحريم ما حرم الله عليهم عقوبة لهم فكان ذلك سبباً لتعداد جرائمهم التي كانت سبباً لتحريم طيبات.

ثم عطف على ذلك ذكر أسباب أخر، فقال تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (صدهم): منعهم عن سبيل الله عن دينه كثيراً من الناس، أوصداً كثيراً، وذلك نحو صدهم عن الإيمان بعيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما وآل محمد ـ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: دلت على تحريم الاحتجاج بالشُّبَهِ المضلة؛ لأنها صد عن سبيل الله» انتهى.

﴿١٦١﴾ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ عطف على الأسباب للتحريم المذكور، وفيها دلالة على أن النهي يكفي لإفادة التحريم، وقيام الحجة على المخالف له ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عطف على أسباب التحريم المذكورة أي حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم بصدهم وأخذهم وأكلهم، والباطل ضروب منها: الربا، وقد خص بالذكر لزيادة في قبحه وعاره، ومنها: الرشوة، وأجرة السحر، وأجرة الكهانة، وأجرة تحريف الكتاب، ونسبة ما ليس منه إليه، كما مر في قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على حرمنا عليهم وخص الكافرين بالذكر لبيان أن السبب كفرهم لنعم الله وكفرهم بآيات الله لا كونهم يهوداً، وليخرج من آمن منهم كما يأتي في قوله تعالى:

﴿١٦٢﴾ ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ..﴾ إلى آخره الخبر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال في كتاب (إعراب القرآن): «الواو معترضة، و(المقيمين) نصب على المدح، بإضمار فعل لبيان فضل الصلاة على ما قاله سيبويه وغيره، والتقدير: أعني أو أَخُصّ المقيمين الصلاة، الذين يؤدونها على وجه الكمال، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان، والنصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هاهنا: هي ما ذكرنا آنفا من مزيه الصلاة، على أن تغيير الإعراب في كلمة بين أمثالها ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها، ويهدي التفكير لاستخراج مزيتها، وهو من أركان البلاغة» انتهى.

وقد مر في (سورة البقرة) نظيره في الصبر في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:١٧٧] ولعل تخصيص إقامة الصلاة لما فيها من الخشوع المعين على امتثال أمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [آية:٤٥] وهي في (البقرة) في (بني إسرائيل) في سياق دعوتهم إلى الإيمان بما

بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا

أنزل الله على محمد ﷺ وقد أمر الله (بني إسرائيل) أن يستعينوا بالصبر والصلاة، فتخصيص ﴿ٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لمزيد فائدتها في حق أهل الكتاب الذين يصعب عليهم الدخول في الإسلام والإيمان إلا الخاشعين لله.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ كذلك تخصيص لما قد شمله اسم الإيمان، وفائدته التنبيه على الخروج من عقائد اليهود في الله مع دعواهم الإيمان به كالتشبيه ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ خُصَّ مع أنه قد دخل في الإيمان ليحقق إيمانهم على ما يقتضيه الإيمان بالقرآن، لا على عقائدهم السابقة في أمور الثواب والعقاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لإيمانهم وعملهم الصالح، وهو ثواب الآخرة في جنات النعيم.

﴿١٦٣﴾ ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ ﴿إِنَّآ﴾ فيها دلالة على العظمة لله، فهي تشير إلى استناد الوحي إلى عظمة الله وجلاله وحكمته وفضله ورحمته وعزته ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ دلالة على أنها سنة الله في الأولين والآخرين، فلا عجب أن يوحي إليك، ودلالة على أنه وحي نبوة مثل وحي نبوتهم.

وقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ يحتمل: العطف على ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ فيكون المعنى: وكما أوحينا، ويحتمل: أنه عطف على أوحينا إليك، وحاصل المعنى واحد. ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ قيل: يوسف وإخوته أسباط إسرائيل، والسِّبط، قال الراغب فيه في (المفردات): «ولد الولد» انتهى.

قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٠] سميت ذرية كل سبط باسمه، وهو استعمال شائع، مثل عاد لذريته، وقال الشاعر:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهمو   من العبيد وثلث من مواليها

أي بنو حنيفة، وفي (لسان العرب): «قال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي، ما معنى السبط في كلام العرب؟ قال: السبط، والسبطان، والأسباط: خاصة الأولاد والمصاص منهم» انتهى.

وأما تفسير (الأسباط) هنا بقبائل بني إسرائيل ذرية الأسباط فهو سهو؛ لأنهم ليسوا كلهم أنبياء، والأقرب: أن معنى الأسباط: نبي الله يوسف ومن كان مثله من إخوته، وذرية يوسف وإخوته.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ عطف على ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ والزبور: اسم لكتاب داوود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿زَبُورًا﴾ أي كتاباً، ولعله نكّر لعدم معرفة العرب به قبل نزول القرآن.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ قال في (الكشاف): «﴿رُسُلًا﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو: أرسلنا ونبأنا وما أشبه ذلك، أو بما فسره قصصنا» انتهى.

يعنى: أنه من الاشتغال، وفي كتاب (إعراب القرآن) للدرويش، لم يذكر إلا الوجه الأول قال: «تقديره: وآتينا» انتهى.

﴿قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي أخبرناك بهم، وبقصة رسالتهم.

حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بلا واسطة مبلغ عن الله من الملائكة، بل خاطبه بلا واسطة خطاباً موجهاً إليه، وهذا الفارق بينه وبين غيره، وليس في الآية دلالة على الكلام النفسي الذي تثبته الأشاعرة وتجعله من الصفات، وقوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد للتكليم حقيقة وبدون واسطة مبلغ.

﴿١٦٥﴾ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿رُّسُلًا﴾ يعني به المذكورين بأسمائهم وفي الجملة رسلاً قد قصصنا ورسلاً لم نقص، فكلهم جعلهم الله رسلاً ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشرين لمن آمن واتقى ومنذرين للمجرمين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه:١٣٤] فما بقي لهم حجة بعد الرسل.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالبا لا ينال حكيماً فقد عامل عباده بالحكمة في التقديم إليهم بإرسال الرسل، مع أنه غني عنهم كما عاملهم بالعزة حيث لم يتركهم هملاً يفسدون ويظلمون من دون جزاء، ولا تمييز بين المطيع والعاصي، فكذبوا الرسل كل رسول كذبته أمته، وكذب الكافرون من أهل الكتاب وغيرهم رسول الله محمداً ﷺ، وجحدوا نزول القرآن عليه من الله.

﴿١٦٦﴾ ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿لَّٰكِنِ﴾ استدراك من ذكر تكذيب المكذبين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ﴿يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن وسائر الوحي يشهد به أنه منه أنزله إليك ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أنزله وهو عالم به.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أن الله أنزله، وأنه من الله أنزله عليك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ لأن قوله الحق، ولا يجوز عليه الكذب؛ لأنه غني لا يحتاج إلى الكذب، وعالم أنه غني، وقد تبين أن الله قد شهد به بكونه معجزاً لم يأتوا بسورة من مثله.

﴿١٦٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ﴿وَصَدُّواْ﴾ إن كان من الصدود فالمعنى: أعرضوا، وإن كان من الصدِّ، فالمعنى: صدوا غيرهم ومنعوهم عن سبيل الله، بأن ضللوا عليهم وأغووهم وقد مر ذكره في قوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والكل واقع منهم الإعراض والإغواء، فيحمل على المعنيين.

﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ ضلوا عن طريق الصواب وغووا ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فصاروا في متاهة لا يهتدون للصواب، وصار بينهم وبين طريق الحق مسافة بعيدة.

﴿١٦٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ﴿وَظَلَمُواْ﴾ بالصدِّ عن سبيل الله، والتكذيب لرسول الله، وغير ذلك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ نفي مؤكد، يفيد: أنه لا يليق بعظمة الله ولا ينبغي أن يغفرهم؛ لأنه مخالف لعزته وحكمته.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ لوجوب خذلانهم في الحكمة عقوبة لهم، أو لأنه لا يؤثر في قلوبهم لتهتدي إلا القسر والإلجاء، وذلك ينافي حكمته، لأنه لا يخرجهم إلى الهدى الحقيقي، وإنما هي صورة الهدى ألجأ إليها القسر، ولا فائدة لذلك، وقد استحقوا أن يوليهم ما تولوا بعزته.

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ

﴿١٦٩﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أي لكن يهديهم طريق جهنم، وهي مشاكلة لفظية؛ لأن الهدى خاص في الدلالة على طريق الصواب، و ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ لأنه غني عنهم لا نقص عليه في تعذيبهم ولا مشقة ولا عناء، واليسير: ضد العسير.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دعوة عامة للناس من أهل الكتاب وغيرهم من العرب والعجم ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ قد انتهى إليكم الرسول المرسل إليكم، جاءكم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي أرسل به وأمر بإبلاغه من ربكم أرسله به، وهو القرآن وسائر الوحي إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ الإيمان الذي يدعوكم إليه ويأمركم به، وهو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، ومن ذلك: الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبالآيات التي جاء بها، ومن ذلك: القرآن ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ لأن في الإيمان نجاتكم من النار، وسعادتكم في الآخرة أبداً، وذلك خير من الدنيا وما فيها.

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ بالرسول أو بالحق الذي جاء به أي القرآن ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وإنما أنتم قليل في جملة ما في السموات والأرض فلا يعبأ بكم ولا يبالي بفوات طاعتكم، وأنتم كغيركم مما في السموات والأرض عبيد مملوكون فإن عصيتم حق عليكم العقاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ بكفر من كفر، وبكل شيء ﴿حَكِيمٗا﴾ فلا بد من أن يجزي من كفر.

لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا

وقال الشرفي رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «وفيه وجهان:

الأول: المراد أنه تعالى خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحق كل عاقل أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه، يرجو ثوابه ويخاف عقابه.

الثاني: أنهم إن كفروا، فإن لله ما في سمواته وأرضه من أصناف مخلوقاته من يوحده ويعبده ويتقيه من الملائكة والثقلين، وكان ذلك غنياً عن خلقه وعبادتهم، ومستحقا لأن يحمد؛ لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد» انتهى.

قلت: هذان وجهان، والذي ذكرت قبله وجهان، فهي أربعة معان أفادها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقد تكررت في هذه السورة لإفادتها الفوائد المتعددة المناسبة للسياقات المختلفة.

﴿١٧١﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ الغلو في الدين: تجاوُزُ الحد الصحيح في الدين، وهو نوع من البدعة اختص باسم الغلو؛ لأن الباعث عليه رغبة أصلها ديني، ولكنها قويت وصارت هوى نفسياً فدعت إلى تجاوز الحد؛ حد الصواب.

فاليهود غلوا في أنفسهم، فتجاوزوا نعمة الله عليهم بتفضيلهم على العالمين بما اختصهم به مثل: فلق البحر لهم لينجيهم ويغرق عدوهم وهم ينظرون، فتجاوزوا ذلك حتى قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] وقالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] واتخذوا عيسى إلهاً على اختلافهم، بين من يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧] ومن يقول: (ثلاثة أقانيم): أقنوم أب، وأقنوم ابن، وأقنوم روح القدس، ومجموع الثلاثة بزعمهم الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فاتركوا الغلو، لئلا تقولوا على الله غير الحق، فقد نهى عن ذلك وحرمه ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فدرجته في الشرف أن الله اصطفاه رسولاً له إلى (بني إسرائيل) وكفاه شرفاً من هذه الناحية أنه رسول الله، وخلقه من غير أب لا علاقة له بأن يكون إلهاً؛ إنما خلقه الله بقوله: ﴿كُنْ﴾ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧] وهي ﴿كَلِمَتُهُۥٓ﴾ التي خلق بها آدم بل وكل شيء، وهي قضاؤه وإيجاده للشيء ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بأن قضى وجود ابنها في بطنها.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ من أمره نفخه في جسد الولد، كما نفخ في آدم من روحه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] صدق الله فهو أمر استأثر الله بعلمه؛ وبه يحيي المخلوق، ويحتمل أن الروح في قوله تعالى:

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ غير الروح في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢] وأن قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ مدح لعيسى كما مدح القرآن بذلك.

وقد حكى عن عيسى عليه السلام قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] فلما كان عيسى عليه السلام سبباً لحياة الإيمان في القلوب ببركته وحسن تعليمه وموعظته، كان حقيقاً بأن يسمى روحا كما سمي القرآن روحاً، وهذا أقرب عندي؛ لوجوه:

الأول: أن نفخ الروح قد دخل في قوله: وكلمته؛ لأنها عبارة عن إيجاده جسداً وروحاً.

الثاني: أنه تعالى جعل عيسى نفسه روحا بجملته وذلك غير الإخبار بنفخ الروح فيه وكون الروح جزءً منه.

الثالث: أن الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ في خطاب الذين غلوا فيه يناسبه أن يشمل مزاياه التي من أجلها غلوا فيه، ويشمل ما يمتاز به عيسى؛ ولذلك لم يقتصر على قوله كلمته، بل قال: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾.

فكذلك ينبغي أن يذكر ما كان له من البركات، وما ظهر على يديه من الآيات التي يحيى بها الإيمان في قلوب المؤمنين، كنفخه في صورة الطير بحيث تكون ﴿طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩] وإحيائه القلوب الميتة بمواعظه وحكمته وسائر بركاته، التي كانت له أينما كان بإذن الله، وحينئذ تكون هذه الكلمات الثلاث قد عمت وشملت مزايا عيسى ـ صلى الله عليه ـ فكان إدخالها في الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ هو مقتضى الحال، وكان أبلغ في الحجة على الغلاة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يشير إلى أن تلك البركات والحياة إنما هي من الله وبإذنه، و (مِن) هذه هي (مِن الابتدائية) مثل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] أعني في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي صادرة منه.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ فلا تجعلوه متعدداً ثلاثة أقانيم، ولا تجعلوه عيسى، بل نزهوه عن مشابهة المخلوقين؛ لأن من آمن بشبيه للمخلوق لم يؤمن بالله، فآمنوا بالله ورسله، ومن ذلك الإيمان بعيسى رسولاً لا إلهاً، والإيمان برسول الله محمد ﷺ ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أقانيم، ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم.

﴿ٱنتَهُواْ﴾ عن الشرك ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ لتهتدوا ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لا ثلاثة أقانيم: أقنوم أب، واقنوم ابن، واقنوم روح القدس ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ لأنه الغني فلا يحتاج إلى ولد، والولد إن أرادوا به الفرع لزمهم أن يكون الله جنساً قابلاً للزيادة بالتفرع، فلزم أنه قابل للزيادة والنقصان والوجود والعدم سبحانه وتعالى.

وإن أرادوا به الولد بالعاطفة والحب والحنو، فذلك خاص بالمخلوق، ولا يليق بالغني عن كل شيء؛ لأن العاطفة حاجة ولعلهم أرادوا هذا، فرد الله عليهم بأنه الغنيّ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس:٦٨] فالرد عليهم بأنه الغني، فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ لأن ذلك نسبة الحاجة إليه.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ فكل من جعلوه إلهاً من دون الله إنما هو عبد لله، فلا يشارك الله في ملكه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ لعباده، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] فعلى عباده أن يكلوا إليه أمورهم ويستغنوا به لتدبير شؤونهم عن إثبات إله غيره.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

﴿١٧٢﴾ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ لن يأنف ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ لأنه معترف بأنه عبد لله خاشع له ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فهم مؤمنون بأنهم عباد لله، ولا يدّعون ما يدّعيه بعض المشركين الذين يزعمون أنهم بنات الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] عطفهم على عيسى لمشابهة القول فيهم للقول في عيسى؛ ولكون الرد على الفريقين واحداً؛ ولكون الرد على النصارى جاء لتقرير أن الله ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فناسب ذكر الرد على من جعل الملائكة ولداً لله، مع الرد على اليهود الذين جعلوا عزيراً بن الله، والنصارى الذين قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠].

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ عن الاعتراف بالعبودية لله ربهم، المالك لهم ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يظن أنه فوق أن يعترف بالعبودية أو يترفع عن الاعتراف بالعبودية، فالله سيحشرهم يحشر العباد ﴿إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة إلى محل السؤال والحساب حيث يجمعهم، كما قال تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين.

﴿١٧٣﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ

أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فقد عبدوا الله مع الإيمان عبادة مقبولة لمصاحبتها الإيمان ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بالحسنة عشر أمثالها ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ خيراً كثيراً يتفضل به عليهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾ أنفوا من عبادة الله ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ترفعوا عن عبادة الله ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عذاب جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ مـن يـدفع عـنهم بتـولي شـؤونهم والقيـام بإصـلاح أمورهم ولا بنصر لهم، وهذا ردٌّ على المشركين الـذين يظنـون أن شـركاءهم سيشفعون لهم ويدفعون عنهم بما لهم من المكانة عند الله ـ بزعمهم ـ تخـولهم أن يتدخلوا يوم القيامة إن بعثوا، فيدفعوا عنهم وينصروهم بالشفاعة.

وقد تم في الآيات الماضية الرد على المشركين من قوله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وما جاء في اليهود من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ مع ما سبق فيهم عند قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ وما جـاء في النصارى في الآيات التي مرت قريباً احتجاجـاً كـاملاً وإنـذاراً وإعـذاراً، ثـم عقب ذلك بقوله تعالى:

﴿١٧٤-١٧٥﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿بُرْهَـٰنٌ﴾ دليل وحجة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾

لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ

وما كان من ربكم فهو الحق والهدى، والبرهان هو القرآن الكريم فهو دليل من حيث إعجازه على أنه من الله، وهو نور من حيث أنه من الله يبيِّن الحق في الدين ويدل على بطلان الأديان المخالفة للإسلام، وعلى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلهاً واحداً لا إله إلا هو ولا رب سواه فعبدوه وأخلصوا له العبادة ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ فلم يتخذوا شفعاء ولا شركاء يعتقدون أنهم ينصرونهم، أو يشفون مرضاهم، أو يوفرون أرزاقهم، بل اعتصموا بالله وتوكلوا عليه ولم ينافقوا ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ وهي رحمة خاصة بالمؤمنين.

﴿وَفَضۡلٖ﴾ منه عليهم خاص بالمؤمنين ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ كقول موسى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات:١٩] والهداية إليه تفيد معرفته الكاملة وذكره وشكره وخشيته ومراقبته ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ طريقاً واضحاً لا عوج فيه، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، يؤديهم إلى ذكر الله بقلوبهم وخشيته ومراقبته وكمال معرفته بمعرفة معاني أسمائه الحسنى والإيمان بها، وهذه الرحمة والفضل، والهداية عاجلة لأولياء الله في الدنيا ثم في الآخرة حين يصيرون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] في دار كرامته ورضوانه وفضله ورحمته.

فنسأل الله التوفيق والسداد والثبات، وقد جرت عادة القرآن بإتْبَاع الوعد بالوعيد، لكنه هنا كفى الوعيد في الآية التي قبل هذه، وأغنت عن تكرار الوعيد لقربها.

فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ قال في (الصحاح): «والكل الذي لا وَلَد له ولا والد، يقال منه كَلّ الرجل يكلّ كلالةً» انتهى.

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ هذا فيمن لا أب له؛ لأنه قد فهم من أول السورة أن الأب هو الوارث مع عدم الولد في قوله تعالى: **﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾**.

فتحصل أن الكلالة: مَن لا أب له ولا ولد، أعني: أن الحكم فيه، وأن الأم لا تبطل ميراث الإخوة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي الكلّ، والمراد هنا: الأخ لأبوين، أو لأب، وكذلك الأخت؛ لأنه قد تقدم ذكر ميراث الأخوة من الأم، فأما من كان له ولد فإن كان ذكراً فلا إشكال؛ وإن كان أنثى فميراث الإخوة معها بدليل آخر ليس من هذه الآية؛ لأنها خاصة بمن لم يكن له ولد، ولم تفصل بين الذكر والأنثى.

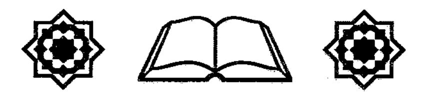
﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ إذا كن أكثر فلهن الثلثان لا غير وهو يؤخذ من حكم البنات؛ لأنهن أقرب **﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾**.

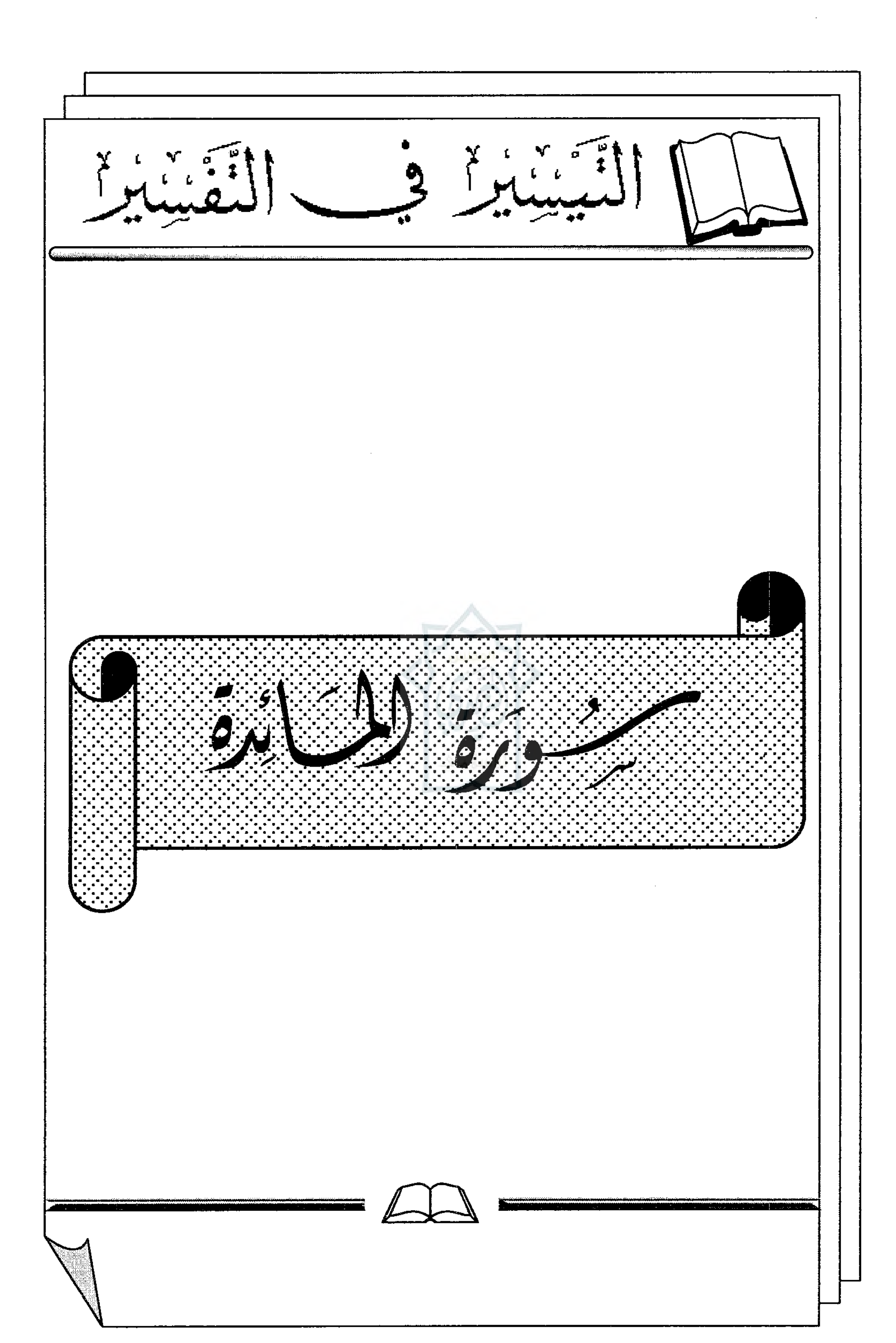
﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وأخذ حكم الاثنين من أول الآية، حيث كان للواحدة النصف وللواحد الكل،، وكذلك

الاثنان من الذكور مع الواحدة، والثنتان من الإناث مع الواحد قد أفادت الآية أن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا، ومعنى تضلوا تخالفوا الحق، فشبّه مخالف الحق بمن ضل الطريق، وهو هنا عبارة عن الخطأ بسبب خفاء الدليل لو لم يبينه، أو هو عام للخطأ والعمد.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فهو عليم بالحكمة في الميراث وعليم بحاجة العباد إلى بيان أدلة الأحكام لئلا يضلوا، وعالم بكل شيء، ولعل الحكمة في النص على الجمع من الرجال والنساء بخلاف النص في الإخوة لأم، أن الإخوة إذا كانوا جماعة قد يطمعون في أخذ الميراث كله؛ لكثرتهم مع أن توريث النساء يسبب قلة ما يكون للواحد، فقطعت الآية الكريمة أطماع الجاهلية، أما الإخوة لأم فقد قطع طمعهم بالتسوية بين الذكر والأنثى.





التيسير في التفسير
سورة المائدة



سُورَةُ المَائِدَة

ترتيبها ٥ — آياتها ١٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا

تفسير (سورة المائدة)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ تخصيص الذين آمنوا بالخطاب؛ لأنهم يبعثهم إيمانهم بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء يبعثهم على امتثال أمر الله ونهيه، أو لأن إيمانهم حجة عليهم، من حيث أنهم قد وقع منهم الإيمان الذي يدلهم على وجوب الامتثال، ولعل هذا أقرب؛ لأنه أنسب لاختيار الموصول وصلته الفعلية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون اسم الفاعل (أيها المؤمنون) في أكثر المواضع في القرآن الكريم.

و﴿أَوْفُواْ﴾ أمرٌ من الوفاء وهو تطبيق ما سبق من العقود، العقود: جمع عَقدٍ ـ بفتح العين ـ وهو الكلام الموثق المستلزم لإلزام قائله حقاً، سواء كان عهداً أو عقداً من عقود المعاملات، أو قبولاً للتكليف من الله يفيد الالتزام بالطاعة، ومنه اليمين المعقودة، ولكنها خصت بالإذن بالكفارة.

قال السيد عبد الله بن أحمد الشرفي في تفسيره (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد ـ رحمة الله عليه ـ : دلت على انعقاد العقود كلها، وعلى وجوب الوفاء بها..» الخ.

قلت: وقد جاء في بعضها الحث على الوفاء، نحو: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [النحل:٩١] ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء:٣٤] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧] ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧] ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١].

ولعل قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ مع عمومه لكل عقد جاء في أول السورة للحث على العمل بما فيها، من حيث أن الذين آمنوا قد التزموا بالطاعة.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ الإحلال للأنعام مقابل التحريم وهو: الأذن بأكلها، وبذبحها ونحرها ولم يقل: (أحلت لكم الأنعام) كما في غير هذه السورة، والأنعام ثلاثة أنواع من البهائم، واسم البهائم يعمها ويعم غيرها.

قال الراغب في (المفردات): «والبهيمة: ما لا نطق لَه وذلك لما في صوته من الإبهام، لكن خص في التعارف بما عدا السباع والطير».

قلت: الأقرب: أنها سميت بهيمة لأنها لا تعرف ما يعرف الإنسان، فالمعارف مستبهمة عليها مجهولة لديها، ليس لها إلا ما ألهمها الله لمعاشها ونحوه والانتفاع بها، ولذلك قال الهادي بن إبراهيم رحمه الله:

وما الناس إلا أنتم دون غيركم   وسائر أملاك الزمان بهائم

فقوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بمعنى الأنعام التي هي بهائم، قال في (الكشاف): «إضافته على معنى من» انتهى.

ففي قوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فائدة تتعلق بإحلال الأنعام، لعله الإشارة إلى رحمة الله بها؛ لأنه جعلها بهائم، فإحلالها مع كونها بهائم أهون عليها مما لو كانت تعرف ما يعرف الإنسان ـ والله أعلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما ذكر في الآيات القرآنية تحريمه من الميتة وأنواعها التي تأتي في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ..﴾ الآية.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي غير جاعليه حلالاً في حال إحرامكم، فقوله: ﴿غَيْرَ﴾ حال مما سبق، والمعنى: أن الله قد حرمه وأنتم قد آمنتم، فلا تحلوه وقد حرمه الله.انتهى.

أي لا يقع منكم إحلاله فيفيد أن من أحله فقد خرج من الإيمان ومعنى هذا تأكيد تحريمه وهو مذكور في أواخر السورة، ولعل ما يأتي نزل قبل هذا، أو أن هذا موجز قدم على التفصيل، و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ إشارة إلى أن له الملك، وإلى أن المخاطبين عباده له أن يتعبدهم كيف شاء، ودلالة على أن هذه الأحكام العظيمة، ومنها تعميم التكليف بالعقود وإباحة ذبح الأنعام وأكلها على ما فيه من الألم والشدة عليها، والتحريم للصيد في حال الإحرام كل ذلك لأن الله يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، هذا وهو سبحانه أحكم الحاكمين لا يحكم إلا بالحق، فالأنعام لها في الآخرة عوض ما نالها في الدنيا عوض عظيم.

﴿٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين أن يحلوا شيئاً حرم الله عز وجل من هذه الأشياء،

والشعائر: فهي الإبل التي تشعر عند الإحرام، وإشعارها فهو شق أسنمتها، والهدي: فهو ما أهداه المحرم إلى مكة، والقلائد: فهي الإبل - أيضاً - المقلدة التي يقلدها الحاج بعد إحرامه.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ فهم القاصدون للبيت الحرام المتوجهون نحوه من حاج كان أو معتمر، فنهى الله - تبارك وتعالى - عن إباحة ما ذكر، ومعنى الشهر الحرام فهو الأشهر الحرم، فقال: ﴿ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ وهو يريد الشهور، كما قال: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار:٦] وهو يريد الناس، والأشهر الحرم التي نهوا عن الإحداث فيها، فهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وهن اللواتي ذكر الله تبارك و تعالى حين يقول: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ..﴾ [التوبة:٣٦]..» إلخ.

وحكى الشرفي رحمه الله في (المصابيح) عن المرتضى عليه السلام أنه قال: «والشعائر: فهي ما تعبد الله به خلقه في الحج مثل الصفا والمروة والمواقف والجمار والبُدْنَ، فأمر الله أن لا يبيحوا ذلك ولا يتركوه ولا يفرطوا فيه ...» الخ.

قلت: هذا صحيح؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج:٣٦] و(من) للتبعيض، ولعل الإمام الهادي عليه السلام أراد تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن المراد بالشعائر: البدن المُشْعِرَة، لا أن الاسم خاص بها، يعنى: أن النهي عن إحلال اعتراضها كما فعلت قريش حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصدوا الهدي الذي كان معه، ولكن ليس مستحيلاً أن يقع من بعض الجبابرة إحلال المناسك بالبناء فيها لنفسه وأصحابه وخدمه وجعل بعضها بساتين ونحوها، فالأولى إبقاء الآية على عمومها.

و﴿ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وتفسيرها بالإبل المقلدة من التطبيق، وأما المفهوم فالظاهر: أن المراد احترام القلائد التي هي علامة أنها لله فيترك التعرض للإبل المقلدة احتراماً للقلائد، وقوله في الهدي:ما أهداه المحرم المراد إلى الحرم، أي أهداها لله.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ الفضل هنا ثواب الحج والعمرة وما فيهما من القرب. والرضوان غفران الذنوب وما يترتب عليه من التوفيق وتيسير سبل الخير؛ لأن من رضي عن عبده أراد له الخير ولذلك كان الرضوان في الآخرة أكبر، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] وابتغاء ذلك إرادته والتوصل إليه بأمّ البيت الذي هو الكعبة من حيث هو توصل إلى الحج والعمرة وما فيهما.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ فالواجب إنما هو اجتناب الصيد حال الإحرام وليس من الدين اجتنابه بعد الإحلال تورعاً، والإصطياد: أخذ الصيد وما يجري مجرى الأخذ من الاستيلاء عليه والسيطرة بكونه قد صار في الشبكة أو نحو ذلك.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ ولا يكسبنكم بغض قوم لأن ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي لا يسبب البغض للعدوان عليهم وإن كان سبب البغض أنهم صدوكم عن المسجد الحرام.

قال الشرفي في (المصابيح): «معناه: لا يحملكم بغض أهل مكة وعداوتهم بأن صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعاملوهم معاملة تتجاوزون فيها حدَّ الحق إلى الباطل» انتهى

قلت: ويحتمل أنه نهى عن قتالهم في الشهر الحرام لتقدم قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ فخص هذه الحالة لئلا يتوهموا أن صدهم عن المسجد الحرام يحل قتالهم في الشهر الحرام، لقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] وهذا أقرب عندي.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ التعاون: تفاعل من العون أن يجعل كل من المتعاونين قوّته مع قوة أصحابه لتحصيل شيء باجتماع القوى عليه. و ﴿ٱلۡبِرِّ﴾ اسم جامع، وقد بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى آخر الآية، وهي في (سورة البقرة) [آية:١٧٧] ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ اجتناب المعاصي لطلب السلامة من العذاب، وأصل التقوى استعمال الوقاية لدفع المكروه.

و﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ الذنب المسبب للعذاب، قال في (الصحاح): «الإثم: الذنب» انتهى ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ الظلم والجور، ومنه القتال في الشهر الحرام، ولا يشترط في مفهوم المعاونة القصد لها، كما حققه الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في (رسالة التحذير) وقد طبعت، وهذه الآية جامعة لفوائد كثيرة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تقوى الله: طاعته في كل أمره ونهيه؛ وختمت هذه الآية بهذه الجملة ليحافظ الذين آمنوا على ما في هذه الآية وإن شقت على الأنفس، كترك العدوان على الذين صدوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه عن المسجد الحرام، وفي ذلك دلالة على الوعيد على أهل الصلاة.

وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم

﴿٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ ـ بتخفيف الياء ـ التي ماتت دون أن تذبح أي لم تمت من الذبح، ويلحق بها ما قطع من أعضاء أي الأنعام وهي في الحياة قبل أن تذبح للحديث ﴿وَٱلدَّمُ﴾ لا يجوز شربه رائقاً ولا أكله خاثراً مطبوخاً.

و﴿ٱلْخِنزِيرِ﴾ حيوان بالشام وغيره معروف عندهم ولحمه عند الإطلاق يعم العروق والشحم؛ لأن الجملة يسمى لحماً، وإنما يختلف عند المقارنة حيث يقال: لحم وشحم ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ مر تفسيره في تفسير (آية البقرة) ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي يخنقها ما يحبس نَفَسَها من حبل أو غيره فتموت.

كذا قال الإمام الهادي عليه السلام في المنخنقة، وقال عليه السلام: «وأما الموقوذة: فهي التي ترمى على مَوْقِذتها، أو تضرب فتموت؛ وأما المتردية: فهي التي تردّى من رأس الجبل أو من المطارة أو في البئر أو في غير ذلك مما تسقط فيه الدابة فتموت ولا يلحق ذكاتها، وأما النطيحة: فهي ما تنطحه البقرة أو الشاة منهن فتموت، وأما ما أكله السبع: فهي الدابة يقتلها السبع ولا تلحق ذكاتها فحرم الله ذلك كله إلا أن يلحق منه ذكاة فيذبح وفيه شيء من حياة فيكون حينئذ ذكياً» انتهى من (الأحكام).

وقال الشرفي في (الموقوذة) وهي: «المقتولة بغير حدٍّ رجماً أو ضرباً بعصى، يقال: وقَذَهُ، يَقِذُهُ، وقْذاً: إذا ضربه حتى أشفى على الهلاك» انتهى.

وفي (الصحاح) وغيره نحوه، ولم أجد تفسير الموقوذة، وليست شرطاً، أعنى أن الوقذْ ضربٌ ونحوه يؤدي إلى الموت في أي موضع من الجسد، ولعل أصل الموقوذة التي تضرب على موقذتها، ثم استعمل في التي تضرب ضرباً يؤدي إلى الموت على الإطلاق؛ لأن هذا هو المعروف في اللغة، وقوله عليه السلام: «أو من المطارة» قال في (الصحاح): «وبئر مطارة واسعة الفم» انتهى

والأقرب: أن الإمام الهادي عليه السلام أراد المكان المرتفع الذي يطير منه الطائر لارتفاعه، لأنه عليه السلام قال: أو في البئر.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ والنصب: فهي آلهتهم المنصّبة التي كانوا يذبحون لها وعلى اسمها، ومعنى قوله: ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ فإنما هو للنصب» انتهى.

قلت: أصل مفهوم ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ حول النصب بحيث يكون الظاهر أنه ذبح من أجلها ولها، قال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صَحْبي عليّ مَطِيَّهُم   يقولون لا تهلك أساً وتجمل

ومثله لطرفة بن العبد، وقال بدل (وتجمل) (وتجلد) والمراد: حولي مطيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النور:٥٨] وفي حديث الهرة: «إنها من الطوافين عليكم» وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ [الصافات:١٣٧].

﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ (الأزلام): جمع زلم، وهو قِدْح - بكسر القاف وسكون الدال - أي قطعة قوية صلبة تستعمل في الاستقسام، وفي الميسر: قال في (الصحاح): «والزَّلَم - بالتحريك - القِدْحُ، قال الشاعر:

بـات يقاسيها غـلام كالزّلَم خدلج الساقين ممسوح القدم

وكذلك الزُّلَم - بضم الزاي - والجمع: الأزلام، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها» انتهى.

وإنما قلت في الزلم: قطعة قوية صلبة؛ لأن الشاعر أراد مدح نفسه بالقوة على سوق الإبل أو الغنم التي ساقها وهرب بها، وقصته مذكورة في (المصابيح) في تفسير الآية التي قبيل هذه.

قال: «قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري أتى رسول الله ﷺ وحده وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه رسول الله ﷺ فقال إلى ما تدعو؟ فأخبره، وقد كان النبي ﷺ قال لأصحابه: «يدخل عليكم اليوم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان)) فلما أخبره النبي ﷺ قال: لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقبى غادر، فمر بسرح من سرح المدينة فاستاقه، وانطلق وهو يرتجز ويقول:

قد لفّها الليل بسـواق حطم ليـس براعـي إ بـل ولا غنم

ولا بجـزار على ظهـر وضم باتوا نياماً وابن هند لـم ينـم

بـات يقاسيهـا غـلام كالزّلـم خدلج الساقين مـمسوح القدم

ثم أقبل من العام القابل حاجاً قد قلد الهدي، فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، فنزلت هذه الآية حتى بلغ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ﴾» انتهى المراد.

وقال في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾: قال في (البرهان): أي تطلبون علم ما قُسِمَ أو لم يُقسَم من رزق أو حاجة بالأزلام وهي قداح ثلاثة، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث: غِفْل لا شيء عليه، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو غزواً أو حاجة ضربوا بها واستقسموا، فإن خرج: أمرني ربي فعلوه، وإن خرج: نهاني ربي تركوه، وإن خرج الأبيض أعادوه، فنهى الله سبحانه عنه، فسمى بذلك استقساماً لأنهم طلبوا به علم ما قسم لهم» انتهى.

قوله: «وإن خرج الأبيض أعادوه» المراد بالأبيض: الذي لم يكتب فيه، وقوله: أعادوه، أي أعادوا الضرب بها، والذي يظهر: أنهم يجعلونها في شيء يغطيها ويجيلونها فيه، ثم يخرجون أحدها وينظرون أيها خرج.

وقرينة هذا قوله: فإن خرج.. وإن خرج.. وإن خرج، فظهر: أن الضرب إجالتها وتحريكها بقوة لتختلط ويختلف وضعها عما كانت عليه عند جعلها في الظرف.

وقد قيل أن المراد: الاستقسام عند أن تذبح الجزور، وتقسم سبعة أقسام ثم يتقامرون عليها بأزلام عشرة، والأقرب: أن الآية عامة لذلك كله، وأن العرب كانوا يتوهمون أن ما أخذوه بالقمار مقسوم لهم، فالعموم بواسطة هذا المعنى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ أي معصية وجرأة على الله وخطيئة كما أفاده تفسير الإمام الهادي عليه السلام لغير هذه الآية، وتفسير (صاحب البرهان): «أنه خروج عن أمر الله وطاعته وهو فعل ما تقدم ذكره ـ أي الاستقسام المذكور» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ﴾ في تأويل المصدر معطوف على ما سبق أي وحرم عليكم أن تستقسموا بالأزلام، فظاهرها: تحريم الاستقسام نفسه، وتفسيره بتحريم أخذ الجزور بالقمار إخراج لها عن ظاهرها فهو تأويل، ولو قيل: وما استقسموه بالأزلام لكان ظاهراً، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ولا حاجة إلى التأويل؛ لأن تحريم الاستقسام بالأزلام يستلزم تحريم ما أخذ بناء على أنه مقسوم اعتماداً على الاستقسام بالأزلام، وهو محرم لا يفيد أنه مقسوم، فهو مازال ملك مشتري الناقة، أو ذابح الناقة، أو صاحبها، أو قد حرمت بالنحر على وجه محرم ليس ملك الذي أخذه بالاستقسام بالأزلام، فهو حرام عليه وعلى المساكين الذين أعطاهم هذا المستقسم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ قد أظهر الله دينة فما بقي للكفار طمع في إذهابه، لأنهم قد أيسوا من قدرتهم على ذلك لقوة الإسلام بقوة أهله، واجتماع كلمتهم، وطاعتهم لقائدهم، وصبرهم على القتال في الدين ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ ليبقى لكم دينكم وعزكم، فلا تغيروا ولا تبدلوا، واثبتوا على ذلك في حياة الرسول وبعده.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بكمال الشرائع ومطابقتها للحكمة فالتكاليف والأحكام قد نزلت على الرسول ﷺ كلها كاملة محكمة ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ بإكمال الدين وجمعكم عليه أخواناً، قد ألّف بين قلوبكم فتمت لكم العزة، وحصل لكم الأمن في دينكم بتمكينه في الأرض.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ ارتضيت لكم إسلام أنفسكم ووجوهكم لله ﴿دِينًا﴾ تدينون الله به؛ لأنه الحق وفيه لكم السعادة الدائمة في الآخرة والنجاة من النار، وأنتم أهل لذلك بشكركم للنعمة، واستحقاقكم للهداية للإسلام والتوفيق له.

فإن قيل: فكيف دخلت هذه الجملة في حوادث اليوم المذكور، وهو يرضى لهم الإسلام ديناً من قبله؟

فالجواب ـ والله أعلم: أنه رضى زائد على ما سبق؛ لأنهم أتموا أركان الإسلام بالحج من بعضهم، وبعزمهم عليه وسفرهم له من بعضهم ونشر كثير من أحكام الحج وغيره وتعلمها تلك الأيام، وكثرة العبادة والخشوع في مناسك الحج في عرفات وعند البيت وسائر المواقف، فقد رضي الله عنهم وأراد لهم الخير وأسباب الجنة والسعادة الدائمة فوق الرضى السابق.

ومعنى الرضى: غايته كمعنى الرحمة أي أن يفعل سبحانه فعل المحب الراضي والرضى في المخلوق ضد الكراهة والبغض، فالحب داخل في معنى الرضى؛ ولذلك جاء في الحديث الشريف: «ومَن الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومَن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق».

أما اليوم المذكور، فهو اليوم الذي كملت فيه الأحكام ونزولها على الرسول ﷺ، ولعله يربطه بهذه الآية أن هذه الأحكام التي فيها على التفصيل الشامل للمقتولة من الأنعام آخر ما نزل من الأحكام، وليس المراد أن إكمال الدين بها، بل بإكمال الدين كله، ومنه: تحريم الميتة والمقتولة، كما يكون إتمام خلق الإنسان بخلق بنانه، فإذا تم الشيء بتحصيل آخر جزء منه وإن كان صغيراً صح أن يقال اليوم تم.

ولا ينافي أن ذلك (يوم عرفة) أو (يوم الغدير) فلعل ولاية أمير المؤمنين قد نزلت قبله بكثير، وذلك يوم إنذار عشيرة الرسول ﷺ أو في (تبوك) فإنزالها يوم عرفة ثم يوم الغدير تأكيد لما سبق.

ويمكن أن يقال: أنه وإن كان تأكيداً باعتبار فهو حكم جديد باعتبار تجديد التشريع والأمر والتكليف لوجوب امتثاله آخراً كما وجب امتثاله أولاً، فمن هنا تكون ولاية أمير المؤمنين عليه السلام من حوادث يوم الغدير، ويكون إكمال الدين بما حدث منه في ذلك اليوم من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وغيرها.

والمراد بإكمال الدين ـ كما مر ـ إنزاله على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كاملاً، ومنه ولاية أمير المؤمنين، فهي حكم من أحكام الدين لا أنها تضمنت بقية الأحكام كما يزعم بعض الشيعة، كأنهم أرادوا أن إكمال الدين تبليغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعضه إلى الناس كافة، وإحالتهم في البعض الآخر إلى علي عليه السلام ليبلغه، وهذا غير معنى الآية عندنا.

بل إكمال الدين بإنزال ولاية أمير المؤمنين عليه السلام التي فيها تشريع القيادة التي تحمي الإسلام وتدفع عنه المفسدين، وتنفّذ أحكامه بدفع التظالم، وإقامة الحدود، ونصب الولاة والحكام وغير ذلك، وهداية من يهتدي بالمواعظ والحكم والآداب، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلوات والجمَع، وإيتاء الزكاة، ونشر المعلمين في بلاد الإسلام والمرشدين ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤١] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ الآية [آل عمران:١٠٤].

وعلى القائد المسلم ما على العلماء من التعليم وإبلاغ الشرائع والوجوب عليه أكثر، لأن الحاجة إليه أكثر وهو أقدر؛ هذا في القيادة جملة، فأما أمير المؤمنين علي عليه السلام فيجب اتباعه وهو طريق من طرق الشريعة، لأنه «مع الحق والحق معه» وقد بسطت هنا للحاجة إليه.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ ألجأته الضرورة وهي الجوع الذي يخشى منه التلف، أو المرض الذي يلجئ خوفه إلى أكل الميتة، و(المخمصة): المجاعة سواء كانت عامة له ولغيره أم خاصة به حيث لا يجد ما يأكل إلا من الميتة أو المقتولة.

﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ قال الراغب الأصفهاني: «أصل الجنف: ميل في الحكم فقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة:١٨٢] أي ميلاً ظاهراً، وعلى هذا غير متجانف لإثم أي غير مائل إليه» انتهى، فيشترط أن لا يأكل منها إلا لأنها ألجأته الضرورة لا ميلاً إلى أكلها حراماً، وقد مر زيادة تحقيق في تفسير (آية البقرة) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ولذلك لا يؤاخذ المضطر غير المتجانف لإثم.

قال في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد رحمه الله تعالى: دلت الآية على تحريم الميتة، ومن ذلك الشظا وما لا ذكاة له، إلا ما استثنى رسول الله ﷺ من السمك والجراد، وعلى تحريم جميع ما ذكره الله في هذه الآية فهي نصوص صريحة، وعلى أن المسلمين وأهل الحق إذا كانوا في مَنَعَةٍ فإنه يحرم عليهم التخوف من الأعداء، ويجب عليهم قصدهم لإقامة الدين.

وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ...﴾ إلى آخره دلت هذه الآية الكريمة على أن شريعة محمد ﷺ لا نقص فيها فلا تحتاج إلى رأي المبطلين وأن الله قد أتمّ نعمته على عباده بهذه الشريعة المطهرة وأنها داخلة فيما يسأل الله عنه من النعيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] وأن رضى الله بالإسلام، فيحب الرضى على عباده بما رضي لهم سبحانه» انتهى

مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ

وقد يستدل بالآية على إبطال القياس، ولكن إذا ثبتت علة الحكم بالدليل الشرعي جرى ذلك مجرى عموم الحكم للفرع، وقد سماه بعض الإمامية: عموماً وأثبتوه مع نفيهم للقياس، ولذلك لا يخفى تحريم ما نزل الماء عليه فقتله كالمنخنقة؛ وقد يقال: هو من المنخنقة؛ لأنه لا يشترط أن تنخنق بحبل أو عودين وقد خنقها الماء؛ والأولى في المثال: ما جرح بحدٍ لغير ضرورة في غير المذبح فمات، فإن من فهم تحريم المذكورات لأجل أسباب هلاكها، وهذا سبب هلاك مثلها يفهم تحريمها، وهذا مع قوله الله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] ولا يمكن الرد فيما لم يتناوله الحكم إلا بالقياس المذكور.

﴿٤﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة يسألك الذين آمنوا ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ لعل المقصود ماذا أحل لهم من المأكولات ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ منها، ويحتمل ماذا أحل لهم العموم فيتناول السؤال المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات، فيكون قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ عاماً لها كعموم السؤال وإن كان السياق في اللحوم كما يأتي قريباً في النكاح، وهو خارج عن السياق.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ ما علمتم اسم شرط وفعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟﴾ جواب الشرط يدل على أن ما صاده الكلب المعلم إذا تمت الشروط حلال طيب، وتعليم الكلب تعليمه ليجيب صاحبه ويأتمر بأمره إذا أرسله على الصيد سواء كان جائعاً أم شبعاناً.

قال الإمام القاسم عليه السلام فيما رواه الإمام الهادي عليه السلام في(الأحكام) عن أبيه عن جده: «المكلِّبُ فهو المغري، وإكلاب الكلب فهو الإغراء، ولا يكون ذلك من المغري للكلاب إلا إشلاء وأمراً».

قلت: يظهر أن التكليب: تحصيل الكَلَب على الصيد في الكلْب بإشلائه على الصيد، أي إرساله؛ لأنه قد تعلم الإمتثال فيحصل فيه الكَلَب على الصيد ولو كان شبعان، ولذلك قال الإمام القاسم عليه السلام: «والمكلِّب: هو المغرى لأن أمر صاحبه له يكون إغراء له بسبب تعليمه».

وقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يفيد: أن هذا من نعمة الله علينا لأنه علمنا كيف نعلم الكلاب وغير ذلك فعلينا أن نشكر النعمة ولأنه الذي سخر لنا الكلاب وأعدها لذلك سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ دليل على حل الصيد بإمساك الكلب له علينا أي ما أمسكن عليكم من الصيد، ومعنى ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ حولكم أو حولكم من أجلكم، قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧] أي لا تفارقها والفراق كناية عن الطلاق، وقد أفاد هذا المعنى في (مغني اللبيب) حيث قال في (على): «تكون للاستعلاء، إما على المجرور وهو الغالب، أو على ما يقرب منه، نحو ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]» انتهى.

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا

قال شارحها: «يقول: قتلناه وحبسنا خيلنا عليه وقد قلدناها أعنّتها في حال صفونها عنده» انتهى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ وقد مر تفسيره؛ وفائدة: اشتراط أن يكون الإمساك عليكم: أن يترك منه ما لم تمسكه إلا بعد غيابها عن صاحبها وغياب الصيد فأمسكته في غيابها إذا لم تدرك ذكاته؛ لاحتمال: أن يكون تردى مع الفرار فأعان التردي على قتله، أو أنه أعان عليه شيء مجهول.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «حدثني أبي، عن أبيه: أنه سئل عما قتل الكلب والصقر؟ فقال: ما قتل الكلب المعلّم فحلال عندي أكله، وذكاة ما قتل الكلب المعلّم فهو قتله له يؤكل ما قتل وإن أكله إلا أقله، ولا أعلم فيما أجبتك به في هذا اختلافاً بين الناس، إلا ما ذكر فيه من خلاف عن ابن عباس..».

إلى قوله: «وظننت أن ابن عباس تأول في ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فكان عند ابن عباس أكله له غير إمساك منه على من أرسله، وهو عندي فقد يمسك بالقتل أكثر الإمساك، والمذكور المشهور أن عدي بن حاتم، وأبا ثعلبة الخشني، سألا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكل الكلب المعلم يأكل من صيده فأمرهما بأكل فضله، وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم إلا ابن عباس وحده من بينهم: يؤكل فضل الكلب المعلم وإن لم يبق من الصيد إلا بضعة من اللحم» انتهى المراد.

وقد عنى الإمام القاسم عليه السلام: أن الصيد قد حل بإمساكه قبل أن يأكله فلا يحرم بالأكل؛ لأن حله قد سبق الأكل، ثم قال عليه السلام: «فأما ما قتل الصقر والبازي، فأعجب ما قيل فيه من القول إليَّ: أنه ليس بذكيّ؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ ولم يقل: ما علمتم مصقرين، والمكلّب فهو المغرى..» إلى قوله عليه السلام: «والصقر لا يؤمر ولا يشلأ» انتهى.

وهو يعني أن الصقر لا يقبل التعليم والتكليب، وإنما يجيب إلى الطعام لحاجته ويذهب إلى الصيد إذا كان جائعاً لا لأمر صاحبه، لأنه إذا كان شبعان لا يأتمر.

قال الإمام القاسم عليه السلام: «فإن كانت حالة الفهود كحالها - أي كحال الصقور- لا تشلأ ولا تؤمر فلا يحل أكل فضول أكلها، وإن كانت تؤمر وتشلأ فتأتمر فهي كالكلب يؤكل ما أفضلت وَذَكِيٌّ ما قتلت؛ وبهذا فيما بلغني كان يقول علي عليه السلام وابن عباس وابن عمر» انتهى.

يعني: أن الفهد كالكلب إذا كان يقبل التكليب بالتعليم، فأما أكل الفضل فقد مر خلاف ابن عباس؛ وقد نقلت هذا الكلام لما تضمن من تفسير الآية.

فتحصل أن المعنى: ما علمتم من الكلاب وغيرها من الجوارح التي تجرح الصيد، وأن تعليمها جعلها تأتمر بأمر صاحبها من حيث أنه يحصل فيها بأمره كَلَبٌ وشبق على الصيد فتسرع إليه بسبب التعليم الذي جعلها يحصل فيها الكَلَبُ على الصيد.

وأن معنى: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مما أمسكن حولكم ولا إشكال أن الإمساك من أجل صاحبه لأنه بسببه، فسواء قلنا عليكم: حولكم، أو قلنا عليكم: حولكم من أجلكم؛ لأن الكلب أمسكه بسبب الكَلَب عليه والكلب عليه بسبب الإرسال، وأن أكل الكلب من الصيد أو تركه خارج عن معنى التعليم والتكليب.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ هذا أمر وجوب، فيجب ذكر اسم الله على الكلب عند إرساله، أو على الصيد عند إرسال الكلب كما في الروايات.

وظاهر الرواية: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ للكلب، أي واذكروا اسم الله على الكلب عند إرساله، كأنه قيل: إرسال الكلب على الصيد باسم الله أي بحكمه وإذنه وإباحته، كما يقول الذابح: (باسم الله).

والرواية في (أمالي أحمد بن عيسى): أخبرنا محمد، قال: أخبرنا محمد بن عبيد، قال: أخبرنا محمد بن فضيل، عن زكريا، عن عامر، عن عدي بن حاتم، قال:سألت رسول الله ﷺ عن صيد الكلب؟ قال: «إن وجدت عنده كلباً آخر فخشيت أن يكون أخذ معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكر اسمه على غيره» انتهى.

زكريا هو (ابن أبي زائدة) وعامر هو (الشعبي) وذكر صاحب (رأب الصدع): أن هذا الحديث متفق عليه، يعنى بين البخاري ومسلم.

قلت: وسنده على شرط (صاحب الصحيح المختار) من أصحابنا إلا بن فضيل وزكريا، وقال سيدي عبد الله بن الهادي في (الجداول) في (ترجمة محمد بن فضيل): «عداده في ثقات محدثي الشيعة» انتهى، وقال في زكريا: «وعده المنصور بالله من رواة العدلية» انتهى، قلت: ومع كونه كوفياً هو مظنة التشيع ولم أجد ما يدل على ميله.

وقال المؤيد بالله عليه السلام في (التجريد) و(شرحه): «إذا أرسل المسلم الكلب المعلم على الصيد وسمّى حين أرسله فأخذ الكلب الصيد فقتله قبل أن يلحق صاحبه ذكاته جاز أكله، وهذه الجملة لا خلاف فيها» انتهى، وهذا يؤكد: أن الضمير للكلب، فإرساله على الصيد بمنزلة الذبح في التسمية ـ والله أعلم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا تحذير من أكل الصيد بدون تمام الشروط، كأن يكون الكلب غير معلم، أو يصطاد بدون إرسال صاحبه المسلم، أو لا يكون قريباً منه بحيث لا يعلم أنه الذي قتله بإرساله، أو يعينه كلب آخر لم يرسله أحد، أو غير معلم، وسرعة الحساب تستلزم توفية الجزاء بحيث لا يغفل عن مثقال ذرة.

لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿٥﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ هو يوم نزول الآية، وعبارة (اليوم) مما يشير إلى ضرورة اعتبار الوضع بالنسبة للمسلمين ولأهل الكتاب.

وهذا واضح بالنسبة لوقت نزول الآية، فالمسلمون كانوا في قوة ومنعة، وأهل الكتاب على النقيض من ذلك، وهذا ما يدعو إلى القول بضرورة التفريق بين مدلول الآية في مرحلة نزولها، ومدلولها في هذا العصر الذي استقوى فيه أهل الكتاب، وكبرت مؤامراتهم على المسلمين، فيكون مدلول الآية باعتبار الوضع كما أسلفت، وهذا ما تشير إليه عبارة (اليوم) في بداية الآية ـ والله أعلم.

﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ تأكيد للإحلال المذكور سابقاً، وتمهيد لإحلال طعام الذين أوتوا الكتاب كما مهد لإحلال صيد الكلاب، بقوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ فيدل على أنه من الطيبات.

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اسم للذين رزقوا علم التوراة، ولا يشمل الجهلة الذين ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] بل هم من أهل الكتاب، فالإيتاء من الله يشعر في بعض المواضع بالتعليم، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

فلا يقال للجاهل ولو قرأ ألفاظ الحكمة وهو لا يعلم معناها، لا يقال: (أوتي الحكمة) ولذلك قال تعالى في علمائهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٢-٥٣] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت:٤٧] كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] مع أنه قد يطلق ويراد أهل الكتاب جملة على طريقة التغليب، أو لحكمة يقتضيها سياق الكلام.

والمراد بطعامهم: ما سلم من سبب آخر يمنع من أكله، لا ما أخذوه بالربا، أو نجسوه بالخمر، أو لحم الخنزير، أو بغيرهما من النجاسات، فهو واضح في التمر والحبوب.

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يفيد: جواز إطعامهم، ولعله في أهل الذمة ونحوهم إذا كانوا في وضع لا يشكلون خطورة على المسلمين لضعف حالهم كما هو الحال في مرحلة نزول الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ...﴾ الآية [الممتحنة:٨] فمثل هذا الترخيص لا يدل إلا على أنه غير ممنوع من هذه الجهة التي علق عليها الترخيص، ولا يدل على أنه رافع لكل مانع، ومبطل لأدلة الموانع الأخرى.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] لا تدل إلا على أنه لا مانع من ذلك من جهة الصيام وليس رافعاً لكل مانع، فلا يدل على إباحة مقاربة الحائض ليلة الصيام، ولا على جواز أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير ليلة الصيام، وهذا واضح.

وعلى هذا: فلحومهم التي لم تذبح على الطريقة الإسلامية لا تحل، أما ما علمنا أنهم ذبحوه على الطريقة الإسلامية فإن كان الإسلام شرطاً في صحة الذكاة، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ والخطاب للذين آمنوا فذبحهم مانع من حل اللحم، وإن لم يكن الإسلام شرطاً وقد طابق الذبح الصفة المشروعة لم يبق إلا الإسلام فلا يكون مانعاً، فالآية هذه لا تدل بنفسها على حل ذبائحهم، بل لا بد من دليل آخر، وإلا فالظاهر التحريم، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

فإن قيل: فما فائدة الترخيص إذا لم يكن المقصود حل اللحم؟

قلنا: هي كقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨] لأنه قد يتوهم وجوب تركهم مبالغة في معاداتهم.

﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ذكر المحصنات من المؤمنات في هذا السياق قد يكون تمهيداً لقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ على أن المراد المؤمنات من الذين أوتوا الكتاب، فهن حل لكم لأنهن مؤمنات، وهذا تفسير الإمام الهادي عليه السلام، وقد احتج له في (الأحكام) بما يكفي فليراجع في (كتاب النكاح) من (الأحكام).

ويؤكده أن استعمال قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ في علمائهم الذين قد آمنوا أظهر؛ لأنه مدح كما بينت، ومن أعظم مؤكداته: أن نكاح اليهودية والنصرانية مظنة أن تستخدم من قبل الكفار لإدخال الضرر على المسلمين في أي جانب وبأي طريقة وخاصة في هذا العصر الذي يحرص اليهود والنصارى على إدخال الضرر على المسلمين، وإفسادهم بجد وعناية كبيرة.

كما أن نكاحها مظنة أن يكون لها أولاد تربيهم على دينها إذا مات زوجها أو غاب، مع أن كثيراً من المسلمين يغفلون عما يجري على أولادهم من التربية على الباطل، وخصوصاً العامة من المسلمين الذين لا يهمهم إلا أعمال دنياهم، فكيف يحل من يدعو إلى النار، وقد علل تحريم مناكحة المشركين بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٢١] ومثل هذا لا يتصور أن يتخلف، فيشرع الله الدعاء إلى النار ويترك الدعاء إلى الجنة.

فإن قيل: إباحة المؤمنات من أهل الكتاب أمر مفروغ منه، فما فائدة ذكره؟

قلنا: إنه وإن كان أمراً مفروغاً منه في وقت الرسول ﷺ فيمكن أن التصريح به جاء لأجل المستقبل، ألا ترى أن في بلدنا هذه يتنزهون من نكاحهن ويعتبرونه معيباً، مع أنه تعالى قد قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وحلهن أمر مفروغ منه، فما المانع في المعطوف عليهن، وأن يكون من عطف الخاص على العام.

ولو قلنا: أنها في الكافرة لقلنا فيها كما قلنا في الطعام، وإن شرطها أن لا يكون فيها مانع آخر غير كونها من الذين أوتوا الكتاب، فإذا كانت مشركة حرمت لأجل الشرك، كما لو كانت أختاً من نسب أو رضاع، بل لو كانت قد أشركت فيما مضى ثم تركت فلا تحل، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] فلا يرفع تحريمها مجرد الترك ولا يرفعه إلا الإيمان؛ ولعل الحكمة أن القلب قد يكون باقياً على الشرك، وقد يكون مستعداً للعودة فيه ما لم تؤمن.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فتحرم من منعها زوجها المهر ظلماً، ولعل هذه هي فائدة ذكر المحصنات من المؤمنات لأنه حكم جديد ﴿مُحْصِنِينَ﴾ بهذا النكاح، والإحصان الحماية عن الحرام فهو يحمي نفسه وعرسه ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ توضيح لمعني الإحصان، والسفاح الزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ قال الراغب: «قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ جمع خِدْن، أي المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة، يقال: خِدْنُ المرأة، وخدينها» انتهى. وقد مر في (سورة النساء) تفسيره.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: «دلت الآية الكريمة على حل كل طيب والمحصنات من المؤمنات، وهن العفيفات من الزنا، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهم الذين لم يشركوا بالله من اليهود والنصارى دون من أشرك منهم..» الخ.

قلت: والأقرب: أنه لا يدخل فيها من تهود أو تنصر من غير بني إسرائيل إذا كان المراد الكافرات، فأما اللاتي أسلمن فهن حل كلهن.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿يَكْفُرْ﴾ بالإيمان يرجع عنه ويرفضه ويقلع عنه، مثل ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت:٢٥] ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الماضي حين كان مؤمناً، فلا ينفعه ما سبق من إيمانه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير، وصاروا في شقوة لا تنقطع، وهذا حث على الثبات على الإيمان.

إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لما كانت الصلاة في الغالب تكون في المسجد يقوم إليها الإنسان من مسكنه إما بعد النوم كالفجر، وإما بعد راحة الظهيرة كالظهر، وإما بعد الراحة من عمل النهار كالمغرب، وإما بعد العَشاء ـ بفتح العين ـ قال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا تهيأتم لها.

﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ استعداداً لها، وذلك يستلزم النية، والوجه ما بين الأذنين من قدام، وحده من أعلا مقاص الشعر ومن أسفل منتهى الذقن.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فاليد كلها تغسل إلا ما فوق المرفق، والمرفق ما يرتفق عليه عند الإتكاء مجمع العضد والذراع.

﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ ماءً، وقد أفاد الماء ذكر الغسل والسياق للتطهر وفي المسح بالماء تنظيف لظاهر الشعر، ومسح يتعدى إلى مفعول به فيختلف باختلاف المقصود، فإذا كان المقصود تجفيف اليد مثلاً، قلت: امسحها بالمنديل؛ لأنها هنا ليست آلة بل المسح موجّه إليها واقع عليها، وإذا كان المقصود إزالة ما في اليد من ماء أو دهن أو دم، قلت: أمسحه بالأرض أو برأسك أو برجلك أو نحو ذلك؛ لأن المسح موجّهٌ إلى ما في اليد واقع عليه، ومنه ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي ماء.

وفي التيمم في (سورة النساء) ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [آية:٤٣] أي منه كما صرح به في (المائدة) ومنه الحديث: «إن رسول الله ﷺ وطئ بَعَرَ بعير رطب فمسحه بالأرض وصلى ولم يحدث وضوءً ولم يغسل قدماً» رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) و (أمالي أحمد بن عيسى).

والحديث الآخر: «فأمسّ إبهامه أنفه فإذا دم، فأعادها مرة فلم يرَ شيئاً فأهوى بها إلى الأرض فمسحه، ولم يحدث وضوءاً ومضى إلى الصلاة» رواه في (المجموع) و(الأمالي) وفي (نهاية ابن الأثير).

وفي حديث فرس المرابط: «أن علَفَه وروثه ومسحاً عنه في ميزانه» يريد مسح التراب عنه.انتهى.

فالمفعول محذوف كما في الآية، وبهذا يظهر معنى (الباء) وأنها لإلصاق الماء بالرأس كما في ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء:٤٣] لإلصاق بعض من الصعيد بالوجه، وأنها ليست زائدة؛ مع أن الإثبات لا تزاد فيه (الباء) إلا في نحو: بحسبك درهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩] ومواضع مخصوصة، وهو سماعي لا يقاس عليه.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، فالرجل كلها تغسل إلا ما فوق الكعبين من الرجْلِ، والكعبان: عظمان في أسفل الساق، وهما المقصود هنا بدليل التثنية؛ لأن الأرجل مجموعة، فإما أن يلحظ الجمع فيقال: إلى الكعاب مثل إلى المرافق، وإما أن يلحظ الفرد، فلو كان المراد في القدم الواحد كعب واحد كعب الشراك لقيل إلى الكعب، ولو قيل:والرجلين بالتثنية صح أن يقال: إلى الكعبين لتثنية الرجلين مع كون المقصود كعب الشراك، إذا كان حقيقياً وفيه نظر.

قال الراغب: «كعب الرِّجْلِ: العظم الذي عند ملتقى القدم والساق» ولم يذكر غيره، وقال في (الصحاح): «الكعب: العظم الناشز عند ملتقى الساق والقدم، وأنكر الأصمعي قول الناس: إنه في ظهر القدم» انتهى

والوجه في غسل الكعبين: أن الغاية إذا احتمل دخول ما بعدها واحتمل خروجه كان هنا وفي المرفقين محمولاً على الدخول، لأن الأمر قد عم الأرجل والأيدي، فالأصل مع الالتباس الغسل إذا لم يتحقق الخروج من الحكم مع أنه أحوط.

وظاهر الآية: وجوب الوضوء عند كل قيام إلى الصلاة، فإن قام إلى كل فريضة قياماً توضأ لكل فريضة، وإن قام إلى الصلاتين قياماً واحداً توضأ لهما وضوءاً واحداً، فالحكم تابع للقيام.

وفي (أمالي أحمد بن عيسى): «حدثنا محمد حدثنا جعفر بن محمد، قال سألت قاسم بن إبراهيم عن الرجل يصلي الصلوات بالوضوء الواحد؟ فقال: قد أمر الله بالوضوء عند ما يقوم إلى الصلاة وهو المحكم عندنا..» الخ

نعم قولنا: بغسل الرجلين، هو العمل بقراءة (النصب) وهي القراءة المشهورة في العالم لم تختلف فيها قراءة حفص ونافع، وحمل العطف على المنصوب لفظاً وحكماً أقوى من دعوى أنه منصوب بالعطف على محل (رؤوسكم) لأن العطف على المنصوب لفظاً وحكماً ظاهر لا إشكال فيه.

وإن ادعى بعض الإمامية: أنه لا يجوز لأجل الفصل بقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾؟

قلنا: الفصل لا يمنع، وهو موجود في مواضع كثيرة في القرآن الكريم كالآية التي قبيل (آية الوضوء): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ عطف على ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ وقد فصل ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

والعطف مع الفصل في (سورة الأنعام) في مواضع منها: قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آية:٨٤-٨٧].

فانظر كيف عطف: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على جملة: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ثم عطف ﴿زَكَرِيَّا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ وقد فصل بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم عطف إسماعيل، وقد فصل بقوله: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ثم عطف ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ ثم عطف: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ على ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ أي وهدينا من آبائهم، وقد فصل بقوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ثم عطف قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ على ﴿نُوحًا هَدَيْنَا﴾ وما بعده، وقد فصل بما ترى، فالعطف مع الفاصل لا وجه لمنعه ولا استبعاده.

وقال في (مغني اللبيب) في أقسام العطف: «أحدها العطف على اللفظ وهو الأصل» انتهى، ولم يشترطوا عدم الفصل.

وأما قوله: إن العطف على أقرب ملفوظ هو الأصل، فلا نسلم أنه الأصل إلا إذا استوى المعطوف عليه الأقرب والأبعد، ولم يكن مرجح إلا القرب، فأما إذا كان العطف على اللفظ والمعنى فهو أرجح من العطف على المحل؛ لأنه تأويل خلاف الظاهر؛ لأن الأصل العطف على اللفظ، مع أن العطف على المحل لا يجوز إلا بشروط لم تحصل هنا؛ لأن من شروطه إمكان ظهور الإعراب في المعطوف عليه في الفصيح من الكلام، مثل: ليس زيد بقائم ولا قاعداً، ومنه قول الشاعر:

فلسنـا بالجبــال ولا الحديـدا

فيصح: ليس زيد قائماً، ولسنا الجبالَ بالنصب الظاهر، وفي الآيـة لا يصـح حذف (باء الإلصاق) وإيصال الفعل بنفسه، فاختل شرط العطف على المحل.

فإن قيل: لو قيل: (وامسحوا رؤوسكم) لجاز؟

قلنا: هذا ليس على حذف (بـاء الإلصـاق) وتعديـة الفعـل بنفسـه، بـل يكون (رؤوسكم) مفعول به، وهو اسـتعمال آخـر جعـل فيـه الممسـوح هـو الرأس، وإنما المثال لو قال: (وامسحوا رؤوسكم مـاءً) أي برؤوسـكم، فهـذا لا يصح، فلهذا قلت: لا يصح حذف (باء الإلصاق) فاختل شـرط العطـف على المحل، أما ليس زيد بقائم فإنه استعمال واحد تحذف فيه الباء أو تزاد.

فإن قيل: نختار أن (الباء زائدة) والأصل: (وامسحوا رؤوسكم)؟

قلنا: لا يصح حمل القرآن على العدول عن الاستعمال الصحيح الفصيح إلى ما لم يثبت جوازه، لأن ذلك مخل بالفصاحة ومخالفة للظـاهر؛ لأن المتبـادر المعنى الثابت للباء الذي هو الإلصـاق بـلا خـلاف المشـهور بـين العـرب لا غرابة فيه ولا شذوذ، فالعدول عنه بلا حجة من عطف القـرآن علـى الـرأي والتحكم في التفسير.

وكون الباء للإلصاق معنى ذكره النحاة قال (صـاحب مغنـى اللبيـب) في معاني (الباء المفردة): «أولها الإلصاق، قيل: وهـو معنـى لا يفارقهـا، فلهـذا اقتصر عليه سيبويه» انتهى

وفي (المفصل): قال: والباء معناها الإلصاق، كقولـك: بـه داء أي التصـق به وخامره ـ ثم قال ـ : ويدخلها معنى الاستعانة، وذكـر بقيـة المعـاني، فقـد جعل الإلصاق هو المعنى الأصلي.

قال ابن يعيش في (شرح المفصل): «واللازم لمعناها الإلصاق»انتهى، وابن الحاجب صدر الإلصاق في معاني (الباء) ولم نجد أحداً ذكر خلافاً بين النحاة في ذلك، فالظاهر إجماعهم عليه، وأما دعوى أن (الباء) للتبعيض فلا دليل عليه.

وقولهم: إنه لابد لها من فائدة وليست إلا التبعيض؟

قلنا: لا نسلم انحصار الفائدة في التبعيض، وقد بينا الفائدة وأن الرأس في الآية ليس هو المفعول به، بل المفعول به محذوف وهو (الماء) وإنما الرأس يلصق به الماء، فهي فائدة ظاهرة اقتضتها اللغة الثابتة، أما استعمال (الباء) للتبعيض فلم يثبت، وتفسير القرآن به فرع ثبوته قياسياً، ولا يكفي وجوده في كلمة مخصوصة كما قلنا في استعمالها زائدة.

وأما قول بعض الإمامية أن: (أرجلكم) معطوف على (رؤوسكم) لأنه الأقرب، وإعمال الأقرب في باب التنازع أولى؟

قلنا: لا يصح القياس على التنازع؛ لأن طريقته استعمال خاص بتوجه عاملين مختلفين إلى معمول واحد وليس مما نحن فيه ولا يقاس عليه العطف، لأن اللغة لا تثبت بالقياس، مع أن النحاة اختلفوا في باب التنازع هل الأول أولى بالإعمال لسبقه أو الثاني لقربه، مع أن هذا حيث يجوز العطف، وقد بينا أن الأصل المتبادر العطف على اللفظ وأن العطف على المحل اختل فيه جواز العطف على المحل باختلال شرطه.

فإن قيل: إن الرواية عن بعض الأئمة تفيد: أن (الباء) للتبعيض؛ لأنهم احتجوا على التبعيض بوجود (الباء)؟

قلنا: الرواية عنهم غير صحيحة عندنا، ولو صحت لاحتمل أنهم أرادوا أنها للإلصاق، وأن الإلصاق يحصل بإلصاق الماء ببعض الرأس كما تقول:

(لصقت بجدار الكعبة) وإنما لصقت ببعضه، وهذا نظر واجتهاد لا حكاية لغة للعرب بإثبات أن (الباء) للتبعيض، وقد اعترف الطوسي بأن (الباء) تأتي للإلصاق، ولكنه نفى أنها في الآية لذلك، وقد بينت أنها للإلصاق بما فيه كفاية.

ولو قيل: أن (الباء) في قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ للظرفية، والمعنى: امسحوا فيها ماء وكذا في آية ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي امسحوا في وجوهكم من الصعيد، فالرأس محل للماء، والوجه محل لبعض الصعيد لكان محتملاً؛ لأن (الباء) تستعمل للظرفية بلا إشكال، والمعنى واحد، وامتناع العطف على المحل فيها وفي (باء الإلصاق) واحد لاختلال شرطه؛ وقد طولت هنا لكثرة ما وقع من الجدال في هذا الموضوع مع بعض الإمامية.

وقد احتج بعضهم للعطف على المحل بنحو ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٦] في قراءة جزم (يذر) عطفاً على محل ﴿فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ وهو من إثبات اللغة بالقياس؛ لأن هذا مع عدم ما يعطف عليه لفظاً، وهو في الفعل وفي العطف على جملة قامت مقام الفعل المجزوم، ونحن في العطف على المفرد للمفرد وقد مر ذكر شرطه.

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ﴿وَإِن كُنتُمۡ﴾ حين تقومون إلى الصلاة ﴿جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ من الجنابة بالغسل؛ لأن الجنابة مانعة من الصلاة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلاَ جُنُبًا﴾ [النساء:٤٣] والتطهر بالاغتسال، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:٤٣] فهنا إحالة على ما تقدم في (سورة النساء).

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ فلم تجدوا بسبب عجز المريض عن طلب الماء أو كنتم على سفر ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ

مَآءً﴾ لبعدكم في القفر عن مواضع الماء، فذكر المرض والسفر، لأنهما مظنة أن لا يجدوا ماء، وفائدة ذكر المظنة تحسين فرض عدم الماء حتى لا يكون فرض الماء مستبعداً عند السامعين الذين عندهم الماء من أيسر الحاجات.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ لتحقيق أن التيمم يكون على الجنب وعلى المحدث، فقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ إشارة إلى الحدث لأن الذي يريد أن يبول أو يتبرز ينزل إلى منخفض من الأرض ليستتر فيه ففي هذا تعليم التستر عند قضاء الحاجة والإنفراد لقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ ولم يقل: (أو جئتم).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ يفهم منه: البحث عن الماء، لأنك في مثل هذا لا تقول: لم أجد إلا إذا بحثت، ويفهم منه: التأخير، لأن الماء لا يزال مرجواً بإنزال مطر أو غيره، فإذا كان ظاناً أنه لا يجد فلا يكفي ذلك لأن (لم) لنفي الوجدان وتحقق النفي في الماضي وما دام مستقبلاً لا يقال: لم أجد، فأما من لا يجد فهو غير داخل في الشرط لأن معناه لا يجد في الحال أو في الاستقبال فهو غير المذكور، ولذلك يلزم التأخير إلى خشية فوت الفرض لأنه يصدق عليه حينئذ أنه لم يجد.

وتيمم الصعيد: قصده والتوجه لتحصيله، وهو يدل على اختيار الطيب، ولا يكفي مطلق التراب أينما حصل، والصعيد: وجه الأرض وقد مر تحقيقه في تفسير آية (سورة النساء) والطيب: السليم من القذر والنجاسات السليم من التغير والفساد وقد مر فيه زيادة تحقيق.

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الصعيد الطيب بأن يلصق بالوجه واليدين بواسطة المسح، وقوله: ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ ولم يقل: إلى

المرافق، إما إحالة عليه، وإما إحالة على البيان من السنة إذا لم يكن المراد اليد كلها إلى الإبط، فأما تفسيره بالكفين قياساً على قطع السارق فبعيد، وقياسه على الوضوء أقرب.

فإن قيل: ليس قياساً، وإنما هو دليل على أن اليدين يصدق على الكفين؟

قلنا: ليس دليلاً؛ لأن اليد المقطوعة جملة اليد، وقطعها يتحقق من أي أبعاضها، ولذلك تحقق بقطع الكف كما تقول: قطعت الحبل، ولو كان قطعه من ربعه أو ثمنه أو نحو ذلك.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ﴾ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ هذا التشريع للوضوء والغسل ﴿لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم﴾ حرجاً، ولو قليلاً من الحرج، فليس المراد بهذه الأحكام.

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ لأن الإنسان قد يبتعد عن التنظف لقلة مبالاته بالنظافة أو كسلاً أو اشتغالاً، فكانت الحكمة أن يفرض عليه فرضاً، وكانت الصلاة أحق بالطهارة، فعيّن لها المفروض ولفرضه علينا من الله كان الله مطهراً لنا بفرضه وبتيسير الماء للتطهر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال:١١].

﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بتشريع أسباب الكمال للإنسان المطيع وارتفاع درجته وتحصيل فوائد الطهارة الدينية كالنشاط للصلاة والدنيوية كالنظافة والصحة، وشكر النعمة إظهار اعتراف القلب بها باللسان والأعضاء، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

والكفر: تغطية النعمة بترك الإظهار.

نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا

﴿٧﴾ ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فامتثلوا أوامره في الطهارات وغيرها لأن ذكر النعمة يذكر بحق المنعم ويدعو إلى شكرها ﴿وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقلتم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ غفرانك ربنا فالتزمتم بطاعته ليغفر لكم، والميثاق: القول المؤكد الذي يكون حجة على قائله.

قال الشرفي في (المصابيح): «وهو الميثاق الذي أخذه الله على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة...» الخ، وهو ظاهر فيحمل عليه الميثاق، ويلحق به التزام العبد عند التوبة أن يطيع ليغفر له.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باتقاء عذابه، وذلك بالطاعة الخالصة لله وتجديد التوبة عند كل زلة،وهذا تأكيد لما في الآية الماضية من الأمر وتحذير من المخالفة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تذكير بوجوب مراقبة الله في كل عمل وكل اعتقاد وكل نية، لأنه ﴿عَلِيمٌۢ﴾ بالخصلة المضمرة في الصدر المكتومة في الضمير و﴿عَلِيمٌۢ﴾ بخبايا النفس التي قد يغفل صاحبها عنها، فعلى المكلف أن يتيقظ ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة.

وبهذه الآية تم الكلام في وجوب الطهارات، وعند إتيان موضوع آخر يبدأ بنداء الذين آمنوا إذا كان فيه تكليف لهم في هذه السورة الكريمة:

تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ

﴿٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ يدل على الاستمرار والتكرار، حتى يوصف الواحد بأنه قوام، والقيام لله يشمل: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدفاع عن الدين بالقلم، واللسان، والسلاح، ونصرة الحق كذلك، على أن يكون ذلك كله لله طاعة وتقرباً إليه وتعبداً له، فهذا واجب مستقل أضاف إليه واجباً هو منه فقال تعالى:﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ شهداء بالحق، عام للمسائل العلمية الدينية، وللشهادة بالقسط فيما تشاجر فيه الناس من أمور الدنيا.

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ ﴿شُهَدَآءَ﴾ قد مر تفسيره في أول السورة، والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ فتتركوا العدل لأجل بغضهم، وهو يعم ترك الشهادة لهم بالحق، وترك الإنصاف لهم فيما استحقوه من أرش أو قصاص أو دين أو إجارة أو غير ذلك، فنهى وأمر بقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ حثاً على العمل بهذا التكليف وإن شق على النفس، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي أقرب لاتقاء عذاب الله؛ لأنه من أهم عمل التقوى الذي هو الطاعة لله سبحانه فيما أمر ونهى فالمطيع فيه أقرب إلى الطاعة في غيره من التكاليف، فهو أقرب للتقوى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ حث على تقوى الله بطاعته في القيام له والإنصاف وفي كل شيء، فهو تأكيد ختمت به هذه، كما ختم الكلام في (الطهارة) بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا

وختمت (آية الصيد بالكلاب) بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وختمت آية: ﴿لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فأفاد ذلك أن تقوى الله: طاعته في كل أمر ونهي، لا في ترك الشرك وحده، ودل ذلك على أن العصاة من الذين قد آمنوا يعذبون، ولا يدفع عنهم ترك الشرك بالله الذي خرجوا منه بشهادة التوحيد والدخول في الإسلام.

﴿٩﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الحسنات التي لم يصحبها مفسد ولا محبط ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو الوعد.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ آيات الله: دلائله من القرآن وغيره، قال في (الصحاح): «الجحيم: اسم من أسماء النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧] انتهى

﴿١١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يمدوا أيديهم لقتالكم ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ هذا الوصف ينطبق على (يوم الأحزاب) الذي قال تعالى فيه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥]

وقال تعالى فيه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ذكرهم بنعمته، ليطيعوه شكراً، وتجنباً لكفر النعمة الذي يتنزه عنه من استعمل عقله لقبحه عقلاً وعطف عليه الأمر بتقوى الله ليطيعوه ليقوا أنفسهم عذابه، وأمرهم بالتوكل ليثبتوا على طاعته ولا يصرفهم عنها خوف عدو أو خوف فقر أو نحو ذلك.

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة العنكبوت): «والتوكل: هو الوثوق به، وإسناد الأمر إليه» انتهى.

وقال المنصور بالله عليه السلام في (حديقة الحكمة شرح الأربعين السيلقية) في التوكل: «ومعناه ـ أي التوكل ـ أن لا تهتمّ بالأمر المهمّ اعتماداً على غيرك فيه، ولذلك سمي الرجل: وكْلاً وهو الذي لا يهتم بالأمور اعتماداً على غيره فيها وهو ذم عندهم.

ومعنى التوكل على الله: أن تعتمد في كل مهمّ عليه، وتردّ كل مُلِمٍّ إليه، وتضع يدك في يديه، ولا ترجوا لكل شديدة سواه، ولا توالي خوفاً من المشاقّ عداه، تؤثر إن أعطاك لترضي وليه، وتشكر إن منعك لتكبت عدوه، ولا تطلب شيئاً من رزقه بمعصيته، ولا تعصه عزّ وعلا لرضى أحد من خلقه، ولا تقصر في شيء من عبادته ولوازم تكليفه، فهذا معنى التوكل عندنا، وبه يسمى العبد متوكلاً شرعاً» انتهى من شرح (الحديث السادس).

وقوله في تفسير التوكل على الله: وتضع يدك في يديه، أي تتوجه حيث وجهك، لا يمنعك خوف من عاقبة الأمر، لأنك قد وكلت أمرك إليه، فما شاء أن يقضي لك بسبب طاعته فأنت راضٍ به.

مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد: الحصر، فعلى المؤمن أن يتوكل على الله وحده لا يتوكل على غيره.

ولما أمر المؤمنين بذكر ميثاقه الذي واثقهم به، ذكرهم بما صار إليه بنو إسرائيل بعد نقض الميثاق الذي واثقهم به، فقال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) قال: «في (البرهان): يعني بإخلاص العبادة لله ولزوم طاعته» انتهى.

قلت: الأقرب أن الميثاق عليهم بما ذكره: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي..﴾ الآية، فأخذ الميثاق منهم على ذلك، وأعطاهم العهد على أنهم إن وفوا بذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ...﴾ إلى آخر الآية، ولذلك قال في (سورة البقرة): ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [آية:٤٠] وهذا قد شمله كلام (صاحب البرهان) وهو أبو الفتح الديلمي من أئمة الزيدية.

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان): «أخذ من كل سبط منهم نقيباً والنقيب: الشهيد على قومه وهو الأمين والضمين أيضاً، وهؤلاء النقباء كانوا مبعوثين إلى الجبارين ليقفوا على ما عندهم وينظروا في أحوالهم ويرجعوا بها إلى موسى عليه السلام فرجعوا ينهون عن قتالهم لما رأوا من شدة الجبارين وعظم بأسهم» انتهى.

قلت: الظاهر: أن وظيفة النقباء تتعلق بالميثاق، وأنهم أمناء كل واحد على أصحابه لمتابعتهم بالوفاء بالعهد ـ والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ لبني إسرائيل عند أخذ الميثاق ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ رقيب عليكم شهيد على ما يكون منكم من وفاء أو نقض للعهد، ثم رغبهم في الوفاء فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ من مضى ومن بعث بعد هذا العهد ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ قال الراغب: «التعزير: النصرة مع التعظيم» انتهى، وقال في (الصحاح): «التعزير: التعظيم والتوقير» انتهى.

وقول الراغب أقوى؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] والتوقير: التعظيم، والعطف ظاهره التغاير، وقال (صاحب الكشاف): «وعزرتموهم: نصرتموهم ومنعتموهم من أيدي العدوّ ـ ثم قال في الكشاف ـ : يقال: عزرت الرجل، إذا حطته وكنفته، والتعزير والتأزير من وادٍ واحد، ومنه: لأنصرنك نصراً مؤزراً، أي قوياً» انتهى.

ومثله في (المصابيح) فقد اتفق هو وقول الراغب في إثبات النصرة، فهو الراجح والموافق للعهد على النبيئين ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعم الإنفاق في سبيل الله، أو هو المراد.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فقوله: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يفيد: النجاة من عذاب الله، وقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ يفيد: الفوز بالثواب الدائم.

نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ هذه النعمة العظيمة نعمة الدين والوعد العظيم فنكث العهد فقد غوى سواء الطريق، وتاه في غير الطريق، لأنه عدل عن طريق السلامة والكرامة بعد وضوحه، ثم بين تعالى ما صاروا إليه بعد الميثاق:

﴿١٣﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ بسبب نقضهم لميثاقهم ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا فمنعناهم الألطاف وسلبناهم التوفيق ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ لا تؤثر فيها المواعظ، ولا تلين لذكر الله وعظمته وجلاله وعزته وجبروته، ونسبة القسوة إلى الله لأنه فطر القلوب على قبول التأثر بالخير والشر فتصلح بالخير وتفسد بالشر لأنها تألفه، وذلك بفعل صاحبه وقد تركه الله يفسد قلبه لاستحقاقه الخذلان، وفائدة نسبته إلى الله التخويف منه، وأن لا يخرج الكلام مخرج الشكوى منهم كما قدمت في ختم الله على قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ يبين قسوة قلوبهم ويذكر أثراً من آثار القسوة يدل على جرأتهم على الباطل وعدم المبالاة بفعل المنكر العظيم، والكلم: ما أنزل الله من كلماته، وتحريفها عن مواضعها: تحويلها عن سياقها المبين للمراد بها حتى يمكنهم تفسيرها بغير معناها، ولعلهم كانوا ينقلون الكلمة دون سياقها في ورقة مستقلة ويكتمون السياق، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١] والله أعلم.

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا

﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ تركوا نصيباً مفيداً نافعاً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ في التوراة من المواعظ والترغيب والترهيب كأنهم نسوا لأن الناسي للشيء لا ينتفع به حتى فاتهم ما فيه من الخير.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٖ﴾ على خيانة ﴿مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وإنما رجحت أنها بمعنى المصدر لأجل الاستثناء، فالمعنى أنها تتكرر منهم الخيانة فإن كان الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهي تشير إلى جرأتهم بخيانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان الخطاب للسامع فمعناه: إن عادتهم الخيانة عادة مستمرة، والأول أوفق للسياق قبلها وبعدها.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي اعف عما صدر من خيانة محتملة ﴿وَٱصۡفَحۡ﴾ عن زلاتهم لفضل الحلم والإحسان وما فيه من الترغيب في الإسلام وزيادة الحجة عليهم، وهذا مطلق، مقيد بما في (سورة البقرة): ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [آية:١٠٩]. أو أن آية (المائدة) نزلت بعدما أعطوا الجزية وصاروا أهل الذمة وهو الأقرب، لأن الذين يطلع على خائنة منهم هم الذين قد انتصر عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا البعيدون الذين ليس بينهم وبينه عهد ولا ذمة ولا معاملة، وغير الذين أجلاهم إلى الشام.

﴿١٤﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ ومن الذين ادعوا أنهم نصارى وغيروا وبدلوا بعد ذلك ولم يثبتوا على النصرانية

لأنهم عدلوا عن التوحيد الذي هو أصل الدين، وحقيقته: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ..﴾ الآية [البينة:٥] فحين أشركوا كانوا قد خرجوا عن دين النصرانية الأصيل وبدلوه مع تمسكهم بهذا الاسم ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ على السمع والطاعة وإخلاص العبادة لله والإيمان برسل الله ونصرهم، أخذ ميثاقهم في الإنجيل مع أخذ الميثاق أولاً على بني إسرائيل جملة.

﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ وبذلك نقضوا الميثاق ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال في (الكشاف): «﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ فألصقنا وألزمنا، من غري بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره، ومنه الغِرَاء الذي يلصق به» انتهى، أي أن الغراء سمي به من اللصوق.

قال الإمام الهادي عليه السلام يصف قتاله لأعداء الله:

غريت أنامل راحتي بصفيحتي ... لله درّ خبعثن أغراها

فإغراء العداوة والبغضاء على أحد معنيين: إما على معنى جعلنا في قلوبهم العداوة والبغضاء فأغرينا عداوة وبغضاء كل حزب بالحزب الآخر فنسب الإغراء إلى العداوة والبغضاء وهو لصاحبها؛ لأن الإغراء لصاحبها وقع بها لأنها الباعثة على القتال، فهو مجاز لفظي.

المعنى الثاني: أغرينا بينهم: ألصقنا بقلوبهم العداوة بينهم والبغضاء، كما يلصق الشيء بواسطة الغراء، والإغراء في المعنى الأول هو مثل إغراء الكلب بالصيد، وهل يحتاج إسناد هذا إلى الله تعالى إلى تأويل أو لا يحتاج باعتبار كونهم كفار مستحقين للعقاب وهذا هو الراجح.

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيه دلالة على أنه سبحانه عليم بما ﴿يَصْنَعُونَ﴾ ولا ينساه، وأنه يحاسبهم عليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأوفى.

يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

﴿١٥﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطاب عام للذين هادوا والذين قالوا إنا نصارى لدعوتهم جميعاً إلى الإيمان بالكتاب والرسول وترك الشرك.

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ من أحكام الله تعالى وما في كتابكم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ﴾ تخفونه عن الناس وعن جهلة أصحابكم، وهذه آية لكم تدلكم على أن الله أوحى إليه ذلك الذي يبينه لكم وأنتم تكتمونه؛ لأنه لم يقرأ كتابكم ولا تعلم منكم ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مما كنتم تكتمونه لعدم الحكمة في إظهاره.

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ربكم فعليكم أن تتبعوه ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد بالنور: القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فالعطف مثله في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] فهو نزل نوراً يهتدى به، ونزل كتاباً يكتب ليحفظ وتتوارثه الأجيال.

وعلى هذا فترك العطف في أول الآية لتمام الاتصال، لأن الرسول جاء بالقرآن وهو برهان رسالته فهما كالشيء الواحد، ويحتمل أن المراد بالنور: الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ يدل على أن القرآن واضح الدلالة على ما به يهتدي من اتبعه:

بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن

﴿١٦﴾ ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَهْدِى بِهِ﴾ يهدي بالقرآن ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي أنزله هدى للمتقين ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ من اتبع سبب رضوانه بأن آمن وتاب إلى ربه واتقاه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طرق السلام المؤدية إلى السلامة في الآخرة من العذاب ومن كل شر.

فإن قيل: هداية من اتبع رضوانه سبل السلام من تحصيل الحاصل؛ لأن من اتبع رضوانه فقد اهتدى إلى سبيل السلامة من العذاب؟

فالجواب: أن العاقل عندما يسمع آيات الله إما أن يؤمن ويتوب فيكون قد اتبع رضوان الله في هذه اللحظة، وإن كان لم يعلم شرائع الإسلام ولكن لا بدله من تعلم ما جاء به الرسول واتباعه، وإلا انحرف عن رضوان الله، فإذا تعلم واتبع كلما علم كان متبعاً لرضوان الله يزيده الله هدى، وهكذا ما بقي في دار التكليف فقد ظهر أنه ليس من تحصيل الحاصل؛ لأن سبب رضوان الله في أول أمره دون سبب رضوانه بعد أن أمكنه التعلم وسبب رضوانه بعد أن علم أكثر من سبب رضوانه قبل إمكان التعلم، فالطلب للعلم وسبب رضوانه بعد وجوب الجهاد عليه أكثر منه قبل ذلك، وهكذا سائر التكليف، ولعل هذا سبب جمع سبل السلام باعتبار تعدد التكاليف واختلاف درجات التكليف ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الباطل والجور كالشرك وسائر العقائد الباطلة والخرافات والظلم والفساد إلى نور الحق والعدل والصدق ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي بأمره ولطفه وتيسيره، لا بالإجبار كما قال الجهال» انتهى.

يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

ولما كان خروج الإنسان مما ألفه واعتاده واستمر عليه من العادات الباطلة والعقائد التي هي ظلمات إلى نور الحق والعدل والصواب ثقيلاً على النفوس، بحيث أن كثيراً من الناس لا يريد إلا البقاء على ما ألفه، قال تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ ليعلم أن ذلك غير مستبعد ممن أذن الله بخروجه من الظلمات إلى النور بأن يسر له ذلك وحببه إليه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وذلك برحمة الله وفضله، وكون العبد لم يتمرد ويجادل في آيات الله ويتبع كل شيطان مريد، بحيث يستحق لو كان كذلك الخذلان وإرسال الشياطين عليه.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذه الهداية هي قرينة الإخراج من الظلمات إلى النور،وهي تنوير القلب الذي يحصل معه الاستمرار على الحق والرغبة في ذلك والزهد فيما يشغل عن ذكر الله وشكره وحسن عبادته وهو الصراط الذي لا يعوج الموصل إلى السعادة الدائمة، الواضح الذي لا يلتبس على صاحبه ولا يخفى؛ لأنه بسبب الزهد في الدنيا لا يدخل في شبهة ولا يسلك طريقاً يشك في هدايته ويترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، فهو على طريق واضح يوصله السعادة الدائمة.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: هذه الآية نص صريح في أن الكتاب العزيز هو الهادي إلى سبل السلام، والى الصراط المستقيم من الدين، ومن ذلك عرض ما لم يعلم مما ورد من السنة على الكتاب العزيز» انتهى.

﴿١٧﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ذكر سيد قطب في (تفسيره): «أن بعض النصارى أحدثوا هذا القول في سنة٤٣١ميلادية» انتهى.

بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

وذكر هناك في تفسير الآية أقوالاً لهم مختلفة، ولا يكاد يتصور القول بأنه الله مع القول أنه ابن مريم لولا أن إهمال العقل يتقبل الإنسان معه كل باطل ولا يبالي، فهذا الكفر كفر بالله، وكفر بما جاء في الكتب، وما أرسلت به الرسل من تسبيحه وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وأنه الخالق، وأنه الأول قبل كل شيء، وأنه لا شريك له، إله واحد، لا إله إلا هو، وهو مع ذلك كفر بنعمة الله ونسبة للنعمة إلى المسيح عليه السلام.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا يبين: أن الذي خلق المسيح بن مريم قادر على إهلاكه وإهلاك أمه ومن في الأرض جميعاً، فالكل مخلوقون يقدر من خلقهم أن يهلكهم، فكيف يكون الله من يجوز عليه الهلاك ولا يملك أن يدفع عن نفسه ولا يملك من الله أن يرجع عما أراد من إهلاكه لو أراد الله إهلاكه، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يفيد: أنه تعالى قادر على إهلاكهم في وقت واحد.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيه حصر بتقديم الخبر وهو ﴿لِلَّهِ﴾ فله الملك وحده لا شريك له، ولأن له الملك فهو ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ومن ذلك خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق زوجه، وخلق عيسى من أم بلا أب ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه خلق عيسى من غير أب فليس يجب أن يكون له أب حتى قلتم أن الله أبوه سبحانه و تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فرّعوا على جعلهم (عزير بن الله) في

قول اليهود، وجعلهم (عيسى بن الله) في قول النصاري، فرّعوا على ذلك قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾.

وأما قولهم: ﴿وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ فلعلهم اغتروا لجهلهم بكثرة نعم الله عليهم كفرق البحر لهم لإنقاذهم من آل فرعون وإهلاك فرعون وقومه بإغراقهم، وكالمناجاة لموسى ومعه سبعون من قومه لعلهم يكتبون ما نزل، وكإنزال المنّ والسلوى عليهم، وتظليل الغمام ونحو ذلك، وجعل الكتاب فيهم والأنبياء الكثير منهم، ولكن نعم الله ابتلاء للعبد أيشكر؟! أم يكفر؟! فإن كفر كانت الحجة عليه أعظم، وهو عند الله ألْوَم.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فإن النعمة لو كانت دليلاً على الحب، لكان التعذيب يدل على البغض والكراهية ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فأنتم عباد مربوبون كسائر البشر المخلوقين.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنهم عباده كلهم، يحكم فيهم ما يريد، والذي يشاء أن يغفر له التائب إليه، والذي يشاء أن يعذبه من عصاه وتمرد عليه ولم يتب إليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لله وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يشاركه فيه عزير، ولا عيسى، ولا اليهود، ولا النصارى، بل هم عباده حق عليهم ووجب أن يعبدوه ويتقوه ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وحده يصير العباد كلهم فيحكم فيهم بحكمه، ولا يكون لحكمه راد ولا منازع فيه، فاليهود والنصارى مصيرهم كغيرهم إلى الله وحده لا إلى غيره معه، فلا ينفعهم هناك عزير، ولا المسيح بن مريم، ولا أمه.

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ

﴿١٩﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الحق ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قد جاءت فَبَعُدَ عهدُكم بالرسل، واحتجتم إلى رسول يبين لكم الحق، ويخرجكم مما لولاه لم تنفكوا عليه من الباطل، كما قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ الآيات [سورة البينة].

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لئلا تقولوا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ولم يبق لكم عذر وقامت عليكم الحجة بمحمد ﷺ والقرآن الحكيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إرسال الرسل ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فكيف كذبتم الرسول.

ثم بين تعالى بعض تمرد بني إسرائيل، ليبين: أنه لا يستبعد تكذيبهم للرسول ﷺ، فقال تعالى:

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكّرهم بنعمة الله ليطيعوا الله فيما يأمرهم به من دخول الأرض المقدسة، فإن الحجة عليهم أعظم والمعصية منهم أقبح.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ يدل على أنهم قد مكنهم الله في الأرض بعد ما كانوا أذلة، وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من نعم الله التي يجب شكرها.

ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ

﴿٢١﴾ ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ لما كان هذا التكليف شاقاً عليهم لما فيه من قتال الجبارين، مهّد له بتذكيرهم بعظم نعم الله عليهم، وأضاف إلى ذلك تشجيعهم بأن الله كتبها لهم، فهم مظنة أن ينتصروا ويدخلوها، وحذرهم المعصية، وبين لهم أنها ارتداد عن طاعة الله وانقلاب على الأعقاب.

وهذا دليل على تسمية الفسق ارتداد، إلا أن يقال: إنما عنى نهيهم عن الهزيمة والفرار من الزحف وهو محتمل، إلا أن قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ يبين أن المراد: الارتداد عن الطاعة؛ لأن الارتداد الذي بمعنى الهزيمة تولية الأدبار، لا على الإدبار الذي هو القهقرى يتأخر مع بقاء اتجاهه، مع أن تولية الأدبار من جملة المعصية؛ لأنهم أمروا أن يدخلوا فإذا انهزموا عصوا هذا الأمر وارتدوا عن الطاعة إلى العصيان ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي خسارة الدين، وخسارة فوت نعمة أخذ الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يأخذوها يوماً من الدهر.

وقد قيل: أن اليهود اليوم يحتجون بهذه الآية على أن فلسطين لهم؟!

والجواب: أنا لا نسلم أنها كانت لهم من حيث هم يهود، وإنما كانت لقوم موسى قرية في (فلسطين) بدليل قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة:٢٣] لأنهم بعد التوبة من عبادة العجل كانوا مسلمين، وأراد موسى أن يتمكن الإسلام في (فلسطين) لا لأجل عنصر اليهود ولذلك فسّقهم لما عصوا، لأن الغرض المقصود كان دينياً هو الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وتمكين

تَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن تَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن

الإسلام في أرض الإسلام التي كانت بلد الإسلام من عهد إبراهيم الخليل - صلى الله عليه - وتطهير الأرض المقدسة من رجس الجبارين، ولو كان الغرض مجرد إسكان اليهود في القدس لما شدد عليهم فيه لأنه غرض دنيوي إن شاءوا نيله وإلا فلا يهم، واليهود اليوم في القدس بمنزلة الجبارين في وقت موسى عليه السلام، فينبغي للصادقين من المسلمين إخراج الجبارين من الأرض المقدسة.

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ ﴿جَبَّارِينَ﴾ قهارون يجبرون الناس على ما يريدون وهذا معناه: الامتناع عن الجهاد يدعون أنهم لا يستطيعون قتال الجبارين.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ من الذين يخافهم قوم موسى ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالهدى فلم يكونا مع قومهما الجبارين، فقالا نصيحة لقوم موسى العاصين: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾ على الجبارين ﴿ٱلْبَابَ﴾ باب مدينتهم فذلك وإن شق عليكم يؤدي إلى النصر، لأنكم إذا ﴿دَخَلْتُمُوهُ﴾ دخل الرعب على أهل البلد ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ بالتأكيد لأنه ما غزي قوم إلى عقر دارهم إلا ذلوا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن شأن المؤمن أن يطيع الله، ويكل أمره إلى الله إن أراد له النصر أو الشهادة، فلا يمنعه الخوف من طاعة الله تعالى.

نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ

﴿٢٤﴾ ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ أصروا على الامتناع، وزادوا على ذلك قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ وكأنه جواب عن قول موسى لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إذا صبرتم نصركم لأن الله معكم، وقولهم: ﴿إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ تأكيد لامتناعهم.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الملك: بمعنى القدرة على توجيه قومه كيف أراد كقول الشاعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

ومنه قول الله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس:٧١] واستثنى نفسه وأخاه لعلمه أن أخاه يطيعه ولا يخالفه أبداً وهو هارون عليه السلام.

وقوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ﴾ طلب للإذن من الله بتركهم والهجرة من بينهم؛ لمعصيتهم وفسقهم الذي هو خبثهم وفجورهم، فقد كره مساكنتهم، ولا ندري إن كان أجيب ليفارقهم فراقاً مؤقتاً ويذهب في طلب الخضر الذي جاءت قصته في (سورة الكهف) الله أعلم، أو أن الله توفاهما وأراحهما بالموت من التكليف كله.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ﴾ الله ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنها أي الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ممنوعة منعاً باتاً لا يستطيعون دخولها كقول عنترة:

ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ

يا شـاة ما قنص لمن حلت لـه ... حرمـت علـيّ وليتهـا لم تحرم

إلى قوله:

عُلِّقتها عَرَضـاً واقتـل أهلهـا ... زعماً لعمـر أبيك ليس بمزعم

وهذا لا ينافي أنها كتبت لقوم موسى؛ لأنـه لم يكـن مؤقتاً بوقـت أمـرهم بدخولها وقد صدق بعد الأربعين سـنة، والمـراد: قـوم موسـى عليه السلام جملتهم لا الأشخاص بعينهم، لأن بعضاً لا بـد أن يمـوت في خـلال الأربعـين، ويكـون الداخل بعض شيوخهم وذرياتهم قد صاروا مع بقايا الشيوخ هم قوم موسى.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يمشـون في الأرض في حـيرة، فـلا هم راجعون إلى (مصر) ولعله للخوف وضرب الذلة على العصاة، ولا هـم داخلون الأرض المقدسة، ولا هم صائرون إلى غيرهما من البلـدان، ولا هـم باقون في مكان من القفر يستوطنونه؛ لأنهـا عقوبـة كتـب علـيهم التيـه والله غالــب علـى أمـره ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قـال الراغـب: «الأسى: الحزن، وحقيقته: إتباع الفائت الغم» انتهى.

وفي (الصحاح): «وأسى على مصيبته بالكسر يأسى أسىً أي حزن» انتهى، فالمعنى: فلا تحزن عليهم لأنهم فاسقون أي لا تحزنك مصيبتهم التي هـي التيـه أربعين سنة؛ ولعل هذه القصة آخر قصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقرن ذكـر القصـص ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لأن أكثر القصص لا يكون صدقاً، بل يختلط الصـدق والكـذب، أو يكـون القصص كله كذباً، أما قصص الله فكله حق وصدق، لأنـه عـلام الغيـوب، حكيم لا يجوز عليه الكذب سبحانه وتعالى.

لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ ظاهره: أنه قربان واحد اشتركا فيه، كما يشترك المضحون في أضحية واحدة فقوله: ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ نائب فاعل ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ وكذا ﴿مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ نائب فاعل ﴿يُتَقَبَّلْ﴾ أو أن نائب الفاعل صح ضمير القربان، كما ذكر أن لكل منهما قرباناً؛ وإنما لم يثنِّ لأنه في الأصل مصدر فذلك محتمل.

﴿قَالَ﴾ الذي لم يتقبل منه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ غاظه قبول قربان أخيه مع عدم قبول قربانه، فتوعده بالقتل ليشفي غيظه، وهكذا يجر الحسد إلى الظلم ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فالفارق حكمة الله، التي اقتضت أن يتقبل مني دونك، وأنت الذي لم تتق الله، فالسبب من عندك فلُمْ نفسك ولا تلمني.

﴿٢٨﴾ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بسط اليد: مدّها مقابل قبضها، وقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ يدل على أنه يتورع من قتل أخيه وإن كان قد توعده بالقتل؛ ولعل ذلك لم يكن مرخصاً وإن ظن صدقه، فليس له أن (يتغداه قبل أن يتعشاه) أما الدفاع عند المواجهة للقاتل فلعله واجب؛ لأنه نهي عن منكر.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يبين: سبب تورعه من قتل أخيه، وفي ذلك موعظة لأخيه، وليس فيه دلالة على أنه لا يبسط يده إليه ليدفعه عن قتله، لأنه إنما نفى بسط يده إليه ليقتله لا ليدفع عن نفسه.

جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى

﴿٢٩﴾ ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ﴾ أن تطهرني بالشهادة، وتحمل ذنوبي أي مثلها، أو تحمل إثم قتلي، كما لو جعل على القاتل ما على المقتول من الدّين جزاء مع القصاص ـ والله أعلم.

﴿وَإِثْمِكَ﴾ الأول والآخر ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ بجرائمك ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الكون من أصحاب النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كلهم القتلة وغيرهم.

قوله: ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ قال في (الصحاح): «المباءة: منزل القوم في كل موضع ـ ثم قال ـ : وبوأت للرجل منزلاً وبوأته منزلاً أي هيّأته ومكّنت له فيه، ثم قال: وأبأت الإبل رددتها إلى المباءة، وأبأت على فلان ماله، إذا أرحت عليه إبله أو غنمه ـ ثم قال ـ : قال الأخفش: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٢] رجعوا به، أي صار عليهم، قال ـ أي الأخفش ـ وكذلك باء بإثمه يبوء بَوْءاً» انتهى.

قلت: الأظهر: أنه بمعنى الرجوع إلى المباءة أي المنزل كما قالوا: أبأت الإبل رددتها إلى المباءة، إذ ليس في أبأت الإبل إلا زيادة همزة التعدية، فظهر أن أصله: باءت الإبل، أي رجعت إلى مباءتها، فظهر صحة كلام الأخفش، فأما تفسير (باء) أي حل مبوأ فلم يثبت استعمال (باء) بهذا المعنى، إنما يقال: تبوأ بمعنى اختار مباءة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف:٥٦].

سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ

﴿٣٠﴾ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (طوعت له نفسه) زينت له نفسه ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ حتى جعلته طوعاً غير كره والطوع ضد الكره، وجعل القتل طوعاً، بمعنى: أن يقع طوعاً تسمية للمسبب باسم سببه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ أبلغ من (سولت له نفسه) أو سهلت، لأن التسويل والتسهيل قد يكون مع بقاء الكره، بخلاف التطويع فهو يدل على عدم الكره ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من أهل النار الذين خسروا أنفسهم وفاتهم كل خير، ذلك هو الخسران المبين.

﴿٣١﴾ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ بعث الله ﴿غُرَابًا﴾ أثاره ووجهه إلى هذا العمل ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويدفن فيها ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ﴾ يواري: يستر ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ ما يسوء رؤيته أي جسده بعد القتل أو عورته.

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة ندب يقولها المصاب بمصيبة شديدة، والويل الهلاك ﴿فَأُوَٰرِىَ﴾ بالنصب، عطفاً على أكون، فلما بعث الله غراباً ليريه أن يبحث في الأرض ليواري فيها سوءة أخيه، أي ليريه أن يواري سوءة أخيه بطريقة البحث في الأرض والدفن فيها، وهذا يدل على أنه لم يكن مات قبله أحد من أولاد آدم عليه السلام فلم يكونوا عرفوا دفن الميت.

أما قول القاتل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ فإنه يظهر منه: أنه تنبه لخسارته من جهة جهله وعدم عاطفته على أخيه، حيث تركه مكشوفاً لم يدفنه لعدم مبالاته به.

إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ لانتباهه لخسارته بقتله أخاه ثم تركه بدون دفن، يشير إلى ذلك قوله: ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ لأن قتله أشد من ترك مواراته، وقد علق ذلك الإنكار على نفسه على كونه أخاه وهذه الخسارة عنده أن خسر أخاه بجهله وفرط قسوته، وذلك لأن باعثه على القتل قد زال، فحصل ندمه على أخيه ولسوء تصرفه بترك دفنه، والحاصل: أن عاطفة الأخوة رجعت بعد قتله، فندم ندماً مستمراً.

﴿٣٢﴾ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ قتل ابن آدم أخاه، مع ما بينهما من القرب بسبب الباعث النفسي الذي هو الحسد ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ زجراً عن القتل بغير حق ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ غير قصاص، ولا دفع للفساد في الأرض ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ في أن ذنبه لا يغفر بل هو من أصحاب النار كما لو قتل الناس جميعاً، وهذا قطع للطمع في مغفرة القتل والتهاون به، فالمناط كون المقتول نفساً وكون قتله غير قصاص ولا دفع فساد، فلا يختلف في هذا كون المقتول صغيراً أو كبيراً أو معتوهاً أو مريضاً أو شيخاً كبيراً أو قريباً أو بعيداً أو أنثى أو غير ذلك.

ومن هنا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦] فاحتاج إلى التوبة لقتل رجل من آل فرعون قبل الأذن بقتله.

وفائدة ذكر هذا لبني إسرائيل: منع تساهل اليهود بقتل النفوس البريئة، كقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم الجماعي للفلسطينيين، فهم في حاجة إلى الزجر الشديد لتهاونهم بالقتل وخصوصاً لمن كان من سائر الأمم الذين لا يرى اليهود لهم حرمة الإسرائيليين، فبين الله: أن أي نفس من أي جنس قتلت بغير قصاص ولا دفع الفساد في الأرض، فإن قاتلها معذب في جهنم خالداً فيها، كما لو قتل الناس جميعاً، وهذه الآية تبدأ الكلام في بني إسرائيل بحسن تخلص من قصة ابني آدم.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ في أن الله يثيبه ثواباً عظيماً ويؤتيه أجراً عظيماً، ولا مانع هنا أن يؤتى تفضلاً من الله من أحيى نفساً كما لو أحيى الناس جميعاً، بعضه ثواب وبعضه تفضل؛ لأن الثواب بقدر العمل، والتفضل لا مانع منه وإن كثر، وإحياء النفس: إنقاذها من الموت عند حصول سبب الموت لولا الإنقاذ، كإنقاذ الغريق، والجنين، ومن أراد الظالم قتله.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ولقد جاءت بني إسرائيل رسل الله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة دلالة بينة على أنهم رسل الله و ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الناهية عن القتل بغير حق، والدالة على الحق ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك الذي هو حجة قاطعة للعذر ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ من بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل بغير حق في الأرض إسرافاً منتشراً في الأرض كثيراً عظيماً، بحيث يقتلون النبيئين، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وذلك فساد يعم شره في الأرض.

قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر» انتهى.

يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

وحيث قد جاء ذكر الفساد في الأرض من بني إسرائيل والفساد في الأرض الذي يفهم من الآية أنه يجوز قتل فاعله، أتبع ذلك بحد المفسدين في الأرض على اختلاف طبقاتهم، فقال تعالى:

﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الحرب: ضد السلم وهو القتال، ومحاربة الله: محاربة الدعاة إلى الله وإلى دين الله، كأئمة الهدى، والذين يأمرون بالقسط من الناس، ومحاربة الرسول: محاربة لله من هذه الجهة، ومحاربة للرسول من حيث هي محاولة لإبطال تبليغ الرسالة واتباعها.

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ بتقوية الباطل ومدافعة الحق بأي طريقة. قال الشرفي في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله ـ رحمة الله عليه ـ : الآية صريحة في حدود المحاربين والساعين في الأرض بالفساد، كجند الظالمين، وقطاع السبيل و(أو) بمعنى (الواو) كقول الشاعر:

سيان كسر رغيفه ... أو كسر عظم من عظامه»

انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ﴾ يفيد: مسارعتهم في عمل الفساد، لأن السعي مسارعة في السير، والمعنى: يسعون ليفسدوا، كقوله تعالى: ﴿سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة:٢٠٥].

وعلى هذا: فالآية لا تخص قطاع الطريق، بل قد لا تعمهم إذا كان قطعهم للطريق فساداً دنيوياً لا يضر الدين، وإن جاز قتلهم دفاعاً.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ الصلب: تعليق المقتول أو شدّه إلى خشبة أو نحوها، أو هو الشد إلى الخشبة والتعليق لحي أو ميت، قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) كالمفسر لهذا الآية: «يجب بحكم الله ورسوله على من حمل السلاح وأخاف به المسلمين: أن ينفى من الأرض.

فإن أخذ: أدِّبْ وعزِّرَ إن لم يكن أحدث حدثاً يلزمه فيه بعض أحكام الله، فإن لم يؤخذ: اتبع بالخيل والرجال حتى يبعد ويذهب.

وعلى من أخاف الطريق وأخذ المال: قطع اليد والرجل من خلاف تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم يخلى ليذهب حيث شاء، وعلى من أخاف الطريق وأخذ المال وقتل، القتل والصلب من بعد القتل، ولا يجوز أن يصلب حياً» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «والمراد: أن يقتلوا إن أفردوا القتل، أو يصلبوا مع القتل حيث جمعوا بين القتل وأخذ المال فيقتل ويصلب ثلاثة أيام، فلا صلب فوق ثلاثة أيام عند آل الرسول عليهم السلام» انتهى المراد.

وظاهر كلام الراغب: أن الصلب للحي، حيث قال: «والصلب الذي هو تعليق الإنسان للقتل» انتهى.

ولكنه قد أفاد: أن الصلب لا يكون إلا مع القتل، وهو الذي يشعر به قول الذين آمنوا ـ وكانوا سحرة ـ لما قال لهم فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه:٧١] فأجابوا، وفي جوابهم: ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه:٧٢].

وإذا كان الصلب يستلزم القتل قبله أو بعده فيمكن إبقاء (أو) على أصلها أي أحد هذه العقوبات، فيكون المعنى: أن يقتلوا بغير صلب، أو يصلبوا أي مع القتل للتلازم، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا، والمعنى على حسب مقتضى المحاربة، وما قد أوجب عليه الحد.

وتقطيع الأيدي، قالوا: أن تقطع اليمنى إذا كان المحارب قد أخذ المال، والأرجل أن تقطع الرجل اليسرى، وهو معنى: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ ولعله لو تعين قطع اليد اليسرى لضرورة أو غلط لوجب قطع الرجل اليمين ليكون من خلاف جهة اليد المقطوعة كما هو ظاهر الإطلاق وله حكمه، بدليل ما روى في سارق قطعت يسراه غلطاً فأجزأ ذلك.

وأما النفي من الأرض: فهو إخافته بحيث يهرب ويبعد عن بلاد يمكن إفساده فيها على المسلمين، فإن كفى إخراجه من بلاده لأنه يضعف مع الغربة ويعجز عن الفساد، فلعله يكفي، وإلا طرد حتى يصير حيث لا يتمكن من الفساد؛ لظاهر الآية، لأنه قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ثم قال: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالأرض الثانية هي الأولى، لأن المقصود دفع فساده في الأرض الذي هو مظنة أن يعم ضرره بسبب إضعاف المؤمنين بحرب اقتصادهم أو غير ذلك، كمنع المدارس الدينية.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحد والعقاب ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ وإهانة واستخفاف عاجل ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ زاجر له ولغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع العذاب في الدنيا، وفيها دلالة على عدم صحة الحديث في «إن من أصابه حد في الدنيا فهو كفارته ولا يعذب في الآخرة» أخرجه الحاكم في (المستدرك) وهو مخالف للقرآن، فهو غير صحيح.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ

﴿٣٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن تاب في حال يجوز فيه تمكنه من الاستمرار على فساده؛ لأنه لم يقبض ولا صار في محل حصار غالب فهي توبة صادقة ليس ملجأ إليها ولذلك فهي مقبولة؛ لأن ﴿ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للتائبين ويرحمهم، ويجب علينا أن نعلم ذلك ونعمل بموجبه فلا نؤاخذ التائب بأن نجري عليه الحد المذكور بل يسقط عنه، أما القصاص فلا يسقط لأنه حق لولي المقتول وهو غير هذا الحد الذي أسقطته التوبة، وكذلك وجوب إرجاع المظالم لأهلها؛ لأن الأصل وجوب ذلك، إلا أن تصح الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه أسقط ذلك كله.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: هذه الآية تدل على سقوط حد من تاب قبل أن يظفر به ولا يسقط القصاص، لأن هذه الآية في سياق آية الحدّ فقط» انتهى

﴿٣٥﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ لما مر ذكر المحاربة لله ورسوله والفساد في الأرض، وذكر نوع مدافعة لذلك، أتبعه بالدفاع الأكبر الذي هو الجهاد في سبيله، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١] وفي آية: ﴿..لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ..﴾ إلى آخرها [الحج:٤٠].

ولما كان الجهاد شاقاً على النفوس قدم على الأمر به الأمر بتقوى الله، وابتغاء ما يتوسل به إليه؛ لأن من امتثل ذلك امتثل الأمر بالجهاد، واتقاء الله اتقاء عذابه بطاعته، وابتغاء ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ إليه: طلبها بالفعل المقرب لنيلها، أو بالنية التي تصير العمل وسيلة، فالأول: كالشهادة، والثاني: كالتوبة وكل عمل مقرب.

قال الراغب: «الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة؛ لتضمنها معنى الرغبة» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسيل، والوسائل، يقال: وسَّل فلان إلى ربه وَسيلة، وتوسل إليه بوسيلة: أي تقرب إليه بعمل» انتهى باختصار.

قال في (الميزان): «وإذا كانت ـ أي الوسيلة ـ نوعاً من التوصل وليس إلا توصلاً واتصالاً معنوياً بما يوصل بين العبد وربه ولا رابط يربط العبد بربه إلا ذلة العبودية، فالوسيلة هي التحقق بحقيقة العبودية، وتوجيه وجه المسكنة والفقر إلى جنابه تعالى، فهذه هي الوسيلة الرابطة، وأما العلم والعمل فإنما هما من لوازمها وأدواتها..» الخ.

قلت: ذِلّة العبودية تكون بالعمل المعبر عنها كتسليم النفس لله في الجهاد والانقياد لأمر الله فيما يشق على النفس وإخلاص الخضوع لله في الصلاة والدعاء، وجهد المقلّ في الصدقة والإيثار على النفس تقرباً إلى الله وكل عمل ورد فيه أنه مقرب إلى الله كالسجود على التراب وذلك كله إنما يعرف بالأدلة من الكتاب والسنة وليس للعبد أن يجعل وسيلة غير ذلك لأنه إما شرك وإما بدعة، وذلك مبعّد من الله لا مقرب وقد نقلت كلام (صاحب الميزان) لتحقيق هذا.

أما قول بعض الإمامية في تفسير هذه الجملة: «يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتقاء في مدارج الكمال الإنساني عبر التقوى واتباع السبل والوسائل إلى الله تعالى وهو الكمال المطلق، قال: ويعم هذا كل سبيل مقرّب إليه، ومن الوسائل: التأسي بالرسول العظيم وأهل بيته الطاهرين، والتوسل والإستشفاع بهم باعتبارهم عباداً مقرّبين إليه جل وعلا» انتهى.

فقوله: «والتوسل والاستشفاع بهم» هو غير التوسل بالعمل، ومعناه: اتخاذهم وسيلة إلى الله وهذا غير مسلم، لأن اعتبارهم عباد مقربين لا يستلزم صحة التوسل بهم؛ لأن كونهم مقربين باسم المفعول لا يستلزم أن يكونوا مقرِّبين باسم الفاعل، فلا يصح منا دعاؤهم لهذا الغرض، وسؤالهم أن يقربونا إلى الله.

نعم التوسل إلى الله بحبهم واتباعهم فيما هو صحيح عنهم لا إشكال فيه، إنما الإشكال في اتخاذ وسيلة لم يثبت أنها وسيلة بنفسها؛ لأن الآية الكريمة لا تدل على ذلك كما أفاده كلام (صاحب الميزان) وهو المحقّق في تفسيرها، وكم كنت أحب أن تطهر بلادهم من دعاء الأئمة والسجود لبعضهم تعلقاً بهذه الآية الكريمة من بعضهم وهو عندي غلط جرهم إلى ما يعاب عليهم ويجرئ خصومهم على جعلهم مشركين بسبب ذلك.

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ والجهاد في سبيل الله: هو القتال لنصر دين الله، وإعلاء كلمة الله، كما جاء في الرواية عن النبي ﷺ: «من جاهد لتكون كلمة الله هي العلياء فهو جهاد في سبيل الله» رواه أبو طالب عليه السلام في (أماليه) ومحله (الباب الثالث والخمسون) والمعتمد اللغة في تفسير الآية، ومعنى الجهاد ومعنى في سبيله.

لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال الراغب: «والفلاح: الظفر، وإدراك بغيته» انتهى، والظفر هنا: هو السلامة من النار ودخول الجنة، وتضمينه معنى النجاة في هذا الموضع أقرب، وقد جاء في الشعر:

لو أن حياً مدرك الفلاح   أدركه ملاعب الرماح

يريد النجاة من الموت، ويناسب هذا المعنى التعليل بقوله تعالى:

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالآية التي قبل هذه الآية حث على طلب النجاة من عذاب يوم القيامة.

قال الشرفي في (المصابيح): «والمقصود من الكلام، يعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟..﴾ إلى آخر الآية: التمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه» انتهى.

قلت: وقد أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فدل على أنه لا يدفعه شيء لا الفدية ولا غيرها.

﴿٣٧﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ يحاولون ذلك لرغبتهم في الخروج، والدليل على أنه كناية عن المحاولة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:٢٢] فقوله تعالى: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ يدل على أنهم يتزحزحون عن أماكنهم لمحاولة الخروج؛ لأنهم لو لم يحاولوا لما كان للإعادة معنى.

فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

وقد استبعد بعضهم: إرادة أن يخرجوا وقد أيقنوا أنهم لا يخرجون؟

والجواب: أن من الجائز غفلتهم عن هذا اليقين، وأن تحدث الإرادة في سكرات الألم، قال تعالى: ﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج:٢].

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فالمحاولة للخروج زيادة في العذاب لما يتكلفون فيها من سحب السلاسل والتحرك على الجمر ثم العذاب النفسي والجسدي بإعادتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿مُّقِيمٌ﴾ باق لا ينقطع بموت ولا غيره، وهذه الآية والتي قبلها تابعتان للحث على الجهاد الذي هو دفع الفساد في الأرض.

ولما كان السارق يشبه قاطع الطريق في الظلم بأخذ المال وفي الظلم بتسببه للحاجة إلى الحراسة التي تشغل عن كثير من الأعمال وقد تشغل عن طلب العلم وعن الصلاة في جماعة وغير ذلك جاء زجره بالحد فقال تعالى:

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا الأمر بقطع يد السارق موجهاً إلى الذين آمنوا، ومثله الأمر بجلد الزاني، دليل على أنه يجب على المسلمين إيجاد أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الحدود.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ [الطلاق:١] يدل على أن إلى هذه الأمة إلزام الأزواج جعل الطلاق على السنة، وغير ذلك من الخطابات العامة مثل: ﴿**وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ**﴾ فالأحكام التي يقيمها قائد الأمة بسبب تأييد الأمة له وانقيادهم له منسوبة إلى جملتهم، وهم مأمورون بها جملة أن تقيمها دولتهم لأن عليهم إعانة الدولة الإسلامية ونصرها.

رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا

فهذه الآيات من دلائل الإمامة لأن الفرد لا يتهيأ له إقامتها وحده ولو حاول أحد بدون سلطة إقامتها لكان ذلك سبباً للفوضى والقتال بين المسلمين فتعين وجوب تحضير سلطة قادرة على ذلك، فهي من أدلة الإمامة عندنا وأدلة ولاية الفقيه عند من أثبتها من الإمامية، والمعنى متقارب.

وجمع (الأيدي) لعموم السارق والسارقة؛ لأن المقطوع من السارق يد واحدة فقط كما هو معلوم من السنة والمقطوع الكف؛ لأنه يحصل به الامتثال، فلا موجب لأكثر منه، وليس المحل محل تخيير لما في الزيادة من الضرر الشديد فيبعد التخيير مع الفرق الكبير، مع أن السنة قد عينت القطع من مفصل الكف وتعيين اليمنى للقطع حكم آخر لا تفسير للآية، ولذلك أجزأ قطع اليسرى عند الغلط.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ دليل على أن القطع عقوبة فليس للسارق فيه عوض فهو ظلم نفسه ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ زجراً من الله للسارق ولغيره ودفعاً لهم عن السرقة فهي فائدة عظيمة للمجتمع.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنه حق وصواب فليس لأحد أن يعترض حكمه ولأنه تصرف الذي خلق اليد المالك للعبد ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلعزته وحكمته يعذب المجرمين فليسوا محل رحمة؛ لأن الرحمة لا تعارض العزة والحكمة لأنها ليست رحمة رقة وضعفاً وإنما هي رحمة كمال.

﴿٣٩﴾ ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يتوهم من تعجيل عقابه بالقطع أنه لا تقبل له توبة تنجيه من عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي من بعد أن سرق فاستحق العذاب بظلمه؛ لأن السارق ظلم المسروق عليه وجار وظلم نفسه أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ يفيد إلزامه أن يرجع السرقة إذا كانت باقية، بل وظاهره: وجوب إصلاح ما أفسد على المسروق عليه بكسر بابه أو خرق جداره أو نحو ذلك، فأما السرقة إذا كانت قد تلفت فقد قيل تسقط بالحد لأنه لا يجتمع حد وغرم.

فأما قبل الحد إذا تاب فقال الشرفي في (المصابيح): «وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد ـ رحمة الله عليه ـ : دلت الآية على أن التائب إلى الله ممن سرق المصلح بردّ ما أخذ والمستحلّ من المأخوذ عليه يسقط عنه الحدّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وهذا قول بعض التابعين ومرويّ عن الشافعي، وذهب الثوري وأبو حنيفة وبن حنبل وإسحاق: أن السارق إذا غرم سقط الحدّ وقد قال ﷺ: «ادرءوا الحدود بالشبهات» وقال ﷺ لسارق: «ما أخالك سرقت» يلقنه بما يدرأ به الحد، والعمل بهذه الآية أولى..الخ.

قلت: أما الحديث: «ما أخالك..» فلا بد أنه ﷺ لا يخاله سرق، أي لا يظنه، فهو صادق في ذلك، وعليه يحمل تلقينه لئلا يكون أقر لهيبة الرسول ﷺ وهو بريء، فالاحتجاج بالآية أولى، كما قال عليه السلام، ولعله يعنى التائب قبل رفعه إلى الإمام، وفي حال تجويز أن لا يرفع الاحتمال ذلك فأما من قد رفع فلا مجال من قطعة إذا لم يكن تاب كما ذكرت لأنه عند أخذه إلى الإمام ويأسه من السلامة من القطع ملجأ إلى إظهار التوبة فلا يعلم أنه تائب حقاً، وعند وصوله إلى الإمام وجب قطعه؛ لأن الله قد أوجب القطع ولم يرخص في تأخيره انتظاراً للتوبة المحققة.

تَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)

---

(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية ترد على الكفار الذين يعيبون القطع في الإسلام، وتدل على أنه حق من الله الذي ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يحكم ما يريد و ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لاستحقاقه العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ يؤكد كلام الإمام القاسم بن محمد عليه السلام، لأنه قابل التعذيب بالغفران، فكأنه قال: ويترك تعذيب من يشاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو غالب على أمره، فمن شاء قطعه على كل حال فلا بد أن يقطع، وهذا تحذير للسارق من أن يسلط الله عليه وهو يمنى نفسه السلامة من القطع فيسرق وهو لا يدري، لعل الله يسلط عليه فينكشف سرقه ويؤخذ وتقطع يده بأمر الله ومشيئته.

(٤١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ لا تحزن من أجلهم، إما على معنى: لا تحزن عليهم لكونهم هالكين فهم متمردون مستحقون لفتنتهم؛ لأنهم سماعون للباطل مائلون عن الحق فهم ظلموا أنفسهم، وإما على معنى لا يحزنك كيدهم للإسلام أو الخوف من كيدهم فالله لا بد أن يظهر دينه.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعم الذين في قلوبهم مرض المنافقين وغيرهم ممن لم يؤمن ولَمَّا ينافق، ومسارعتهم في الكفر سماعهم لكذب الكفار في تكذيبهم للرسول ﷺ أي قبولهم له وتصديقهم لهم، وقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو قول انفردت به أفواههم ولم يصدر عن قلوبهم، فالإيمان الصحيح هو الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، أما مجرد القول فليس إيماناً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: من الذي آمنوا بأفواههم.

والدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات:١٤] فهذا فائدة قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وذلك لأن قولهم آمنا إنشاء يوهمون به إيمانهم وليس خبراً عن إيمان قلوبهم؛ ولهذا لم يقل: (من الذين قالوا آمنا ولم تؤمن قلوبهم) لأنهم لم يدعوه كما فعلت الأعراب وإنما أنشأوا بأفواههم إنشاءً، فقال: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ ليبين أن قولهم آمنا مجرد قول باللسان لا يطابقه الجنان لا لإبطال قولهم آمنا وتكذيبه لأنه ليس خبراً ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عطف على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ فالفريقان مسارعون في الكفر وهم حول الرسول ﷺ حيث ينزل القرآن وآيات النبوة، فلا تحزن لأجل مسارعتهم في الكفر.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ هؤلاء المسارعون في الكفر هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ مكثرون من سماع الكذب وهو يعم ما يعلمون أنه كذب وما يغترون به مما يفترونه فيقبلونه اتباعاً للهوى، كقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] سماعون لقوم من اليهود ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهؤلاء اليهود مفسدون مضلون.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ إفساداً وإضلالاً لمن يسمع منهم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ فكما أنهم مضلون بكذبهم وتحريفهم الكلم من التوراة من بعد أن جعله الله في مواضعه التي اختارها لَه لئلا تدل على معناها المقصود، أو ليمكنهم أن يزعموا لها معنى غير معناها، فكما أنهم ضالون مضلون بهاتين الطريقتين فهم مضلون بأمرهم أن لا يقبلوا إلا الباطل وتحذيرهم من قبول الحق؛ لزعمهم أنه الباطل.

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «ومن الدليل على أن الرجم حكم من الله قديم على المحصنين، ما أخبر الله به نبيئه عن اليهود وتبديلها لَه وطرحها إياه من التوراة وتحريفها لحكم الله، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ يريد: يحرفون ما في التوراة من حكم الرجم، وهذه الآية نزلت فيما كان من أمر بشرة اليهودية ...الخ، ذكر قصتها حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برجمها هي والزاني بها، وقصة اليهود في إنكارهم حكم التوراة وافتضاحهم وذلك في الأحكام في باب القول في حد الزاني في الكتاب فليرجع إليه.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ كهؤلاء المضلين ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الفتنة: بمعنى العذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ..﴾ [الذاريات:١٣-١٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١] أي تعذيب من أسلم، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣] لا يعذب مسلم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ..﴾ الآية [البروج:١٠] وقال تعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠] أي تعذيبهم لمن أسلم.

فقوله تعالى: ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لن تملك له من الله أن يعفو عنه أو أن يخفف من العذاب أو أن يُنظِره بعد مجيء وقت العذاب أو نحو ذلك؛ لأن الحكم لله لا معقب لحكمه، وليس لأحد لا رسول الله ﷺ ولا غيره أن يتدخل بين الله وعباده ليحول الله سبحانه عن إرادته إلى إرادة ما يَطلب منه المتدخل؛ لأنهم كلهم عباده، والملك يومئذ لله وحده: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٩].

وهذا هو معنى ما فسرها به الإمام الهادي عليه السلام، كما حكى في (المصابيح) عنه عليه السلام، وقال الناصر عليه السلام في (البساط) في مسألة في الفتنة وجوابها: «فيقول سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وفي هذا الموضع يريد: من يرد الله عذابه فلن تستطيع أن تدفع عنه ما يريده الله من عذابه، والله سبحانه فلا يريد أن يعذب إلا من هو مصر على معاصيه وقد علم أنه لا يرجع عن كفره ولا يتوب..» إلخ.

فقد اتفق الهادي والناصر عليهما السلام على تفسير الفتنة هنا بالعذاب، وهو مناسب لتفسير: ﴿لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بأن المعنى: لا تحزن عليهم لهلاكهم، فيكون المعنى: ولو حزنت عليهم والله يريد تعذيبهم، فلن تملك لهم من الله شيئاً.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لأنهم متمردون مصرون على رجسهم، لا يستحقون من الله أن يطهر قلوبهم، أو لم يستحقوا؛ أو لأنهم لا يقبلون لطفاً ولا يمكن تطهيرها إلا بالقسر والإلجاء الذي لا يفيدهم الخروج إلى الطاعة ولا يدفع استحقاقهم النار بما قدموا؛ ولذلك فهم يموتون على ما في قلوبهم من الإصرار على باطلهم مستحقين للفتنة على النار.

قال الناصر عليه السلام في (البساط): «وليس من حكمه أن يعذب من يعلم أنه يتوب ويرجع يوماً مَّا؛ لأنه قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] يقول: لا أعذب من أعلم أنه يتوب ويستغفر، وقال جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] يقول: لو علمت أنهم يقبلون لأسمعتهم ما طلبوا وأريتهم من الآيات ما سألوا، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] فهذا وأشباهه في القرآن كثير يُعلِمُ الله ـ جلَّ ذكره ـ أنه عالم باختيارهم معاصيه وعاقبة أمرهم، وأنهم لا يتوبون مختارين غير مضطرين، وأنه لا يعذب من يعلم أنه يتوب ويرجع عن كفره وضلاله.

وأما قوله سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ..﴾ الآية، فمعنى ذلك: أنه لا يريد أن يحكم لقلوبهم بالطهارة والإيمان وهي كافرة، ولا يشهد لها بالطهارة وهي نجسة ولا يزكيها، وإنما صاروا بهذه المنزلة لكفرهم وشركهم الذي اختاروه وأصروا عليه» انتهى المراد.

وقوله: ولا يزكيها؛ لعله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٩] أو إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧] ومثل تفسير الناصر عليه السلام حكى في (المصابيح) عن الهادي عليه السلام.

فأما تفسير المجبرة أو بعضهم (الفتنة) بمعنى الضلال، فهو غير معروف في اللسان وإن ادعوه في كتبهم في اللغة فلا يُقبَل منهم؛ لأنهم جارون لأنفسهم مع أنه غير مناسب لهذه الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لو جعلناه على تفسيرهم لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من

الفتنة بإزالتها منها، لصار المعنى: ومن يرد الله فتنته أي ضلاله، فلن تملك لَه من الله شيئاً ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ من الفتنة، والترتيب على هذا لا يصح؛ لأنه إذا أراد فتنتهم فقد أغنى عن ذكر أنه لم يرد طهارتهم من الفتنة؛ لأن إرادة الفتنة أبلغ من عدم إرادة الطهارة منها كما لا يخفى على منصف؛ وهذا لأن قوله: ﴿لَمۡ يُرِدِ﴾ لنفي وقوع الإرادة في الماضي فليتأمل!!

ولذلك لا يصح أن نقول على تفسير (الهادي) و(الناصر) للآية: إن المعنى لم يرد أن يطهر قلوبهم يوم القيامة، وإنما يصح أن يكون المعنى: لم يرد أن يطهر قلوبهم في الماضي، وإن زكوا أنفسهم وزعموا أنهم مطهرون.

والراجح عندي في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنه كناية عن أن في قلوبهم رجساً هو سبب تعذيبهم، وفائدة الكناية: تسلية رسول الله ﷺ بأنه تعالى أراد أن يتركهم على رجسهم، فلا يحزن لشدة رغبته في إيمانهم حباً منه ﷺ لله وكراهة أن يعصى، ثم رتب على ذلك قوله تعالى:

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ كما دل تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ على إرادته تعذيبهم فما أراده وقع.

فإن قيل: إذا كان ﴿مَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ من يرد تعذيبه فقد أفاد أنه يعذب فما فائدة قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؟!

فالجواب: أن لَه فائدةً، وهي: أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ اسم شرط وفعل الشرط، وذلك ليس صريحاً في أنه يريد للمسارعين في الكفر تعذيبهم، فصرح بأنه يعذبهم، وفائدة أخرى وهي: الإخبار بوقوع ما يريده فهو أبلغ لما فيه من التصريح بتعذيبهم.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ

وفائدة أخرى وهي: بيان أنهم يعجل لهم في الدنيا خزي ويؤجل لهم في الآخرة عذاب عظيم، وفي هذا تفصيل ليس في الإخبار بإرادة تعذيبهم.

قال في (الصحاح): «وخَزِيَ ـ بالكسر ـ يَخْزَى أي ذلّ وهان» انتهى.

قلت: الأولى أنَّ ذلَّ وخَزِيَ متقاربان لا مترادفان؛ لقوله تعالى حاكياً: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه:١٣٤] قال الشرفي في (المصابيح): «من قبل أن نذل بالعذاب ونخزى بالفضيحة على رؤوس الأشهاد» انتهى، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾: «أي فضيحة وهوان» انتهى، وقال (صاحب القاموس) في تفسير: (خَزِيَ): «وقع في بليَّة وشهرة، فذل بذلك، قال: وأخزاه الله: فضحه» انتهى.

وقال في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾: «ذلٌّ وفضيحة» انتهى، وقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [فصلت:١٦] وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والإستكانة..» الخ.

فظهر: أن الخزي انفعال يسببه العذاب من حيث هو عار على الفاجر؛ لأنه الذي سبب له وجرّه على نفسه بسوء اختياره.

﴿٤٢﴾ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ لهواهم في قبوله، أو لاعتقادهم وجوب قبوله حيث صدر من الأحبار أو الرهبان، فالمذموم ثلاثة أقسام:

الأول: ما علم أو ظن أنه كذب.

الثاني: ما قُبِلَ اتباعاً للهوى مع الشك في صدقه أو مع كونه في مسألة قطعية، وهو لا يفيد القطع مع معارضته للقاطع الذي يجب اتباعه.

الثالث: ما كان سبب قبولهِ اعتقاد وجوب قبوله لصدوره عن الأحبار والرهبان بناء على أن قبول خبرهم واجب على كل حال بناء على وجوب اتباعهم على كل حال.

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ الحرام، كالرشوة والهدية التي هي مكافأة على واجب.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ لـتحكم بينهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ لأن حكمك الحق ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لأنهم لا يقبلون حكمك إلا إن وافق هواهم ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ وإن زعموا أنك لم تدرِ ما تحكم، أو أنك كتمت الحق، أو غضبوا عليك من الإعراض عنهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ قال في (الصحاح): «والقسط ـ بالكسر ـ العدل، ثم قال: والقسط ـ أيضاً ـ مكيال، وهو نصف صاع، والفرْق ستة أقساط».

قلت: هذا الصواب أن القسط العدل؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩] ولعله يؤخذ في معناه تحقق العدل الذي ليس معه أيُّ ميل فيكون أبلغ من الأمر بالعدل، وذلك لمناسبته القسط الذي هو كيل محدود، والقسطاس لميزان محكم ـ والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وهذا ترغيب عظيم في العدل لكل من يخاف الله ولكل من يعلم حاجته إلى الله.

ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا

﴿٤٣﴾ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ هـذا دليل واضح على أن الكلام من قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ كان في اليهود، أي كيف يصدر عنهم ذلك وهم لم يسلموا، بل هم ضالون مضلون، فهؤلاء لا يصدر عنهم إلا لغرض فاسد وفي سبيل اتباع الهوى، ورجاء أن تحكم بما يَهْوون لا لطلب الحق؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله، فلو كان غرضهم التوصل إلى الحق لاكتفوا عن تحكيمهم لك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلو كانوا يتبعون حكمك ولا يتولون عنه من بعد أن حكمت بينهم لما كان ذلك معيباً بل هو الحق، ولكنهم يتولون من بعد ذلك ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المعروفون باتباع الهوى والميل معه حيث مال والمعروفون بالكفر والصد عن سبيل الله والتكذيب بآيات الله ما هم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك عظَّمَ باطلهم بتكامل معايبهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد يدل على بعدهم من الإيمان وأن بينهم وبينه مسافات ومراحل.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ﴾ الهدى: تعليم سبيل الله وهي دينه، والنور: المواعظ التي تزهد في الدنيا وكل ما يستنير به القلب وتقوى به البصيرة ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾

الذين أسلموا أنفسهم لله فحكمهم بالتوراة لله ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ﴾ العلماء الدعاة إلى الله المكثرون من ذكر الله ومراقبته ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ العلماء فهم يحكمون بها.

﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ بسبب أن الله تعالى استحفظهم كتابه أو بعض كتابه أي أمرهم أن يحفظوه من الضياع ومن التحريف ومن الزيادة والنقصان، أو بما استحفظوا جعلهم الله حافظين له لا ينسونه، والأولى عموم المعنيين فهما من حفظه فقد كلفهم الله أن يحكموا وصاروا يحكمون بالتوراة بسبب أن الله جعلهم حافظين لها.

ويحتمل أن قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ بدل من قوله: ﴿بِهَا﴾ أي يحكمون بما استحفظوا منها؛ لأنها كتاب الله ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون أنه من التوراة لعلمهم وتيقنهم أنه منها؛ ولعل في هذا مأخذاً أن الرواية شهادة، وأنه لابد من اثنين يرويان الحديث أو أكثر كما في الشهادة.

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ أيها الحكام بـ(التوراة) ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ فلا يجوز الحكم بغير الحق لخشية سلطان أو حزب وليس يعذر حاكم بخشية الناس؛ لأن عليه أن يخشى الله ويتقيَ عذابه فيحكم بما في (التوراة) ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ لا تستبدلوا بالحكم بآياتي ثمناً قليلاً هو الرشوة فهي قليل في جنب ما هي عوضه، وقليل في جنب العذاب الذي تؤدي إليه وكل ما في الدنيا قليل؛ لأنه زائل فهذا تحذير من العدول عن الحكم بما أنزل الله رغبة في الرشوة أو نحوها، والأول تحذير من تركه للرهبة.

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ لأن الحكم بغير ما أنزل الله جحد لما أنزل الله فهو كفر.

عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لهذه الأمة أي عليكم أن تحكموا بكتاب الله الذي هو القرآن كما حكم النبيئون والربانيون والأحبار بالتوراة، وهذا هو ظاهر كلام الناصر عليه السلام في (البساط) وقال: يعني بالناس أهل مكة، وجعل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ في هذه الأمة، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

والراجح عندي: أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟...﴾ إلى آخر الآية حكاية لما كلف به النبيئون الذي أسلموا والربانيون والأحبار؛ لأن الكلام في القرآن يأتي في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ..﴾ الآية التي تأتي قريباً، والتي بعدها.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على بني إسرائيل ﴿فِيهَآ﴾ أي في (التوراة) ومعنى ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أوجبنا عليهم هذه الأحكام التي هي جعل النفس بدل النفس المقتولة، والعين بدل العين، وهكذا بقيتها، والجروح قصاص: يجرح الجاني بمثل ما جرح المجني عليه، و(الباء) للمبادلة مثل الحديث النبوي: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة..» إلى آخر الحديث.

ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥ﴾ فمن تصدق بما استحقه أي عفى عن الجاني ﴿فَهُوَ﴾ أي المتصدق به أو التصدق كفارة له يكفّر به عنه من سيئاته، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

قال الشرفي في (المصابيح): «وفيه دليل على أن العفو كان جائزاً في شريعة بني إسرائيل» انتهى.

قلت: هو ظاهر السياق، ولعله مشروط بأن يكون العفو مجاناً ليكون كفارة، أما سيد قطب فزعم أن ليس في (التوراة) وإنما هو في شريعتنا، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فهم من أهل النار؛ لأنها جزاء الظالمين، فقد أفادت أن من لم يحكم بما أنزل الله اجتمع له الوصف بالكفر، والوصف بالظلم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ ﴿قَفَّيۡنَا﴾ أتبعنا لأن التابع يكون قفا المتبوع ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا أو الربانيين والأحبار، فهو على طريقتهم في الحكم بما في (التوراة) إلا ما نسخه الله في شريعة عيسى حال كونه ﴿مُصَدِّقٗا﴾ أي بما معه من الآيات الدالة على صدقه ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ لما تقدمه ﴿مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ فالنبيون يصدقون كتب الله ولا يتفرقون، ولعل بعض النصارى كانوا قد كفروا بالتوراة في قولهم: ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة:١١٣] فهذا ردٌّ عليهم.

فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وآتينا عيسى بن مريم ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ كتاب الله الذي أنزله على عيسى اسمه الإنجيل ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما قال في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فالإنجيل مصدق لها كما عيسى عليه السلام مصدق لها ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هدى للمتقين وموعظة لهم، ولا تكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وصف للإنجيل يبين كماله في نفسه مع قطع النظر عمن ينتفع به أو لا ينتفع.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان لمن ينتفع بالهدى والنور أنهم المتقون، ونظيره وصف القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من حكم عام أو مخصص لبعض ما في التوراة أو ناسخ لبعضها أو دلالة على النبي الأمي الذي من بعد عيسى وهكذا في التوراة، فالحكم عام لكل ما أنزل الله وما تجدد إنزاله ناسخاً لما قبله وجب العمل بما تجدد، ولا يجوز إهماله تعظيماً لما سبق؛ لأن الأول إنما ثبت حكمه لأن الله أنزله، فوجب اتباع الناسخ لأن الله أنزله.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفجار، وهذا عام لكل من لم يحكم بما أنزل الله أضاف لهم اسماً ثالثاً فهم كافرون، وهم ظالمون، وهم فاسقون، وفي هذا الاسم الأخير زجر لمن زينت لَه طريقة مخالفة لما أنزل الله من اليهود، أو من غيرهم كغلاة النصارى،

عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم

وغلاة الشيعة، وغلاة الصوفية، وكاليهود، والنصارى التاركين للقرآن بعد نزوله، فهؤلاء وإن زينت لهم أنفسهم دينَهم، وظنوا أنهم صالحون أبرار، ليسوا إلا خبثة فجاراً خارجين عن دين الله، وإن ظنوا أنهم صالحون مصلحون، ويدخل في هذا من يترك بعض أحكام الله ويبدله بالقانون لمصلحة اجتماعية يظنها.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا الذي هو القرآن الحكيم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدم قبله من كتب الله جملة أو تفصيلاً ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ على الكتاب الماضي أي الكتب عبَّر عنها بالكتاب؛ لأن أصله مصدر: كَتَب كِتَابةً وكِتَاباً ولذلك يستعمل كما هو من غير فرق بين مفرد ومثنى ومجموع.

ومعنى إنزاله بالحق أنه أنزله رب العالمين الذي له الحكم في عباده، والذي اقتضت حكمته إنزالَه على العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ثم عطف عليه: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] فالإنزال بالحق؛ لأنه من الله العزيز الحكيم، والنازل فيه الحق من الشرائع والوعد والوعيد وقصص الأولين والآيات وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ أي القرآن مهيمن على ما بين يديه من الكتاب أي شاهد عليه مصدَّق أمين فيما نسبه إلى الكتب التي قبله؛ لأن القرآن كلام الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢].

قال الناصر عليه السلام في (البساط): «﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾: أي شهيداً عليه» انتهى، قال في (الصحاح): «المهيمن الشاهد» انتهى.

وفي (تفسير الطبري) بإسناده عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ قال: يقول شهيداً، وفيه سند عن السدي: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ قال: شهيداً عليه، وبسند عن قتادة: أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله.

وروى الطبري بأسانيد عن أبي اسحاق، عن رجل من تميم، عن ابن عباس: «﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ قال: مؤتمناً عليه» انتهى، وهو مثل الأول، وروى الطبري أيضاً ـ بسند آخر ـ عن ابن عباس قوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ قال: والمهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، انتهى، وأورد الطبري روايات عن بعض المفسرين مثل هذا.

وفي (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: «وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ فالمهيمن: المصدق لما قبله والأمين عليه» انتهى، ويحتمل أنه عليه السلام أراد تفسير قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ أو أنه عليه السلام يعنى أن المهيمن الأمين عليه مع كونه مصدقاً له.

وقال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿مُهَيۡمِنًا﴾ أي رقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة ويبين بعض ما حرِّفَ فيها، وقيل: الأمين ـ إلى قول الشرفي ـ: فلهذا قال المفسرون: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ أي أميناً على الكتب الذي [كذا] قبله» انتهى المراد.

فجعله بمعنى رقيباً، وجعل الرقابة عليه: بمعنى الشهادة بصدقه، والشهادة عليه فيما بيّن أنه محرف منه، فصار المعنى مثل الأول أو قريباً منه.

وقال الشرفي رحمه الله في تفسير اسم الله تعالى: ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]: «الرقيب على كل شيء الحافظ له» انتهى.

فأما (صاحب الكشاف) فقال: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ ورقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات» انتهى، وقال في (الكشاف) في تفسير اسم الله تعالى ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]: «الرقيب على كل شيء الحافظ لَه، مفيعِل من الأمْنِ إلا أن همزته قلبت هاء» انتهى.

والراجح في معنى (الرقيب): أن أصله بمعنى الراصد فيكون الرصد للشيء لحفظه، ويكون الرصد عليه لمعرفة ما يكون منه، ويكون الرصد للشيء لانتظاره، فمن الأول قوله تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] ومن الثالث قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣] إلا أنه سمي الانتظار ترقباً، وفي (الصحاح): «الرقيب: الحافظ، والرقيب: المنتظر، تقول: رقبت الشيء أرقبه رقوباً إذا رصدته» انتهى باختصار.

وقال الشرفي رحمه الله في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]: «والرقيب: هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك» انتهى.

وعلى هذا: فالرقيب قريب من معنى (الشهيد) ولكن تفسير (المهيمن) في قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ بالشهيد الأمين أقرب من تفسيره بالرقيب،

وأحسن ما أراه في معنى (المهيمن) أنه: بمعنى الرعاية لعبادة، والتولّي لشئونهم، والحافظ لهم، من قولهم: ((هيمن الطائر إذا رفرف على فراخه)).

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ بالقرآن لأن الله أنزله إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ فاتباع خلاف ما أنزل الله إتباع للأهواء وأهل الكتاب يريدون اتباع أهوائهم وإن خالف ما أنزل الله.

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ فلا عذر ولا رخصة في العدول عما أنزل الله وإن أدى إلى التفرق؛ لأن الله قد شاء ذلك ولو شاء لجعلنا على شرعة واحدة حتى لا نتفرق، لكنه أراد أن يبلونا فيما جعل لنا من الشرعة والمنهاج أنتبعه أم نعدل عنه للأهواء والمصالح الدنيوية، حتى يتبين من يجعل أمر الله فوق الأغراض والمصالح الدنيوية الموهومة، ومن يعدل عن أمر الله إلى الأهواء.

و(الشرعة): الشريعة، والمنهاج: الطريق المستقيم الواضح، فجعل لليهود شرعة قبل نسخها، وللنصارى - أيضاً - كذلك قبل نسخها، وجعل لنا شريعته التي ارتضاها للعالمين فأرسل بها محمداً ﷺ وأنزل بها هذا الكتاب.

قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى الآية، كما قال الهادي عليه السلام: فالشرعة هي الفرائض المفروضات والأحكام المجعولات، المأمور الخلقُ بفعلهن، والمحكوم عليهم بأداء فرضهن، والمنهاج: فهو الطريق الواضح الدال على ما ذكرنا من الشرعة الناطقة لها السنة المتبعة، والجعل فلا يكون إلا فعلاً لله)) انتهى.

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ ما أعد الله لعباده الصالحين، واستباقه باتباع ما أنزل الله فينبغي لمن أراد نفع نفسه أن يتبع ما أنزل الله ولا

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ

يأنف من ترك المنسوخ إلى الناسخ ولا ينظر إلى من تخلف عن ذلك؛ لأنه في عمل يسبق به الخيرات وهو سابق لمن تخلف، ومن تخلف فإنما خسر الخيرات، وعلى هذا فلا خير ولا صلاح في العدول عما أنزل الله وإن سماه أعداء الدين خيراً، بل هو الخسران المبين، بل وإن توهم البشر الضعيف أنه أصلح للمجتمع وأوفق للوقت الحاضر فإنما هو الخسران والضلال المبين؛ لأن الله أعلم بمصالح عباده وليس لهم أن يعصوه نظراً للمصلحة في ظنهم.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فهناك في الآخرة حين يرجعون إلى الله، وقد ضل عنهم ما كانوا يميلون إليه من الأغراض الدنيوية من الرئاسة وجمع المال وغير ذلك، يبين لهم الحق الذي كانوا يختلفون فيه، ويجزي كل عامل بعمله حيث لا ينفع قانون ولا استحسان ولا مصلحة، إلا تقوى الله واتباع ما أنزل، كما أن الرجوع إليه وحده، لا إلى رئيس ولا شارع قانون ولا حزب ولا أنصار.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَ﴾ أنزلنا إليك ﴿أَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ بين أهل الكتاب ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على كل حال رضوا أم سخطوا أطاعوا أم عصوا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فمخالفة ما أنزل الله إليك في أي شيء من أجلهم إنما هو اتباع لأهوائهم، وإن كان من دينهم وشريعتهم؛ لأنه بعد النسخ بما أنزل الله قد صار هواهم لا غير ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ بأي حيلة وبأي ترغيب يفتنوك، لتعدل عن جزء مما أنزل الله إليك أو كلمة

مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ

أو حرف، ولو وعدوك إذا طاوعتهم فيه أن يسلموا أجمعون، فمساعدتهم إنما هي افتتان وفساد ووقوع في الهلكة.

ومثل هذا ما يغرر به بعض عملاء الكفار من دعوى أن الزمان هذا لا يصلح بتطبيق الدين كله، وأنه لا بد من التعديل فيه وإلا بقي المسلمون في التخلف والرجعية ونحو هذا من التغرير.

فعلينا: أن نحذرهم، وأن لا نتنازل عن شيء من دين الله لا صغير ولا كبير، وأن نعلم أن العزة والقوة في اتباع دين الله؛ لأن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩] ولا يذل من أعزه الله، ولم يضر المسلمين اليوم إلا تساهلهم في مخالفة ما أنزل ومخالفتهم لأمر الله حتى تفرقوا وضعفوا وقوي عليهم عدوهم، ولا يزالون حتى يرجعوا إلى دينهم كله ويتوكلوا على الله.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عنك بسبب الحذر منهم وترك مساعدتهم بإهمال شيء مما أنزل الله ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ فلا تحزن عليهم وارض لهم بما أراد الله لهم، وإذا أراد تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم فبالأولى إصابتهم بسبب ذنوبهم كلها، ففيه دلالة على أن بعضها كافٍ في استحقاقهم للعذاب، وأن بعضها عظيم يستدعي وحده أن يصيبهم الله، فاعلم ذلك، ولا يحزنك توليهم عنك ولا عليك منهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ فهو الخبث والفجور يصرفهم عن قبول الحق بعد وضوحه ولذلك فلا تبال بهم وتوكل على الله.

﴿٥٠﴾ ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾ أن تحكم به بينهم، فكل حكم خلاف ما أنزل الله فهو حكم الجاهلية، وإن ادعوا أنه هو العلم أو أنه مقتضى الحكمة؛

لأن الله أعلم بالحكمة والصواب، فالحكمة والصواب فيما أنزل؛ ولذلك فإن خلافه إنما يستند إلى الجهل وإن ظنوه العلم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون يقيناً أنه أحكم الحاكمين وأنه علام الغيوب الذي لا يخفى عليه الصواب ولا يرضى لعباده أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وأن الخير في اتباع حكمه والأحسن عاقبة كما أخبر بذلك وهو أصدق القائلين.

وما أحسن قول سيد قطب هنا: «ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم، وأيّة حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الإدعاء العريض؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟!

أيستطيع أن يقول: إن الله سبحانه وهو يشرع شريعته الأخيرة ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ويجعل شريعته شريعة الأبد.. كان سبحانه يجهل أن أحوالاً ستطرأ وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته؛ لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان..».

إلى قوله... ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين.. الظروف الملابسات عدم رغبة الناس الخوف من الأعداء..ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته وأن لا يُفتَنوا عن بعض ما أنزله قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة والأوضاع المتجددة والأحوال المتغلبة، ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير، يستطيع غير المسلم أن يقول ما شاء، ولكن المسلم أو من يدّعون الإسلام.

ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ

ما الذي يقولونه من هذا كله ثم يبقون على شيء من الإسلام أو يبقى لهم شيء من الإسلام، إنه مفرق الطريق الذي لا معدى عنده من الاختيار، ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال، إما إسلام وإما جاهلية، إما إيمان وإما كفر، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون..» الخ كلامه الجميل المفيد لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وبعد هذه الآيات التي توجب الحكم بما أنزل الله حذر سبحانه من موالاة اليهود والنصارى أعداء ما أنزل الله على رسول الله ﷺ فقال تعالى:

﴿٥١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ الولاية تكون بالحب والصداقة، وتكون بالمحالفة على النصرة والمعية في الموقف أو في الرأي، والتوجه أو نحو ذلك.

وهذا موافق لقوله تعالى: **﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾** [النساء:١٣٨-١٣٩] مع قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ...﴾** الآية [الحشر:١١].

وظاهر كلام الإمام الهادي في (الأحكام) أن الميل إليهم بأي نصرة ولو بمجرد تأمينهم أن ذلك موالاة لهم، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ وتلك ولاية المحبة والتناصر لاتفاق الدين لا للحلف.

بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ في أنه كافر عدو لله ورسوله، والقدر المشترك بين اليهود والنصارى هو الكفر والمعاداة لله ورسوله ﷺ فهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣] فليس المعنى: أن المتولي يهودي نصراني، وإنما المراد ما ذكرت فهو كافر ضال مثلهم في الغواية والبعد عن الهدى؛ لأنه قد صار من القوم الظالمين الذين لا يهديهم الله؛ لاستحقاقهم الخذلان.

وفي قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ دلالة على أنهم لا يتولون المنافقين ولا ينصرونهم، فهو زجر عن موالاة اليهود والنصارى طمعاً في نصرتهم.

﴿٥٢-٥٣﴾ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ ﴿فَتَرَى﴾ فبعد النهي عن اتخاذهم أولياء ترى ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الذين هم شاكون مرتابون لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وإنما يدعونه وليسوا صادقين، ولأجل هذا المرض لا يثقون بعزة المؤمنين ولا يعتقدون أن الله ينصرهم.

بل ينظرون إلى ظاهر الحال من كثرة الكفار وقوتهم المادية، فهم يخافون غلبة الكفار لهم إن ثبتوا مع المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦] أي فأظهروا الإيمان فرقاً من المؤمنين، ونافقوا فرقاً من الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ يفيد: أنهم يخالطونهم ويمشون من عند بعضهم إلى عند بعض مسرعين؛ ذلك لأنهم يتولونهم بالصداقة والمحبة لعدم الإيمان في قلوبهم يريدون رضاهم عنهم وأن يأمنوهم إن غلب الكفر ويعتذرون عن ذلك بقولهم ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ شر يأتي به تقلّب الأحوال، فنحن نتقيهم تقاة.

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

(الفتح): الحكم فعسى الله أن يأتي بالحكم بين المؤمنين والمنافقين بعقاب عاجل للمتولين لليهود أو النصارى ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ ينكشف سر هؤلاء المنافقين وأنهم قد تولوا الكفار حقيقة لا مجرد اتقاء بحيث ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في هؤلاء المنافقين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ غاية جهدهم في التأكيد ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ باتخاذ اليهود أو النصارى أولياء بعد ما نهى الله عنه ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأنهم بذلك أصبحوا منافقين في الدرك الأسفل من النار نادمين بسبب ما أسروا في أنفسهم انكشف وخرج عن كونه سراً في أنفسهم إلى فضيحتهم به وخزيهم أو لذلك والفتح.

ويحتمل الفتح الحكم بين رسول الله ﷺ وبين الكفار، بإعزاز دين الله وإظهاره، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] بحيث يندم المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من موالاة الكفار وتوقع أن يغلبوا المسلمين؛ لأنهم لم ينالوا خيراً وإنما نالوا به الخزي، ولم يكونوا محتاجين إليه ليأمنوا جانب الكفار.

يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ

ولما حذر تعالى من تولي اليهود والنصارى ووقع بعد ما حذر منه عقب ذلك بالزجر عن الردة؛ لأن سببها وسبب النفاق واحد فقال تعالى:

﴿٥٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ هذه الآية منفصلة عما قبلها كما يفيده تصديرها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كما يظهر في نظائرها التي تكون في موضوع جديد، ويكون أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولو كانت تابعة لما قبلها مرتبطة به، لكفى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في صدر التحذير من تولي الكفار.

والارتداد عن الدين: يحتمل عودتهم إلى الكفر الذي كانوا عليه؛ لأن الارتداد الرجوع، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦] وهذا هو الظاهر هنا لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن الكفر والخروج من الملة يستلزم الجهاد، ويؤكد هذا وصفهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا السياق يفهم منه أن الردة ستكون، وجهاد أهلها سيكون.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لحبهم وعلمهم بحق المؤمن عند الله، وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لبغضهم في الله وتوكلهم على الله وحرصهم على تطهير الأرض منهم وقوّتهم بالألفة بينهم.

وقوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يفيد: صلاح نياتهم في الجهاد، ليس حمية على وطن أو غضباً لأنفسهم، بل لإعلاء كلمة الله في الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ يشير إلى ما يكون من كثرة القتلى بحيث يلامون على سفك الدماء، وأنهم لا يبالون بلوم من لامهم في سفك الدماء لأنه بالحق لله وفي الله.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإتيان بهم وإلى ما هداهم له من صفاتهم وأعمالهم والله واسع يسع فضله من يشاء من عباده ولا يقف على رضى المخلوقين، وفي هذا إشارة إلى أنهم محسودون، كما قال في (سورة آل عمران) بعد ما حكى عن أهل الكتاب: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آية:٧٣].

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يردّ على من يحسد، أو يستبعد بأن الله أعلم حيث يجعل ذلك ومن يصلح لذلك ومن يشكر النعمة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]؟! أو أن قوله تعالى: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ صرف للأذهان عن تعيين مدلولها على ظنهم وحسبانهم، ونظير ذلك في (سورة الروم): ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣-٤] فالسياق يوهم أنهم يفرحون بغلب الروم على فارس، ولكنه تعالى حول الفهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم:٥] فهو غير نصر الروم لتقييده بالحال الذي أحال ذلك إلى من يشاء الله أن ينصره، وهو رسول الله ﷺ ومن معه نصرهم يوم (بدر).

هذا وفي (الميزان) تدقيق في تفسير هذه الآية، قال: «وفي الآية ملحمة غيبية» انتهى، وقد رجح في (الميزان) أن الردة المذكورة في الآية هي تولي اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وغيرها وهذا محتمل؛ لأن الارتداد الرجوع والنفاق بعد الإيمان رجوع عن الدين، ولكن لا يتعين ما ذكره فقد روى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول فيما ذكر عن المهدي عليه السلام) قال: وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تكردس الفتن في جراثيم العرب حتى لا يقال: الله، ثم يبعث الله قوماً يجتمعون كما يجتمع قزع الخريف فهنالك يحيي الله الحق ويميت الباطل» انتهى.

فأما الشرفي رحمه الله فقال: قال في (البرهان) وغيره: هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، قال الشرفي: وهذا قول أهل البيت جميعاً وشيعتهم ـ رضي الله عنهم ـ ويقولون: أنها نزلت في عهد علي عليه السلام كرم الله وجهه ويدل عليه وجهان:

الأول: أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما دفع الراية إلى علي عليه السلام يوم (خيبر) قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» وهذا هو الصفة المذكورة في الآية، فشهد لَه بذلك، ورقّته على المؤمنين وغلظته على الكافرين هي أشهر من الشمس.

والوجه *الثاني*: أنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهذه الآية في حق علي عليه السلام فكان الأولى جعل ما قبلها ـ أيضاً ـ في حقه، انتهى.

وقد رجح هذا الرازي في تفسيره لأجل (حديث الراية) ويمكن الربط بين هذه الآية الكريمة والآيتين الآتيتين بعدها، بأن السياق لبيان حماية الله لدينه

وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ

ودفع أعدائه عن هدمه، فبين في هذه الآية: أنه من يرتدد عن دينه فسوف ينصر الله دينه بالقوم الذين يأتي بهم الصالحين لذلك لأجل صفاتهم المذكورة، فيجاهدون في سبيل الله.

وفي الآيتين الآتيتين بعدها يبين: أن علياً عليه السلام هو قائد حزب الله ورسوله، وأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ كما أنه عليه السلام مع الرسول أكبر المجاهدين في سبيل الله بعد رسوله، فالسياق لنصر دين الله بالقيادة الصالحة، وفائدة ذلك: أن لا يتوهم المنافقون عدم صلاحية الموجودين لذلك من سياق الآية التي فيها: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾ ونظير هذا ما تقدم في (آل عمران): ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ..﴾ الآية [آية:١٠٤] ثم قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية [آية:١١٠] راجع تفسيرها هناك.

فإن كانت الآية: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾ في علي عليه السلام وخاصته، مثل: عمار، وأبي أيوب، ومحمد بن أبي بكر، والأشتر، فلا إشكال من ناحية الربط.

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ الله ولي المؤمنين، يدير شؤونهم، ويحسن رعايتهم، ويهديهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وفي الحديث النبوي: «اللهم اهدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت» فهذه ولاية خاصة حاصلها حسن الرعاية، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولي الذين آمنوا يحسن رعايتهم، لأنه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] وعلي عليه السلام يحسن رعايتهم؛ لأنه يحبهم في الله يواسيهم بنفسه ولا يستأثر عليهم بشيء، ويسير فيهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يضعف عنها بقلة علم ولا بقلة نصح للمؤمنين، ولا يعجز عن تحمل أعبائها.

كيف لا.. وقد خصه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وبقوله: «أنت مني وأنا منك» وقوله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لانبي بعدي» فهو شريكه في أمره إلا النبوة، وهو وزيره كما كان هارون عليه السلام لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:٣٥] وذلك كله يدل على كمال كفاءته لولاية المؤمنين الولاية العامة لإصلاح مجتمعهم، ودفع المفسدين عنه، وحفظ دينهم، وحمايته من أعدائهم، فولاية الله سبحانه هي أصل الولاية؛ لأنه لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين، وولاية رسوله من جملة ولايته للمؤمنين، وكذلك ولاية الإمام علي عليه السلام هو رحمة للمؤمنين، ونعمة وحسن رعاية من الله لهم ومن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما نزول هذه الآية في علي عليه السلام فقال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: لا خلاف بين الأمة أنها نزلت في علي عليه السلام ولم يدعها أحد غيره» انتهى.

قال الشرفي: «ونزول هذه الآية في علي عليه السلام وكونه المراد بها هو إجماع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وإجماعهم حجة للأدلة المعلومة من الكتاب والسنة» اهـ.

وقد قطع بنزولها في علي عليه السلام الإمام الهادي عليه السلام كما أفاده في أول كتاب (الأحكام) وعَقَدَ المنصور بالله عليه السلام لذلك فصلاً في (الشافي) [ج١/ ص١٢٢] جمع فيه روايات عديدة من (تفسير الثعلبي) و(السنن الكبرى) للنسائي و(مناقب ابن المغازلي) قال: «وقد أوردنا أسانيد أهل البيت في ذلك في آخر الكتاب وهو فصل مفيد فليراجع».

وكذلك الحاكم الحسكاني بسط في تحقيق نزولها في علي عليه السلام، فرواه عن ابن عباس رضي الله عنهما بسنده عن مجاهد عنه، وبسنده عن طاووس عنه، وبسنده عن الضحاك عنه، وبسند عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس، وبه عن سفيان قال: وحدثني الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر ذلك مع تفسير للآية وقصة نزولها في علي عليه السلام، ورواه في (شواهد التنزيل) أيضاً عن أنس بن مالك، بإسناد عن إبراهيم بن هدبة، عن أنس، وخرجه الحمودي من (فرائد السمطين) للحموئي، ومن (كفاية الطالب) للكنجي.

وأخرجه في (شواهد التنزيل) عن أنس - أيضاً - من رواية حميد الطويل عن أنس، وأخرجه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه، بإسناده عن عطاء بن السائب، وابن جريج، وخرجه الحمودي في (تخريج شواهد التنزيل) من رواية أبي نعيم في (الحلية) بإسناده عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس.

ورواه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن عمار بن ياسر، وعن جابر رضي الله عنهما، ورواه في (شواهد التنزيل) عن علي عليه السلام، وخرجه الحموي في (تخريج شواهد التنزيل) من عدة كتب، وأخرجه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن

المقداد بن الأسود، وبسند عن أبي ذر الغفاري ﵄، وخرجه الحمودي، ورواه في (شواهد التنزيل) بسند عن أبي صالح عن ابن عباس ﵄، ورواه بسند عن عبد الله بن محمد بن الحنفية.

وأخرج في (شواهد التنزيل) بسنده: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ نزلت في علي خاصة، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في علي، وقوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ نزلت في علي، أمِر رسول الله أن يبلغ فيه، فأخذ بيد علي وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه ...الخ».

وخرجها الحمودي من (مناقب محمد بن سليمان) قال الحمودي: ورواه أيضاً أبو الليث السمرقندي ـ ثم قال ـ : وقريباً منه رواه أبو نعيم مطولاً بسندين عن ابن عباس في كتابه [ما نزل من القرآن في علي] ثم بسط في التخريج فليراجع، ونقله في التخريج من (أمالي المرشد بالله الخميسية) كما في الأمالي بتمامه.

ثم أخرج في (شواهد التنزيل) عن ابن عباس ﵄ أن نزول قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في علي ﵇ من طريقين، وفي (الدر المنثور) للسيوطي: وأخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع، فقال النبي ﷺ للسائل: «مَن أعطاك هذا الخاتم»؟ قال: ذاك الراكع، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه: عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ الآية، قال: نزلت في علي بن أبي طالب، وأخرج الطبراني في (الأوسط) وابن مردويه عن عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة التطوع فنزع

خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه ذلك فنزلت على النبي ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ على أصحابه ثم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ مَن والاه، وعاد من عاداه».

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه: عن علي بن أبي طالب، قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في بيته: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلى آخر الآية، فخرج رسول الله ﷺ فدخل المسجد وجاء الناس يصلون بين راكع وساجد وقائم يصلي، فإذا سائل فقال: «يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً»؟ قال: لا، ذاك الراكع ـ لعلي ابن أبي طالب ـ أعطاني خاتمه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر: عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ..﴾ الآية، وأخرج ابن جرير: عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ..﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راكع.

وأخرج ابن جرير عن السدي، وعتبة بن حكيم.. مثله الخ التخريج، فليراجعه من أراد الزيادة، وقد حكى الأميني في (الغدير) عن ابن تيمية: أنه نفى ذلك في كتابه المسمى (منهاج السنة) وردّ الأميني عليه بنقل نزولها في علي عليه السلام من ستة وستين كتاباً، في بعضها ذكر اتفاق المفسرين على نزولها في علي عليه السلام ومحل ذلك في (الغدير) [ج٣/ ص١٥٥] وما بعدها إلى [صفحة١٦٢].

يؤكد هذه الروايات أنه تعالى قال: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ فجملة: (وهم راكعون) حال من يؤتون أي يؤتون الزكاة حال الركوع أو الركعة، وحمل الركوع على المعنى الشرعي الأكثر استعمالاً هو أرجح من

حمله على الخضوع؛ لأن كلام الشارع يتبادر منه المعنى الشرعي مع أنه يمكن حمله على المعنيين أو المعاني لاجتماعها في الركوع، فظهر أنها علامة تميز مصداق الثلاث الجمل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فتعين مصداقها الذي هو المراد بإثبات الولاية له، كما هي لله ورسوله بقوله: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.

فأما استعمال الجمع ومصدقه واحد، ففي القرآن الكريم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا..﴾ [المنافقون:٧] ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ..﴾ [المنافقون:٨] وذلك عبد الله ابن أُبي، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ..﴾ [آل عمران:١٧٣] وذلك نعيم بن مسعود.

ويؤكد ذلك ـ أيضاً ـ أن الخطاب للذين آمنوا المذكورين في الآية قبلها، فلو كان المراد العموم لقال: (وبعضكم أولياء بعض) كما في (سورة الأنفال): ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [آية:٧٢] وفي (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] لأن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لو كان المراد به العموم في سياق خطاب الذين آمنوا يكون بمنزلة ما لو قال: (وأنتم ولي أنفسكم) والشيء الواحد لا يكون ولي نفسه، ولذلك يكون التعبير ضعيفاً؛ لأن الجملة كالشيء الواحد، والموالاة بمنزلة التقارب لا تكون إلا بين شيئين، بل لو كان المراد ذلك لقال: (وأنفسكم) بدل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾..الخ.

ولا يقال: إن الولاية للصالحين من الذين آمنوا لا لكلهم فارتفع الإشكال؛ لأنا نقول: إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من صفات المؤمنين والخطاب لهم فلا خصوص، أما أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من صفاتهم

فلقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة:٧١] فدلت على أن من لم يكن كذلك فليس بمؤمن؛ لأن الآية في سياق الفرق بين المنافقين والمؤمنين، فقال تعالى في المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ...﴾ [التوبة:٦٧] إلى آخر الآيات في زجرهم، ثم قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ الآية [التوبة:٧١].

وأما أن الخطاب لهم، فلأن أول الكلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ..﴾ فهي تدل على أن الخطاب لهم في حال إيمانهم قبل أن يرتدوا، تحذيراً لهم من الارتداد، ومن خرج من الإيمان إلى ترك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة خاضعاً لله، فقد ارتد عن دينه الذي هو الإيمان؛ لأنه رجع إلى العصيان عن الإيمان، والارتداد: الرجوع، وإن خصة العرف بالخروج من الملة، فالقرآن لا يفسر بالعرف الحادث بعد نزوله.

فظهر: أنه لا يصح أن يكون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الآية مصداقه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في التي قبلها بل هو مخصوص، وذلك يؤكد الروايات أنها نزلت في علي عليه السلام.

فأما فائدة استعمال العموم بدل الخصوص: فلعل الحكمة ـ والله أعلم ـ أنه لو قال: (والمؤمن الذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وهو راكع) وكان علي عليه السلام هو المعروف بإيتاء الزكاة في حال ركوعه، لكان ذلك كالتصريح باسمه، ولم يكن من الحكمة التصريح في علي عليه السلام لكثرة أعدائه وشدة عداوتهم، وكثرة حساده، أو للإبتلاء في هذا الباب، وفتنة المسلمين كما فتن الذين من قبلهم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ توليه لله اتخاذه ولياً بطاعته وإتباع رسوله، والكون مع الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة إلى آخر الآية في صفِّه وعلى طريقته، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ يفيد: أن من كان مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ ومع الإمام علي عليه السلام فهو من حزب الله الغالب بنصر الله، وقوَّى أن حزب الله ﴿هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بـ(إنَّ) وقصر القلب الحاصل بتعريف اسم (إنَّ) وخبرها المفيد للحصر وضمير الفصل، وهذا ترغيب عظيم ومؤكد، لكون السياق في نصر الله لدينه بأوليائه من قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ..﴾.

وحزب الله: الذين يتولون الله ورسوله، ولا يوادون من حاد الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢١-٢٢] قال في (الصحاح): «حزب الرجل: أصحابه» انتهى.

فأما الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ والقصر، فهو إما بالنسبة إلى وقت نزول الآية إلى آخر عهد علي عليه السلام حتى قتل، ثم بعده يجب تولي أشبه الناس به في حسن الرعاية للناس بطريقة القياس وبعموم الأدلة، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] وإما للدلالة على أن من بعده من أئمة الهدى لا يبلغ مبلغه في الولاية التي قرنها الله بولاية الله ورسوله ﷺ وإن بلغوا في حسن الرعاية ما بلغوا فرعايتهم للمؤمنين دون رعايته عليه السلام، فصح القصر على الدوام، لكن هذا يصيّر القصر مجازاً كقول الشاعر:

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما المَيْت ميِّت الأحياء

فتعين: أن الحصر بالنسبة إلى وقت نزول الآية، والموجودين إذ ذاك.

والأولى أن يقال: هذا (قصر القلب) وهو في سياق التحذير من الردة يبين أنه لا حاجة للردة ولا فائدة لها في التخلص من خوف غلبة الكفار، فإن الله ورسوله والذين آمنوا يحسنون رعاية الذين آمنوا، وإذا تولوهم فإنهم غالبون، فكأنه قيل: إنما وليكم الله لا رؤساء الكفر كما يتوهم المنافقون، وعلى هذا لا إشكال في الحصر والقصر؛ لأنه ليس قصر الإفراد، بل هو كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها، ولا ينافي أنها تكسب لنفسها.

فإن قيل: يلزم من هذا: أن له ولاية في عهد الرسول ﷺ والمعلوم خلافه؟

قلنا: لا نسلم قولكم: والمعلوم خلافه، وإنما المعلوم: أن ولايته كانت لا تعارض ولاية الرسول ﷺ بل هي وزارة وخلافة إذا غاب، و(حديث الغدير) و(حديث المنزلة) يدلان على ولايته في عصره ﷺ.

ولما تقدم قبل هذه الآيات الثلاث الزجر عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وكانت حال المسلمين وحال اليهود والنصارى تستدعي مزيداً من التحذير قال تعالى:

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

* ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فبيّن ﷻ: أن اليهود والنصارى يقبح اتخاذهم أولياء مع قبحه لكونهم أعداءً لله يقبح لاتخاذهم ديننا الذي هو دين الله هزواً ولعباً، وفي هذا الإسناد إثارة لحمية المسلم حيث علق النهي على الموصول، لأجل أن الصلة تستدعي الحمية المانعة من موالاتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿دِينَكُمْ﴾ ولم يقل: ديني.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فهو تشنيع عليهم؛ لأنهم لو اهتدوا بالكتاب لآمنوا بمحمد واتبعوا دينه، ولكنهم لم يهتدوا وغلبهم الحسد فاتخذوا الإسلام هزؤاً ولعباً؛ جرأة على الله وخبثاً، فكيف يتخذهم المسلم أولياء؟!

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ من عطف العام على الخاص، ليفيد: النهي عن اتخاذ الكفار أولياء من أي صنف كانوا من أصناف الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تأكيد للنهي ودلالة على أنه يعذبهم إن عصوا، كقوله تعالى في أول السورة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يفيد: أن شأن المؤمنين تقوى الله؛ لأن الإيمان الصحيح الصادق يبعث على تقوى الله ويأمر بها؛ لأنه يسبب الخوف من الله والحذر من عذابه.

وموقع هذه الجملة في هذا السياق مناسب غاية المناسبة؛ لأن المؤمن لا يتولى الذي كفروا، والحث هنا على التقوى حثٌّ على ترك اتخاذهم أولياء كما هو واضح، قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ [المجادلة:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ

ففي قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلهابٌ وتحريك للذين آمنوا ليجتنبوا اتخاذ الكفار أولياء، ثم عطف على قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ عطفاً خاصاً بالصلاة؛ لأن اتخاذها هزؤاً واضح في القبح، والدلالة على قسوة اليهود وعنادهم حيث اتخذوها هزؤاً ولعباً، وهي خضوع لله وتذلل وعبادة لا ينكرها دينهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾.

ثم سجل عليهم بإهمال العقول، وأنهم صاروا كالأنعام بل هم أضل فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فدل: على أن جرأتهم على اتخاذ الصلاة هزؤاً ولعباً سببها إهمال العقول، ولو استعملوا عقولهم لعلموا أنه لا ينبغي الاستهزاء بعبادة الله وذكره.

﴿٥٩﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ هل تعيبون وتنكرون منا إلا أن آمنا، وهذا ليس عيباً، قال الراغب: «نقمت الشيء ونقمته، إذا أنكرته باللسان أو بالعقوبة» ولكنهم عابوه كفراً منهم بالقرآن وبالإنجيل إذا كان المنكرون هم اليهود؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعم (الإنجيل).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قيل في تفسيره: إنه نظير قول القائل: هل تكره مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وهل تنكر مني إلا أني غني وأنك فقير.

ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟

قلت: إن صح وقوع هذا في لغة العرب بلفظ ـ مني ـ في المثالين وبلفظ ـ وأنك ـ فهو لا يستقيم في سياق ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ أي تنكرون بالقول، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وإن لم يصح فالراجح: أن أهل الكتاب حملوا ذنوب فساقهم على المسلمين، وجعلوا إسلام المسلمين هو سبب فسقهم، وذلك يتصور بطريقتين:

الأولى: ترغيب اليهود لفساقهم بإباحة الجريمة؛ لئلا يدخلوا في الدين الذي يحرمها قولاً وفعلاً.

الثانية: أن يسهِّلوها لهم ويجعلوها مكفرة بثباتهم على اليهودية ويزعموا لهم أنها صغيرة في جنب الدخول في الإسلام، فلما كثر الفسق وانتشر بجعله خيراً من الإسلام وبتهوينه لفساقهم لئلا يدخلوا في الإسلام حمّلوا الإسلام عيبهم وجعلوه سبب فسقهم، فكان عندهم من جملة ما يعيبون به الإسلام أنه سبب لانتشار الفسق فيهم ـ والله أعلم.

وعلى هذا: يصح التركيب أنهم يعيبون من المؤمنين الإيمان، ويعيبون منهم فسق فساقهم، مخالفة للعدل الذي يقضي بأنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقد ذكر في (الكشاف) وجوهاً أربعة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فراجعه إن شئت.

﴿٦٠﴾ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب يا أهل الكتاب المتنسبون إليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ﴾ مما نقمتم علينا وهو الإيمان وليس مما يحق أن ينقم وفسق أكثركم ونحن منه براء وبريئون فما

بقي إلا الإيمان فشر منه مرجعاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عمل ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ بذنبه ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ وقد مر في السورة: ﴿لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً..﴾ إلى آخر الآية، ومرَّ في (سورة النساء) تعديد جرائمهم ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾ كما مرَّ في (سورة البقرة) ويأتي في (سورة الأعراف).

وقوله: ﴿وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ لعلهم قوم من النصارى كفروا بعد إنزال المائدة عليهم قال الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قيل: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار أهل مائدة عيسى عليه السلام، وقال ابن عباس: المسخين في أصحاب السبت فشبابهم مسخوا قردة ومشائخهم خنازير، ثم قال الشرفي: وقال الهادي عليه السلام: فهؤلاء قوم من بني إسرائيل مسخوا حين عتوا واجترءوا فجعلوا صور ما ذكر الله جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله من القردة والخنازير، فجعْل الله لهم تحويله لصوَرهم وإحلاله لنقمه سبحانه بهم على ما كان من فعلهم وما استوجبوا بجرمهم» انتهى المراد.

وما ذكره الإمام الهادي عليه السلام يكفينا؛ لأنه الذي دل عليه القرآن من دون تعيين الممسوخين خنازير، وأما ما حكي عن ابن عباس فلا يصح عنه؛ لأنه مخالف للقرآن؛ لأنه دل على مسخ الذين اعتدوا في السبت من أصحاب القرية قردة، وذلك ينافي جعلهم قسمين قردة وخنازير، وابن عباس أجل من أن يخفى عليه أو يعتمد من الأساطير على رواية تخالفه.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ حكى الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام أنه قال: وأما قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ فإنما هو على التقديم والتأخير،

أراد سبحانه هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فجعلها في اللفظ مؤخرة وهي في المعنى مقدمة، وفعل الطاغوت فليس من فعل الله؛ لأن الطاغوت هو ما أطغى من الفعل وأفسد من العمل، وخالف الحق وجنّب عن الصدق» انتهى.

قلت: قد جعل الإمام الهادي عليه السلام في (آية الوضوء) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ معطوفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ ومثل ذلك أراد هنا؛ ولعله جعل اللعنة والغضب شيئاً واحداً، هو خذلانهم وسلبهم التوفيق، بحيث يصيرون إلى عذابه.

والعبادة للطاغوت: إما أنها طاعتهم للشيطان في ترك عبادة الله على قول الناصر عليه السلام: أن الطاعة للشيطان عبادة لَه كما بسطه في (البساط) وبناء عليه يصلح تفسير (الطاغوت) بالشيطان، وبالملوك الذين كانوا يأمرونهم بالفساد في الأرض حين علوا علواً كبيراً.

ويحتمل: أن عبادتهم للطاغوت: إيمانهم بهم، وقد مرَّ التفسير لَه عند ذكر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١] والظاهر: أن منهم من عبد الطاغوت حقيقة، ولذلك عابه عليهم لكونهم أهل كتاب يدّعون اتباعه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أسوأ حالاً، والمراد أنهم أشر في أنفسهم، ونسب ذلك إلى مكانهم على طريقة الكناية، كقول الشاعر:

يبيت بمنجاة من اللؤم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حُلَّتِ

والمعنى واضح؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغضب عليهم ويلعنهم إلا وهم شر، ولا يجعل منهم القردة والخنازير إلا وهم شر؛ ولأن من عبد الطاغوت شر ممن آمن بالله وكتبه، وهذه المفاضلة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:٤٠].

بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المستوى من الطريق فلا انحراف فيه ولا طلوع ولا نزول، فهو لا يخفى على السائر فيه، ولا يضل عنه إلا من هو أعمى البصر والبصيرة، وهؤلاء الموصوفون من أهل الكتاب قد شبهوا به؛ لأنهم عدلوا عن الصراط المستقيم وهو بيِّنٌ لهم في (التوراة).

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي هؤلاء الذي نهاكم الله عن اتخاذهم أولياء الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً ﴿إِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ استهزاءً بكم؛ لأنهم قالوا ذلك وقد دخلوا مضمرين للكفر، مصرين عليه، مصاحبين له، وهم وإن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ قد خرجوا من عندكم بالكفر كما دخلوا به.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ في الماضي قبل مجيئهم وعند دخولهم وخروجهم، فكيف تتخذونهم أولياء وقد نهاكم العليم الخبير؟!

﴿٦٢﴾ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ﴾ أي ذلك ظاهر منهم مكشوف، لا يتسترون فيه كما في زماننا الذي حذا كثير من أهله حذو أهل الكتاب و﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ المعاصي كشرب الخمر و﴿ٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ التعدي على الناس، ومسارعتهم إلى ذلك: إقدامهم عليه بسرعة لفرط جرأتهم على الله، وحرصهم على الإثم والعدوان.

﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾: أكلهم الربا، والرشوة، وأكلهم أموال الناس بالباطل بأي طريقة كان ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي والله لبئس ما كانوا يعملون، فكيف تتخذونهم أولياء وهم ضالون مضلون؟!!

ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا

﴿٦٣﴾ ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ لبئس ما كان الربانيون والأحبار يصنعون من المصانعة بترك النهي والمداهنة، كأن ذلك كان صناعة لهم يتقنونها لتحصيل أغراض دنيوية، فهلا كانوا ينهونهم وهم ربانيون وأحبار.

قال الشرفي: «و﴿ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ﴾ علماء أهل الإنجيل ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ علماء اليهود».

قلت: الراجح: أن (الأحبار) علماء الفريقين، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ﴾ [التوبة:٣١] و(الربانيين) الدعاة إلى الرب، فهم يدعون الناس إلى تقوى الله، ويأمرونهم بالبر من دون أن ينهوا فاعل المعصية عنها بعينه، ولعل الحرام سمي سحتاً؛ لأنه سببٌ لهلاك صاحبه وخلوده في النار، قال تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] أي يهلككم بعذاب.

وقال الراغب: «السُّحتُ: القشر الذي يستأصل، قال تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] وقرئ ﴿فَيَسۡحَتَكُم﴾ يقال: سحته، وأسحته، ومنه السحت للمحظور الذي يلزم صاحبه العار، كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته» انتهى.

قوله: القشر الذي يستأصل: عبارة (الصحاح): وسحتُّ الشحم عن اللحم إذا قشرته عنه، وفي (الصحاح): «وسَحَته وأسحته أي استأصله» انتهى.

وعلى هذا: فمعنى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] فيستأصلكم، أي يهلككم أجمعين، وعلى هذا: فلا ينبغي اتخاذهم أولياء حتى الربانيين والأحبار.

قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ

﴿٦٤﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مجاز عن البخل أخزاهم الله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩] أي لا تترك الإنفاق ولا تكثره إلى حد يجحف بحالك.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام لـ(غريب القرآن): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: «معناه: هو يحب أن يمسك خيره» انتهى.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ هذا من الردّ على اليهود، يعبر عن سخط الله عليهم، ومقته لمقالتهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤].

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فأكذب الله قولهم وبيَّن أن عطاءه مستمر على ما يشاء؛ لأنه حكيم في إنفاقه في البسط والتقدير، وسواء في قدرته وكرمه بسط أو قدر، فلا يصعب عليه البسط ولا يقدر لمشقة البسط سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال في (الكشاف): «غل اليد وبسطها، مجاز عن البخل والجود، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً، لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد، كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل ... شكرت نداه تلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد للشَّمال يداً، في قوله:

إذ أصبحت بيـد الشمـال زمامـها

ويقال: بَسَط اليأس كفيه في صدري، فجُعِلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفَّان، ومن لم ينظـر في علـم البيـان عمـي عـن تبصـر محجـة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية» انتهى باختصار.

ويدل على مـا ذكـره قـول الله تعـالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] وليس للمخاطـب جنـاح حقيقـي، ومـن الغلـط البيّن تسمية هذه الآية وأمثالها باسم (آيات الصفات) فليست من الصـفات، وإنمـا تسميتها دعوى بلا بينة؛ لأنها لم تخرج في القرآن مخـرج الوصـف لله سـبحانه بأن لَه أعضاء ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما جـاءت مجـيء ذكـر الجنـاح واليـد، في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر:٨٨] ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

ألا ترى أن هذا السياق ليس بصدد وصف العذاب بأن له يدين، وكذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] في القرآن وفي الإنجيل.

ومن العجيب قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسـب مـا تضـاف إليـه، ولم ينـزهوا الله عن اليد، فكأنهم يقولون: معنى الآية إثبـات اليـد؛ لأن لله يـداً، وعلى هذا فاحتجاجهم بالآية دور؛ لأنهم أثبتوا لَه يداً بناء على احتجـاجهم بالآية، ولو أنصفوا مع قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضـاف إليـه، لقالوا: ليس المعنى إثبات اليد؛ لأن الله ليس لَه أعضاء، أو علـى أقـل تقـدير وقفوا في المعنى ولم يثبتوا يداً، بناء على أصلهم أنه يختلف معناها بحسـب مـا تضاف إليه، وهم لم يثبتوا للعذاب يداً بناء على هذا الأصل.

ومن الدور قولهم: نثبت ما أثبت القرآن؛ لأنه مبني على أنه أثبت عضواً، لا على مجرد لفظ اليد، ألا ترى أنهم لا يقولون: نثبت للقرآن يدين، كما أثبت في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] ولا يقولون: نثبت للعذاب ما أثبت القرآن لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

فظهر: أنهم قاسوا الخالق على المخلوقين، وجعلوا الإضافة في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ كإضافة اليد إلى المخلوق، وزعموا أن خلاف ذلك تعطيل بناء على هذا القياس، وهو جهل عظيم، بل التعطيل تشبيه الخالق بالمخلوق؛ لأنه يلزم منه عبادة غير الله، أي الصورة التي يتوهمونها ونفي غيرها بناء على أنها هي الله سبحانه وتعالى.

فأما البَلْكَفَة فلا تفيدهم بعد إثبات العضو، وكذلك قولهم: «تليق بجلاله» لأنه ليس إلا كقولنا: للملائكة أجنحة ليست كأجنحة الطيور التي نراها، بل أجنحة تليق بهم وتناسب خلقهم وأجسامهم، فكما أن هذا لا ينفي الجناح الذي هو آلة الطيران، فكذلك قولهم بزعمهم تليق بجلاله؛ لأنه يكفي عندهم نفي كونها من جنس أيدي المخلوقين، وليس إلا كنفي كون أجنحة الملائكة من جنس أجنحة الطيور التي نراها؛ لأنهم لا يعنون بقولهم: «تليق بجلاله» نفي العضو، فلذلك لم يخلصهم من التشبيه ـ وبالله التوفيق.

ولو خرج ذكر الأعضاء في القرآن مخرج وصفه تعالى بأسمائه الحسنى كما في آخر (سورة الحشر) بأن كان فيه مثلاً هو الله ذو الوجه واليدين والجنب والعين لساغ جعل ذلك من المتشابه، فأما وهو لم يقع كذلك، فليس ينبغي عده من المتشابه إلا عند من يجهل اللغة العربية، ولذلك لم يجرِ عند العرب إشكال في معناها؛ لأنه لا يخطر ببال العربي الأصيل إلا المعنى الذي سيق له الكلام،

كإثبات العطاء المستمر، ولا يخطر بباله إثبات عضو لله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى هذا فتسمية هذه وما أشبهها (آيات الصفات) بدعة؛ لأنها لم تكن في الكتاب هذه التسمية، ولا السنة، وإنما ابتدعوها ليتوصلوا إلى إثبات مذهبهم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا﴾ وذلك لخذلانهم واستمرارهم في الكفر، مثل أن يسمعوا قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] فيزعموا أنه فقير؛ لأنه بزعمهم طلب القرض ولا يطلبه إلا الفقير، وغير ذلك من أنواع الطغيان والكفر يتوصلون إليه بالقرآن كما مثلت، فيزيدهم ﴿طُغْيَنًا وَكُفْرًا﴾.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلقاء الشيء: طرحه، والعداوة: المباينة مع البغض وإرادة الضر بالغير، وذكر إلقاء العداوة دون جعل العداوة يشعر بسهولة تحصيلها بينهم، وهو على معنى التخلية مع فطرة النفوس على قبول العداوة والبغضاء بسبب ما يقع بينهم من اختلاف مع تركهم تحكيم العقول، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

أو على أنهم يستحقون كلهم تسليط بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] وهذا أظهر، فهم على ذلك إلى يوم القيامة، وهذا يدل: على أن المهدي المنتظر لا يستطيع إدخالهم في الإسلام، وغاية قوته عليهم أن يضرب عليهم الجزية والصغار، كما أمر الله.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ لما بينهم من العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ

لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا

شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر:١٤] فأما عدوانهم على مصر وسوريا والأردن في حرب الأيام الستة، فهي محمولة على أن الموقد لها الحقيقي هو أمريكا، وإنما هي باسم اليهود، وكذا عدوانهم السابق على مصر مع دولتين عظيمتين، أو المراد: كلما أوقدوا ناراً لحرب المؤمنين، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿يَسْعَوْنَ﴾ يدل على شدة عنايتهم بالفساد، والسعي: سير سريع، وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يسعون لنشر الفساد في الأرض وإشاعته في أقطار الأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيرجى منه أن لا يخليهم وشأنهم؛ لأنه لا يحب الفساد، وذلك كله دليل على أنه لا ينبغي لمؤمن اتخاذهم أولياء.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله بطاعته ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ ما مضى من ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالتغطية لها، كأن لم تكن ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ مثل كل مؤمن تقي.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من كتب الله التي منها القرآن في عهد محمد ﷺ، وإقامتُها: إحياؤها والعمل بما فيها، فتركها ونسيانها إضاعة وإهمال ضد الإقامة.

﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ بنزول بركات السماء وظهور بركات الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] لكنهم لم يقيموا (التوراة) و(الإنجيل) وما أنزل إليهم فعوقبوا بنقص البركات وقلة الأرزاق، حتى قالوا: **﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** والسبب من عند أنفسهم فما كان ينبغي لهم إلا أن يلوموا أنفسهم ويرجعوا إلى ربهم لا أن يزدادوا كفراً إلى كفرهم.

﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ﴾ دفع لإيهام أنهم كلهم لم يؤمنوا ولم يقيموا (التوراة) قال تعالى: **﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾** [الأعراف:١٥٩] وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ...﴾** الآية [آل عمران:١٩٩].

﴿سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ ما أسوء أعمالهم التي يعملونها مستمرين على أعمال السوء، وقد مر تفصيل بعض أعمالهم السيئة قريباً، وفي (سورة البقرة) تفصيل كامل يدل على سوء أعمالهم، وكذلك مرَّ قولهم: **﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** وفي (سورة النساء) كلام كثير في جرائم اليهود، ويأتي في هذه السورة في جرائم النصارى.

﴿٦٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ منزل مخصوص ليس كلما أنزل؛ لأنه لو كان عاماً، لكان قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ كتحصيل الحاصل، كما لو قال: (وإن لم تفعل فلم تفعل) فتبين: أنه منزل مخصوص لو لم يبلغه لحبط تبليغه الماضي وصار لم يبلغ رسالات الله أو رسالته.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تقدمة للأمر بالتبليغ مناسبة ما على الرسول إلا البلاغ، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تنبيه على وجوب طاعته؛ لأنه المالك المربي.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا قطع للعلة في ترك التبليغ، وفيه إشارة إلى أن الأمر الذي أمر بتبليغه مما يخشى منه عدوان أعداء الله على المبلغ.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: أين العصمة وقد شج في وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته صلوات الله عليه»؟! انتهى.

قلت: لا وجه للسؤال، لأن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ مضارع فليست العصمة إلا من حين نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ ولا يلزم عصمته في الماضي مع أنه تعالى قد عصمه من القتل في الماضي لكن قوله تعالى: ﴿يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لا يختص بالقتل ولم يخبره في الماضي بأنه يعصمه من الناس ليباشر المعارك باذلاً نفسه لله، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء:٨٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولذلك احتجْتَ إلى العصمة من الناس وإخبارك بها لتبلغ هذا الأمر المخصوص الذي يثير بعض الناس، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ والتعليل: بأن ﴿ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٠٢] في أنه تعليل بتركهم على كفرهم، إلا أنه هنا عبر عنه بترك هدايته لهم، وهناك عبر عنه بإعداد العذاب لهم المسوغ لتركهم على كفرهم يقاتلون المسلمين ويحتاج المسلمون إلى أخذ الحذر منهم.

قال السيوطي في (الدر المنثور): «وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر: عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ على رسول الله ﷺ يوم (غدير خمّ) في علي بن أبي طالب.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إن علياً مولى المؤمنين ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾» انتهى.

وروى المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية) [ج١/ ص١٤٥-١٤٦] بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ نزلت في علي عليه السلام أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد علي عليه السلام فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه» انتهى.

وفي (مناقب أمير المؤمنين علي عليه السلام) تأليف محمد بن سليمان الكوفي: محمد بن سليمان، قال: حدثنا محمد بن منصور، عن عبّاد، عن علي بن هاشم، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما أمر الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما أمر به قال: قومي حديث عهد بالجاهلية، إذ أتاه جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فأخذ بيد علي فقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه» انتهى.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في أول كتاب (الأحكام): «وفيه - أي في علي عليه السلام -: أنزل الله على رسوله بـ(غدير خُمّ): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فوقف صلى الله عليه وآله وسلم وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة حتى ينفذ ما عزم به عليه في علي عليه السلام...» الخ (حديث الغدير).

وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية: بإسناده عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما أسري بي إلى السماء سمعت تحت العرش: أن علياً راية الهدى، وحبيب من يؤمن بي، بلغ يا محمد» قال فلما نزل النبي ﷺ أسر ذلك فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ في علي بن أبي طالب ﴿..وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية في علي ابن أبي طالب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ الآية، نزلت في علي أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله بيد علي، فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وفيه بإسناد قال: حدثنا عبد الله ابن أبي أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم (غدير خم) وتلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ثم رفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ثم قال: «ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، ثم قال: اللهم اشهد».

وفيه: بإسناد عن زياد بن المنذر، يقول: كنت عند أبي جعفر ـ محمد بن علي ـ وهو يحدث الناس، إذ قام إليه رجل من أهل البصرة يقال لَه: عثمان الأعشى، كان يروي عن الحسن البصري، فقال: يا ابن رسول الله جعلني الله فداك إن الحسن يخبرنا أن هذه الآية نزلت بسبب رجل، ولا يخبرنا من الرجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾؟

فقال: لو أراد أن يخبر به لأخبر به، ولكنه يخاف، إن جبريل هبط على النبي ﷺ فقال له: «إن الله يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم..» إلى قوله عليه السلام: «..ثم هبط فقال: إن الله يأمرك أن تدل أمتك على وليّهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة في جميع ذلك» فقال رسول الله ﷺ: يارب إن قومي قريبوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافسٌ وفخر، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليهم وإني أخاف، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يريد فما بلغتها تامة ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلما ضمن الله له بالعصمة وخوَّفه أخذ بيد علي بن أبي طالب ثم قال: «يا أيها الناس من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحبَّ من أحبَّه، وابغض من أبغضه» قال زياد: فقال عثمان: ما انصرفت إلى بلدي بشيء أحب إلي من هذا الحديث» انتهى، وأنا اختصرته وهو بتمامه في (شواهد التنزيل).

وفيه بإسناد عن ابن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما قالا: أمر الله محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابا ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ الآية، فقام رسول الله بولايته يوم (غدير خمّ) انتهى.

قال الحمودي في (تخريج أحاديث شواهد التنزيل): «والحديث رواه ابن مردويه في كتاب (مناقب علي عليه السلام) بعدة طرق..» الخ.

وفيه بسند عن ابن عباس: عن النبي ﷺ رواية فيها بعض الطول، قال في آخرها: حتى كان يوم الثامن عشر أنزل الله عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ

أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله..ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فرفعها حتى رأى الناس بياض إبطيهما، ثم قال: «أيها الناس الله مولاي، وأنا مولاكم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» وأنزل الله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ انتهى، وفي تخريجه زيادات، فليراجع من أراد.

وقد بسط الأميني في (الغدير) تخريج نزول قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في (غدير خم) في ولاية علي عليه السلام وذلك في (الغدير) في [ج١/ ص٢١٤-٢٢٣] فراجعه، وفي (الميزان) بيان مفيد ينبغي تأمله، وهو في [ج٦/ ص٤٢-٤٨].

وفي (الشافي) تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في [ج١/ ص١١٤] نقل من (تفسير الثعلبي) بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يبلغ فيه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيد علي عليه السلام فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» اهـ، وقد أسند المنصور بالله عليه السلام (تفسير الثعلبي) منه إلى المؤلف [ج١/ ص٥٤].

فتحصل من ذلك كله: أنها نزلت في علي عليه السلام، وقد أكدته القرائن في الآية كونها في منزل مخصوص، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ فلا يكفيكم انتماؤكم إلى بعض كتب الله مع ترك ما بعدها فما أنتم عليه ليس شيئاً؛ لأنه لا يقبل منكم.

هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ

قال في (الكشاف): «كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه، وفي أمثالهم: أقل من لا شيء» انتهى.

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ﴾ حتى تعملوا بها كلها، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعم كل ما أنزل الله إليهم ومنه القرآن لا عذر لكم في تركه؛ لأن الله أنزله إليكم كما أنزل التوراة، أو قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ أي القرآن الذي أنزل إليكم، وقوله: ﴿إِلَيْكُم﴾ بيّن أنه خطاب لأهل الكتاب كما هو خطاب لغيرهم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿طُغْيَـٰنًا﴾ تجاوزاً للحد المعهود في العصيان وحسداً وكبراً ﴿وَكُفْرًا﴾: تكذيباً وجحوداً لآيات الله، أو كفر نعمة ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن على القوم الكافرين؛ لأنهم متمردون لا يريدون الحق فهم أهلكوا أنفسهم.

﴿٦٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين قد آمنوا بمحمد والقرآن، ودخلوا في دين الله، وأهل الملل الثلاث، لا ينفعهم ما هم عليه، دون الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فالمراد في الذين آمنوا اشتراط صدق الإيمان، بكونه مقروناً بالعمل الصالح الذي يبعث عليه الإيمان الصادق والاستمرار عليه في المستقبل.

وأما أهل الملل الثلاث فلا بد لهم من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كذلك، وذلك يتضمن: توحيد الله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وعن الشريك، وعن الولد، ويستلزم: الإيمان بالرسول، والقرآن، من حيث أن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على الإيمان بآيات الله الدالة على أن القرآن من الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وسائر ما يجب الإيمان به.

ويستلزم: أن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان كما أمر الله به، وشرع في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لأن ما خالفه منسوخ قد صار غير مشروع، فالآية في الملل الثلاث بالنسبة إلى ما قبل البعثة، لتبين: أن العمدة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، لا الأسماء، فهي ترد قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١].

﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ أهل ملة غير ملة الإسلام، وغير ملتي اليهود والنصارى، وقد بسط في بيان دينهم (صاحب الميزان) [ج١/ ص١٩٥] أما سيد قطب فقال في (تفسيره) [ج١/ ص٩٥]: «﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم...» إلى قوله: «..فقال عنهم المشركون: إنهم صبأوا، أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة» انتهى المراد.

والتعبير بقوله: تلك الطائفة من مشركي العرب، لا يناسب تفسيره، فصواب العبارة: تلك الطائفة الذين كان أصلهم من مشركي العرب، وقوله: فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد فيه أنه يوهم ضياع التوحيد بالكلية.

إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ

وظاهر قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾ [الزخرف:٢٨] أنه لم يزل التوحيد يتوارثه عقب إبراهيم عليه السلام، ولذلك قالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم.

وقد اتفق التفسيران للصابئين: على أنهم قوم يوحدون الله، ليسوا من اليهود ولا النصارى، وكانوا قبل بعثة الرسول ﷺ، إلا أن تفسير (الميزان) أثبت لهم أصناماً، فنافى ذلك قوله: إنهم أناس يوحدون الله.

والحاصل: أنهم أهل ملة دينية غير اليهود وغير النصارى، وقد قدمت في تفسير (البقرة) حكايات لدينهم خلاف ما هنا، ولكن المحقق هذا الحاصل.

﴿٧٠﴾ ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كما مر في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ..**﴾ الآية، فذكر أخذ الميثاق هنا تقدمة لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ليبين نقضهم للميثاق، وأنه لا يفيدهم انتسابهم للكتاب وهم مخالفون لما فيه عادلون عن الإيمان الصحيح والعمل الصالح إلى ضدهما..

كيف لا وهم كلما جاءهم رسول من الرسل الذين أرسلوا إليهم استكبروا، ففريقاً من الرسل كذبوا وفريقاً يقتلون، أي كذبوا فريقاً من الرسل وقتلوا فريقاً؛ وقدم المفعول؛ لأنه المهم، من حيث هو رسول أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به ونصرته فكذبوه أو قتلوه.

وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ

قال في (الكشاف): «فإن قلت: لِمَ جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً ؟ قلت: جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها» انتهى؛ و لعل قوله: للتعجب، غلط في النسخة، والصواب: والتعجيب منهم.

وقد اعتبر باقياً بالنسبة للموجودين من أهل الكتاب ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١] فقال ـ والله أعلم ـ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لأنهم مشاركون فيه في الحال، فكأنه باق إلى الآن ـ والله أعلم ـ أو أنه على استحضار الحال، ففيه رد على من زعم أنه جيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لكونه آخر الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ ليس آخر آية.

﴿٧١﴾ ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ فلذلك تجرؤا على تكذيب وقتل مَن كذبوا وقتلوا من الأنبياء، وهم قد تعرضوا للفتنة بتلك الجرائم لكنهم يظنون أنهم أحباء الله فلن يؤاخذهم بذنوبهم.

والفتنة: إما عذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] أو تكليف يشق عليهم ويكونون معه إذا عصوا أدَّاهم للعذاب، كتكليف أصحاب السبت وابتلائهم بالحوت، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣].

﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ لأن آيات الله تتلى عليهم في التوراة، وهم يقرؤونها ولكنهم لا ينتفعون بها، كأنهم عمي لا يبصرونها، وصم لا يسمعونها؛ لجرأتهم على المعاصي، وقسوة قلوبهم لحسبانهم أن لا تكون فتنة.

مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فهداهم، ولعل ذلك بنبي من أنبيائهم أو زاجر عظيم حدث لهم ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بعد اهتدائهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازي بقدر المستحق من خير أو شر، وينزل كلاً من الضال والمهتدي منزلته، ولا يخفى عليه شيء من عملهم ولا من توبة التائب وإصرار المصر.

﴿٧٢﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فهم يعلمون أنه ابن مريم، ومع ذلك يزعمون أن الله هو ابن مريم؛ كأنهم يريدون أن الله جل جلاله تجسد أي تحول جسداً سبحانه وتعالى.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى) [ص٢٩٩/خ]: «وزعمت الفرق الثلاث من النصارى ـ فنعوذ بالله من الجهل بالله ـ أنها تجد فيما في أيديها من كتب الأنبياء: أن المسيح ابن مريم هو الله وابن الله، فجعلوا في قولهم هذا الابن أباه» انتهى المراد.

وقد حقق عليه السلام مقالاتهم أحسن تحقيق، ورد عليها بواضح الرّد النافع المفيد، فليطالعه من أراد التحقيق، وأقرب الرد وأنفعه: القرآن الحكيم، فإذا علموا أنه كلام الله علموا بطلان مقالهم، وقد تبين: أن القرآن كلام الله بتعجيزه للعرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يأتوا بشيء؛ وبإخباره أنهم لن يفعلوا، فكان خبره صدقاً.

إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

وبناء على ما حكاه الإمام القاسم عليه السلام يظهر: أن الآية الكريمة تعمهم بالتكفير؛ لأنهم تارة يقولون: هو هو، وتارة يقولون: ثالث ثلاثة، فكفرهم الله بكلا القولين، وذكر الإمام القاسم عليه السلام: أن النصارى أخذوا مذاهبهم في المسيح عليه السلام من اليهود، فأنكر عليهم قبوله من اليهود؛ ولكن لعله دخل على النصارى بواسطة يهودي تنصر سعياً في إفسادهم وخداعاً لهم، ليضلهم عن التوحيد، لئلا ينتصروا على اليهود في الحرب بينهم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فبيّن لهم عيسى عليه السلام: أن الله ربه وربهم، وأمرهم أن يعبدوا الله، والعبادة اعتراف بالعبودية ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ فأنذرهم المسيح فوات الجنة عليهم بالشرك والخلود في النار، وأنه لا يكون لهم من ناصر لا المسيح ولا غيره؛ والعلة في ذلك أنهم ظالمون، لأنه أقام ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ مقام: وما لهم، فظهر: أن العلة الجامعة لأهل النار هي الظلم، وإن كان الشرك ظلماً عظيماً.

﴿٧٣﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ كل واحد من الثلاثة إله بزعمهم، وهم بزعمهم: (الله، وروح القدس، وعيسى) فقالوا: الله أب، وعيسى: ابن جوهره بزعمهم جوهر الأب وهو مولود غير مخلوق في قولهم، وروح القدس ليس أباً ولا ابناً، ومجموع الثلاثة واحد بزعمهم، راجع كتاب (الرد على النصارى) للقاسم عليه السلام.

رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ واحد غير متعدد، وهو الله لا إله إلا هو و(مِنْ) تفيد تقوية عموم النفيْ ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَنتَهُوا۟﴾ يمتثلوا نهي الله لهم ويطيعوه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، والذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، علق الوعيد على الكفر، بعد أن أخبر أنهم كفروا؛ ولعل الحكمة دفع التوهم من قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ للعموم لكل ما يقولون من حق وباطل ـ والله أعلم.

وإنما رجحت أن قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعم القولين؛ لأن ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على التكرار، والقولان تكرار من حيث هو قول شرك، وقد ابتدأ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ فعدوله عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وهو الفعل الذي يكون عادة لفاعله فيعبر عنه بالمضارع.

﴿٧٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الهمزة) سؤال للتوبيخ إن لم يتوبوا، وللدعاء إلى التوبة، و(الفاء) للتفريع على ما مضى في الآيات، من بيان كفرهم، ومن الوعيد الشديد عليه؛ لأن من شأنه أن يبعثهم على التوبة والاستغفار لطلب النجاة من العذاب الشديد وحرمان الجنة؛ لأن الله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل التائبين المستغفرين، فيغفر الذنوب المهلكة، ويبدل أهلها من غضبه عليهم رحمة.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الفرَّاء: هذا أمر بصورة الإستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ في آية الخمر» انتهى.

ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ

﴿٧٥﴾ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي فليس إلهاً وهذا قصر القلب، أي ما هو ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ لا إله، وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ يحقق أن الرسالة لا تعني أنهم آلهة؛ ولذلك خلوا أي مضوا من هذه الدنيا مع أنهم جاءوا بالآيات الدالة على صدقهم مثل ما جاء على يدي موسى وعصاه من الخوارق.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ صدِّيقة، مصدّقة بكلمات الله وكتبه، أو كثيرة الصدق كما في الحديث الشريف: ((عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)) انتهى، أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وذلك دليل الحاجة والضعف المنافي للربوبية، قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال في (البرهان): هذا ردّ على اليهود والنصارى في قولهم إنه: ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ ردّ على اليهود في نسبتها إلى الفاحشة، والصديقة: المبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها)) انتهى.

قلت: يعنى أن قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ رد على النصارى في قولهم إنه ابن الله، وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى) [ص٢٨٤/خ]: ((وليس أحد من النصارى يثبت لمريم ما يثبت لابنها من الإلهية، بل كلهم يقول: إنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية، وقد يلزمهم صاغرين فيها من إضافة الإلهية إليها ما قال الله تبارك و تعالى ـ ملزماً لهم ـ فيها..)) الخ.

والقول المشار إليه قد نبّه عليه السلام عليه في [ص٢٨٢ ـ٢٨٣] حيث قال عليه السلام: وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لعيسى ـ صلوات الله عليه ورضوانه ـ فيما نزل من الكتاب في يوم البعث والحساب توقيفاً وتعريفاً لَه وللعباد، على أنه قد يجب للوالد في الذات ما يجب للأولاد وتوبيخاً لمن أفرده دون أمه في العبودية والإلهية وحالهما في الذات حال واحد مستوية فعبدوه عماية وجهلاً دونها وهم يعلمون أنه ابنها ومنها، ويوقنون ولا يشكون أن أباها أبوه فهي وآباؤها أولى منه بما أعطوه..

إلى قوله عليه السلام: «..إذ يقول لَه ـ صلى الله عليه ـ في ذلك عن غير ما سخطة ولا لوم ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِ وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ..﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مع بعض تفسير لغرض الاحتجاج على النصارى، فراجعه فإنه مفيد، وكلام (صاحب البرهان) هنا كأنه مبني على ما ذكره الإمام القاسم عليه السلام.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فتبيين الآيات لهم يبين عدل الله وحكمته وفضله ورحمته حيث لم يتركهم، مع أنهم لو استعملوا عقولهم لاهتدوا للصواب، وعلموا بطلان جعل المسيح إلهاً ورباً ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾ بعد إكمال الحجة عليهم وقطع المعذرة ببيان الآيات ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ من أين يؤفكون، فإنك إذا نظرت وبحثت لم تجد لهم شبهة من شأنها إضلالهم وقلبهم من التوحيد إلى الشرك، وإنما هي خرافات مكذوبة على الأنبياء قبلوها بواسطة إهمالهم لعقولهم أو ما في كتبهم من المتشابه الذي جاء في أصحاب المسيح كما جاء فيه ولم يزعموا أن الحواريين أبناء لله كما زعموا في عيسى عليه السلام.

(٧٦) ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وهو عيسى عليه السلام، ولعل هذا وهو كونه ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لازم لهم من قولهم: إنه لم يستطع تخليص آدم وبني آدم من ملك الشيطان إلا بتعرضه للصلب والأذى، فلو كان يملك الضر والنفع لاستطاع إنقاذهم واشتراهم بفدية غير صلبه وتعرضه للضر والأذى، هذا إذا كانت خارجةً مخرج الإلزام، وكذلك يلزم من قولهم: إن الأب خلق الخلق بواسطة الابن، وأن تدبير أمور الخليقة وظيفة روح القدس.

قال الإمام القاسم عليه السلام في كتاب (الرد على النصارى) [ص٢٨٤ـ ٢٨٥]: «وكذلك قالت النصارى: إن الله خلق الأشياء بآنية نفسه وحفظها ودبرها بروح قدسه، وأن الابن خلق الخلق وفطره، وأن روح القدس حفظ الخلق ودبره، وزعموا أن قوّة الخلق غير قوّة الحفظ والتدبير، وأن الأب لم ينفرد من ذلك بقليل ولا كثير» انتهى المراد.

فإذا كان الحفظ وتدبير الأمر ليس إلا وظيفة روح القدس وله وحده دون عيسى قوة الحفظ والتدبير كان عيسى لا يرجى منه نفع ولا يخشى منه ضر؛ لأن ذلك كله من الحفظ وتدبير الأمر.

هذا ويحتمل: أن الله تعالى قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ليبين للنصارى الحقيقة أن عيسى عليه السلام لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ومعنى ملكه له قدرته عليه مستقلاً غير متوقف على إذن الله وإقداره عليه، بل متى شاء فعل بدون قيد ولا شرط فنفى الله ذلك عن عيسى وهو أصدق القائلين.

ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيفيد: أنه الذي يسمع الدعاء من العابد حين يعبده، ويسمع الذاكر له حين يذكره ويعلم العبادة وخلوص النية بها، فهو الذي يرجى منه نفع العبادة لدفع الضر وجلب النفع.

﴿٧٧﴾ ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الغلو: تجاوز الحد المشروع تديناً، كالإفراط في تعظيم عيسى بجعله رباً، وكاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي غلواً غير الحق، وهذا ذم للغلو بأنه غير الحق، وتعريف بالفصل بين الغلو وغير الغلو لمن قد غلا وهو لا يرى أنه غال.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يخبرهم الله أن اتباعهم لأسلافهم الذين يعظمونهم، إنما هو اتباع لأهوائهم وليسوا إلا قوماً قد ضلوا وأضلوا كثيراً، فهم مع ضلالهم في أنفسهم مفسدون لا يستحقون أن يعتبروا قدوة في الدين، ومع أن ضلالهم واضح لمن استعمل عقله لأنهم ضلوا عن الحق الواضح الذي هو سواء السبيل الذي لا عوج فيه.

﴿٧٨﴾ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ دعا عليهم داود وعيسى ابن مريم بلعنة الله، ولما كان ذلك حكم الله فيهم كان لعنة من الله على لسان دود وعيسى ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ﴾

فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي

لعنهم المذكور﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فهو جزاء لهم ﴿بِمَا عَصَوا﴾ ربهم كتركهم للنهي عن المنكر، وكتوليهم للذين كفروا، وبما ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كاعتداء أصحاب السبت، وكقتل الأنبياء، والذين يأمرون بالقسط من الناس.

﴿٧٩﴾ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ تركوا النهي عن المنكر فيما بينهم حتى لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر قط، ولعل النهي المذكور في الحديث لم يكن يعد نهياً؛ لأنه قول غير جاد بل هو لاحق بالهزل.

قال الناصر عليه السلام في (البساط) [٩٤ـ ٩٥]: وحدثنا بشر، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا علي ابن بَذِيمة، قال: سمعت أبا عبيدة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما وقع النقص في بني إسرائيل جعل أحدهم يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، ولا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشَرِيبَه وجليسه، فصرف الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى آخر أربع آيات ﴿..وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾».

قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: «كلاَّ والذي نفسي بيده حتى يأخذوا على يدي الظالم، ويأطروه على الحق أطراً» قال الناصر الحسن بن علي عليه السلام: «يأطروه على الحق: أي يعطفوه على الحق عطفاً» انتهى.

قوله: فصرف الله...، هكذا في النسخة، ويمكن تفسيره: بالخذلان، على معنى الصرف عن الهدى، ولو جاء بلفظ: فضرَّب ـ بتشديد الراء ـ لكان معناه: الإغراء بينهم، كما أفاده في (الصحاح).

ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ

والحديث في (سنن أبي داود) [ج٤/ ص١٢١] بلفظ: «ضربَ..» ولعله بدون تشديد ـ مجاز عن إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، كأن قلب المبغض إذا رأى عدوه أو سمعه يضرب بالعصا، فجعل العدو يضرب به قلب عدوه ـ والله أعلم.

وقد خرج الحديث السيوطي في (الدر المنثور) من كتب عديدة بلفظ ضرب، وأورد الحديث ونحوه عن ابن مسعود، ومعاذ، وأبي موسى الأشعري.

والحديث ـ أيضاً ـ في أمالي المرشد بالله عليه السلام بلفظ ضرب من طريقين: عن عبيدة وفي آخر أحداهما: «كلاَّ والذي نفسي بيده حتى تأطروهم..» الخ ـ بالمثناة من فوق ـ راجع (أمالي المرشد بالله) فله طرق، إلا أنه يجمعها طريقان، وفيهما معاً باللفظ أو المعنى الخطاب في آخره بالمثناة من فوق، والذم لهم على ترك النهي عن المنكرات التي فعلوها موجّه إلى تركهم لَه في وقته لا إلى تركه بعد وقوعه، وإنما ذكر وقوعه يفيد أنه قد جاء وقت النهي فلم ينهوا عنه، ونظيره قوله تعالى في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ كلهم العصاة والمداهنون، وهذا ذم مؤكد بـ(لام القسم).

﴿٨٠﴾ ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لوقت نزول القرآن وما قبله يتولون من هم في دين أهل الكتاب كفار لا يجوز توليهم، أي يصادقونهم ويصافونهم المودَّة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هو ما كانوا يفعلون، ونُسِب إلى أنفسهم لأنها هي الأمارة بالسوء التي ورطتهم فيه، وجعل تقديماً لأنفسهم، لأن من شأن العاقل الذي سمع الوعد والوعيد أن يقدم لنفسه عملاً صالحاً ينجيه من العذاب ويبلغه الجنة، فلما كان المذكورون من أهل الكتاب جعلوا مكان ذلك المعاصي الموبقات جعلت تقديماً لأنفسهم، على طريق المشاكلة التقديرية، أو تهكماً بهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إما مخصوص بالذم أي هو سخط الله عليهم؛ لأن معاصيهم سبب السخط، وإما تعليل للأفعال المذمومة أنها وقعت منهم؛ لأن سخط الله عليهم، أي أن معاصيهم جرَّت معاصيَ أكبر منها بسبب خذلان الله لهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منه كما زعموا أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَبِئْسَ..﴾ إلى ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ النبي الذي ينتمون إليه ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ كما يدعون ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ لأن الإيمان لا يدع صاحبه يتولى أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٢] لأن المؤمن يحب في الله ويبغض في الله كما في الحديث: «أوثق عرى الإيمان: الحبّ في الله، والبغض في الله».

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب، وهم الذين قال فيهم: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ..﴾ وهو احتراس لئلا يوهم أن أهل الكتاب كلهم فاسقون مع أنهم

أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى

ليسوا سواء، فهؤلاء ليسوا مؤمنين بل هم ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله خبثة فجار، ومن كان كذلك لا يستبعد منه الشرك فلا يغتر بهم من بعدهم.

وقد قيل: إن بعض النصارى احتج لقولهم في عيسى بأنه مذهب واضح البطلان في بادئ الرأي، فلولا أن فلاناً وفلاناً وفلاناً من أسلافهم قد علموا صحة ذلك لما دانوا به؛ لأنهم أهل عقول ودين فلعل ما ساقه القرآن من ذكر معاصي أهل الكتاب من ترك التناهي عن المنكر وتولي الكفار ساقه لإبطال هذه الشبهة وتحقيق أن ضلالاتهم إنما هي أهواء أنفسهم لا برهان لهم بها.

﴿٨٢﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لعلّه خطاب عام لكل سامع لوضوح عداوتهم لكل من يعرفهم ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ عام لكفار العرب المشركين وللمشركين من أهل الكتاب وغيرهم؛ وذلك لأن دين الله الذي عليه المؤمنون ينافي دين المشركين وهم يحبون من يتخذونهم أنداداً لله كحب الله؛ ولذلك يبغضون المؤمنين الذين يبرءون من شركائهم، فسواء في هذا الغلاة من النصارى الذين أشركوا بعيسى وسائر المشركين؛ لأن شدة حب النصارى الغلاة لعيسى تجعلهم يغضبون على من ينفي إلهيته على قدر غلوهم فيه؛ فلذلك لا فرق بينهم وبين سائر المشركين، بل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ في غلاة النصارى الذين أشركوا بعيسى أظهر؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ ولم يقل والمشركين لأن الشرك حادث في النصارى كما هو حادث في بعض اليهود، وأصل دينهم الذي ينتمون إليه هو التوحيد.

ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ أي ولم يشركوا وهم النجاشي ومن أشبهه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي قرب مودتهم للذين آمنوا ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿قِسِّيسِينَ﴾ كبار علماء النصارى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والقسيسون، فهم كبار النصارى يصلون بهم ويقدمونهم ويعظمونهم» انتهى.

وقال في (الصحاح): «والقَسّ - أيضاً - رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم وكذلك القسيس» انتهى.

وأصل الرهبان: من الرهبة، وهي الخشية، ثم صار اسماً للزاهد الذي يتخلى للعبادة ويترك شواغل الدنيا، ثم صار يستعمل في المتخلي للعبادة المظهر للزهادة والتخلي من الشواغل الدنيوية.

فالحاصل: أن في هؤلاء النصارى قدوةً مهيّأةً لقبول الإيمان بدين الله الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى كلهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فهم بذلك مهيئون أيضاً لقبول الحق لسلامتهم من الكبر المانع منه لثقل الخروج من الدين المألوف إلى غيره لمجرد اتباع الحق فقد سلموا من هذا المانع كما سلموا من الغلو الذي يمنع المشركين من التوحيد، فكانوا قريباً من قبول الحق غير نافرين من الذين آمنوا، بل هم أقرب مودةً لهم لموافقتهم في التوحيد وتجويزهم قبل النظر وسماع القرآن أن الدين الذي دخلوا فيه هو الحق قد أرسل الله به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ من القرآن ﴿تَرَىٰٓ﴾ أي يراها الحاضر لهم ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟﴾ بسبب ما عرفوا ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو أن الله قد أرسل الرسول الذي بشر به عيسى مصدقاً لما جاء به عيسى عليه السلام ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ ﴿ءَامَنَّا﴾ بما أنزلت على محمد ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ به.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يغرونه عليهم ويطلبون هلاكهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟

قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم:٣٤] وقرأ (سورة طه) إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه:٩] فبكى النجاشي، وكذلك قومه الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم: سورة يس» انتهى.

﴿٨٤﴾ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿وَمَا لَنَا﴾ أيُّ مانع يمنعنا، وأيُّ حالة لنا تنافي الإيمان وتمنع منه، وهذا استبعاد منهم لترك الإيمان؛ لأن اللائق بحالهم هو الإيمان بالله وما جاء هم من الحق، وطمع أن يدخلهم ربهم مع القوم الصالحين الذين هم محمد ومن معه صلى الله عليه وآله وسلم يدخلهم معهم الجنة، وهذه الآيات فيهم مثل الآيات في (سورة القصص): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ..﴾ [القصص:٥٢-٥٣] الآيات .

ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أثابهم الله جنات جعلها لهم ثواباً فصارت لهم بحكمه وجعله، ويحتمل: أن ذلك وعد مؤكد بإخراجه مخرج الماضي، كأنه قيل: فأحلَّهم جنات خالدين فيها، وهذا أقرب لجعل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حالاً محققة، وعلى الأول يكون خالدين حالاً مقدَّرة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المحسنون: هم المؤمنون المتقون فجزاهم الله ما يجزي المحسنين لأنهم منهم.

﴿٨٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وهذا يعم المشركين من أهل الكتاب وسائر الكفار المكذبين، و﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ نار جهنم، وأصحابها أهلها.

﴿٨٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ التحريم هنا منع النفس ذلك باليمين أو بقوله: هو حرام عليَّ مثلاً، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ أي تتجاوزوا الحد المشروع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ لأنهم تدينوا بما لم يشرعه لهم وفيه مفسدة المشقة عليهم وتثقيل المشروع لاختلاطه بالزيادة، مع أنه لا فائدة في الاعتداء وتجنب ما وهب الرب الكريم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ يأكل المؤمن من طيبات الرزق ما تيسر وحضر، ولكنه لايشغل

أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

وقته بالسعي لتحصيل الفضلات من المأكول، ويتجنب تعويد النفس بما يسبب اشتغالها بالشهوات، ولا بأس بترك الأكل في بعض الحالات إيثاراً للمحتاجين، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ..﴾ [الإنسان:٨].

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا﴾ يخرج الحرام، لأنه رزق من أعطاه الله لا من اغتصبه، وقوله تعالى: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ كالتفسير لما رزقنا، لأن الخبيث محرم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أمره ونهيه الذي أنتم به مؤمنون، فأنتم تعلمون أنه يعلم ما تسرون وما تعلنون، وأنه يجزي كل نفس بما تسعى.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي أنه ﷺ وصف القيامة يوماً لأصحابه فبالغ في الإنذار، فرقّوا واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يباتوا [كذا ولعل الأصل: يناموا] على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء والطيب، ويجبّوا مذاكيرهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» فنزلت» انتهى، يعني قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا..﴾ الآية.

﴿٨٩﴾ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللغو: الخطأ الذي لا ينبني عليه حكم فهو ملغي، قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام:

اللغو فهو ما لا يتعمد فيه اليمين ولا يقصد فيه جرأة على رب العالمين، وإنما تقع من طريق الغفلة والسهو، واللغو: ما لا يكون له حقيقة ولا قصد ولا ضمير، وقد قيل في اللغو: إنه الرجل يحلف على الشيء ما فعله وقد فعله، وليس هو عندنا كذلك» انتهى.

وتفسير المرتضى حسن؛ لأنه جعله الحلف خطأ الذي لم يتعمده الحالف ولا قصد أن يحلف، وهذا داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب:٥] فأما من تعمد اليمين بناء على ظن الصدق فليست يمينه من اللغو، بل إذا اقتطع بها حق مسلم دخل في عموم الوعيد لأنها مما كسب القلب، وليس له أن يحلف إلا على اليقين بما يحكم به الحاكم لو علمه لأنه شاهد لنفسه.

فإن قيل: فإن الهادي عليه السلام فسرها بالتي يظن الحالف صدقها؟

قلنا: إن الذي يحلف خطأ لا بد أن يكون ظاناً للصدق، وإلا كان آثماً لتعمده الكذب وإن لم يتعمد اليمين، فلا بد أن يكون اليمين خطأ ممن يظن الصدق، وهذا جمع بين التفسيرين، هذا الراجح عندي.

﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ عقد اليمين: الحلف على فعل في المستقبل أو ترك، كقوله: (والله لا أكلت من هذا) قال الشرفي: «قال في (البرهان): وعقدها: هو لفظ باللسان، وقصد بالقلب، لأن ما لم يقصده الإنسان بقلبه فهو لغو لا يؤاخذ به، والعقد يجب أن يكون على فعل مستقبل ولا يكون على فعل ماض، والفعل المستقبل نوعان: نفي، وإثبات..» الخ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ أي بسبب تعقيدكم الأيمان، وذلك إذا لم تحفظوها، ولا حاجة لتقدير محذوف بنكث أيمانكم؛ لأن المؤاخذة على النكث بسبب التعقيد لليمين ولولا التعقيد ما وقع نكث؛ ولأن الظاهر أن سبب الكفارة هو اليمين وإنما النكث شرط.

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ أي كفارة تعقيد الأيمان ليصير كأن لم يكن، والتكفير: الستر والتغطية ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كفارة اليمين) كالتفسير للآية: «يطعم عشرة مساكين غداءهم وعشاءهم من أوسط ما يطعم أهله من الطعام، ويأدمهم بأوسط الأدْم، يطعم كل واحد منهم نصف صاع من دقيق أو صاعاً من تمر أو شعير أو صاعاً مما يأكله هو وأهله من الذرة وغيرها من الطعام، أو يكسوهم كسوة تجمع جسد كل مسكين منهم إما قميصاً سابغاً، وإما ملحفة يلتحف بها، وإما كساء، ولا تكون الكسوة إلا كسوة جامعة للبدن، لا يجوز أن يكسى أحدهم عمامة وحدها ولا سراويل وحده، أو يعتق رقبة مسلمة صغيرة أو كبيرة، وهو في هذه الكفارات الثلاث بالخيار» انتهى المراد.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ يجزيه كفارة ليمينه، قالوا: ويجب أن تكون الثلاثة متتابعة ومن كان لا يجد طعاماً ولا كسوة ولا رقبة ولكنه يجد ثمن أحد هذه الأشياء فلا يجزيه الصوم، وكذلك من كان لَه مال أو عرض إذا باعه تمكن من تحصيل الطعام أو الكسوة أو الرقبة فلا يجزيه الصيام.

فأما من لم يجد عشرة مساكين فيرسل الكفارة لتنفق حيث يوجد المساكين المسلمون، فإن عدموا انتظر حتى ييأس، ومتى يأس فالراجح عندي: أنه يجزيه الصوم حيث يأس من تحصيل الرقبة والمساكين؛ لأنه في المعنى كمن لم يجد طعاماً ولا كسوة ولا رقبة، بل لا يبعد دخوله في عموم قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ وإنما قلت ينتظر تحصيل المساكين للرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام ذكرها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام).

ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾ ذلك المذكور كما ذكر كفارة أيمانكم، وهو يدل على أن التكفير لليمين نفسها كما دل عليه أول الآية ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ أدّوا حقها ولا تهملوها فمن أهملها فقد أضاعها ولم يحفظها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ..﴾ [البقرة:١٤٣] وقال تعالى: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥] وفي الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول» رواه الإمام زيد بن علي عليه السلام في (المجموع) وفيه بحث نفيس في اليمين والكفارة، قال في (الصحاح): «حفظت الشيء حفظاً أي حرسته» انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ كذلك البيان في هذه الآيات يبين الله لكم آياته في القرآن وغيره، أو المراد آيات القرآن، وهذا دليل على أن الآيات بينات بالنسبة للعرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فلا تحتاج إلى بيان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا من إمام ولا شيخ.

فأما تفصيل ما أجمل في القرآن أي عبر به عن جملة مفصلة في السنة فليس من البيان بها؛ لأن اللفظ القرآني عبارة عن الجملة وهي معروفة بالسنة فصارت بينة؛ لأنها معروفة جملة، وليس ذلك من باب الترجمة للكلام الذي لم يفهم كما أن اسم الإنسان مفهوم المعنى، ولا ينافيه أن معرفة بعض أجزائه يحتاج إلى علم التشريح، فنحمد الله على بيانه، ونسأله الهداية لتعلمه واتباعه، فإنه من أعظم النعم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قال في (لسان العرب):

«والخمر: ما أسكر من عصير العنب؛ لأنها خامرت العقل، ثم قال: وقال أبو حنيفة: قد تكون الخمر من الحبوب، فجعل الخمر من الحبوب قال ابن سيده: وأظنه تسمحاً منه؛ لأن حقيقة الخمر إنما هي من العنب دون سائر الأشياء» انتهى.

وقد فسر الإمام الهادي عليه السلام هذه الآية في (الأحكام) في (الحدود) فقال عليه السلام: الخمر: كل ما خامر العقل فأفسده، فإذا أفسده كثيره كان حراماً قليله، ولذلك سميت خمراً لمخامرتها للعقل وإبطالها له، سواء كانت من عنب أو تمر أو عسل أو ذُرةٍ أو شعير أو حنطة أو زهو أو غير ذلك من الأشياء» انتهى المراد هنا، ويأتي إن شاء الله بقية تفسيره لهذه الآية.

والمختار عندي: أن الخمر وإن سميت خمراً لمخامرتها العقل، فهو اسم لها لا مجرد صفة بالمصدر، فإن كانت تصنع من غير العنب فتحصل جامعة للصفات التي يطلبها شارب الخمر من الخاصة المحصلة للنشاط والإطراب، والتفريح، والتنبيه للأعصاب، وغير ذلك مما يعرفه أهلها ويطلبه منها شاربُها فقد حصلت حقيقة الخمر، وأصلها الذي صنعت منه خارج عن مفهومها.

ألا ترى أن خمر الجنة يسمى خمراً وليس من العنب، وعسلها عسلاً وليس من النحل، ولبنها لبناً وليس من الأنعام، وذلك لأن الاسم للذات بصفاتها غير مأخوذ في معناه أصلها؛ ولعل سبب الخلاف في الخمر هل هو خاص بما أخذ من العنب؟ أم عام لكل شراب خُمِّرَ وأسكر من غير نظر إلى أصله؟ لعل سبب الخلاف أن العرب لم يكونوا يستطيعون صنعتها جامعة لأوصافها ومميزاتها إلا من العنب، وما صنعوه من غيره يكون ـ والله أعلم ـ بخلافها في بعض معناها، إلا أنه موافق لها في الإسكار.

فأما في هذا العصر فلعل بعض النصارى وغيرهم يصنعها جامعة لأوصاف نبت العنب من غير العنب، فهي خمر بلا إشكال؛ لأنه لم يفقد فيها إلا النسبة إلى العنب وهي خارجة عن مفهوم الخمر.

وعلى هذا: فالنبيذ المسكر المصنوع من غير العنب الذي لم تكمل فيه أوصاف الخمر التي من العنب إنما يحرم لإسكاره، وللحديث: «كل مسكر خمر» فإنه يدل على أن كل مسكر لَه حكم الخمر، وهذا هو المقصود في الحديث لا تعليم الاسم، لأن العرب لا تحتاج إلى من يعلمها لغتها.

وأيضاً لو كان مفهوم الخمر مفهوم المسكر، لكان الحديث بمنزلة ما لو قيل: (كل مسكر مسكر) فظهر: أن ليس إلا مثل قوله ﷺ: «الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله أباح فيه الكلام» أو كما قال.

وأوضح من هذا ما رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) وهو في (أمالي أحمد بن عيسى): عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي عليهم السلام أنه قال: «السكر بمنزلة الخمر» أي حكمه حكم الخمر، ولو كان كل سكر خمراً حقيقة ما استقام هذا الكلام.

وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول في حدّ الخمر): وحدثني أبي عن أبيه، أنه قال: بلغنا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول: «لا أجد أحداً يشرب خمراً ولا نبيذاً مسكراً، إلا جلدته الحدّ ثمانين» انتهى.

وأما ﴿ٱلۡمَيۡسِرُ﴾ فقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «والميسر: فهو النَّرْد والشطرنج والقمار كله، وكل ما كان من ذلك مما يلهي عن ذكر الرحمن ويشغل عن كل طاعة وإيمان» انتهى، وظاهره: أن اللعب بالنَّرْد والشطرنج ونحوهما من الميسر من غير اشتراط القمار.

وفي (لسان العرب): والميسر: اللعب بالقداح، قال: وفي التنزيل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩] قال مجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز.

وروي عن علي ـ كرَّم الله وجهه ـ : «الشِّطرنج ميسر العجم» شبّه اللعب به بالميسر وهو القِداح ونحو ذلك، قال: والياسر: الجازر؛ لأنه يجزئ لحم الجزور، وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقِداح والمتقامرين على الجزور: ياسرون؛ لأنهم جازرون إذا ـ كذا ـ كانوا سبباً لذلك، الجوهري: الياسر اللاعب بالقداح» انتهى المراد من (لسان العرب).

وفي (الصحاح): «والياسر: اللاعب بالقداح كما حكاه في (لسان العرب) قال: والميسر قمار العرب بالأزلام» انتهى، وقال في القمار: «قال ابن دريد: والقمار: المقامرة، وتقامروا: لعبوا بالقمار، وقَمَرت الرجل اقمِره ـ بالكسر ـ قَمْراً إذا لاعبته فيه فغلبته، وقامرته فقَمَرتُه اقمُره ـ بالضم ـ إذا فاخرته فيه فغلبته» انتهى.

وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام رواه في (نهج البلاغة): «فإن المرء المسلم ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت وتغرى بها لئام الناس، كان كالفالج الياسر الذي ينتظر أول فورة من قِداحه توجب لَه المغنم ويرفع بها عنه المغرم، وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين ...» الخ، انتهى، وفيه توضيح الياسر.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام: «أنه مر بقوم يلعبون بالنرد، فضربهم بدرته حتى فرّق بينهم ـ ثم قال ـ: ألا وإن الملاعبة بهذه قماراً كأكل لحم الخنزير، والملاعبة بها غير قمار كالمتلطخ بشحم الخنزير وبدهنه، ثم قال عليه السلام: هذه كانت ميسر العجم، والقداح كانت ميسر العرب، والشطرنج مثل النرد» انتهى.

بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩] فالميسر: القمار» انتهى، ومثله في تفسير هذه الآية.

فترجح أن الميسر القمار بواسطة القداح أو النرد أو الشطرنج أو غيرها، ولعل الإمام الهادي عليه السلام ذكر النرد والشطرنج؛ لئلا يتوهم أن الميسر خاص بالقداح.

وأما ﴿ٱلْأَنصَابُ﴾ فقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): والأنصاب: فهي أنصاب الجاهلية التي كانوا ينصبونها من الحجارة لعبادتهم يعبدونها من دون الله وهي اليوم فموجودة في شعاب الأرض وفي آثارهم منصوبة على حالها قائمة منذ عهدهم.

وأما ﴿ٱلْأَزْلَٰمُ﴾ فقال الإمام الهادي عليه السلام: والأزلام: فهي القداح التي كانت الجاهلية تضرب بها وتستقسم بها وتجعلها حكماً في كل أمرها، عليها كتب وعلامات لهم، فما خرج من تلك الكتب والعلامات جعلوه لهم هداية ودلالات، فأخبر الله تعالى أن ذلك كله من فعلهم أمرٌ عن الله يصدهم ومن طاعته يمنعهم ومن التعاهد لأوقات فرائض الصلوات يشغلهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ انتهى

قال الراغب: «﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذلك أبلغ من قولهم اتركوه» انتهى. قلت: لأن معناه المجانبة له، أي الكون في جانب غير جانبه.

﴿٩١﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي والواجب عليكم: التحاب والتآلف والتآخي، ليمكنكم الجهاد في سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى، و﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن

يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ لما في ذلك من المفاسد العظيمة التي من أهمها: الضعف عن حماية الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ أي بسبب الخمر والميسر؛ ولعله من الكناية بأن جعل الخمر والميسر محلاً للعداوة والبغضاء، وفي هذا مأخذ لتحريم أسباب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويصرفكم ويمنعكم ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ بقلوبكم وألسنتكم لاشتغالكم بالخمر والميسر ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ كذلك، والاشتغال بالميسر ظاهر لشدة حرص المتقامرين على الغلبة واشتغاله بسبب القمار، وأما الخمر فمن جهتين: جهة التجارة فيه، وجهة السكر.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فهل أنتم يا مسلمون تاركون لهما بعدما بيّن الله فيهما تلك المعايب التي ينبغي للمسلم أن يبغضهما ويشتد حذره منهما فهما، رجس وشأنكم التطهر من عمل الشيطان عدو الله وعدوكم، وشأنكم الحذر منه واجتناب خطواته، يريد ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ وشأنكم الولاية والحب ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وشأنكم ذكر الله كثيراً ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وشأنكم المحافظة عليها، فهذه العيوب تدل على أن شأن المسلم أن يجتنبهما وينتهي بنهي الله عنهما.

وهذا الخطاب للمؤمنين رحمة من الله، ليتركوا عن قناعة، فيه لطف يشبه لطف الوالد بولده، ونظيره خطابهم في أول (سورة الممتحنة) للتحذير من اتخاذ الكفار أولياء فتأمله ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣] فلهم رحمة خاصة بهم زائدة على الرحمة للناس جملة.

تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في كل حكم ومن ذلك اجتناب ما ذكر قبل هذه فيُجتنب طاعةً لله وطاعة للرسول ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله ورسوله فيجب عليكم أن تعلموا يقيناً أن الذي على الرسول هو ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فأما الحساب والعقاب فهو إلى الله، فلا تغتروا إن خفي على الرسول توليكم أو لم يستطع قهركم، إذ لم يرسل إليكم لهذا القهر كلما عصيتم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الموضح لحكم الله الدال عليه دلالة بينة، وفي هذا رد على الباطنية، ومن يثبت التوصل إلى الأحكام بالرموز والإلهام، دون البلاغ من الرسول ﷺ البلاغ المبين الذي تفهمه العرب.

﴿٩٣﴾ ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿طَعِمُوٓا۟﴾ أكلوا أو شربوا مع تقوى الله، واجتناب تعمد معصيته وذلك المباحات، وما طعموا خطأً لم تعمد قلوبهم به معصية فهذا الذي يكون مع التقوى. فأما تعمد الحرام بعد العلم بتحريمه فهو ترك للتقوى وتعرض للعقاب، كما قال تعالى في الوعيد على ذلك: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا..﴾ الآية [النساء:١٤] وغيرها.

أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن

وقد روى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (باب القول في حد الخمر): عن علي عليه السلام في قصة أنه قال عليه السلام في تفسير هذه الآية: إن الله لما حرم الخمر شكا المؤمنون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: كيف بآبائنا وإخواننا الذين ماتوا وقتلوا وهم يشربون الخمر؟! أي قبل تحريمها ـ وكيف بصلاتنا التي صلينا ونحن نشربها؟! أي قبل تحريمها ـ هل قَبِل الله منا ومنهم أم لا؟

فأنزل الله فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فكان ذلك معذرة للماضين، وحجة على الباقين» انتهى.

وفي قوله: أم لا، فائدة نحوية وهي جواز استعمال (أم) بعد (هل) وقد منع ذلك صاحب (المغني) وفي (حاشية) عن ابن مالك: أن (هل) تأتي بمعنى (الهمزة) قال الدسوقي: وحينئذ فتعادلها (أم) المتصلة كحديث: «هل تزوجت بكراً أم ثيباً» انتهى دماميني اهـ.

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (الخطبة الغراء): «هل من مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو محار أم لا»؟ انتهى.

وعندي: أن المعادِلة بلفظ (أم لا) لم تخرج (هل) عن أصلها.

﴿٩٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الآية تخبر بأن الله تعالى سيبلوا الذين آمنوا، أي يختبرهم

قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

من يخاف الله ويصبر عن التعدي فيثيبه، وهذا الابتلاء فيما حرم من الصيد مع الإحرام أو صيد الحرم، ولا تعم الصيد كله؛ لأن قوله: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ يفيد بعضاً منه، ولو كان المراد العموم لكفى أن يقول: بالصيد.

وقوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي قريب بحيث ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ إن اصطدتموه، أو لا ينال إلا بالرمح؛ ولعل فائدة هذا التنبيه على عظم البلوى به، حيث أن صيده سهل ينال بالأيدي أو بالرماح لا يحتاج إلى الكلاب ولا إلى السهام، وهذا ليستعد المؤمن بالعزم على الصبر عنه ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ مع أنه عالم من سيخاف، لكن المراد أن يعلم ذلك واقعاً؛ ليثيب عليه لأن الثواب يترتب على وقوعه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ بعد هذا التقديم أو بعد الاختبار بالصيد مع العلم بتحريمه، وفي قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ دلالة على أن الصيد المحرم يكون اصطياده اعتداء عليه وظلماً؛ لأنه لم يبق للإنسان حق فيه بعد تحريمه، وقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد بعذاب الآخرة.

﴿٩٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو الْمُحْرِم ـ بسكون الحاء، وكسر الراء، وضم الميم في أوله ـ ولا يدخل فيه صيد الحرم لغير المحرم، فتحريم صيد الحرم بدليل ثان؛ لأن داخل الحرم إذا لم يكن محرماً فليس حراماً، وإن صح أن يقال: له محرم أي صائر في الحرم، كما يقال: منجد أو متهم أو معرق، لمن صار إلى نجد أو إلى تهامة أو إلى العراق.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ كما سماه تعدياً في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ سماه قتلاً، فلا يكون ذكياً وإن ذبحه، وقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ يخرج الخطأ فهو معفو ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ يكفي للتخلص من هذا الاعتداء، وعلى قراءة إضافة (جزاء) إلى ﴿مِّثْلُ﴾ يكون المعنى: جزاء مثل المقتول، فما وجب في مثله فهو جزاؤه، وعلى ترك الإضافة يكون المعنى: فجزاءٌ يكفيه، وذلك الجزاء هو مثل ما قتله ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي المثل من النعم.

قال في (الصحاح): «والنعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الإسم على الإبل» انتهى، وفي (لسان العرب): «والنَّعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية، قال ابن سيده: النعم الإبل والشاء» انتهى المراد.

وفي (مفردات الراغب): «النعم خاص بالإبل) ومثله حكى في (لسان العرب) عن ابن الأعرابي، وقال في (اللسان) في قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: «قال الأزهري: دخل في النعم هاهنا الإبل والبقر والغنم» انتهى.

وهذا ظاهر كلام الإمام الهادي عليه السلام، لأنه ذكر ذلك في سياق ما دلت عليه الآية، ونذكر هنا كلامه، قال عليه السلام في (الأحكام): «قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ والمتعمد لقتل الصيد من المحرمين الذي جعل الله عليه الجزاء فهو الذي يريد قتله متعمداً، يرميه بالسهم أو يطعنه بالرمح أو يضربه بالسيف يريد قتله ويتعمد أخذه، وهو ناس لإحرامه غير ذاكر لما هو داخل فيه من حجة.

فأما من قتله متعمداً ذاكراً لما هو فيه من إحرامه، فلا بد له من التوبة النصوح إلى الله من ذلك، وهي كبيرة أتاها يجب عليه الخروج إلى الله منها، ويجب عليه معها الجزاء، والجزاء فهو مثل ما يقتل يحكم به عليه ذوا عدل، والعدل: فهو البصير بالحكومة في ذلك، مع الصلاح في الدين والخشية لرب العالمين، فمن كان قتل ما يكون جزاؤه شاة فلم يجد الشاة أطعم عشرة مساكين إن أحب، أو صام عشرة أيام، فإن قتل المحرم بقرة وحش أو نعامة، فعليه في النعامة بدنة يحكم بها ذوا عدل، فإن كره البدنة لثقل مؤنتها وأحب أن يحكم عليه بالإطعام، فإنا نرى أن عليه إطعام مائة مسكين، وإن أحب أن يحكم عليه بالصيام حكم عليه بصيام مائة يوم.

وهو في الجزاء والصدقة والصيام بالخيار أيهن شاء فعل؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ فقال: أو فجعل بذلك إلى صاحبه الخيار، وكذلك ـ أيضاً ـ عدل البقرة من الإطعام إطعام سبعين يوماً» انتهى باختصار، وقد بين معنى التعمد، ومعنى النعم، ومعنى العدلين.

وأما قوله تعالى: ﴿هَدْيًا﴾ فالهدى ما يهدي إلى الكعبة من النعم و﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ بالغ عند الكعبة في حرمها، قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال في (البرهان): «وعنى بالكعبة: الحرم، لأنها فيه، ولا يجوز أن يهدي في الجزاء ما لا يجوز في الأضحية من صغار النعم» اهـ.

قلت: لعله يعني أن معنى بلوغ الكعبة بلوغ حرمها، كما قال تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣] والبيت العتيق هو الكعبة البيت الحرام.

وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ

قال الشرفي رحمه الله في تفسير ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣] : «والمعنى وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت العتيق، والمراد: الحرم الذي في حكم البيت..» إلخ.

قلت: ويمكن أن محلها اسم مكان حلها فيكون المعنى مكان حلها إلى البيت أي قريب منه يليه، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح:٢٥] قال الشرفي: «ومحله: هو مكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب» انتهى.

وقوله تعالى ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي ليذوق من قتل الصيد عقوبة أمره وضرره الثقيل، وفي تفسير الهادي عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق:٩]: «معنى ﴿فَذَاقَتْ﴾ هو وجدت، ومعنى ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ هو عاقبة أمرها، ومعنى ﴿أَمْرِهَا﴾ فهو فعلها وما تقدم من فسقها» انتهى من (المصابيح) [ج/١ص٢٥٤ ـ خ].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قبل نزول هذا الحكم من قتل الصيد في الإحرام في زمان الجاهلية أو في أول الإسلام ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ لقتل الصيد متعمداً ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ يجزيه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ومن عزته أن يجزي من تعدى ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ذو جزاء وعقاب لمن عصاه متعمداً ولم يتب.

قال الراغب: «والنَّقمة: العقوبة» انتهى المراد.

﴿٩٦﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صيد من البحر أضيف إلى البحر؛ لأنه من حيوان البحر الذي

ﭐلۡحَرَامَ وَﭐلۡهَدۡيَ وَﭐلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ﭐللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ﭐلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ﭐلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ﭐللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﭐعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ﭐللَّهَ شَدِيدُ

يعيش فيه ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما أخذ من غير اصطياد، وقد جزر عنه البحر فأخذ من مكانه بدون اصطياد، فأما الطافي على الماء ففيه رواية تدل على تحريمه ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ أينما كنتم ورزقتم منه ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ قال الراغب: «السير: المضي في الأرض» انتهى، ولعله أعم من السفر، وفي (معلقة امرئ القيس):

فقلت لها سيري وارخي زمامه

فهو متاع للسيارة: صيد البحر وطعامه.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ﭐلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمًا﴾ ﴿صَيۡدُ ﭐلۡبَرِّ﴾ حيوان البر الذي يؤخذ بالاحتيال؛ لأنه متوحش لا ينال إلا بالاصطياد، ويدل على أنه اسم للحيوان الذي يصاد قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ..﴾ الآية، وسمي صيداً؛ لأنه يصاد في العادة.

﴿وَﭐتَّقُواْ ﭐللَّهَ ﭐلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فلا تأكلوا شيئاً حرمه عليكم؛ لأنكم ﴿إِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥].

﴿٩٧﴾ ﴿جَعَلَ ﭐللَّهُ ﭐلۡكَعۡبَةَ ﭐلۡبَيۡتَ ﭐلۡحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ قواماً للناس وإقامة لحالهم وصلاحاً لهم لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية لمن حج، وممن حج أو اعتمر، فالتجارة تحيى، والأسواق تقوم، ومنافع الناس بالتعارف والتلاقي في مواضع الحج والعمرة، كما قال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨].

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ جعله قياماً للناس وهو عام لكل شهر من الأربعة الحرم، لما فيه من نعمة الأمن، وترك الحرب، فيمكن مع الأمن ما لا يتهيأ مع الخوف من السفر وطلب المعاش وسائر الحاجات.

﴿وَٱلۡهَدۡىَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ جعل ذلك كله قياماً للناس، فبائع الهدي يستفيد الثمن، ومشتريه يستفيد الثواب، والفقراء والملاك ينتفعون بالأكل منه ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ إمَّا ما يقلد من الهدي إشعاراً بأنه هدي.

وتقليده: جعل القلادة في عنقه.

قال الراغب: «والقلادة: المفتولة التي تجعل في العنق من خيط وفضة وغيرهما، وبها شُبِّه كل ما يتطوق وكل ما يحيط بشيء» انتهى.

أو القلائد في الآية: قلائد ما يقلد من الأنعام المهداة لله، فإن كان كناية ففائدته الإشارة إلى ما في الهدي المقلد من النعمة التي يفرح بها الفقراء حين يرون القلادة، ويحترم الهدي من رأى القلادة كي لا يتعرض لَه بسوء احتراماً للكعبة، وإن كان المراد القلادة: فهي شعار تحصل به الفائدة المذكورة وهذه النعم المذكورة في الكعبة وهداياها عظيمة وشاملة.

قال في (الميزان) [ج٦/ ص١٤٢]: «ولو استقرأ المفكر المتأمل جزئيات ما ينتفع به الناس انتفاعاً جارياً أو ثابتاً من بركات البيت العتيق والشهر الحرام، من صلة الأرحام، ومواصلة الأصدقاء، وإنفاق الفقراء، واسترباح الأسواق، وموادة الأقرباء والأداني، ومعارفة الأجانب والأباعد، وتقارب القلوب، وتطهر الأرواح، واشتداد القوي، واعتضاد الملة، وحياة الدين، وارتفاع أعلام الحق ورايات التوحيد، أصاب بركاتٍ جمَّةً ورأى عجباً» انتهى.

ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن تدبير أسباب النعمة التي هيأها لعباده دليل على علمه بأحوالهم وحاجاتهم وما فيه صلاح أمرهم، كدلالة إتقان الصنع على أن الخالق ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لكثرة المصنوعات التي لا نحصيها، وعموم أثر التدبير والإحكام، ففي السماء النيِّراتُ وإحكام سيرها في أفلاكها على نظام لا يغيره طول الزمان، واختلاف الليل والنهار على نظام محكم، وما في الأرض من الدواب والأشجار على اختلاف أنواعها وكثرتها وفوائد ثمار الأشجار، وتدبير خلق الإنسان وتدبير أسباب معيشته وسائر الحيوانات، آياتٌ لا تحصى تدل على سعة علمه تعالى، وإحاطته بكل شيء؛ لأن دليله في كل مخلوق، فكلها دليل على أن الله ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنه عالم بذاته لا بعلمٍ مخلوق فيكون محدوداً.

﴿٩٨﴾ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا أمر يدل على وجوب العلم، وطريقة النظر المؤدي إلى العلم بصدق الوعد والوعيد، وفائدة العلم بشدة عقابه تعالى: تقواه، وفائدة العلم بأنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: طلب مغفرته ورحمته بالتوبة والاستغفار، والمحافظة على التقوى، وقد بيَّن القرآن أسباب العقاب، وأسباب المغفرة والرحمة، ولا تعارض بين أسمائه تعالى ولا بين أفعاله، ولا بين أقواله؛ لأنه عليم حكيم.

ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

﴿٩٩﴾ ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ **فقد بلغ الإنذار وبيان أسباب العقاب، وبلغ التبشير وأسباب الرحمة** ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ **ما نعلن وما نخفي وإليه المرجع، وهو الذي يحاسب ويجازي، فعلينا أن نراقبه ونتقيه.**

﴿١٠٠﴾ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **لا يستوي الفاسق والمؤمن** ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨] ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ **فليس له وزن عند الله بكثرته** ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ **لتكونوا طيبين** ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ **فبها تهتدون للتقوى، وهي حجة عليكم يوم القيامة، إن لم تتقوه** ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **تظفرون بالسعادة في الآخرة والنجاة من العذاب.**

وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢] ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٧] ولعل ارتباط قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ بما قبلها لتأكيد ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وأنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأنه أرسل ليبلغ الإنذار والتبشير، وذلك لأنه حكيم لا يسوي بين المجرمين والمسلمين، بل لا بد من ثواب المطيع ولذلك فلا بد من الآخرة لتجزى كل نفس بما تسعى، فكان التصريح بأنه ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ تنبيهاً على أن الله العزيز الحكيم لا يسوّي بينهما بترك الجزاء لهما معاً كما يظن الكافرون.

ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ

﴿١٠١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية هذه أولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كما بدئت الآيات في هذه السورة بهذا المطلع الفاصل لما بعده عما قبله، والدال على استقلال ما بعده، وأنه موضوع جديد، والنهي عن السؤال عن أشياء وصفت بثلاث صفات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فخرج السؤال عن ثواب الأعمال وعقوبات المعاصي ليرغَب في العمل الصالح ويتجنب المعاصي، ونحو ذلك السؤال عن الأحكام الشرعية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فإذا لم يكن حين ينزل القرآن فلا تبدى للسائل فلا بأس بذلك، وفي هذا دلالة على أنه إذا انقطع الوحي انقطع علم الغيب، وإذا انقطع وقت نزول القرآن فلا وحي، فبطل إثبات علم الغيب بالإلهام أو الاتصال بالرسول ﷺ بعد وفاته ليخبر ببعض المغيبات.

والصفة *الثالثة*: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ فسترها رحمةً بعباده، وهذه تدل على أن الإخبار بما سئل عنه يستلزم الكشف عن رذيلة يفتضح بها صاحبها ويتألم بذلك السائل؛ لأن العفو يدل على أن المعفو عنه سوء، فظهر بهذه الصفات الثلاث أنها تجتمع في مثل سؤال بعضهم للنبي ﷺ مَن أبي؟ فإذا اتفق أنه كان غير الذي ينتسب إليه ويظنه أباه وأنه كان لغير رِشدَة كان هذا هو المنهي عنه سؤاله.

فإن قيل: النهي عن السؤال لما يحتمل هذا فهو خلاف ظاهر الآية أم لما يتحقق فيه فهو خلاف ما يفيده ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لأنه يفيد: أنه عند السؤال لم يبد لهم، فهو خفي عليهم غير محقق؟!

قلنا: النهي عما هو في الواقع جامعٌ للثلاث الصفات، وذلك يستلزم اجتناب مظنة الوقوع فيه والمحتمل له؛ لأنه شبهة يقف عندها المؤمن، أو المراد به النهي عن مظنة وفائدة تعليق الحكم على الواقع: التنبيه على المفسدة في السؤال إذا اتفق جامعاً للصفات الثلاث.

﴿١٠٢﴾ ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾ قال الراغب: «والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بالجار» انتهى.

قلت: إذا تعدى بنفسه كان ذلك باعتبار المسئول عنه مطلوباً بالسؤال؛ لأنه أي السؤال طلب للجواب، وفي (الصحاح) أفاد نحو ما ذكره الراغب.

وفي (لسان العرب): «قال ابن بري: سألته الشيء، بمعنى استعطيته إياه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد:٣٦] وسألته عن الشيء: استخبرته» انتهى.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ولم يقل: (قد سأل عنها)؟

قلت: الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ ليس براجع إلى ﴿أَشْيَآءَ﴾ حتى تجب تعديته بـ﴿عَنْ﴾ وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾ يعني: قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ أي بمرجوعها أو بسببها ﴿كَـٰفِرِينَ﴾» انتهى.

وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ

قلت: الراجح: أن الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ يرجع إلى الإجابة المفهومة من ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ لأن السائل يطلب الإجابة، وهذا هو المناسب لقوله تعالى﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي كافرين بالإجابة، التي هي إبداء الأشياء المسئول عنها، فـ(الباء) على ظاهرها، إذا قيل: كفر بكذا لم يخرجها إلى السببية، والمعنى: أنهم طلبوها، ثم كفروا بها بعد أن طلبوها، ولو تركوا السؤال ما أنزلها الله فلم يحتاجوا إلى الكفر.

﴿١٠٣﴾ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الذبائح): «والبحيرة: التي كانوا جعلوها: فهي الناقة من الإبل كانت إذا ولدت خمسة أبطن فنتجت الخامس سقباً وهو الذكر ذبحوه فأهدوه للذين يقومون على آلهتهم، وإن كانت أنثى استبقوها وغذوها وشرموا أذنها وسموها بحيرة، ثم لا يجوز لهم بعد ذلك أن يدفعوها في دية، ولا يحلبوا لها لبناً، ولا يجزّوا لها وبراً، إلا أن يحلبوا لبنها إن خافوا على ضرعها في البطحاء، وإن جزّوها جزُّوها في يوم ريح عاصف يذرون وبرها في الرياح، ولا يحملون على ظهرها، ويخلون سبيلها تذهب حيث شاءت، وإن ماتت اشترك في لحمها الرجال والنساء فأكلوه» انتهى.

قلت: فالبحيرة: هي التي يشقون أذنها، ويجعلون لها هذه الحرمة لأنها أنثى، وكانت البطن الخامس مما نتجت أمها، ونحوه في (لسان العرب) عن ابن عرفة، وقد قال بعضهم: «إذا كان الخامس ذكراً بحروا أذنه أي شقوها وأعفوا ظهره من الركوب والحمل والذبح..» إلخ.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «وأما السائبة: فهي من الإبل كان الرجل إذا مرض فشفي أو سافر فأدي أو سأل شيئاً فأعطي سيَّبَ من إبله ما أراد أن يسيِّبه شكراً لله، ويسميها سائبةً، ويخليها تذهب حيث شاءت مثل البحيرة، ولا تمنع من كلأ ولا حوض ماء ولا مرعى» انتهى، ومثله في (الكشاف).

قال الإمام الهادي عليه السلام: «وأما الوصيلة فهي من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة خمسة أبطن عندهم فكان الخامس جَدْياً ذبحوه، أو جَدْيَين ذبحوهما، وإن ولدت عناقين استحيوهما، فإن ولدت عناقاً وجدياً تركوا الجدي ولم يذبحوه من أجل أخته، وقالوا: قد وصَلَتْه، ولا يجوز ذبحه من أجلها، وأما الأم فمن عُرض الغنم يكون لبنها ولحمها بين الرجال دون النساء، فإن ماتت أكل الرجال والنساء منها واشتركوا فيها.

وأما الحام، فهو: الفحل من الإبل كانوا إذا ضرب عشر سنين وضرب ولد ولده في الإبل، قالوا: هذا قد حَمَى ظهره فيتركونه لما نتج لهم، ويسمونه حامياً ويخلون سبيله، فلا يمنع أين ما ذهب، ويكون مثل البحيرة والسائبة فلا يجوز في دية، ولا يحمل عليه حمل، فهذه الثلاثة من الأنعام التي حرمت ظهورها» انتهى المراد.

وقوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ معناه: أنه لا وجود لها في مخلوقاته، فما ادعاه الكفار من إثبات بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام، فهو كذب لا أصل له؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فالتي سموها بحيرة ليست بحيرة؛ لأن (التاء) فيها زيدت، لأنه اسم لها يعبر عن حكمها عندهم، والتي سموها سائبةً ليست سايبة.. وهكذا؛ لأن الكل حلال كسائر

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا

الأنعام، وفيه رد على الجبرة الذين زعموا: أن أفعال العباد من الله، فعلى قولهم: هو الذي جعل بحيرة وسائبة..إلخ؛ لأن فعل المشركين على قول الجبرة وفي مذهبهم من الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كقوله تعالى: **﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ..﴾** الآية [الفرقان:٤٤] أي لا يستعملون عقولهم ليعرفوا الحق، بل يهملونها، فلا يعقلون الحق، أي لا يفهمونه، بل هم **﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾** [الأعراف:١٧٩].

﴿١٠٤﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لتعرفوا حكم الله في الأنعام وغيرها في كتابه ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليبين لكم حكم الله ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا، فلا نحتاج إلى ما أنزل الله ولا إلى الرسول.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيكفيهم ما وجدوهم عليه ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون لحق؟!! وهذا الرد كافٍ لإبطال دعواهم أنه يكفيهم سنة آبائهم؛ لأن ذلك لا يستند إلى حجة بلا احتمال جهل آبائهم واحتمال ضلالهم واقع لا شك فيه، فاستنادهم إليه مجرد تعصب لآبائهم بلا حجة، وعلى قولهم: يلزم احتمال أنهم على جهل وضلال مثل آبائهم.

وهذا جواب حكيم بأسلوب جميل، وفيه دلالة على أن مجرد احتمال بطلان الدعوى يكفي في ردها لأن (لو) تستعمل في المحتمل النادر، مثل: للسائل حق ولو جاء على فرس، وبذلك كان الجواب في غاية الرفق بالجهلة المتعصبين لآبائهم.

ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ

﴿١٠٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: معنى الآية وتفسيرها: لا يضركم ضلال الضالين، ولا تحاسبون بفعل المبطلين، ولا تسألون عن شيء من أعمال المفسدين، وإنما أفعالهم عليهم وضررهم في رقابهم، وقد ذكر أن اليهود قالوا للمسلمين: كيف تطمعون بالنجاة وآباؤكم مشركون ولستم بناجين من فعلهم؟ فأنزل الله هذه الآية، وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] فأخبر أنه لا يعذَّب أحد بجرم أحد والداً كان أو ولداً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ دليل: على أنه لا يسقط عن المؤمن تكليفه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك، كإقامة الحدود، واجتناب الموالاة؛ لأن ذلك من الهدى الذي شرعه الله في القرآن، فمن ترك ما أمر الله به فلم يهتدِ.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ فإنما هو إغراء لحفظ النفس من أسباب الهلكة، وليس معناه: لا تبالوا بضلال غيركم، ولا تأمروا بمعروف، ولا تنهوا عن منكر.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أنتم ومن ضل ترجعون مجتمعين للسؤال والجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لأنه لم يخفَ عليه شيء من أعمالكم وهو يحاسبكم ويجزيكم.

ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ

﴿١٠٦﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ﴿شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ هي الشهادة التي تؤدى بين المؤمنين عند الحاجة، والمراد هنا: تحملها، بدليل قوله تعالى ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وتحملها ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ وهي الشهادة على ما أوصى به الميت فلا بد من استشهاد اثنين ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ العدل ضد الجور فهما ملتزمان بالعدل مجتنبان للجور ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من الذين آمنوا.

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يكفي شاهدان من غير الذين آمنوا، إلا في حال الضرورة الملجئة إلى استشهاد شهيدين من غير الذين آمنوا، وذلك إذا ضربنا في الأرض وخرجنا من بلاد الإسلام ولم نجد إلا من غير الذين آمنوا لتضيق الحادثة بحضور الموت، وظاهره: الإطلاق، بل هو ظاهر في الكفار الذين يؤدي إليهم الضرب في الأرض، حيث كان الإسلام لم ينتشر في الأرض، وكان الضرب في الأرض مظنة الخروج من بلاد الإسلام.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عند أداء الشهادة، راجع إلى أول الكلام فهو في العدلين من الذين آمنوا، وإنما قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ إلى الموت شبه المعترض بين الكلامين.

مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يقسمان بالله بعد الصلاة: لا نكتمها أو نغيرها لأجل مال نعطاه لنكتم الشهادة أو نلويها فيكون بدلاً من أدائها على وجهها.

وقوله تعالى ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾أي قلقتم لتجويز أن يكتمها شاهد أو يغير فيها والشك في ذلك، فخذوا منهما العهد المذكور، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي المشهود عليه فـ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ بالشهادة ﴿ثَمَنًا﴾ لأن المشهود عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ هذا تمام ما يقسمان عليه: الالتزام بأن لا يكتما الشهادة، والاعتراف بأنها حق لله عليهما، وأنهما إذا كتماها من ﴿ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾ فيكون اعترافهما هذا حجة عليهما إن كتما يوم القيامة، وفي الدنيا إن عثر على كتمانها، وحبس الشاهدين من بعد الصلاة ليؤديا اليمين هو توقيفهما ليحلفا قبل أن يشهدا، وهذا عند أداء الشهادة.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ عثر عليه: انكشف وظهر أن الشاهدين ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ بتغيير في الشهادة، إما بتبديل، أو بزيادة، أو نقص، فلم يؤدياها على وجهها، فاستحقا عقوبة ذلك الإثم، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩].

﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ لأن الشاهدين كتما الشهادة أو غيَّراها، فكاد الحق أن يفوت، وكاد المستحق عليه أن يضيع الحق عليه، فكان الآخران اللذان ينال بشهادتهما الحق من

المستحق عليه هما ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بأن يشهدا ويعمل بشهادتهما؛ لأنهما قاما من الذين استحق عليهم الحق مقام الصدق، وشهدا عليه بالحق وهو مقام الشاهدين الأولين لو أقاما الشهادة ولم يكتما أو يغيرا، فمقامهما من المشهود عليه هو قيامهما عليه بأداء الشهادة بالحق، فلما تخلف الأولان عن مقامهما من المشهود عليه كان الآخران الأوليين بذلك المقام.

(آخران) مبتدأ، وجملة ﴿يَقُومَانِ..﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ صفة سوغت الابتداء بالنكرة، والأوليان خبر المبتدأ، و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ ومجرورها متعلقان بمقامهما وهي (من) التي تحدد المسافة والنسبة، كالحديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» وقول عنترة:

ولقد نزلتِ فلا تظني غيره مني بمنزلة المحَب المكرَم

بناء على أن قوله: (مني) متعلق بـ(نزلتِ) وهو الظاهر عندي، ومنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] و﴿مَقَامَهُمَا﴾ مصدر، أو ظرف مكان.

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيداً لشهادتهما ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ في شهادتنا على المستحق عليه، أي لم نعتدِ عليه ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إنا إذا اعتدينا عليه وشهدنا عليه بما ليس عليه ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تسجيلاً على أنفسهم بالظلم وإقراراً بإثم الظلم إن اعتديا، وهذا من تأكيد الشهادة.

فإن قيل: كيف يتصور العثور على أن الأولين كتما مثلاً؟

قلت: إذا شهدا على إقرار الميت ببعض الحق الذي يعلمه الآخران عليه فالمستحق عليهم الورثة، وإذا شهدا على دعوى الميت ببعض الحق له الذي يعلمه الآخران فالمستحق عليهم المدعَى عليهم، فالعثور: هو الإطلاع

أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ

على ما كتم الشاهدان بسبب معاينة المعاملة سابقاً قبل ضرب الأرض أو سماع الإقرار سابقاً من الميت أو من غرمائه، أو بسبب إقرار الشاهدين من بعد الشهادة على ما كتما، أو بسبب من حضر عند الوصية من المسلمين ولم يكونا باسم متحملين للشهادة، أو حضرا في مرض الموصي قبل أن يوصي وسمعا منه ما يناقض شهادة الشاهدين ويبين ما كتما، هذا الظاهر عندي، ولا يجب تنزيل الآية على قصة تميم الداري.

﴿١٠٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمر الله به في الآيتين ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أن يأتوا الأولان والآخران، فالأولان بتحليفهما قبل الشهادة بعد الصلاة، والآخران بقسمهما: ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ إلخ، والكل من الأولين والآخرين لخوف الفضيحة بورود أيمان تكشف كتمانهم.

﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي أدنى أن يخافوا ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ﴾ يؤتى بها بعد غيابها عن موقف الشاهدين فتكشف كتمانهما، وهذا الخوف يصلح للأولين والآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾ بالجمع.

فإن قيل: فلماذا قيل: ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾ ولم يؤتَ بـ(الواو) مكان (أو) ؟

قلت: إذا أتوا بالشهادة على وجهها لأجل ما ذكر كله فهو المراد، وقد تضمن ذلك الخوفَ المؤدي إلى أداء الشهادة على وجهها، وإنما جيء بـ(أو) لأجل حالة الكتمان أو التغيير؛ لأنه جعل مقابل أداء الشهادة على وجهها الخوف من انكشاف الكتمان أو التغيير، وفائدة ذلك: أنه إذا خان مع خوفه أن يفتضح كان مستحقاً للفضيحة أكثر من غيره؛ لأنه قد تعرض لها عمداً.

فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطف على الأوامر المذكورة في الآية للتحذير من المخالفة في شيء منها أو في غيرها، وتمهيداً للأمر بالسماع ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أوامر الله سماع من يريد الاتباع، أو بمعنى: اقبلوا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذين تركوا التقوى والسماع، فهم مخذولون.

﴿١٠٩﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ اذكر يوم يجمع الله الرسل يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أيُّ إجابة أجبتم في الدنيا من أممكم الذين أرسلتم إليهم إجابة حسنة؟! أم سيئة؟! أم ماذا؟! سؤال عن إجابة أممهم كلها، وهم لا يحيطون بها علماً؛ لأن من أممهم من لم يشاهدوه لغيابه عنهم، أو لأنه كان بعد توفيهم، وكذلك من أممهم من لا يعلمون سره ونيته وما بطن من إجابته، ولذلك نفوا العلم بما يطابق السؤال.

أما العلم ببعض الإجابة فهو غير مسئول عنه هنا، وفيه دلالة على أنهم لا يعلمون الغيب لا علماً ذاتياً، ولا بإعلام الله تعالى لهم؛ لأنهم نفوا العلم عموماً، ولو كانوا يعلمون ذلك كله لما ساغ النفي للعلم في جواب هذا السؤال، فتأويله: بأنه لا علم لنا ذاتياً خلاف الظاهر، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩] وفي هذا رد على بعض الإمامية الذين يدَّعون أن المهدي يَعْلَمُ أنصاره ومن خالفه ومن هو متَّبع له على التفصيل بأسمائهم، ويعلم ما يفعلون.

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ

﴿١١٠﴾ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ هذا يكون يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، واختص بالكلام لما سبق في الدنيا من غلوٍّ بعض النصارى فيه، وهذا الكلام يشير إلى أنه عبد لله أنعم عليه.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك، و (روح القدس) جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل:١٠٢] فهو له معين، ولعل هذا في صغره وكبره، أما الصغير فإنه ضعيف يحتاج إلى من يرعاه، وأما الكبير فلأنه يحتاج إلى من يعينه على أعدائه وفي بعض مهماته، و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ ما يمهد للصبي من فراش يجعل عليه، والكهل: فوق الشباب، أي من تجاوز سن الشباب، أو هو في آخر الشباب.

وحكى الشرفي في (المصابيح) عن الإمام أبي الفتح الديلمي ـ صاحب البرهان ـ: أن الكهل: ابن ثلاثين سنة، وأفاد الراغب في (مفرداته): أنه من شارف الشيب، ولعله يعني: من ظهر فيه بياض بعض شعره، ولم يغلب على السواد.

وقال (صاحب الكشاف): «وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد، والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء» انتهى، وفي (الصحاح): «الكهل: الذي جاوز الثلاثين، ووخطه الشيب» انتهى.

والمعنى متقارب، وهذا التكليم في المهد وكهلاً نعمة، من حيث أن التكليم في المهد نعمة عليه بالمعجزة، وعلى والدته بالتبرئة، والدلالة على فضلها، وفي المهد من حيث أنه كان يكلم الناس بما أرسله الله به، وعلى والدته برسالة ابنها وسلامته حتى بلغ الكهولة، مع أن القدرة على تكليم الناس نعمة على كل حال.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم يعم الكتب، كقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أو هو مصدر (كَتَبَ) أي علمتك الكلام، وعلمتك الكتاب الذي هو أحد اللسانين وبه تحصل العلوم المكتوبة، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] و﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ المعلومات النافعة كأسباب الزهد في الدنيا.

وقد حكي عنه عليه السلام كثير من الحكم في كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) للإمام الموفق بالله عليه السلام، و (التوراة) التي أنزلت على موسى و(الإنجيل) الذي أنزل على عيسى، والإنجيل لم ينسخ التوراة، بل هي معمول بها في دين عيسى عليه السلام، إلا ما خصه دليل من كلام عيسى عليه السلام أو من (الإنجيل) لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ أذن الله له بالتصوير، ولعل هذا يشير إلى أن الأصل التحريم في تصوير صورة الحيوان، وإنما أذن الله لعيسى عليه السلام لما في ذلك من الحكمة الخاصة ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي من الصورة المفهومة من قوله: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

والظاهر: أنه النفخ المطلق الذي هو إرسال النفس من الفم بقوة، ولو كان المراد نفخ الروح لقيل: فتنفخ فيها الروح؛ لأنه لا يعبر عن نفخ الروح

بمطلق النفخ، فتكون طائراً ﴿بِإِذْنِي﴾ بإذني أن تكون طائراً بذلك السبب، وهو صناعة الطين كهيئة الطير والنفخ، فكان سبباً لحياته بجعل الله له سبباً، كما جعل حضانة البيضة سبباً لحياة الفرخ.

وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾ دلالة على إحاطة قدرة الله تعالى وعلمه بما صنعه عيسى عليه السلام فلو شاء لم تكن طيراً، ودلالة على سهولة الأمر الخارق على الله، حتى كأنه في وجوده لا يحتاج إلا إلى الإذن بوجوده، وفيه ـ أيضاً ـ رد على النصارى الذين زعموا أن إحياءه عليه السلام للموتى راجع إلى أنه إله سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى الذي ولد أعمى وإيجاد البصر له من الله، وأذن تعالى أن يكون على يد عيسى عليه السلام معجزة لَه كسائر المعجزات الخارقة للعادة، فقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ كذلك رد على النصارى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ كذلك يصعب علاجه، فإبراؤه معجزة تكون بإذن الله، ولا يستقل بها عيسى بقدرته، كسائر المعجزات التي تكون على أيدي الرسل، كفلق البحر بضربة عصى موسى، والبرص: بياض يكون في الجلد ويكون به الجلد خشناً في ملمسه، وهذا الفارق بينه وبين البهق.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الجنس، مثل: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] قال في (المصابيح): والذي أحيى من الموتى رجلين وامرأة، ذكره في (البرهان) انتهى.

وهذا نظير إحياء الطير، و(إخراج الموتى): إخراجهم من قبورهم، وهذه آية عظيمة لدلالة هذا على إحيائه وقوته على الخروج من بين التراب، فهذه المعجزات تقوية له وتصديق من الله له.

أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وإذ نصرتك على الذين كفروا وحاولوا قتلك، بأن كففتهم عنك ﴿إِذْ جِئْتَهُم﴾ بالآيات البينات، الدالة على أنك رسول الله إلى بني إسرائيل، وكذلك كففت الذين آمنوا بهدايتهم للإيمان، فالكف لبني إسرائيل جملة؛ لأنهم أشداء يقتلون الأنبياء، ولولا إيمان من آمن لكان مثل الذين كفروا يريد قتلك.

أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقالوا ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الذي جئتهم به ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ وتخييل، وليس شيئاً واقعياً بزعمهم كصنع الساحر في تخييله قلب الحبل حية، وقولهم: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي بيّن أنه سحر، مبالغة منهم في الكفر.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (الحواريون) الخلص من بني إسرائيل الذين دعاهم عيسى عليه السلام الذين هم الصفوة منهم، وهذا الوحي الراجح: أنه هدايتهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] فالمعنى: هدايتهم للإيمان بي وبرسولي، ليكونوا أنصاراً لك ومصدقين لك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢] وقوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ..﴾ الآية [الصف:١٤].

فهم معروفون بنصره عليه السلام، وهدايتهم للإيمان بالله وبرسوله عيسى عليه السلام من النعم عليه؛ لتأييده بهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ لله لا نجعل له شريكاً، وهذا من الرد على النصارى.

أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا

﴿١١٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يقدر على هذا الأمر الخارق للعادة؟! وقولهم: ﴿رَبُّكَ﴾ يشير إلى أنهم يريدون أن يدعوَ لهم أو يسأل الله عن ذلك فيجيب من أجل عيسى عليه السلام، وقولهم: ﴿عَلَيْنَا﴾ لأنهم يريدون المائدة لأنفسهم.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تشكوا في قدرته على كل شيء، لأن المؤمن لا يرتاب في أن الله على كل شيء قدير، أو لا تسألوا هذا السؤال الموهم للشك في الله لما فيه من قلة الأدب، أو لا تطلبوا الأمر الخارق وقد رأيتم من الآيات ما كفاكم للإيمان بالله وبرسوله، واشتغلوا بتقوى الله عن طلبه، أو أراد الكل من هذه المعاني، فأجابوه عن المعنى الأخير:

﴿١١٣﴾ ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ لنسد جوعنا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بوقوع الآية التي طلبنا، فنزداد إيماناً، وتسكن قلوبنا عن الخواطر التي تدعو إلى الشك ونحتاج إلى مدافعتها بالتذكر لما مضى من الآيات ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في كل ما أخبرتنا به عن الله، وعن قدرته، وعن رسالتك، وعن اليوم الآخر ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لنشهد لمن لم يعاينها أنها وقعت هذه الآية العظيمة وعايناها، أي لنتحمل الشهادة بها.

مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ

﴿١١٤﴾ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ربنا كلنا، يقابل قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ﴿أَنزِلْ﴾ علينا طلَبَها له ولهم، لعله أراد بذلك أن يعرفوا جده في الدعاء.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: وإنما سألوا أن تكون المائدة لهم عيداً، وكان ذلك يوم عيد من أعيادهم، فقالوا: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ وأرادوا جميعهم، وهذا موجود في لغة العرب، تقول: بلغت الرسالة أولهم وآخرهم، وهذا الكلام حسن جميل جائز، وقلت: هل أنزلها عليهم أم لا؟!

قال عليه السلام: بل قد أنزلها، ألا تسمع كيف يقول ـ وقوله الحق ـ : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقد قيل: إنها لم تنزل عليهم، وليس ذلك عندي كذلك؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقوله الحق، ووعده الصدق، تعالى علواً كبيراً» انتهى.

قلت: ويؤكد أن المراد بقوله تعالى: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ لجميعنا قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ولو كان المراد أن تتكرر للموجودين ومن سيوجد لقال: تكون لنا أعياداً، وقوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ يدل به على أن سؤال المائدة ليس لمجرد العيد، بل لأنه طلب رزق ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ثناء على الله بما هو أهله مناسب لطلب الرزق.

فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ

﴿١١٥﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ﴾ يجحد بعد هذه الآية العظيمة التي طلبوها وجاءت لطلبهم، أو يكفر النعمة بعد هذه النعمة العظيمة التي يزدادون بها إيماناً مع ما فيها من التكريم لهم.

قال الراغب: «والمائدة: الطبق الذي عليه الطعام، ويقال: لكل واحدة منهما: مائدة» انتهى، وقال في (الصحاح): «وهي خوان عليه طعام، فإذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وإنما هو خِوَان» انتهى، والأولى: أنه في الآية الطعام على الخوان؛ لقوله: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وكما أفاده الراغب.

وقوله تعالى: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لعل المراد: أنه عذاب خاص، يكون خزياً عليهم من حيث أنه خصهم، وما يروى أنهم طلبوا عيسى أن يريهم من هذه الآية أية أخرى ثم كفروا بعد ذلك فمسخوا قردة وخنازير لا ينبغي اعتماد الرواية إذا لم تأتِ من مصدر صحيح؛ لأن القرآن أثنى على الحواريين، ولم يذكر عنهم سوى هذا السؤال الذي يعاب عليهم، ولا أستبعد أن الرواية من كذب اليهود، اختلقوها على الحواريين عداوةً لهم.

﴿١١٦﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ

مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ وهذا السؤال شبه سؤال الموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٩] وفيه فائدة أخرى: استدعاء التوبيخ والتقريع للنصارى، الذين اتخذوا عيسى إلهاً بما في جواب عيسى عليه السلام وذكر أمه لبيان أنه سواء اتخاذه إلهاً واتخاذها إلهاً؛ أو لأن بعض النصارى أشركوا بها كما يحكى عن بعض الحبشة، ولعل شركهم ليس تصريحاً بإلهيتها، بل بالغلو فيها ونسبة ما لا يقدر عليه إلا الله إليها، من مثل: شفاء المريض، وإطالة العمر، وبركة الرزق، وإنزال المطر، ومنع المطر عن العصاة غضباً عليهم، فاتخاذهم لها إلهاً: دعاؤها لجلب النفع الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ومعنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يتخذوهما إلهين قريبين منهم في اعتقادهم، يعتبرون نفعهما وإجابتهما للدعاء أقرب من إجابة الله، ويتخيلون الله بعيداً منهم، فهذا معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وليس معناه: نفي إلهية الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ [الكهف:٩٣] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي الشمس، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وغير ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي عيسى ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً وتبعيداً عن أن يكون معك إله ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن عبوديتي لك وإيماني بالتوحيد لك يمنعني أن أقول ما ليس لي بحق، ونظير هذا النفي: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥] فهو نفي مؤكد بالدلالة على المانع.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ نفى أن يكون قال للناس: ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

بطريقة إثبات علم الله به لو كان؛ لأنه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ونفى عن نفسه علم الغيب، تحقيقاً لإقراره بأنه ليس بـ(إله).

﴿١١٧﴾ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لأنك أمرتني أن آمرهم بعبادتك وحدك، فما قلت لهم إلا ذلك المأمور به، وبينت لهم أنك ربي وربهم، فعلينا أن نعبدك وحدك لا شريك لك إن جعلت (أنْ) مفسرة، فعلى تضمين ﴿قُلْتُ لَهُمْ﴾ أمرتهم وعدل عن لفظ الأمر إلى لفظ القول، ليناسب قوله: ﴿أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ ليناسب مقام الاعتراف بعبوديته لله تعالى الذي هو مقتضى الحال، فلم يقرن أمر الله له بأمره لهم؛ لأن أمره لهم إنما هو أمر تبليغ عن الله تعالى وليس إلهاً من دون الله سبحانه وتعالى، فقد نفى أنه قال لهم ذلك بوجوه:

من ذلك قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ومن ذلك قوله: ﴿إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ..﴾ إلخ، ومن ذلك قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ ومن ذلك ما حكاه عن نفسه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وهذا ينافي دعوى الإلهية، وينافي أمر الناس باتخاذه واتخاذ أمه إلهين من دون الله.

وإن جعلت (أنْ) مصدريةً، فعلى تأويل: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بمصدر هو أمرهم بعبادة الله ربي وربهم إن صح ذلك؛ لأن الأصل في (أَنِ) المصدرية أن يكون المعنى على أن تسبك بالمصدر هي والفعل بعدها، والفعل (اعبدوا) فالأصل: ما أمرتني به عبادتهم لله ربي وربهم، أي ما أمرتني بقوله:

عبادة الله ربي وربهم، وهذا لم يستقم، ولا يصح تأويل القول بالمقول فيه، مثل: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠] لأن الاستثناء للقول الحقيقي المأمور به الذي هو قول عيسى عليه السلام، لا فعلهم الذي هو عبادة الله وحده.

فجعل (أَنِ) مفسرةً أولى وإن كانت في لفظ القول، وذلك لأن الحكم يختلف مع التضمين للفظ الآخر إذا روعي التضمين، وقد جعلها مفسرة بناء على التضمين الزمخشري في (كشافه) وهو من علماء العربية، حيث جوَّز جعلها مفسرة على تأويل القول بالأمر، وحسنه ابن هشام في (مغني اللبيب).

ولا إشكال أن معنى ﴿مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ ما أمرتني أن أقوله لهم؛ لأنه مستثنى من قوله: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ غاية ما فيه أنه روعي التضمين باستعمال (أن) المفسرة، وروعي لفظ القول بتعديته إلى المستثنى بنفسه، فروعي اللفظان، كما روعي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [النساء:٢] التضمين لتضموها المناسب لاستعمال (إلى) مع بقاء معنى الإتلاف أو نحوه مما يعبر عنه بالأكل.

﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ متحملاً للشهادة عليهم ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ معايناً لأعمالهم سامعاً لأقوالهم مشاهداً لهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ لم أعلم ما يفعلون، و﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تعلم ما يفعلون لا يخفى عليك شيء منهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ في كل حال، وفي الآية هذه دلالة على أن الشهداء على الأمم هم ممن شاهد أعمالهم فقط، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم شهيد على أمته الموجودين في عهده الذين شاهدهم، أما من بعده فالشهداء عليهم هم خيارهم المشاهدون لهم.

أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

﴿١١٨﴾ ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ بسبب شركهم بي وبأمي ﴿فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ ليس لي من أمرهم شيء، بل أمرهم إليك وحدك تحكم فيهم ما تريد ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلن تكون المغفرة على وجه يخالف عزتك وحكمتك لمجرد إسعاد شفيع متدخل بشفاعته أو نحو ذلك، وعلى هذا ففرض العفو ليس لاحتمال وقوعه، وإنما هو للدلالة على أن أمر العباد إلى الله وحده، وأنه يقضي فيهم بعزته وحكمته، فالمؤمنون يرحمهم بعزته وحكمته.

قال في (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله ﴿..أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية:٧١] وقال في أعدائه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فمن عزته وحكمته رحمة أوليائه، ومن عزته وحكمته تعذيب أعدائه، فلا مغفرة للمشركين إلا على فرض إمكانها من دون مخالفة لعزته وحكمته وذلك لا يكون لأعداء الله؛ لأنه قد ثبت بقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] أن مقتضى عزته وحكمته تعذيبهم.

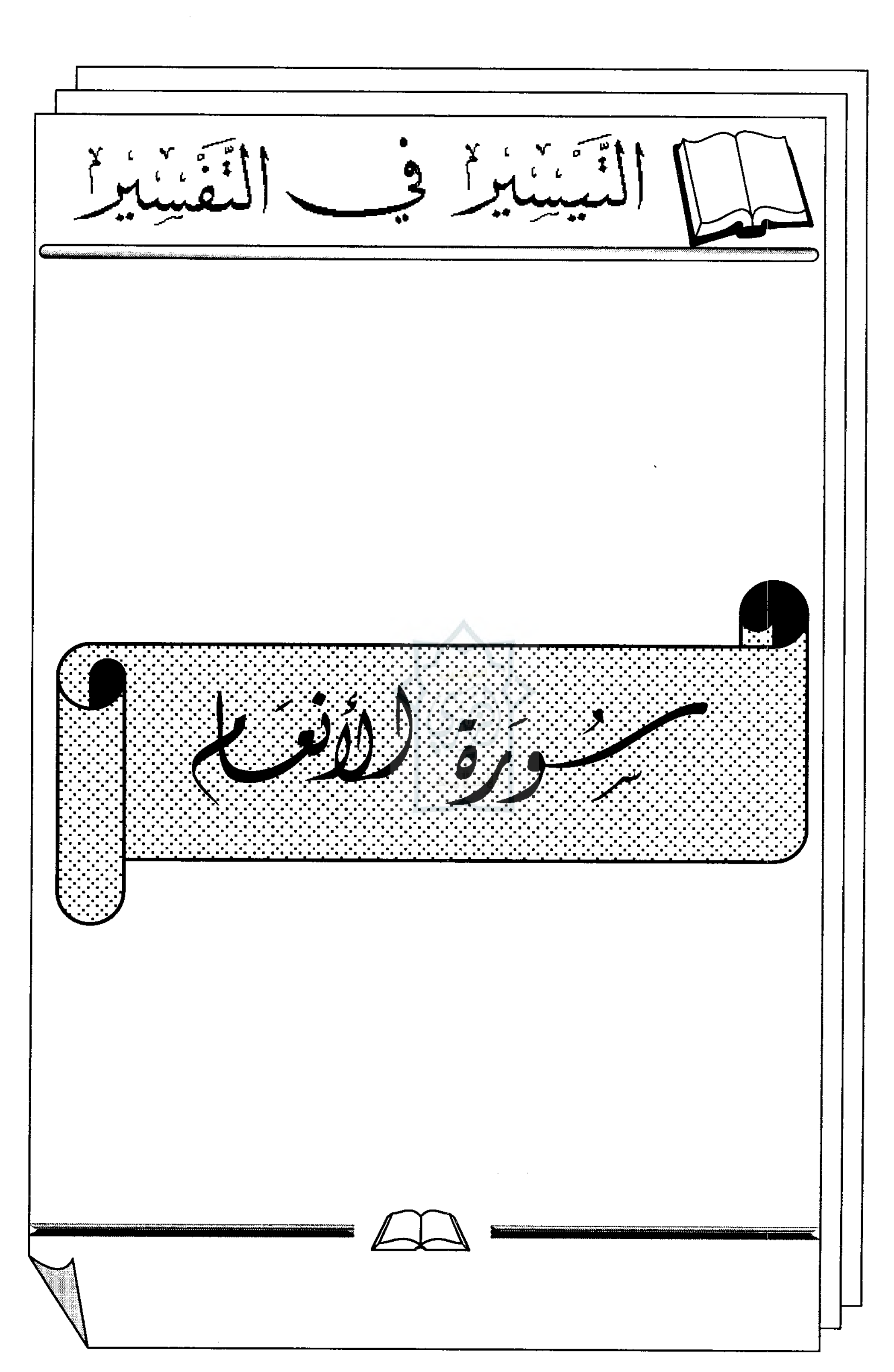
﴿١١٩﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ لعيسى عليه السلام بشارة له بصدقه في الحياة الدنيا: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ والصادقون: هم الذين صدقوا الله في إيمانهم فوافق

قولهم عملهم ونيتهم، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وأخلصوا دينهم لله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهذا لاستحقاقهم الثواب والتكريم، فبالأولى أن صدقهم نفَعهم بأن نجاهم من النار، فتم بالصدق نفع الصادقين.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لعله بمعنى رضوا عنه في إثابتهم بما أثابهم به من النعم، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥] أو هو تعبير عن عظم سعادتهم برضوان الله عنهم، وبرضوانهم عنه وحبهم له ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة عظمى دائمة، ونجاة من كل شر.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات من العقلاء وغيرهم، وذلك يعم المسيح ابن مريم وأمه عليهما السلام، والملك لله وحده ليس لهما فيه نصيب يشاركان به ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ بما قد تقرر من الاحتجاج في هذه السورة على أهل الكتاب وغيرها، تقرر أن لله ملك السموات والأرض وما فيهن، وأنه على كل شيء قدير.


التيسير في التفسير
سورة الأنعام



سورة الأنعام — ترتيبها ٦ — آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ

تفسير (سورة الأنعام)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية غير ست آيات فإنها مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات، ومثل هذا في (البرهان)) انتهى من (المصابيح) وذكر أنها نزلت جملة واحدة.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو المستحق للحمد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وذلك دليل على قدرته التي لا تساويها قدرة ولا تقاربها، وعلى سعة علمه وإحاطته بكل شيء، لأن صنعه محكم، والإحكام دليل على العلم، ولأن الظلمات والنور مقدران بمقادير محكمة تابعة لمقدار حجم الأرض ومقدار سرعة دورتها، ومقدار نسبة المسافة بين الأرض والشمس، خلق ذلك وقدره بقدرته وعلمه نعمة منه على عباده، والمذكور هنا جعل الظلمات.

فأما تقديرها ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء:٣٣] ولعل جمع الظلمات هنا لتعدد الحجب التي تحجب النور، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠].

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن دل خلقه على عظمته وجلاله بما خلق وجعل، فـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بآيات الله وبأنعمه قابلوا ذلك بأنهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بربهم شركاءهم، أي يجعلونها عديلة لله؛ لأنهم جعلوها آلهة تستحق العبادة بزعمهم.

أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: «معناه: تجعلون له مثلاً وتشركون به» انتهى، وفي (الصحاح): «والعديل: الذي يعادلك ذلك في الوزن والقدر» انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): «وفائدة ﴿ثُمَّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.. » إلخ.

وفي هذه الآية إشارة إلى معظم ما يأتي في هذه السورة من ذكر آيات الله، وما يأتي فيها من الرد على المشركين، والعدل بالله يصدق على أنواع الشرك كلها.

۝٢ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ وهذه آية أخرى تدل على قدرته وعلمه وملكه للإنسان، يتصرف فيه كيف يشاء، وقدرته على إحيائه بعد الموت وجزائه.

﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ بدأ خلق الإنسان من طين، وهو خلق أبينا آدم عليه السلام من الطين بتسوية صورته من الطين، الذي هو تراب ممزوج بالبلل ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً﴾ ثم قضى لكم أجلاً في الحياة أو للممات، والمعنى متقارب، فالحياة حتى الممات هي بقضائه تعالى، وذلك يستلزم أن الممات بقضائه تعالى، والممات هو بقضائه في حينه المقضي يكون لا يتقدم ولا يتأخر، وذلك يستلزم أن بقاء الحياة بقضائه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وأجل آخر ﴿مُّسَمًّى﴾ معين وقته محدود ﴿عِندَهُۥ﴾ في قدرته وعلمه يأتي بالمؤجل به في حينه، والأقرب: أنه أجل القيامة، وهكذا في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) فحياة كل شخص مؤقته بتأجيل الله، وتناسل القرون في هذه الحياة الدنيا مؤجل بتأجيل الله،

ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ

فبقضائه حياة كل فرد وموته، وبقضائه الحياة الأولى والحياة الآخرة وانتهاء الحياة الأولى لكل الناس أجمعين بقضائه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) معناه: تشكُّون، أي تشكُّون في صدق الوعد والوعيد؛ استبعاداً للقدرة على إحياء العظام وهي رميم، وقد خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلقكم من طين، وحدد آجالكم وحدد هذه الحياة الأولى التي هي تَقْدِمَة للآخرة.

قال الشرفي في (المصابيح) ـ حاكياً عن الحاكم الجشمي المفسر ـ : «قال الحاكم: فإنه نبه بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ على إبطال قول من يقول بقدم العالم، وبقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ على إبطال قول الثنوية القائلين بقدمهما لأنهما أجسام [كذا] بمنزلة غيرهما، وبقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ على إبطال قول الطبائعية» انتهى.

قلت: هكذا القرآن شفاء من كل داء.

﴿٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ يدعوه أهل السماء الله وأهل الأرض يدعونه الله؛ لأنه الإله في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤].

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فهو الذي يعلم دعاءكم له وسائر عبادتكم إياه، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من سيئات أو حسنات فاتقوه وراقبوه.

﴿٤﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولذلك فهم يشركون بالله ولا يتقونه مع قيام الحجة عليهم.

﴿٥﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بآيات الله ورسوله وكتابه، وما دلت عليه من توحيده وغيره بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قال الراغب في (مفرداته): «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة» انتهى.

وقوله: «ذو فائدة عظيمة» لعل الصواب: ذو فائدة مهمة؛ لقول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد ... وبات الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جائني ... وخبرته عن بني الأسود

وقوله عنترة:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إن أريد به القرآن الذي كان المكذبون يستهزئون به، فأنباؤه ما فيه من الوعيد، وإتيانه إتيان المتوعَد به، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد:٣١] أي ما وعد به، وإن أريد ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عامة من الكتاب والرسول وخزنة جهنم والعذاب وغير ذلك، فالنبأ عنه: الإخبار عنه بأنه لم يكن مما يستهزئ به أهل العقول والنبا هذا هو الجزاء الناطق بلسان الحال أنهم كانوا في استهزائهم في غواية بعيدة، أو القول المقارن للعذاب ذوقوا العذاب بما كنتم تستهزئون أو نحو هذا القول مما يحصل به ندمهم على ما قدموا من التكذيب والإستهزاء، وهذا أظهر والإستهزاء استخفاف، والسخرية مثله.

أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي

﴿٦﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ آثار من قد ﴿أَهْلَكْنَا﴾ قبلهم من القرون الكثيرة فيعلموا كثرتها، أو ألم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي جواب كم أهلكنا أي أنهم كثير، يحق لهم أن يعتبروا بهم، ويحذروا أن يهلكهم كما أهلك القرون التي أهلكها من قبلهم، فما بالهم لم يعتبروا بهم ويحذروا التكذيب والإستهزاء بالحق، كأنهم لم يروا كم أهلكنا قبلهم، فالسؤال للتوبيخ.

وأما (القرن) فقال الشرفي في (المصابيح): «وفي القرن يقول المرتضى عليه السلام: القرن: الخلف الذي يكون بعد الأول الفاني، فأما ما يقال به من ثمانين سنة فليس ذلك بشيء؛ لأنا قد رأينا قوماً يزيدون على الثمانين في عصر واحد، ولكن القرن ما خلف مَن قد مضى، ويقال: القرن؛ لأنهم غير الأولين، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخُلِّفتَ في قرن فأنت غريب»

انتهى.

﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بما جعلنا لهم فيها من المستقر والمال والقوة ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي هو قليل بالنسبة لما جعلنا لهم ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ بالأمطار المتابعة الكثيرة.

قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليتيقنوا أنه كتاب ليس خيالاً كما يخيل الساحر للبصر لقالوا بعدما علموا أنه كتاب أنزله الله من السماء على رسوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي رأيناه ولمسناه بأيدينا إلا سحر تخييل من ساحر لا حقيقة له ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بيّن أنه سحر مكابرة منهم وعناداً.

﴿٨﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بينك يا محمد وبين الذين كفروا؛ لأن الرسول أرسل إليهم منذراً لهم ليؤمنوا ويتقوا في حال التكليف وسعة الإختيار غير ملجئين، ولا في حال رؤيتهم للعذاب، وهذا ينتفي بنزول الملك، وتنقلب الحال حال هلاك لا ينفع معها إيمان، ولا بقي معها للإنذار معنى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر:٨].

فالملك لا ينزل إلا بما تقتضي الحكمة إنزاله به، ولا تقتضي الحكمة إنزاله لأجل اقتراح المتمردين الذين قد جاءتهم الآية البينة وهي القرآن فلم يؤمنوا، ولو نزل الملك ما آمنوا، إنما هم لاعبون متمردون، فلذلك لا تقتضي الحكمة إنزال الملك نذيراً مع محمد ﷺ إنما تقتضي لو أنزله الله أن ينزله بهلاكهم، وبذلك ينقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الله، وهذا

معنى (قضي الأمر) أي انتهى الإنذار والدعوة إلى الإيمان ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لأن العذاب يكون قد حضر مع الملك فلا يمهلون.

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وما أحسن جواب الإمام القاسم بن ابراهيم عليه السلام عن من سأله عن معنى هذه الآية؟ فإنه قال: كانوا يقولون: لولا أنزل عليه ملك فيكون معه شهيداً فيشهد له برسالته بما ينكرون، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ يقول تبارك وتعالى: ثم لا يتركون ساعة ولا يؤخرون، فما ينفعهم إذا أخذوا أيمانهم بعد رؤيتهم للعذاب وعيانهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ ما أيقنوه إلا أن يروه رؤية ويعاينوه، وما كانوا ليروه عياناً إلا أن يجعله الله مثلهم إنساناً في الصورة والحلية وما للرجال من الهيئة لا في جميع حدود البشرية ولكنه في الرؤية والمنظر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ يقول سبحانه ولو فعلنا ذلك به فجعلناه رجلاً كما يعرفون، لزادهم لبساً إلى لبسهم، ولما أيقنوا أنه ملك في أنفسهم ولو نزلنا عليه الملك على حاله لما كان أحد منهم معايناً له ولا مدركاً..» إلخ.

والحاصل: أن الملك إن جاءهم على صفته الأصلية لم يروه، وإن كان رجلاً في صورته لم يؤمنوا أنه ملك، وكان الله تعالى قد لبس عليهم كونه ملكاً بجعله رجلاً، وهم لبسوا على أنفسهم ويلبسون عليها بطلب مَلَك مع إنكارهم المعجزات، حتى خذلوا وبعدوا عن الإيمان، بسبب تعنتهم وتمردهم، والرين على قلوبهم.

بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ قومك بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ استهزاءً وسخرية لا لطلب معرفة الحق ﴿فَحَاقَ﴾ فأحاط بالأولين ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من الآيات والرسل أي سببت لهم العذاب العاجل، وفي هذه تأكيد لكلام (صاحب الصحاح) في تفسيره الإستهزاء بالسخرية، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم﴾ أي سخروا من الرسل المذكورين.

﴿١١﴾ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يـا محمـد لقومـك: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لـتروا آثـار المكـذبين الـذين أهلكهـم الله بـذنوبهم ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ فكـروا كيـف كانـت ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الهـلاك علـى سـوء الحـال وغضـب الجبار والمؤدي إلى النـار والشقوة الدائمة، لتعتبروا بهم، وتحذروا مثل ما حل بهم.

﴿١٢﴾ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من حي وجماد ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ فهو رب من في السموات ومن في الأرض، فهو إلههم وحده ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ فكيف يدعو المشكرون من دونه شركاء، لا يملكون ولا ينفعون، والله هو ربهم الرحيم بهم الذي هو رازقهم ومطعمهم وساقيهم وشافي مرضاهم، وبيده الخير ومنه الخير،

ومن كرمه ﴿كَتَبَ﴾ وأوجب على نفسه ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾ فهو لا يعاجل العاصين، وهو يدعو إلى التوبة ويعد قبولها، ويحذر عباده نفسه، ولذلك أرسل الرسل رحمة للعالمين.

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ إلى موقف العرض على الله يوم القيامة وإلى ما يكون في يوم القيامة من الحساب والجزاء، فالجمع ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ جمعهم إلى ما فيه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ والمعنى: ليجمعن هؤلاء المشكرين الذين خسروا أنفسهم» انتهى.

وهذا عندي أحسن الأقوال فيها، فأول الآية احتجاج عليهم وآخرها تسجيل عليهم بالخذلان، وأنهم بسبب تمردهم وعنادهم قد خسروا أنفسهم، بأن فوتوا عليها سبيل السلامة، وسببوا لها الخذلان المؤدي إلى الخسارة الدائمة، فأول خسارتهم أنفسهم: بُعْدهم عن قبول الحق بقسوة قلوبهم وكراهتهم للحق وتكبرهم عن قبوله، حتى لم يبقَ لهم صلاحية لقبوله وصاروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ..﴾ فلذلك كانوا قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في سبب الخسارة الدائمة بدخول النار، وترتب أنهم لا يؤمنون على خسارة أنفسهم بوقوعها في الخذلان الشديد والضلال البعيد.

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ

﴿١٣﴾ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا يعم الأرض كلها، والآية الماضية تشمل ما في الأرض وما في السموات، ويحتمل: أن الليل والنهار يكونان شاملين للسموات والأرض ـ والله علم.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَكَنَ﴾ إما من السكنى، فيكون التعبير به لفائدة الليل والنهار لما اشتملا عليه لنفع الشمس فيما تظهر عليه، ثم نفع الليل فيما يأتي عليه بعد الشمس، فكانا للجماد وغيره بمنزلة المسكن الذي ينتفع به ساكنوه، وإما من السكون وهو بعيد؛ لأن الراجح: أن الأرض تتحرك جملتها بما فيها وإن كان أهلها لا يحسّون حركتها.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو الحقيق بالعبادة؛ لأنه رب كل شيء، ولأنه الذي يسمع الداعي ويعلم عبادة من عبده، وهو الذي إليه يرجع العباد في الآخرة لأنه ربهم وحده ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] وكل من في السموات والأرض عباده ليس لهم من الأمر شيء، وهو جامع عبادَه يوم القيامة ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥] لأنه ربهم فما في الآيتين دال على هذه المعاني كلها.

﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى أموري ويرعاني ويدبر مصالحي ويدفع عني، ولا يكون هكذا إلا الله العالم بأحوالي، القادر على إصلاح أمري، السميع لدعائي، فأما غيره فإنه يجهل ويعجز ويبخل، فكيف أتخذ غير الله ولياً؟!

عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ

قال الشرفي في (المصابيح): «وإنما أولى غير الله (همزة الإستفهام) دون الفعل الذي هو ﴿أَتَّخِذُ﴾ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي» انتهى.

قلت: يعني أن محط الإنكار غير الله كيف يتخذ ولياً مع وجود ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ القادر على كل شيء العليم بكل شيء الذي ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو الوهاب الكريم، الغني الذي لا يحتاج، فهو الذي ينفع من اتخذه إلهاً يدعوه ويرجوه لرعاية مصالحه.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فلا بدَّ لي من إسلام وجهي لله قبل الناس كلهم، وهذا دليل على أهمية الإسلام لله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فهم أعداء الله عباد الشيطان، فلا تكونن واحداً منهم، وفي هذا زجر للمشركين عن الشرك، حيث نهى أن يكون واحداً منهم، ولم يقل: ولا تشرك.

﴿١٥﴾ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ الذي أمرني أن أكون أول من أسلم ونهاني أن أكون من المشركين نهياً مؤكداً فإني أخاف إن عصيته في ذلك أو غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بسبب معصيته فالشرك قبيح من حيث هو اتخاذ غير الله ولياً، ومن حيث هو معصية لله، وفي هذا تحذير للمشركين، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ..﴾ الآية [الزمر:٦٥] ووصف اليوم بأنه عظيم لما فيه من الأمور العظيمة.

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا

﴿١٦﴾ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ عذاب اليوم العظيم يوم إذ يأتي ذلك العذاب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الله الرحمة العظمى؛ لأن النجاة من النار أهم ما يكون يومئذٍ ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إي صرف عذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أو رحمة الله له هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ قال في (مفردات الراغب): «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» انتهى.

و﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البيِّن، فهو ظفر بالخير عظيم بنفسه من غير شرط أن يصير إلى الجنة، إن كان قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ إشارة إلى صرف العذاب، فأما إن كان إشارةً إلى رحمة الله، فيحتمل: أن جعله من أهل الجنة بعض هذه الرحمة.

﴿١٧﴾ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا دليل على أن شركاء المشركين لا تفيد شيئاً، وأن الله هو الذي يفعل ما يشاء، فهي لا تشفي مريضاً، ولا تؤمِّن خائفاً، ولا تنصر مقاتلاً.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا راد لفضله، وهذه الآية تدعو إلى: عبادة الله وحده، والتوكل عليه، ورجائه وحده لكشف الضر وإبقاء الخير، وتشير إلى بطلان الشرك كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨] ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا ممسك لما أعطى.

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿١٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال الراغب في تفسير (المفردات): «القهر: الغلبة والتذليل معاً، ويستعمل في كل واحد منهما» انتهى، وفي (الصحاح): «قهره قهراً: غلبه، وفيه: وقُهِر غُلِب» انتهى.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه مالكهم ومالك قواهم، وله الملك عليهم وعلى كل المخلوقات، وهو المحيط بقدرته وعلمه على كل قدرة وعلى كل معلوم، فقهره لعباده من حيث أنه فوقهم بملكه وملكوته ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في قهره فلا يظلم ولا يقهر قهراً يعارض مقتضى الحكمة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ فلا يغلط في قهره، بل قهره مطابق لمقتضى علمه ببواطن الأمور وحقائق الأشياء وبمقتضى الحكمة.

﴿١٩﴾ ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين المكذبين ﴿أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي شيء أصدق وأحق وأنفع شهادة؟!

وجواب هذا السؤال، وهو أن الله ﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ جواب لا ينازع فيه خصومهُ الذين بلغهم آيات الله الدالة على صدقه وصدق إنذاره وصدق كل ما بلغهم عن الله، فالله شهيد لَه بإقامة الحجة عليهم، وقيامه بواجبه، وشهيد عليهم بالتمرد بعد بيان الحق من الله ربهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فراقبوه واتركوا الشرك والتكذيب وآمنوا.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ بما في القرآن من كلام الله ووعيده فاحذروا ما أُنذِرتُم، ولأنذر به من بلغه من العالمين، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

ﱡالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ سؤال توبيخ على هذه الشهادة الكاذبة الآثمة ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ كما تشهدون.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ الإله ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو الله، أما غيره فليس بإله ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا﴾ تشركونه في الإلهية أنفي إلاهيتهم، وأبرأ من عبادتهم، ولا صلة بيني وبينهم، بل هم عدو لي.

﴿٢٠﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون (القرآن) أنه من الله أوحاه إلي، أو يعرفون أنه أوحي إلي هذا القرآن ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ تحقيق للمعرفة التي في قلوبهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: الذين أوتوا الكتاب فهم اليهود والنصارى، وهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ويثبتون صفته، ويقفون على صحة أمره وما أمروا به من طاعته كما يعرفون أبنائهم مشروحٌ ذلك في كتبهم مبيَّنٌ لهم، ولكن جحدوا ما عرفوا، وأنكروا ما علموا فضلوا وخسروا، ذلك هو الخسران المبين» انتهى.

قلت: عبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ لأن الكتاب الذي آتاهم الله ـ جلَّ جلاله ـ هو سبب معرفتهم للرسول وما أنزل إليه أنه من الله تعالى، ويظهر أن القرآن يجعل القرآن والرسول كالشيء الواحد؛ لأن الإيمان بأن القرآن أوحاه الله إلى محمد يستلزم الإيمان بأن محمداً رسول الله، ولعله هو السر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق:١٠-١١].

وفي (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [آية:٨٩] قيل كانوا يستفتحون يطلبون الفتح من الله أي الحكم بينهم وبين الذين كفروا بالنبي الذي يتوقع ظهوره، وفي آية في (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [آية:١٠١] وكتاب الله هنا: (التوراة) أو (الإنجيل) أو هما، كأنهم لا يعلمون ما في كتاب الله وما في نبذه وراء ظهورهم، فهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩].

وإذا جعلنا الضمير في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ لإيحاء القرآن إلى محمد ﷺ فلا التفات فيه، أما إذا جعلناه للرسول ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة أو من الخطاب إلى الغيبة، لابتداء الكلام بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وهذا أظهر.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حقت على أنفسهم كلمة العذاب؛ لأنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم قد خذلوا وسلطت عليهم الشياطين وكرهوا الحق وكرهوا النظر النافع وأعرضوا، فصار بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩] فخسارتهم أنفسهم فسادها ومصيرها بحيث لا تصلح أبداً وحقت عليها كلمة العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ الراجح: أنه خبر لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ والمراد به: كفارهم المعاندون.

كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ

﴿٢١﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أظلم ممن وقع منه إحدى الجريمتين اختلاق الكذب على الله أي تعمد الكذب ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ وكلا الجريمتين وقعتا من المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وغير ذلك وكذبوا بآيات الله التي جاء بها رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأن مصيرهم إلى العذاب وفوات كل خير، وهذا عام لكل ظالم، وقد يعجل للظالم بعض العقوبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] وهذا يعم المفترين.

﴿٢٢﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ واذكر لبيان مصير المشركين ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ والضمير للمشركين والمكذبين والمفترين السابق ذكرهم.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين في موقف السؤال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ وقد عاينوا أهوال الآخرة وعلموا أن لا ملجأ لهم نقول لهم يومئذ ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ تدَّعون أنهم شركاء لله، وذلك توبيخ لهم، وتنبيه على أنه قد ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضل عنهم ما كانوا به يشركون، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٨] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٢-٩٣].

إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ

﴿٢٣﴾ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد توبيخهم وامتحانهم بسؤال الله لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] لم يؤدِّ هذا الإمتحان إلا إلى قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فالفتنة: الإمتحان المذكور وكونه قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ تأديته إليه وتسبيبه له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

وحاصل المعنى: لم يجدوا جواباً عن هذا الإمتحان الشديد إلا جحد الشرك، والقسم بالله والإعتراف بربوبيته، وذلك لشدة الهول عليهم وانقطاع حجتهم.

﴿٢٤﴾ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿ٱنظُرْ﴾ في حالتهم التي صاروا إليها من الذلة وسوء الحال التي أدتهم إلى أن يقولوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَ﴾انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ﴾ في الدنيا يفترونه، من دعوى نصر شركائهم لهم وشفاعتهم لهم، ونحو ذلك من افترائهم، أي اختلاقهم وكذبهم المتعمد.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ومن المشركين من يستمع القرآن دانياً ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ليسمع لا رغبة في الحق، بل إما لحبِّ الإطلاع لينظر كيف هذا القرآن وهذا في أول استماع، وحبُّ الإطلاع من غرايز الإنسان، وإما للتعجب من فصاحته وحسن بيانه وجمال أسلوبه.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب: «والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء، والجمع: أكنة» انتهى.

وهذا تمثيل كالختم؛ لما أفسدوا قلوبهم وقد خلقها الله قابلة للصلاح والفساد، وصاروا بذلك لا يؤمنون ولا يتفهمون القرآن من حيث دلالة آياته على الحق؛ لكراهتهم لما هو ضد اعتقادهم ودينهم الذي زين لهم وتزيينُ الشياطين لهم الإعراض عن الإهتداء بالقرآن، صاروا كأن بينهم وبين فقه غوامضه ودلالاته النافعة أكنة تحول بين قلوبهم وبين فقهه.

وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى: الدلالة على أنهم مستحقون للخذلان؛ بتمردهم، مستاهلون لإرسال الشياطين عليهم عقوبة لهم على تمردهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فهو تعالى غير مبال بهم بل قد أراد خذلانهم، ولما كان خذلانهم كالسبب لبعدهم عن فقه القرآن بحيث أن قلوبهم حين خذلت تواردت عليها أسباب البعد عن الفهم حتى أشبهت ما عليه كنان حائل بينها وبين الفهم أقيم ذلك مقام الخذلان، فنسب إلى الله تعالى للدلالة على أنه غير مبال بهم، وعلى أنهم استحقوا الخذلان الذي صاروا من أجله لا يفقهون، والذي هو عقوبة لهم على تمردهم.

ونظيره ما يقال لمن أهمل ابنه وسهل لَه الحصول على ما يهواه وأهمله ولم يربّه تربية الصلاح: أفسد ابنه، ومن فائدة هذه النسبة: تنزيه كلام الله عن مشابهة الشكوى، وأعظم من ذلك التحذير من الخذلان المؤدي إلى أن يصير القلب كأنه في كنان، وقد مرَّ في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] نحو هذا.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ أي وجعلنا في آذانهم ﴿وَقۡرٗاۚ﴾ أي ثِقلاً يمنع السمع وهذا من المجاز واضح؛ لأنهم يسمعون ولكن لا يصغون له إصغاء راغب في الحق، بل يسمعونه وهم له كارهون فشبهوا بمن لا يسمع كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق اللّه حين أُرِيْدُ

ولو كانوا لا يسمعونه حقيقة ما كان للأكنة على القلوب معنى، وقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ..﴾ [الحجر:١٢-١٣] فدلَّ على أنهم يسمعونه ويصل إلى قلوبهم، ولكنهم لا يقبلونه ولا يهتدون بهداه، فشبهوا بمن لا يفهم ولا يسمع، لحائل بينه وبين الفهم والسمع.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾ لأن قلوبهم فسدت وصارت لا تقبل الآيات، كما ترى الطبيعي الملحد تذكر لَه دلائل الخالق فلا يقبلها كأنها لا تعمل في قلبه شيئاً، والمراد بفساد القلوب: فقدانها لصلاحية الإهتداء بالآيات مع بقاء العقل والسمع والبصر؛ لأن نفوسهم تأباه وتردّه قبل أن ينتفع به القلب، مع بعده عن الإنتفاع بذهاب استعداده له.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لمدى بعدهم عن قبول الحق أنهم ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾ يا محمد وأنت مصدر الهدى جادلوك بشكل عجيب، هو مجرد الجحود وقول الزور الذي ليس له أي حجة، بل هو واضح البطلان؛ لأن القرآن مخالف لأساطير الأولين في المواضيع وأحكام المواضيع، حيث أنهم أرادوا بـ(أساطير الأولين) أكاذيب سطرها الأولون من المبطلين يتلهى بها السامعون ولا تفيدهم شيئاً، والقرآن ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤٢]

يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

آيات محكمات نافعات بأدلة صحيحة تعرفها العقول، وحِكَم وإنذار وتبشير، وعلوم تخرج من اهتدى بها من الظلمات إلى النور، وأساطير: جمع أسطورة، والجدال: المجادلة أي المغالبة بالقول، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف:٥٦].

﴿٢٦﴾ ﴿وَهُمْ﴾ أي المذكورون فيما مر كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فالضمير لهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿يَنْهَوْنَ﴾ عن الذي يقولون فيه: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ولو كان أساطير الأولين لكان واضح البطلان ولما احتاجوا إلى النهي عن استماعه، ولكنهم حين استمعوه سمعوه قرآناً عجباً فنهوا عن استماعه حذراً من إيمان من يستمع وقلبه سليم، ونهيهم عنه من جملة جرائمهم المذكورة في هذه السورة؛ لأنه صد عن سبيل الله.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ يبعدون عنه، كراهةً له بعد ما سمعوه ووجدوه كلاماً لا يطيقه البشر ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بالنهي عنه والنأي عنه ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وَبَالَ ذلك عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بسوء عاقبتهم لكفرهم، ولا يضرون بجدالهم ونهيهم ونأيهم دين الله ولا القرآن ولا الرسول ﷺ وإن ظنوا أنهم بذلك يضعفون الحق؛ لأن الله يظهر دينه وينصر رسوله وكتابه، وما يشعرالكافرون المذكورون فهم يهلكون أنفسهم ولا يدحضون الحق وما يشعرون بذلك، أي ما يعلمون.

ثم بيّن تعالى بعض وخامة كفرهم وهلاكهم به فقال تعالى:

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حالهم بعد تكذيبهم وجرائمهم في الدنيا حين أشرفوا على دخول النار وعاينوها فقالوا متمنِّين ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى دار التكليف والعمل ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ﴾ فيها ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لننجو من النار.

﴿٢٨﴾ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿بَلْ﴾ تجلَّت الحقيقة وكشف الغطاء وعلموا علماً ضرورياً أن الحق هو الإيمان، وأن الباطل ما كانوا عليه، كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] وقد كان هؤلاء المتمردون الذين فيهم السياق يعرفون الحق، كما قال في بعضهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] ولكنهم كانوا في غفلة وكبر وهوى حَالَ بينهم وبين الإيمان، وكانوا يخفون معرفتهم؛ لأنهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ فكيف يعترفون به ولم يتمنوا ذلك الذي تمنوه رغبةً في الحق ولكن حبّاً لأنفسهم وخوفاً من النار التي قد أشرفوا عليها ـ نعوذ بالله ـ فهم مجدُّون في التمني.

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ لأنهم يتبعون هوى أنفسهم، فلو ﴿رُدُّوا۟﴾ ورجع الإبتلاء والإختبار لمالوا عن الحق لتلك الأسباب الأولى ولأمّلوا أنهم إن رجعوا إلى الله مرة أخرى ردّهم إلى دار الخيار كما ردهم أول مرة فاتخذوها تجربة لإمكان الرد، أو أن بعضهم يؤمل أن سيتوب في آخر عمره حتى يجيئه الموت وهو على كفره. والحاصل: أن الله علام الغيوب قد أخبر بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهو عنه، وهو أصدق القائلين.

بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في زعمهم الذي يفهم من كلامهم أنهم لو ردوا لتركوا التكذيب بآيات الله ولآمنوا، وفي هذه الآية: دلالة على أن الكذب ما خالف الواقع وإن طابق الإعتقاد، وإنما لا يقال لبعض القائلين المعتقدين للصدق تأدباً وتجنباً للإيهام.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على أقوالهم التي مرّ ذكرها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا أي ليس بعدها حياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت كفراً منهم بالبعث والجزاء، فبيّن الله عاقبة هذا الكفر بقوله تعالى:

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾ عند ربهم وبين يديه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فبين ذلتهم في الآخرة، وإقرارهم بالحق وقسمهم عليه بالله ربهم، ثم لم يفدهم ذلك شيئاً، بل قال تعالى لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ تفريعاً بـ(الفاء) على ما أقروا به ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهنالك يندمون حين لا ينفع الندم، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟! إشارة إلى البعث وإرجاعهم إلى الله إلى موقف السؤال والحساب والحكم من الله فيهم.

فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا

﴿٣١﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ تحقيق لوقوع الخسارة العظمى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ في تحقيق الرحمة العظمى، وهذه الخسارة عند بلوغهم غاية التكذيب بلقاء الله، وهي ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ فجأة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ انقلبت الحال في قدر لمح البصر وانكشفت الحقيقة بمجيء الساعة، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ تحولوا من التكذيب بها إلى التحسر على ما فرطوا فيها.

والحسرة: الغم الشديد، قال في (لسان العرب): «وحسر، يحسر، حسراً، وحسرة: إذا اشتدت ندامته على أمر فاته» انتهى باختصار، وقال: «والحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه» انتهى، وقولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ كقولهم: ﴿يَاوَيْلَنَا﴾ فهو دعاء للحسرة والغرض تنبيه السامع، وذلك تقوية للدلالة على الحسرة وتنويه بها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال أبو عبيدة: يقال فرطت في الشيء، أي ضيعته، فقوله: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي تركنا وضيعنا، وقال الزجاج: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي قدمنا العجز، جعله من قولهم: فرَط فلان إذا سبق وتقدَّم، قال الواحدي: فالتفريط عنده تقديم التقصير» انتهى، وكلام أبي عبيدة أقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٠] فالتفريط لا يختص بالعجز.

تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي ذنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ قد لزمتهم ذنوبهم لم تنفك عنهم ولم يستطيعوا طرحها عن ظهورهم على ثقلها وعارها عليهم ووبالها ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ساء ما يحلمون يومئذ في ذلك الموقف الشديد ساء ما يزرون ما أسوأه.

وقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع، ليصغي لهذه الجملة، فما أسوأ تلك الأحمال الثقيلة الوبيلة التي تؤديهم إلى نار جهنم، وهذا تمثيل لسوء حالهم في موقف السؤال والحساب بسبب ذنوبهم، فهم يتحسرون من تفريطهم في الساعة وهم يحملون ذنوبهم لا تنفك عنهم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فلم يكن ينبغي لهم أن يؤثروها على الحذر من النار وعلى السعي للدار الآخرة؛ لأن أغراض الدنيا منتهية بلا فائدة، فهي أشبه باللعب واللهو الذي لذته إنما هي في وقته ثم ينتهي بلا ثمرة.

قال الراغب الأصبهاني: «اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه» انتهى، وصواب العبارة: ما ينشغل به ليفيد الإختيار له ويخرج ما شغله اضطراراً كالوجع الشديد فلا يسمى لهواً، وعبارة (الصحاح): ولهوت بالشي، ألهو، لهواً: إذا لعبتَ به وتلهيت به مثله، وقال في (الصحاح): «وألهاه: أي شغله» انتهى، فجعل الشغلَ تفسيرَ الإلهاء لا تفسير اللهو.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الدار الآخرة هنا: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا؛ لأن نعيمها دائم وسعادتها دائمة فلا قيمة للدنيا في جنبها، لأنها تفنى مع قلَّتها وما فيها من المنغصات والمحن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حين تتركون الخير العظيم الدائم من أجل القليل الفاني، فمن شأن العاقل أن يتدبر العواقب ويختار الخير العظيم الدائم على القليل الفاني الذي يسبب لَه العذاب الدائم.

(٣٣) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ من التكذيب بالآخرة وغيره، كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ..﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قال الراغب: «الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه» انتهى.

وفي (الصحاح): «الجحود: الإنكارُ مع العلم، فالمعنى: أنهم ينكرون آيات الله الدالة على صدقك كالقرآن وهم يعلمون أنها آيات الله صدَّقك بها، فلا تحزن مما يقولون فإنهم ﴿لاَيُكْذِبُونَكَ﴾ أما على قراءة نافع [بسكون الكاف وتخفيف الذال] فالمعنى: لا يجدونك كاذباً؛ لأن آيات الله قد صدقتك وهم قد علموا أنها آيات الله.

وفي (الشافية) لابن الحاجب و(شرح الرضي) عليها في معاني (أَفْعَل): ولوجوده عليها أي لوجودك مفعول أفعل على صفة وهي كونه فاعلاً لأصل الفعل نحو: أكرمتَ فاربط أي وجدت فرساً كريماً، وأسمنتَ أي وجدتَ سميناً، وأبخلته أي وجدتَه بخيلاً» انتهى المراد.

وأما على قراءة ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ [بفتح الكاف، وتشديد الذال] فالمعنى: إنه تكذيب بألسنتهم وهم يعلمون أنك صادق فهو كَلا تكذيب؛ لأن الذي يهمك أن يعلموا أن الذي جئت به هو الحق من ربك، فقلوبهم مصدقة لك فلا يحزنك التكذيب بألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي ولكنهم ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر لإفادة أن ظلمهم جرأهم على هذا المنكر العظيم وأوردهم ذلك المورد الوخيم الذي لا يليق بعاقل منصف أن يرضاه لنفسه.

فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ ﴿رُسُلٞ﴾ أرسلهم الله من قبلك ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ﴾ تكذيب المكذبين لهم وأذى الكافرين لهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ كوعده رسله بالنصر فلا مبدل لوعده؛ لأنه لا مبدل لكلمات الله، وهي تعم الوعد والوعيد والحكم والقصص وغير ذلك فلا مبدل لها؛ لأنها صدق وعدل، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مافيه لك تسلية وتشجيع على الصبر، ووعد بالنصر، ونحو ذلك.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ قال في (الصحاح): «والنفق: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان» انتهى، وقال الراغب: «والسُّلَّم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «السلم واحد السلاليم التي يرتقى عليها» انتهى. ولم يزد: ثم جعل اسماً.. إلخ.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام هذا تسهيل من الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لِمَا علم من غمه بإعراض الخلق عن الله سبحانه ومعصيتهم له ومخالفتهم لحكمه، فلما كبر ذلك على رسول الله وعظم عنده

إعراضهم عن الله سبحانه واشتد عليه ما يرى من شرارتهم، قال الله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي عظُم عليك إعراض المشركين وعدم إيمانهم وتوهَّمت لرغبتنا في إيمانهم أن كثرة الآيات توثر فيهم ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول ترقى في السماء فتأتيهم بآية وهذا غاية الإجتهاد في الذهاب في الأرض والسماء، فقال: إنك قد جئتهم من الآيات والعلامات والحجج الواضحات الباهرات بما في أقل منه يؤمن من كان له قلب أو معرفة، ولم تترك غاية في حرص ونصيحة واجتهاد أو موعظة، فما تريد أن تعمل بهم بعد ذلك أتذهب في الأرض أو في السماء وليس تقدر على ذلك؟ ليس عليك من الأمر إلا ما قد فعلت» انتهى المراد.

وقوله: وتوهمت لرغبتنا في إيمانهم، أقول: أظن الأصل لرغبتك في إيمانهم؛ لأن السياق في حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إيمانهم، فالراجح أن قوله: لرغبتنا، تصحيف من بعض النساخ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنها تدل على أن الله تعالى قد شاء أن يتركهم وشأنهم؛ لاستحقاقهم الخذلان مع أنه لو شاء لجمعهم على الهدى؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] وهو الذي يتولى إظهار دينه ونصر رسوله، فكِل أمرَك وأمرهم إلى الله ولا تبال بهم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بمحاولة أن يؤمنوا أكثر مما قد فعلت أو بالطمع في أن يؤمنوا وهو طمع فيما لا يكون أو بمحاولة الإتيان بآية كما يقترحون، وحكمة الله تأبى ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون ولو جاء ما اقترحوه.

يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

قال الشرفي في (المصابيح): «وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة، كما أن قوله: ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] لا تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم أطاعهم وقَبِل دينهم..إلخ.

قلت: يعني أن النهي لا يدل على أنه يقع منه المنهي لولا النهي، ولقائل أن يقول: أن ذلك النهي من التثبيت والعصمة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٧٤] فليس معنى العصمة استغناءه عن النهي والتحذير.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ و ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هم الذين يريدون الحق، فهم الذين يسمعون سماعاً يعتدُّ به لأنه السماع الذي ينتفعون به، أما المعرض الكاره للحق فهو وإن سمع فسماعه كلا سمع؛ لأنه معرض عن طلب الحق وكاره، فالذي يسمع سماع طلب للصواب، هو الذي يستجيب لله ورسوله، أما الكاره للحق المعرض عنه المخذول فهو كالميت الذي لا يسمع، فقراءة القرآن عليه بمنزلة درس عند ميت، ولكن عاقبته أن يبعثه الله من الموت الحقيقي، ثم إلى الله وحده يرجع ليحاسبه ويوفيه حسابه، وهناك يسمع حين لا يفيده السمع شيئاً.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هلاَّ أنزل عليه ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إن كان أرسله كما يدعي، وهذا من كفرهم بآيات الله، واعتبارهم لها أنها ليست آيات، وقد ردَّ الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١].

إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾ فلم يترك ذلك، إلا لأنه قد بيَّن صدق الرسول ولا تقتضي الحكمة إجابتكم إلى ما تقترحون، ولولا ذلك لنزله، لأنه قادر على تنزيله، ولكن أكثر هؤلاء الكافرين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على ذلك لجهلهم بالله واستبعادهم لقدرته سبحانه على ما يقترحون.

﴿٣٨﴾ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ هذا بيان لقدرة الله وسعة علمه تعالى بأن جعل كل دابة تدب في الأرض أمماً كل نوع منها أمَّة، وجعل سبحانه كل ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ صغيراً أم كبيراً أمماً كل نوع أمة يجمعها تدبيره لمعاشها وما يتوقف عليه من كمال خلقها الذي به صلحت للمعاش وتدبيره تعالى لتناسلها وتقديره لأعمارها وتدبيره لأسباب سلامتها من أضدادها فيما قدر من حياتها:

فمنها: ما يستطيع الدفاع عن نفسه بما خلق لَه من آلة الدفاع وقوّته، ومنها: ما هو سريع الفرار والإختفاء، ومنها: ما بيته ضيق لا يتسع لضده، ومنها: ما يحتال للسلامة بإيهام أنه قد مات كما يفعل الثعلب، أو بإعداد مخرج من بيته للفرار من غير بابه كما يفعل اليربوع، أو بالسكون مكانه كما تفعل الدويبة الصغيرة التي تدل عليها حركتها فإذا سكنت اختفت.

فهذه الأنواع وسائر أنواع الحيوانات والطيور لكلٍ منها تدبير معيشته ورعايته، لا يخفى على الله تعالى ولا يشغله شأن عن شأن، فهي في رعايته سبحانه كما الإنسان في رعايته على كثرة الأنواع، ولكل نوع ما يختص به

من العادات المعيشية وطلب الرزق والمسكن والمحافظة على الحياة، فهو أمّة وحده لاجتماعه على ما خصه من بين سائر الأنواع.

قال في (الصحاح): «والأمة: الجماعة ـ ثم قال ـ: وكل جنس من الحيوان أمة» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْثَالُكُم﴾ أي في أن كل أمة لها أسباب معيشتها ولها خلقها ورزقها ورعايتها وآجالها وغير ذلك.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ قال في (البرهان): يعني من أمور الدين إما مفصلاً يستغني عن التفسير أو مجملاً جعل إلى تفسيره سبيلاً، قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ أي لم نتوانَ في شيء في الكتاب ولكنا جعلنا فيه أصول جميع الأسباب، ولم نتوانَ في الخبر عن رحمتنا حتى ذكرنا البهائم والطير والدواب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون في ذلك اليوم إلى الله وينشرون» انتهى.

قلت: والحشر في هذه الآية: إحياء الحيوانات والطير، وسوقها إلى حيث تجمع لإعطاء كل منها ما يستحقه، بسبب ما لحقه في الدنيا من مشقة أو ألم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه تنزيل الحيوانات والطير منزلة العقلاء، ولعل السر فيه أنها حين تحشر تعطى من الفهم ما تعرف به عدل الله في قضائه، وأنها قد وُفيت ما تستحقه من الأعواض والأجور على ما سخرت لَه من نفع الإنسان وغيره، وعلى ما ألهمت من ذكر الله ونحوه، وقد قيل: إن لها تكليفاً بقدر معين تفهمه ـ والله أعلم.

يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لما كانوا لا ينتفعون ببيان الله لهم ورده لأقوالهم الباطلة بما ينفع من يقبل الحق، شبههم بالصم الَّذين لا يسمعون، وأضاف تشبيههم بالبكم الذين لا ينطقون؛ لأنهم لا ينصفون فيعترفوا بالحق عند وضوحه، بل هم عن ذلك كالخرس.

ثم قال: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بدلاً من تشبيههم بالعمي، فدل على أنهم لا يبصرون الحق، بسبب ما هم فيه من ظلمات الباطل التي تحول بينهم وبين الرؤية للحق، مثل: الكبر، والحسد، وحمية الجاهلية لآبائهم المشركين، ولما يعبدونه من دون الله، ومثل: عقائدهم التي استمروا عليها وتعصبوا لها، ومثل: هواهم فيما ورثوه عن آبائهم وما نشأوا عليه.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومشيئته سبحانه ليست مشيئة شهوة؛ لأنه لو أراد إرادة الشهوة لعمت إرادته كل مشتهى بل كل شيء؛ لأن ذاته لا نسبة بينها وبين شيء دون شيء، بل ذاته مخالفة للأشياء كلها، فليس كالمخلوق الذي جعلت لَه شهوة فيما يكمل معيشته واستمرارَ وجوده فإما أن يشتهيها كلها، وإما أن يستغني عنها كلها، فلما رأينا الأشياء تنقص وتتغير والأحياء تموت بعد تمام خلقها، علمنا أنه غير محتاج إليها؛ لأنه لو كان محتاجاً إليها لحافظ عليها، ولما جاز عليه تغير الحاجة، لأنها لو كانت لكانت ذاتية توجد ما دامت الذات.

فدلّ ذلك على أنه غير محتاج إلى شيء منها، وأنه غني عما خلق كله كما هو غني عما لم يخلق، وإذا ثبت أن مشيئته ليست مشية شهوة لم يبقَ إلا أنها مشية الحكمة، وليس من الحكمة إضلال عبده وهو يدعوه إلى الهدى وهو

مستعد للإجابة، ولم يسبق منه ما يستحق به الإضلال، فدل ذلك على أنه لا يشاء الإضلال إلا على ما تقتضيه الحكمة، وهو الإضلال لمن استحق الإضلال؛ بتمرده عن قبول الحق بعد بيانه، الإضلال الذي لا يسلب الاختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة؛ لأنه لو سلبه الإختيار والتمكن من الفهم والطاعة لرفع عنه التكليف، ولما عاقبه على ما صدر عنه في حال الإضلال؛ لأنه حكيم وهو ﴿بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] و﴿لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤] ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

فما هو الإضلال الذي لا يسلب الإختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة، وقد استحقه العبد بتمرده؟

قلنا: قد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ولم يقل: إنه يخلق الضلال، أو يسلب الإختيار، أو يسلب قدرة الفهم والطاعة، وإنما هو جعل صدره ضيقاً فإذا ضاق صدر العاصي بسبب عصيانه وتمرده كان هواه في ترك ما ثقل عليه فاتبع هواه كما اتبع هواه قبل الإضلال، فلما اتبع هواه كان قد أضله هواه عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦] وجعل صدره ضيقاً بسبب تمرده وإن كان منسوباً إلى الله، فيمكن مع ذلك أن له نسبة إلى العاصي من حيث أنه عوّد قلبه اتباع الهوى وترك ما كلف، حتى أثرت العادة في قلبه فصار الحق عليه ثقيلاً، وهذا الثقل النفسي هو سبب ضيق الصدر؛ لأنه مفطور على تأثره بالآثار النفسية، وعلى هذا تكون العقوبة بخذلانه عند تصرفه المفسد لقلبه وترك لطفه؛ لأنه استحق الخذلان ـ وبالله التوفيق.

فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ترغيب كامل في التعرض لهداية الله تعالى؛ لأنها هداية يكون عندها ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بسبب حبه للإيمان، وانشراح صدره للإسلام، فإذا عاين الصراط المستقيم سار فيه بغير تردد ولا تراخٍ، فاعتبرت هدايته جعله على صراط مستقيم لأنها سببه.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم الشرك، فإذا كنتم عند هول العذاب أو الساعة لا تدعون غيره، تبيَّن: أن إشراككم ليس عن اعتقاد أن شركاءكم يسمعون دعاءكم ويكشفون عنكم الضر، وإنما هو التقليد الأعمى والتعصب.

﴿٤١﴾ ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ أي بل الله وحده تدعون لكشف الضر ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ ولا يشاء كشف الساعة ولا كشف العذاب إذا كان قد نزل وعاينوه، ولكنه قادر على ذلك فلو شاء لكشفه، فهي تدل: على أنه هو الذي يسمع الدعاء، ويكشف العذاب إن شاء؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:٢٠] فهو الذي ينبغي أن يُدعى ويُخشى ويُرجى ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ لاشتغال أذهانكم بطلب النجاة ممن يقدر عليها ويسمع الدعاء.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال في (الصحاح): «البأساء: الشدة» انتهى، وقال: «والبأساء، والضراء: الشدّة» انتهى.

جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ

قلت: لعل في مفهومها اختلافاً، باعتبار البؤس في البأساء أي هو يقابل النّعمة، واعتبار الضر في الضراء ـ والله أعلم.

وفي التعبير بأخذهم دلالة على عظَم المصيبة وقهرها لهم واستيلائها عليهم، بحيث عجزوا عن دفعها واستسلموا لها، وذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الله إذا علموا أن سببها هو الكفر، فيؤمنوا برسلهم، والتضرع التذلل الذي هو ضد التكبر وإذا تركوا الكبر وتذللوا لله آمنوا.

﴿٤٣﴾ ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ لأن الشدة هي من الله، فهلا تضرعوا إليه حين جاءت، لأن من شأن العاقل طلب النجاة إذا أمكن، وهو ممكن بالتضرع ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم تؤثر فيها الشدة لتلين وتذل لله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ما تكرر منهم وألفوه من الشرك وسائر الباطل وتزيين الشيطان لهم: وسوسته لهم بما يرغبهم فيما هم عليه حتى يرغبوا فيه، فيكون في رأيهم حسناً لإلْفهم لَه ورغبتهم فيه، فاستحسنوه استحسان النفس لما تشتهيه، فلم يتضرعوا بل تحملوا الشدة وصبروا عليها.

والفرق بين البأس هذا والعذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أن البأس هذا لم يبلغ بهم الخوف الشديد الملجئ إلى الرجوع الذي يكون عند ظن الهلاك، فلذلك تحملوه وصبروا عليه إصرارٌ على كفرهم.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿٤٤﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ وهو البأساء والضراء التي أخذهم الله ليتذكروا، ومعنى نسيانهم: غفلتهم عنها، من حيث هي تذكير لهم وعدم تذكّرهم بها وإعراضهم عنها من حيث هي تذكير لهم حتى كأنهم نسوها حقيقة، ومنه قوله تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [التوبة:٦٧].

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أبواب النعم المختلفة بتيسير أسباب الثمار والمراعي، وازدهار التجارة ونمو الإقتصاد، وكثرة الأنعام والدواب، وأسباب توفر المأكول والمشروب على اختلاف أنواعهما، وأسباب اللباس والفراش، وغير ذلك كالصحة والقوة والأمن، فقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعم أسباب مطالبهم المعروفة في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالى في الحرم: ﴿تُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إشعار بإتيان الأسباب ونزولها عليهم بغزارة، وإقبال الخير شبه نزول الأمطار، ولما كان هذا الإقبال فتنة واختباراً ناسبه أن يقول عليهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قال في (المصابيح) ـ ونِعمَ ما قال ـ : «ومعناه: حتى إذا تقلبوا في ضروب النعم وتصرفوا في أنواع اللذات واطمأنوا بها وركنوا إليها، أخذناهم» انتهى المراد.

وأخذ الطمأنينة والثقة في معنى الفرح، وأنه ليس مجرد السرور هو الظاهر من تأمل مواقعه في القرآن؛ لأن الفرح بالدنيا مذموم والفرح بنصر الله غير مذموم، والفرح بما أنزل الله من الهدى مأمور به.

والفرق: أن الإطمئنان إلى الدنيا مذموم لأنه اغترار، والإطمئنان إلى الدين حق وصواب لأن عاقبتَه محمودة محققة.

وحكى الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي - في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] قال: ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] من العوافي والنعم التي لا توجب الفرح بها لفنائها وقلة بقائها» انتهى.

فهذا يفيد: أن توقع زوال النعمة ينافي الفرح بها، فيدل على أن الطمأنينة إلى الشيء لازمة للفرح به، مع أن الإنسان مجبول على السرور بحصول ما يحتاجه، وإن كان يعلم أنه لا يدوم، فظهر الفرق بينهما.

وقوله تعالى: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ عذبناهم فجأة لم يكونوا يتوقعون العذاب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ المبلس: المتحير في المخرج مما هو فيه، وفي تفسير المرتضى الذي حكاه الشرفي في (المصابيح): «والمبلس: فهو الذي ليس لَه ولا في يده شيء، العادم لما كان معه، الآيس مما كان يؤمِّله فدامت حسراتهم..» إلخ.

وفي (الكشاف): «واجمون متحسرون آيسون» فزاد الوجوم: أي السكوت، وفيه نظر، لأن الله تعالى قال في (سورة الأنبياء): ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٤-١٥] فإن أراد ساكتون بالموت فهو خلاف الظاهر، لأن الموتى لا يوصفون بالتحسر واليأس، فالأولى: أن الإبلاس عند العذاب وتحقق الهلاك، ففجأة العذاب تبِعتْها فجأة الإبلاس.

يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

﴿٤٥﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ هلكوا كلهم لم يبقَ لهم عقب بسبب عموم العذاب لهم كلهم، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أقيم مقام الضمير أي دابرهم وهو يفيد أن هلاكهم بسبب ظلمهم ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أهلكهم وطهر الأرض منهم لينقطع ظلمهم وفسادهم، لأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم المدبر لأمورهم ولإظهار الحق ونصره بتدمير أعدائه.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ ﴿خَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ حتى لا تفهم شيئاً؛ لأنها مسدودة بالختم، وهذا تمثيل لمنع الفهم، فالله تعالى هو القادر على ذلك، وشركاء المشركين لا يقدرون على تعويض ما أخذ أو فتح ما غلق، وقوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ أي بالفائت المدلول عليه في الكلام، فالذي يملك السمع والأبصار والعقول، هو الذي يستحق العبادة؛ لأنه المالك المنعم لا من لا يقدر على ذلك فلا معنى لعبادته بل هي عين الباطل.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿ٱنظُرْ﴾ فكّر ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على بطلان الشرك وعلى صدق القرآن والرسول صلى الله عليه وآله وسلم نأتيهم بآية، ثم نأتي بأخرى من معنى آخر، ثم نأتي بأخرى كذلك آيات متنوعة متعددة، ومن حيث تنويعها باعتبار معانيها سمي تصريفاً مثل ﴿تَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة:١٦٤].

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

﴿ثُمَّ﴾ بعد تصريف الآيات لهم ﴿هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ قال الراغب: «صدف عنه: أعرض إعراضاً شديداً» انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يعرضون» انتهى، ومثله في (الصحاح) ﴿ثُمَّ هُمۡ﴾ أي المشركون ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ بعد تصريف الآيات، يستمرون على إعراضهم كلما جاءتهم آية.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال تعالى في هذه ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ وفي التي قبلها ﴿قُلۡ أَرَأَيۡتُمۡ﴾ ولعل وجه الحكمة: أن لفت أنظارهم في الأولى إلى قدرة الله ونعمته وعجز شركائهم، وفي هذه الآية لفت أنظارهم إلى أنفسهم كيف يصنعون إن أتاهم ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ وهم على ظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ يصور لهم حالة نزول العذاب حين ينزل إما بشدة المباغتة وإما بهول المجاهرة ومعاينته عند نزوله حتى وصوله لا يستطيعون دفعه ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ﴾ أي بالعذاب ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي فلم يأتكم إلا لأنكم ظالمون فأنتم الذين سببتم لإتيان العذاب بإصراركم على الظلم والإعراض عن آيات الله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فالرسل كلهم جاؤوا الأمم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن وأصلح ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن كفر ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾ بالرسل وما جاؤوا به ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ وعمل صالحاً ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بل هم آمنون في الآخرة مستبشرون.

يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ

﴿٤٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فلم يؤمنوا برسولهم ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ يباشرهم العذاب بسبب ما كانوا في الدنيا ﴿يَفْسُقُونَ﴾ أي ما تكرر من فسقهم كله، يؤاخذون به كله أوله وآخره.

﴿٥٠﴾ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ في قولي إني رسول الله إليكم ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ من الأموال وما يحتاج الناس إليه فهي بيدي فإذا لم أدّع هذا، فليس لكم أن تقترحوا علي ما ليس في وسعي، بل عليكم أن تنظروا في دلائل صدقي.

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي وقل لهم: ﴿لَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ وهذا أقوى من نفي دعوى علم الغيب، وهو عام يخصه ما أوحاه إليه ليبلغه، كما قال تعالى: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ..﴾ [الجن:٢٦-٢٨] وذلك لأن الآخرة غيب والجنة والنار والملائكة كل ذلك غيب بلغته الرسل إلى أممهم ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ فليس لكم أن تكذبوا رسالتي، بدعوى أني بشر آكل الطعام وأمشي في الأسواق ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فأقول ما أمرني الله به، لا أتبع غير وحيه.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فالمؤمن المتبع لما أوحاه الله كالبصير، والكافر كالأعمى، ومن تفكّر واستعمل عقله علم أن البصير أعرف بالهدى من الأعمى.

أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

﴿٥١﴾ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي بما يوحى إليك ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الذين ينتفعون بالإنذار، لأنك إذا أنذرتهم خافوا أن يحشروا إلى ربهم ليسألهم ويحاسبهم ويجزيهم بما عملوا ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ ﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في حال أنهم ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ من دون ربهم ﴿وَلِيٌّ﴾ يتولى أمورهم ويدبر ما يصلح شأنهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يتدخل فيما بينهم وبين ربهم بشفاعته فيصرف عنهم العقاب، وقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي فيما بينهم وبين ربهم يحول دون جزائهم، فهم الذين ينتفعون بالإنذار، أنذرهم بالقرآن ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ العذاب، والإنذار بالقرآن: تلاوة ما فيه من الوعيد، وتقييد الإنذار به؛ لأن العربي إذا سمعه عرف أنه خارق في إحكامه وحسن نظمه، فعرف أنه كلام الله، فالإنذار به إنذار مقرون بالحجة.

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ لا تطردهم من عندك كما أراد المتكبرون المحتقرون لهم، والدعاء: طلب الحاجات من الله، والرغبة إليه في قضائها، و(الغداة): أول النهار، وأما ﴿ٱلْعَشِيِّ﴾ فقال الراغب: «العشي: من زوال الشمس الى الصباح».

وفي (لسان العرب): «وأما العشي، فقال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعي ذلك الوقت العشي، قال الأزهري: وصلاتا العشي هما الظهر والعصر، وقال الأزهري: يقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء، وقيل: العشي: من زوال الشمس إلى الصباح» انتهى باختصار.

وقد جاء في روايات (حديث الغدير): وراح يصلي عشية. مع وصفهم تلك الحال بشدة الحر، فالراجح: أن العشي من زوال الشمس، وأما آخره فإما الغروب، وإما بعد ذلك.

والآية الكريمة تفيد: أن المذكورين يكثرون ذكر الله في أوقات الفضيلة، وقد جاء في الغداة روايات كثيرة تدل على فضل الذكر فيها، وجاءت روايات في فضل الذكر بعد العصر إلى غروب الشمس، فأما الذكر من بعد الزوال إلى بعد العصر فلعله في الصلوات وأدبارها.

وأما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فالراجح في معناه: يريدون التقرب إليه، والتوسل إلى رضوانه، لأن الراضي يقبل على المرضي عنه بوجهه، كما أن الساخط يعرض عن المسخوط عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧] وهو تعبير عن الغضب عليهم، فإرادة وجهه: إرادة نظره إلى عبده أي رضوانه، وقد قال أولاد يعقوب: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا..﴾ إلى قولهم: ﴿..اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨-٩] يريدون نظره بوجهه إليهم وحدهم، كناية عن حبّه لهم وحدهم، وليس بمعنى الذات.

فالمعنى في الآية هذه وأمثالها: خلوص النية للتقرب إلى الله وطلب رضوانه، ليس لهم غرض دنيوي لا رياء ولا سمعة ولا غير ذلك، فهم أهل للتقريب والإكرام لا للطرد والإبعاد.

قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى عليه السلام: «ومحمد عليه السلام فلم يطرد أحداً، وإنما قالت له قريش لما دعاهم إلى الله سبحانه، فقالوا: كيف نؤمن يا محمد وقد سبقنا من ليس له قدر فينا ولا رئاسة من أوساط الناس

وأتباعنا، فاطردهم فإن طردتهم آمنا بك، فأنـزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، تعريفاً لهم ورداً عليهم، وأمر بخلاف قولهم، وشهد الله سبحانه لمن اتبع رسوله بالدين وإخلاص النيات، فقال: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ فأخبر أنهم يقصدون ويطلبون ما عنده، فكان هذا مدحاً لهم وثناء عليهم» انتهى المراد.

﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾ وهذا وجه آخر للنهي عن طردهم يفيد: أنه لا يحتاج إلى طردهم؛ لأنه لا يحاسب بعملهم ولا يحاسبون بعمله، وهو يشير إلى أن ضعف الإنسان وحقارته ليس لقلة ماله أو رجاله، إنما هو لقلة عمله الذي يستحق به المدح والثواب، أو سوء عمله الذي يستحق به الذم والعقاب.

وهؤلاء الذين نهيت عن طردهم سواء كان عملهم صالحاً أو سيئاً ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ بسبب مجاورتهم، فلا حاجة إلى طردهم لأجل أعمالهم التي لا تعلمها، وإنما ترى منها خيراً، وكذلك لا ينالون بمجاورتك شيئاً من حسابك يصير عليهم فينقصوا عليك من حسناتك، ولهذا فلا حاجة لك في طردهم، وفيه ـ أيضاً ـ إشارة إلى أنه لو حسن طردهم لما حسن إلا لحاجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة لا لإرضاء الكفار المتكبرين، فلا يتصور وقوعه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولذلك لم يذكر.

والحاصل: لا تطرد الذين يدعون ربهم المذكورين ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب في جواب النهي، يفيد: أنه لو طردهم لكان من الظالمين، وحاشاه صلى الله عليه وآله وسلم من أن يطرد المؤمنين أو يكون من الظالمين، ولكن هذا ردٌّ على المتكبرين كما أفاده المرتضى عليه السلام، وبيان لقدر المؤمنين عند الله وكرامتهم.

لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ

﴿٥٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ كذلك الفتن الذي فتنا المستكبرين من قريش بالمؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم، كذلك الفتن فتنا بعض الناس ببعض امتحنَّا بعض الناس ببعض، يمتحن الكبراء أو المستكبرين بالفقراء والمستضعفين، وفي كلام الإمام علي عليه السلام في الخطبة (القاصعة): «فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون بن عمران عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصى فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عِزِّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه..» إلخ .

هكذا يبتلى من يراه الناس عظيماً بمن يرونه حقيراً، ولعل مثل هذا وقريباً منه يحدث لغالب كبراء الناس من الرؤساء والعلماء ومشائخ القبائل وكبار الأغنياء وغيرهم، فنسأل الله الثبات على الحق.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ امتحناهم ليظهر ما يكون منهم عند الفتنة، وقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ سؤال احتقار للمشار إليهم لنفي أن يمن الله عليهم ويختارهم من بين المستكبرين يريدون ﴿لَوۡ كَانَ﴾ ما عليه المستضعفون ﴿خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف:١١] لأنا أحبّ إلى الله منهم، ولذلك يعطينا ويمنعهم، ونحن أحق منهم أن يمن الله علينا لو كان خيراً ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهم أحق بالنعمة لا الكافرون.

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ

وقوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ التعليل من المتشابه، ومثله متعدد في هذه السورة، والأقرب في تأويله: أن المراد بيان علم الله سبحانه بما يكون منهم عند الفتنة قبل أن يفتنهم، فلما جعلوا الفتنة سبباً لهذا القول وترتب القول على الفتنة وهو سبحانه يعلم ذلك من قبل، كان كأنه فتنهم ليقولوا، فهو مجاز عن علم الله به وعدم مبالاته به، حتى كأنه مقصود ـ والله أعلم.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعم كل مؤمن، ولا يخص الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ تكريم لهم وتأمين ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أوجب على نفسه، تحقيق للرحمة أنها واقعة لهم على كل حال، لكن إذا عمل أحدهم ﴿سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ فالرحمة له من بعد التوبة والإصلاح، وهي بشرى بقبول توبته والمغفرة لمن تاب وأصلح كلما عمل سوءاً، وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ كالقيد الواقعي، لبيان أن ذلك لا يليق بالمؤمن وأنه يكون جهالة بمعنى سفاهة وقع فيها، بسبب غفلته وذهوله عن الإيمان، ومفارقته عند غلبة غضبة أو شهوة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح ما أفسد لأن عامل السوء قد يكون أفسد بل ذلك كثير في معاصي المعاملة والغيبة والنميمة والكذب وأذى المسلم وغير ذلك، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة:١٦٠] وهذا أظهر من تفسيره بإصلاح العمل؛ لأنه يقال فيه: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة:٦٢] والله أعلم.

ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلۡ إِنِّي

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يفيد: أنه يغفر للتائب ويرحمه، لأنه ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهو تأكيد للوعد.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التفصيل الكامل المبين للمعنى ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فلا يصح دعوى: أن القرآن رموز لا يفهما إلا الإمام أو الشيخ ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قرئ برفع ﴿سَبِيلُ﴾ على أنها فاعل (تستبين) أي تتبين، وقرى بنصب ﴿سَبِيلَ﴾ على أنها مفعول به، أي تستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، والمجرمين هنا ظاهر في الذين هم ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ والذين هم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ وأمثالهم ممن مر ذكرهم في السورة، التي تبين فيها سوء سبيل المجرمين وضلالتها، وأنها سبيل العذاب والخذلان، وسبيل التمرد عن قبول الحق والعناد وغير ذلك من عيوبها، فتفصيل الآيات لحكم عديدة، ومنها تبين سبيل المجرمين.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهو يعم عبادتها بالدعاء وعبادتها بغيره كالذبح وغيره، كما يأتي ذكره في هذه السورة، وهذا تنبيه للمشركين على أن من دين الرسول ﷺ اجتناب الشرك.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ لأني ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فكيف أدع الحق الواضح لأتبع الباطل الذي لا برها ن له وإنما هو مجرد اتباع الأهواء ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ إن اتبعت أهواءكم ضلالاً لا أهتدي معه أو بعده، فهو ضلال مجرد، أو ضلال يسبب الخذلان وسلب التوفيق، وفي هذا دلالة للمشركين أنهم ضالون بطريقة حكيمة فيها رفق ولطف في التعبير.

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تبين لي أن الحق هو التوحيد وأن الشرك ضلال بعيد، والبينة: هي القرآن الحكيم الذي هو من الله سبحانه، فرسول الله ﷺ على بيان الله الذي بينه لَه، لكن الكفار كذبوا بالقرآن فحرموا أنفسهم سبيل الهدى.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من القيامة أو العذاب، لأني لا أملك ذلك، وإنما أنا نذير لكم فإن آمنتم فقد تبين لكم الحق، وإن كفرتم فقد تبين، ولا عذر لكم في عدم إتياني بما تستعجلون، وليس لكم ولآبائكم أن تحكموا بما شئتم من شرك أو غيره أو لزوم اتباعي أو تركه لعدم ما اقترحتم.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أمر أن لا تعبدوا إلى إياه، فليس لكم أن تتحكموا باشتراط ما اقترحتم ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ يقص القصص وقد قص بالحق ما أصاب المشركين قبلكم بشركهم وتكذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأنه يفصل بالحق ولا يغلط ولا ينسى، وهو يستطيع تنفيذ فصله بين عباده، فهو فصل نافذٌ يحق الحق ويبطل الباطل فلا بد أن يفصل بيننا وبينكم.

﴿٥٨﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأن الساعة أو العذاب الذي أنذركم يقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الطاعة والإيمان؛ لأنه يبطل الإختيار ويرفع التكليف، ولا يبقى إلا أن يحل عليكم ما أنذرتكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو أعلم بكم وهو يجزيكم بإجرامكم.

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا

﴿٥٩﴾ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: معناه: وعنده علم الغيب الذي لا يعسر عليه عسير، ولا يعزب عنه صغير ولا كبير، ولكنه ضرب المثل بالمفاتح لعلمه كما ضرب المثل بالكتاب لحفظه، وليس ثَمّ كتاب وإنما هو مثل مضروب، قال الشاعر:

في كفه من رُقَى الشيطان مفتاح

أي معه حيَل من عزائم الشيطان حتى يسهل عليه ما يتعذر على غيره فضرب المثل بالمفتاح ـ قال الشرفي ـ ومثل هذا ذكر المرتضى عليه السلام، وقال: مفتاح الشيء فهو علمه؛ لأنه لا يوصل إلى ما كان منغلقاً إلا بمفاتحه، وإنما هذا مثل ضربه الله ـ عزَّ وجل ـ لخلقه وبينه لعباده بأنهم يعلمون بأن الاغلاق لا يفتحها إلا المفاتح، فلما أن كان الغيب منغلقاً عن الخلق والله سبحانه هو العالم، قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ والغيب: هو ما استتر واستجنَّ وغبي فلم يعلم، وذلك لا يعلمه إلاَّ الله ـ عزَّ وجل ـ إلا ما دلَّ عليه وفتحه وبيَّنه لعباده وأخبر به» انتهى من (المصابيح).

وما ذكره المرتضى عليه السلام هو التحقيق، فليس لأحد قوّة علم الغيب لا استقلالاً ولا بتقوية من الله، ولكن ما أخبر الله به من المغيبات علمه من بلغه الخبر مع حجته كالقيامة وأهوالها، وهذا مخصوص من العموم، ولا دليل على تأويل نفي علم الغيب بنفي الأصالة والإستقلال الذاتي.

جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هذا تفصيل لبعض ما أجمله تعالى في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالنسبة إلى ما يغيب من ذلك عن المخلوق، وهو مع ذلك دليل على إحاطة علمه بالمشاهدات المذكورة، لكن الراجح: أن ذكرها لتحقيق سعة علمه، وأنه لا يغفل عن شيء كما يغفل المخلوق، فقد يغفل عن الورقة تسقط بحضرته والحبة تسقط وتغيب في التراب، أما الله فلا يغفل عن شيء.

وقوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي تحت ما يحجب النور من أجزاء الأرض، تنبيه على أن الظلمات لا تغيّب عنه شيئاً، وكذلك قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ أي ولا يسقط من رطب ﴿وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علمه لا ينساه، كما لو كان في كتاب مبيّن لما كتب، وذلك كله يبيّن صحة الخبر بالبعث والجزاء للأمم كلها أوّلها وآخرها، كما يبيّن أنه تعالى هو الذي يعلم عبادة من عبده وطاعة من أطاعه، فهو الإله الحق دون شركاء المشركين الذين لا يسمعون، ولو سمعوا ما استجابوا.

﴿٦٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ ويبعثكم لا شركاؤكم فليس لهم فيكم أي تصرف ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ في منامكم فتصير أنفسكم في قبضته ليس لكم تصرف إلا ما أبقاه لكم حال النوم، وهذا معنى توفيهم قبض أنفسهم كما يتوفى صاحب الدين ماله بقبضة من غريمه، لأن النفس حال النوم صارت في قبضة الله وصاحبها لم يبقَ لَه تصرف فيها كما كان قبل النوم، فأنتم في قبضته.

﴿وَيَعۡلَمُ﴾ حين يتوفاكم ﴿مَا جَرَحۡتُم﴾ ما اكتسبتم في النهار من المعاصي أو غيرها فلو شاء بقيت أنفسكم في قبضته ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ﴾ في النهار ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ لتستكملوا أجلاً مسمى حتى تنتهي حياتكم ويحين مماتكم كلكم أو بعضكم؛ لأن منكم من يخترم بإذن الله فيقتل قبل ذلك أو يموت، والبعث هنا: إرسال النفس بعد قبضها بحيث تنتبه من نومها ويرجع لها تصرفها الكامل.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال في (البرهان): قوله: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ يعني في النهار باليقظة ويصرف الروح بعد قبضها بالنوم ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت» انتهى، انتهى من (المصابيح).

قلت: والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ من هذه الآية، كالضمير في قول الشاعر:

تنفك تسمع ما حييـ ـتَ بهالكٍ حتى تكونَه
والمرءُ قد يرجو الحيا ةَ مؤمِّلاً والموت دونه

وقال الشرفي في تفسير (سورة سبأ) من (المصابيح): «ثم قال [الله] مرة أخرى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ..﴾ [آية:٣٦] أي ويضيق لمن يشاء، وهو يحتمل بسط الرزق وتضييق الرزق على واحد على حسب المصلحة، ويحتمل: أن يراد بمن قدر له الرزق غير من بسط له» انتهى، فقد جوّز مثل ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾.

والراجح عندي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ [سبأ:٣٩] أي لمن يشاء، ومن أوضح الأمثلة لذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا﴾ أي تركتم لينة ـ وبالله التوفيق.

حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد قضاء الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾ حين ترجعون إليه وتقفون في موقف الحساب ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فأنتم في قبضته في الدنيا والآخرة فكيف تعرضون عنه وتعبدون غيره وكيف لا تتقونه.

﴿٦١﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الغالب المذل لهم بالموت وغيره من البلاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ليحفظوكم حتى يأذن الله بهلاك أحدهم، فإذا جاءه الموت أخذته رسلنا الذين أرسلناهم لتوفِّيه ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في شيء مما أمروا به بل يفعلون ما أمروا بلا تقصير، فلا تأخير لنفس عن أجلها فله الملك دون شركاء المشركين، فلا يملكون موتاً ولا حياة.

﴿٦٢﴾ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ مالكهم الذي له ولاية التصرف فيهم، كما قال النابغة:

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ... ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت له النفس إني لا أرى فرجاً ... وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

واشق: اسم كلب، يعني: أنه أيس من نجاة صاحبه ومن أن يصيد بكلبه، أو أراد متولي أمرك، والحاصل أن الولاية هنا ولاية المِلك، وردهم إما ردّ النفس إليه يمسكها كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢] فيؤخذ منه أن الإنسان هو النفس، وأن الجسد لها آلة

مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ

ووعاء؛ لأنه تعالى نسب التوفي إليها في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] فالموت أخذها من الجسد وأسند التوفي إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] وإما ردهم إلى الله يوم القيامة، وهذا أرجح لاستعمال الجمع في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ بعد الإفراد، ولقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

فظهر: أن المراد رد العباد ليوم الحساب وهو من مصاديق قهره فوق عباده، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور وليس لشركاء المشركين شيء من التصرف في العباد ولغفلتهم جاء التنبيه بقوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ ليعلموا بطلان الشرك؛ لأنه خلاف حكمه تعالى، وليعلموا أنه يحاسبهم ويجزيهم؛ لأن ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لأنه يعلم تفصيل الحساب وأفراد المحسوب وجملته من غير تفكير.

﴿٦٣﴾ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ من المخاوف التي تعرض لكم في ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كأن الظلمات جاءت بها؛ لأنها مشتملة عليها، ولأنها زيادة في هول المصائب، انظر قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ..﴾ الآية [البقرة:١٩] كالمصائب النازلة في الليل الغالبة التي لا تستطيعون دفعها، ولذلك تدعون الله ينجيكم منها؛ لأنكم بفطرتكم تعلمون أنه القادر على أن ينجيكم، وأنه الذي يسمع دعاءكم وتعِدون عند ذلك وعداً مؤكداً، بل تعاهدون عهداً ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ الله أو ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾ [يونس:٢٢] يا الله ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ النازلة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك معدودين من الشاكرين وفي جملتهم، وهذا تأكيد للشكر الذي عاهدوا عليه.

أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ

﴿٦٤﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ يعرض لكم فينفرج أي ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يُنَجِّيكُم﴾ مما نجوتم منه من هذه المصائب والكرب لا شركاؤكم ولذلك تلجأون إليه وحده إذا اشتد الأمر ولم تجدوا ملجأ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ مع علمكم بذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ما لا ينفعكم ولا يضركم، والكرب الغم الشديد والإنجاء منه يكون بإزالة سببه.

﴿٦٥﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ يظهر عليكم ويثير ويوقع ﴿عَذَابًا﴾ صادراً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ولا موجب لحصره على مثال؛ لأن علم الغيب أوسع من الأمثلة، وقدرة الله تعالى على كل شيء لا يناسبها تحديد النازل من فوق أو الآتي من تحت الأرجل، ومن مصاديقها في هذا الزمان القنابل والصواريخ والألغام.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعًا﴾ في حال أنكم مختلفون فرقاً كل فرقة يشايع بعضها بعضاً وأحزاباً يتعاون كل حزب ضد الآخرين.

وفي (مفردات الراغب): «والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه: يقال: شيعة، وشِيَع، وأشياع» انتهى باختصار، وقال في (الصحاح): «وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، يقال: شَايَعَه كما يقال: والاه من الولي» انتهى المراد.

قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ في حال اختلاطكم شيعاً، وذلك بالقتال الذي يكون فيه القتل والجراح والتعويق بالعمى أو الصمم أو قطع الأيدي أو كسر بعض العظام أو غير ذلك من آثار الحرب التي يسلط الله فيها بعضهم على بعض، فهو القادر على ذلك، وإن ظنوا أنهم يحذرون الوقوع في أسبابها ويسعون في السلم ما استطاعوا.

ولعلها تأتي الحرب العالمية الثالثة مع عناية الدول الكبرى في الحذر من الوقوع فيها لما عندهم من أسباب الهلاك العام والدمار الشامل، ولكن الله ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ احتجاجاً تارة، وتذكيراً تارة، وتخويفاً تارة، نحول الآيات من نوع إلى نوع ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أنهم في شركهم على خطر عظيم فيتقوا بأس الله قبل أن ينزل بهم وحين تنفعهم التقوى.

﴿٦٦﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي بهذا القرآن وما فيه من الآيات والحجج البالغة والنصائح النافعة لمن قَبِلها والإنذار القاطع للعلة والبرهان الواضح الفارق بين الحق والباطل، والدال على أن القرآن من الله أصدق القائلين وأحكم الحاكمين ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يعذر من كذب به ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ لم يكِل الله إليَّ أمركم إنما أنا رسول منه لأنذركم الإنذار القاطع للأعذار ومع الإعذار بالإنذار وبيان الحق بالحجة، فأمركم إلى الله وحده فهو الذي يحاسبكم ويجزيكم بما عملتم.

غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن

﴿٦٧﴾ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ نبأ الله به في القرآن من القيامة والحساب والجزاء ومن غير ذلك ﴿مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وتحقق الموعود به كأن المنتظر الموعود به مقبل إلينا، فإذا حان وقوعه فكأنه وصل من إقباله وبلغ الغاية واستقر وصار حاضراً بعد أن كان مقبلاً، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف:١٨٧] ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة صدق الأنباء التي جاء بها القرآن والرسول ﷺ حين ترون الموعود به، وهذا وعيد أمرالله رسوله ﷺ أن يقوله لقومه عن الله تعالى.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يتكلمون في آياتنا بالجدال أو التكذيب أو الإستهزاء، يسترسلون في ذلك كما يسترسل الخائض في الماء، فإذا شرعوا في ذلك توقعت منهم زيادة ثم زيادة؛ لأنهم أعداء الدين.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ حتى لا تسمع ما يقولون ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ أي غير الخوض في آيات الله؛ لأن المراد: الإعراض عنهم حال ذلك المنكر؛ فإذا انتهى فلا مانع من الحضور في مكان يوجدون فيه لإسماعهم القرآن وإبلاغهم الرسالات ولبعض الحاجات، وهذا قبل وجوب الهجرة عنهم؛ لأن (سورة الأنعام) مكية.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فنسيت الإعراض عنهم حال خوضهم ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ﴾ التذكر لوجوب الإعراض عنهم، بل قم عنهم ولا تقعد معهم؛ لأنهم ظالمون لا يجوز حضور ظلمهم.

ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ أصله (وإن ينسك) (إن) حرف شرط و(ما) صلة للكلام وتقوية، و(نون التوكيد) كذلك، ولعل فائدة التأكيد التحذير من التساهل مع عدم تحقق النسيان وتأكد الغفلة، فالشرط هو النسيان المحقق الكامل، وهذا خطاب للرسول ﷺ ويلحق به المؤمنون، والدليل قوله تعالى:

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فلا يرضون بالخوض في آيات الله ولا يتأثرون به، بل يكرهونه بقلوبهم فما عليهم من حساب الخايضين لا قليل ولا كثير، ولكن نهى الله عن القعود معهم وأمر بالإعراض عنهم تذكيراً للصواب.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يثبتون في المستقبل على تقوى الله ولا ينخدعون بخوض الخائضين إذا سمعوه ولم يعرضوا عنه، فقد يغتر من استمع لخوضهم في آيات الله بجدالهم وينقدح في قلبه الشك، فيصير مريض القلب بعد أن كان مؤمناً، فنهوا عن القعود معهم وأمروا بالإعراض عنهم لعلهم يتقون في بقية أعمارهم ولا ينقلبون أو يترددون، ونظير هذا قوله تعالى في المنافقين الذين ثبطهم عن الخروج مع المجاهدين: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧].

كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى

﴿٧٠﴾ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي اتركهم أي أعرض عنهم، ولعل هذا بمعنى ترك محادثتهم في غير التبليغ، كقوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل:١٠] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ لعلهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥] المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

فهذه الآية تنطبق عليهم على ظاهرها، فلا ينبغي الإشتغال بمحاورتهم لأنهم إنما يتبعون أهواءهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فآثروا أغراضهم الدنيوية على النظر لأنفسهم، والتدبر للقرآن، والإعداد للآخرة؛ بسبب حبهم للحياة الدنيا وجعلها أكبر همّهم.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن مع إعراضك عنهم في غير حال التذكير، والتذكير به قراءة الوعيد ليخافوا ويتذكروا النظر لأنفسهم والإعداد للآخرة ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ أي ذكر به لئلا تبسل نفس أي ليذكروا ويتقوا فينجوا من إبسالهم بما كسبوا، فقوله: ﴿أَن تُبْسَلَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَذَكِّرْ﴾ أو كراهة أن تبسل نفس، وهي أيّ نفس تذكرت واتقت، وابسال النفس بما كسبت : إسلامها للعذاب يوم القيامة، حيث لا شافع ولا دافع ولا بقي لها أي حرمة، بل صارت هدراً.

قال في (الصحاح): «وأبسلته: إذا أسلمته للهلكة، فهو مبسَل، قال عوف بن الأحوص بن جعفر:

وإبسالي بَنِـيَّ بغـير جُـرم بعونـاه ولا بـدم مـراق

قال في (الصحاح): «وكان حمل عن غَنِيٍّ لبني قشير دم ابن السجفية فقالوا: لا نرضى بك، فرهنهم بنيه طلباً للصلح» قال: وقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال أبو عبيدة: أي تُسْلم، وأنشد للنابغة الجعدي:

ونحن رهنَّا بالأفاقة عامراً بما كان في الدرداء رهناً فأُبسِلا»

انتهى المراد.

وقال في (لسان العرب) في استعمال (البسل) بمعنى الحلال:

أَيُثبَت ما زدتم وتُلغَى زيادتي دمي إن أُحِلَّت هذه لكُمُ بَسْلُ

أي حلال» انتهى، قيل: «بعوناه: أي أجرمناه، وقيل: الدرداء كتيبة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي بسبب ما كسبت من الذنوب من الشرك أو غيره، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قطع لأطماع المشركين الذين يقولون: ﴿هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّـهِ﴾ [يونس:١٨] ويرجون منهم النصر.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يتدخّل بينهم وبين الله بتوليهم أو بالشفاعة لهم، قال تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي يسترهم عن الشمس بينهم وبينها، وقال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] أي بينها وبين أهلها، وقال عنترة:

إن تُغْدِفي دوني القناع فإنني طَبٌّ بأخذ الفارس المستَلْئِمِ

وقد بسطت في إثبات هذا المعنى في كتاب (الإيجاز في الرد على فتاوى الحجاز).

ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾ قال الراغب: «وقوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة:٩٥] أي ما يعادل من الصيام الطعامَ، فيقال للفداء: عدل إذا اعتبر فيه معنى المساواة» انتهى.

وقال في (الصحاح): «والعدل الفدية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾ أي تفدِ كلَّ فداء، وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة:٩٥]» انتهى.

قلت: وانتصاب ﴿كُلَّ﴾ إما على أنه مفعول به، والأصل: وإن تعدل بنفسها كل عدل، وإما على أنه قائم مقام المفعول المطلق، مثل: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة:٤٤] وعلى هذا يصح أن يكون نائب فاعل ﴿يُؤۡخَذۡ﴾ ضمير يعود على ﴿عَدۡلٖ﴾ بمعنى فدية، فأما جعله مصدراً فإنه يخرجه عن معنى الفدية إلى معنى المساواة أو التسوية قال في (الصحاح): «وعدلت فلاناً بفلان: إذا سويت بينهما» انتهى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ﴾ أسلموا للهلكة والعذاب وأهدروا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الجرائم ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ شديد الحر ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ وفي هذا دلالة على شدة ألمه؛ لأن العذاب من حيث هو عذاب يؤلم ألماً شديداً فإذا وصف بأنه أليم دل على أنه فائق لغيره من العذاب في شدة الألم، وهذا الشراب والعذاب هو الذي أبسلوا له ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ كفر النعمة أو كفر الجحود الذي أوقعهم في سائر الجرائم التي كسبوها.

ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿٧١﴾ ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ احتجاج على المشركين لإبطال الشرك بأنه دعاء من لا يرجى منه خير فيرغب إليه لطلب الخير ولا يخشى منه ضر فيخضع له لطلب السلامة من ضره؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، وأبلغ من كونه لا يضر أي ليس من شأنه الضر أنه لا يضرنا وقد تبرأنا منه ودعونا إلى تركه إن دعاءه رجوع عن سبيل الهدى، فلو فعلناه موافقةً لكم أيها المشركون كنتم قد رددتمونا ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ وأخرتمونا عن السير في سبيل الهدى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وكنا قد اخترنا موافقتكم بالتأخر عن سبيل الهدى على هدى الله لنا إلى سبيل الخير والنجاح والفلاح، فكيف نرضى ذلك لأنفسنا؟ وهذا كقول (مؤمن آل يس) في دعوته لقومه إلى اتباع المرسلين: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إلى آخر الآية [يس:٢٣].

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ لو أطعناكم وتركنا هدى الله كنا ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ وهو حيران لا يهتدي بدعوة أصحابه.

قال في (الصحاح): «واستهواه الشيطان: استهامه» انتهى، وقال في (لسان العرب): «وفي التنزيل العزيز: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وقيل: استهوته استهامته وحيّرته، وقيل: زينت له الشياطين هواه ﴿حَيْرَانَ﴾ في حال حيرته، ويقال للمستهام الذي استهامته الجن: استهوته الشياطين» انتهى المراد.

قلت: هذا تشبيه للضلال في العقيدة والعمل الذي هو الضلال المعنوي بالضلال المحسوس الذي يقع من الذاهب في الأرض وقد ضل الطريق بسبب إغواء الشياطين له حيث وسوسوا له حتى ذهل عن الطريق وذهب لوجهه وصار في حيرة لا يدري أين يذهب، فهو يمشي ﴿حَيْرَانَ﴾ متردداً ﴿لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ وهو في حيرته يخبط ولا يجيبهم، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للمشركين أنكون مثل هذا فنترك الهدى ونتأخر عن سبيل القصد فنبقى في ضلال وحيرة عن الحق، والله يدعونا إلى الهدى.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ لأنه ينقذ من عذاب النار، ويبلغ أهله جنات النعيم؛ ولأن هدى الله هدى من عالِم الغيب والشهادة الذي لا يغلط، هدى من الحكيم الذي لا يخالف الصواب والرأي السديد، هدى من الذي هو بالناس رؤوف رحيم، فالهدى الحسي إلى الطريق في الأرض ليس شيئاً بالنسبة إلى هدى الله لعباده الذي يؤدي من اهتدى به إلى الفلاح والسعادة الدائمة؛ ولأن هدى الله لا يقبل التغيير بالإضلال لأن هدى الله كامل قوي يغلب كل تضليل فمن يهدي الله فلا مضل لَه.

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ أنفسنا ﴿لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ المالك لهم أجمعين، ولا نشرك في أنفسنا غيره؛ لأن رب العالمين هو المالك لهم وحده دون غيره، ليس لغيره فيهم أي مشاركة، والعبادة اعتراف بالعبودية، فالإعتراف بالعبودية لغير رب العالمين باطل مبين، فأمرنا بالإسلام لنسلم لرب العالمين.

قال في (الكشاف) ـ ونعم ما قال ـ: «فإن قلت: ما معنى (اللام) في ﴿لِنُسْلِمَ﴾؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى أمرنا وقيل لنا: اسلموا لأجل أن نسلم» انتهى.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قلت: ومثله ما قدمت في قول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦] وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] فاللام (لام التعليل) ولا نسلم أنها زائدة، ولكن (لام التعليل) تفيد إرادة ما دخلت عليه، فكأن فعل الإرادة هو الذي أفادها، فلعل ذلك سبب جعلهم (اللام) زائدة.

﴿٧٢﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ أي وأمرنا أن ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتقوا رب العالمين، وهو الذي يجب أن تسلموا له وتقيموا الصلاة له وأن تتقوه؛ لأنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إليه وحده، فيجزيكم بما قدمتم في الدنيا، وفي تخصيص إقامة الصلاة من بين العبادات بالذكر هنا دلالة على عظم شأنها في عبادة الله.

﴿٧٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي رب العالمين الذي أمرنا لنسلم له هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وحده لم يشاركه في خلقها غيره مما يعبد المشركون ولا من غيره وخلقها بالحق والحكمة والصواب، لم يخلقها عبثاً ولا باطلاً ولا لعباً، ولعل المراد هنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أنه خلقهما ليعبد فيهما، فكيف يعبد غيره.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ لشيء عظيم ﴿كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ﴾ له كن هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وقوله فيه هو الحق ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ فيه وحده لا شريك له في الملك ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بيان ليوم يقول كن وتفسير له لإبهام المقول

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

لَه (كن) فظهر: أن المقول له كن هو البعث وأمور القيامة كلها، وهو تعبير عن سهولته في قدرة الله وسرعته، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فلا يغفل عن أحد ممن خلق في الدنيا ولا عن عمل عامل، وخبره عن يوم ينفخ في الصور حق؛ لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يرضى لنفسه شريكاً وهو الحكيم فلا يهمل المحسن والمسيء بدون جزاء، وهو ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بخُبْر كل مكلف وما يخفيه من نية وعقيدة ونحو ذلك، فالذي إليه مرجع العباد، وهو عالم الغيب والشهادة، وله الملك يوم القيامة، كيف ندعو من دونه ما لا ينفعنا ولا يضرنا؟!

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ هذا ابتداء رد آخر على المشركين ضمن (قصة ابراهيم عليه السلام) وحجته على قومه، وأبوه آزر لعله عمه، ميّز بذكر اسمه كما هو الأصل في المجاز أن يقرن بقرينة صارفة عن الحقيقة، أما الأب الحقيقي فيكفي ذكره بدون قرينة، ويؤكد هذا أن الكلام هذا ليس فيه من الرفق ما في كلام ابراهيم لأبيه المذكور في (سورة مريم).

واذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟ السؤال سؤال إنكار وتوبيخ، واكتفى فيه بذكر أصنام؛ لأن الصنم جسد لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فأغنى ذكر اسمه عن ذكر حاله؛ لأنه مفهوم من اسمه، ومعنى اتخاذها آلهة: عبادته لها وجعلها شريكة لله في ملكه وعبوديته بدون برهان من عقل ولا سمع، وذلك الباطل الذي لا ينبغي أن يرضاه لنفسه عاقل فقوله عليه السلام:

وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ تعبيرٌ فيه نوع رفق ببيان أنه معتمد على اليقين في تضليله وتضليل قومه، وحكمه بأنه ضلال بيِّن، وهو كلام لا يستطيع أن يجيب بمثله، فيقول: بل اعلم يقيناً أنا على هدى إن أنصف؛ لأنه لا حجة لَه لا من العقل ولا من السمع، فما بقي إلا أن يطالب إبراهيمَ عليه السلام بالحجة أو يسكت ولا يعارضه بسوء.

﴿٧٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما أريناه ما ذكر في قوله: ﴿**إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ وأنعمنا عليه بتلك الهداية نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بما جعلْنا له من العقل والهداية إلى النظر المؤدي إلى العلم بملكنا للسموات والأرض ليبين للناس ذلك.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ بالله، أهل اليقين بالله وأن له كل شيء، وأنه رب كل شيء، وأن لا إله إلا هو، وحين أراه الله ملكوت السموات والأرض وكان من الموقنين جعل يبين لقومه ويحتج عليهم:

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ كان قومه في جاهلية جهلاء بعيدة أذهانهم عن النظر والتفكير وهم مع ذلك أشداء في شركهم لا يريدون أن يسمعوا إنكاراً له أو جدالاً فيه، فكأن الرأي التدريج في الإحتجاج عليهم وجعله في صورة أنه ناظر لنفسه لا في صورة من يعترض عليهم.

فابتدأ عند رؤية الكوكب بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ كأنه اختاره على الأجسام الأرضية لإشراقه، وفي تلك الحال لا بد أنه كان يعرف أن الكوكب سيأفل

فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

أي يغيب لكنه تجاهل ذلك ليحصل الإحتجاج بالتدريج والتأني ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ غشيه وأخفاه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ﴾ لا أحبه رباً ولا أرضاه؛ لأني ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ لغيابهم عني وجهلهم بحالي وانقطاعهم عني حال غيابهم.

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تكراراً للإحتجاج بصورة احتجاج آخر وتسويغاً للتحول لأجل التفكير الدال على بطلان القول الأول، ولا بدَّ أنه كان يعلم أن القمر الذي بزغ بعد غيابه سوف يأفل كما أفل الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ قد اخترته لزيادة نوره: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقد تبيَّن الغلط في الكوكب، ثم تبيَّن الغلط في القمر لو كان ذاك عن جدٍ واعتقاد، ولكنه فرض وتقدير كقول عمر: مات النصراني والسلام، أي افرض وقدِّر أنه مات.

فالخوف من تكرر الغلط باعثٌ على اللجوء إلى الله لطلب هدايته والوقاية من أن يكون ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الغاوين عن طريق الصواب، وفي هذا دلالة على إيمانه بالله، وأن كلامه في الكوكب والقمر إنما هو جدال لقومه، ولعل قومه لم يكونوا إلا كمشركي العرب يقرون بالله ويدعون الشركاء، فلذلك لم يكن عندهم منافياً لكلامه في الكوكب والقمر لجوءه إلى الله ليهديه.

﴿٧٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ لعله اختار الإشارة إلى هذه الجرم الفائق في إشراقه الزائد في حجمه ليعلق افتراض ربوبيته على ما يشاهد منه لا على كونه شمساً يدعي لها المشركون الإلهية باعتبار اعتقادهم فيها فاجتنب إيهام ذلك.

وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ ﴿أَفَلَتۡ﴾ غربت وعند ذلك قرَّر أنها لا تصلح للربوبية؛ لأنها تغيب عنه وتهمله في حال غيابها فهو لا يرضاه، فتقرر أنه ليس شيء من المخلوقات يصلح رباً فتبرأ مما يشركه قومه، وذلك دليل على كمال اقتناعه بأنها لا تنفع ولا تضر ولذلك يتبرأ منها آمناً مطمئناً مؤكداً للبراءة بـ(إن) والجملة الإسمية المفيدة للإستمرار والثبات.

۝٧٩ ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ للعبادة وجهته لله، وعبَّر بقوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأن ابتداءه خلق السموات ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دليل عليه؛ ولأن غيره لا يتوهم المشركون أنه فطر السموات والأرض، وقوله: ﴿حَنِيفٗا﴾ جاء في (تفسير القاسم عليه السلام) له خاشعاً، وفي بعض المواضع عنه عليه السلام خاشعاً محباً.

ولعله مراد الحسين بن القاسم فيما حكاه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: «قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: معناه: وجهت وجهي إلى الله بكلِّيتي وصرفت وجهتي وهمتي، وليس يريد وجهه دون قلبه ولسانه وغيرهما من جوارحه وبنانه، والحنيف: هو الثابت الذي لا يميل ولا يزيغ عن الطريق ولا يحول، قال الشاعر:

حمدت الله حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيف

وقيل: معنى الحنيف: أنه المائل عن الشرك إلى التوحيد، واحتجوا بالحنف الذي يكون في بعض الأقدام وهو الميل، قال الشاعر:

يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ

واللّـــه لـــولا حنـف برجلـه ما كان فيكــم من غــلام مثله

وقيل غير ذلك، والقول الأول قول سلفنا وهو المعمول عليه» انتهى.

قلت: وقد مر بعض الرد على تفسيره بالميل، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مصارحة لقومه ببراءته من الشرك والمشركين.

﴿٨٠﴾ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ حاجه قومه: جادلوه؛ لدعوته إلى التوحيد، ورفض الشرك، وإعلان بطلان الشرك والبراءة منه.

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾؟ سؤال توبيخ لهم وإنكار عليهم محاجتهم في الله، وقد جعل محاجتهم في الشرك محاجة في الله؛ لأن الشرك جعل أنداد لله هو منزه في عظمته وجلاله أن يكون لَه ندٌّ من خلقه، ولا سيما تلك الأصنام الجمادات، فمن السفه جعلها أنداداً ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ كلمة جامعة لكمال هدى الله لَه فقد عرف الله وآمن به إيماناً كاملاً، وتبين له بطلان الشرك وأنه ظلم عظيم، فمحاجتهم له كمحاجة الأعمى للبصير على الطريق والبصير يراها والأعمى يجادل فيها ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣] ثم ذكر لهم حجة واضحة فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ فطريق الأمن خير من طريق الخوف وقد علمت أن الله لا يؤاخذني بعبادتي له وحده واجتناب ما سواه، ولو أشركت بغير برهان من الله لخفت أن يعاقبني.

يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ يبيِّن أن الأمر كله لله، وقد علم أن الله لا يشاء ضره من جهة شركائهم، لكن في جعل الأمر كله إلى مشية الله إبطال للأنداد، كقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨].

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فهو يعلم إخلاصي لـه فـلا أتوقـع أن يخـذلني بإنـزال الضـر مـن جهـة الأنـداد بـل أتوقـع أن ينصـرني ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أنه تعالى لا يخفى عليه من أخلص له ومن أشرك بـه، بـل هـو رقيب عليهم، وهـذا يكفـي لحصـول الأمـن لمـن أخلـص لـه وأطاعـه؛ لأن المخلص المطيع يثق بأن الله لا يعذبه على الإخلاص له.

﴿٨١﴾ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ ﴿كَيْفَ أَخَافُ﴾ ما لا ينفـع ولا يضـر بـل هو جماد كسائر الجمادات، فكيف أخافه لمجرد أنكم أشركتم به بـدون حجـة، وكيف لا تخافون أنكم أشركتم بالله في مِلكه ومُلكه ما لم ينـزل الله به عليكم سلطاناً تحتجـون بـه علـى شـرككم، وقـد عـدل عليه السلام عـن أن يقـول: (ولا تخافون الله) لأن الله هو الرحمن الرحيم الرؤوف بالناس، ليس مـن شـأنه أن يُخَافَ هو، إنما المخوف عقابه الذي سببه شرك المشرك وجـرم المجـرم، فعلـق الخوف على سببه الذي هو أنهم أشركوا بالله ما لم ينـزل به علـيهم سـلطاناً، ولا إشكال في صـحة إسـناد خـوف العبـاد إلى ربهـم، إلا أن هـذا احـتراس مطابق لمقتضى الحال؛ لأنـه في خطـاب الجـاهلين، ونظـيره قـول (مـؤمن آل ياسين): ﴿إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ [يس:٢٣] فأنكر إبراهيم عليه السلام علـى قومـه اجتماع أن يخاف وهو المخلص لربه ولا يخافون وهم المشركون.

ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ

﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الفريقان: من آمن بالله وأخلص له، ومن أشرك به ما لم ينزل الله عليه به سلطاناً، سألهم إبراهيم عليه السلام: أي الفريقين أحق بأن يأمن بعد ما بين أنه لا يخاف ما أشركوا به، وأنكر عليهم كيف يخافهم والمشركون لا يخافون أنهم أشركوا فبيَّن أنه أحق بالأمن، فسألهم إن كانوا ممن يعلم أن يقرُّوا بالحق من هو أحق بالأمن، ثم صرح به، فقال تعالى:

﴿٨٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الكامل وهو الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر إيماناً يبعث على الطاعة لله ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ لم يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ كما هو شأن الإيمان الصادق، عدل عن قوله: (الذين أخلصوا العبادة لله) إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأن العبادة لا تقبل إلا من مؤمن، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء:٩٤] فذكر الإيمان يشمل إخلاص العبادة وشرط قبولها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شرط للأمن في حال التكليف أي أن من آمن واتقى الظلم أحق أن يأمن وثوقاً بأنه على الحق وأن الله لا يعذبه على ذلك، وشركاء المشركين لا يضرون ولا ينفعون فهو آمن عذابَ الله وضرَّ غيره، فالإحتجاج بالأمن أي في هذه الحياة وفي حال اختيار الطريقة المرضية التي يكون سالكها واثقاً بها بعد النظر الصحيح؛ وشرط

اجتناب الظلم لأن الظالم يخاف ذنبه، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل:١٠-١١] فالظالم ليس له أن يأمن حتى يتوب.

وهذا الكلام لبيان طريقة الأمن ردّ على المشركين يبين: أن الحق الإخلاص لله، والباطل: الشرك، وليس بصدد الأمن في الآخرة ولا بصدد منع الخوف من الذنوب في الدنيا ممن لا يتيقن صحة توبته أو يخاف أن يكون عليه ذنب قد نسيه ولم يتب منه، أو يخاف أن يذنب في المستقبل، فكل هذا لا ينافي المقصود في هذه الآية الذي هو بيان الدين الذي يثق به من كان عليه وهو حقيق بأن يثق لا الجاهل الغافل المعرض فإنه لا يستحق أن يأمن، ولذلك قال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل الإيمان واجتناب الظلم ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ لهم أن يأمنوا ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لا من أمِن طريقته وهو ضال فليس له أن يأمن بل عليه أن يخاف؛ لأنه في طريق العذاب.

(٨٣) ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ﴿وَتِلْكَ﴾ أي حجة إبراهيم صلى الله عليه هي ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ علمناها ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ حجة ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ إما جملة حالية أي آتيناه حجتنا حال كوننا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ وإما جملة استئنافية تعليلٌ لإيتاء إبراهيم، وعلى الوجهين يفيد الكلام رفع إبراهيم درجات بما آتاه الله من الحجة، أو بما آتاه ومن جملته الحجة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو يرفع من هو أهل لأن يرفعه ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بمن هو أهل لأن يرفعه درجات، وهي تشير إلى رفع محمد ﷺ درجات بما آتاه الله من الحجة على قومه، أو بما آتاه الله جملة، ومنه الحجة على قومه.

وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ

﴿٨٤﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ ﴿كُلًّا﴾ من إسحاق ويعقوب ﴿هَدَيْنَا﴾ أو كلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿هَدَيْنَا﴾ وهو الهدى الكامل بالعلم بالدين كله، والهداية للعمل بالعلم، ومن ذلك الهدى: الإخلاص لله تعالى، واجتناب الشرك، ولعله قدم ذكر إسحاق ويعقوب احتجاجاً على من أشرك من ذريتهما المدَّعين أنهم على دينهم.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ فكان على دين الله مخلصاً له ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي من ذرية نوح، وإن كان أكثر المذكورين من ذرية إبراهيم، ولكن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم وهو من المذكورين، وكذا يونس، أو الضمير لإبراهيم ورجحه، في (المصابيح) قال: «وهو قول أئمتنا» انتهى.

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ ولعله قدمهما لكفر بعض بني إسرائيل بهما أو بسليمان ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ﴾ هديناهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نهديهم، كما قال في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢] وكذلك قال في موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤] فالإحسان سبب للهدى بالحكم والعلم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ وهدينا من ذريته زكرياء ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ فهديناهم بسبب صلاحهم، أو لأنا هديناهم كانوا من الصالحين.

وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ

وفي ذكر عيسى عليه السلام دليل على أنه من الذرية بواسطة أمه، ولذلك فيصح أن الحسن والحسين وذريتهما من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جمعتُ الحجج على ذلك في كتاب (الذرية المباركة) في أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في (تسعة فصول).

قال الشرفي في (المصابيح): «ومثل هذا المعنى من دلالة الآية ذكره زيد بن علي عليه السلام في كتاب (الصفوة) والرازي في (تفسيره) وقال فيه: «ويقال: إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف، وعن الشعبي قال: كنت عند الحجاج فأتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلاً في الحديد فقال له الحجاج: أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ؟ قال: بلى، فقال الحجاج: لتأتيني بها واضحة من كتاب الله أو لأقطعنك عضواً عضواً، فقال: أتيتك بها واضحة بينة من كتاب الله يا حجاج، قال: فتعجب من جرأته بقوله: يا حجاج، فقال له: ولا تأتيني بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران:٦١] فقال: آتيك بها واضحة من كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿..وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فمن كان أبو عيسى؟ وقد ألحِقَ بذرية نوح، قال: فأطرق الحجاج ملياً، ثم رفع رأسه وقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله حلّوا وثاقه واعطوه من المال كذا» انتهى من (المصابيح).

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ أي وهدينا من ذريته إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم ونوح والمذكورين من ذريته كلاً منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوف على جملة قوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وما عطف عليه.

هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن

﴿٨٧﴾ ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ عطف على ﴿نُوحًا هَدَيْنَا﴾ أي وهدينا ذلك الهدى من آباء الأنبياء المذكورين وذرياتهم وإخوانهم ﴿وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ﴾ هيأناهم بالعلم والحكمة وما تحتاجه مهمتم في تبليغ الرسالة.

وقال في (الصحاح): «واجتباه: أي اصطفاه».

﴿وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي كل المذكورين الذين ذكر الله تعالى أنه هداهم، هداهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ واحد ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو صراط الله الذي ارتضاه لهم، وهو توحيده ومعرفة دينه وعبادته وإخلاص العبادة له وطاعته وتقواه، وقد فسر (الصراط المستقيم) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣] فهدى الله الأنبياء المذكورين ومن قراباتهم إلى هذا الدين، فهو الحق الذي ارتضاه لعباده واصطفاه على الأديان.

﴿٨٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولذلك فينبغي أن نسأله فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] ونجتنب كل ما خالفه من دين الجاهلية كالشرك ودين المشركين ومن كل دين مخالف لدين الله.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وكفى بهذا تحذيراً من الشرك ودليلاً على أنه لا يقبل مع الشرك أيُّ حسنة؛ لأنه يحبط كل حسنة، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دلالة على حبوط العمل بالشرك وإن كان متكرراً ومستمراً كعمل الأنبياء المذكورين صلى الله عليهم وعلى نبينا وآله.

يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا

﴿٨٩﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالهدى إلى صراط مستقيم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ الكتب السماوية عبَّر عنها بالكتاب؛ لأن أصله مصدر ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ علمناهم الحكم، والراجح: أنه جامع لحكم الله في عباده وعليهم أي الحكم التشريعي فيعم أحكام الدين كله، وعطفه على ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليعم ما اشتمل عليه الكتاب، وما لم يذكر في الكتاب مما أوحاه إليهم، وليفيد فهمهم الكامل لمعنى الكتاب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي هي الوحي من الله تعالى بالشرائع، فهم أهل الهدى إلى دين الله الذين منه التوحيد واجتناب الشرك.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ ﴿فَإِن يَكْفُرْ﴾ بما آتيناك يا محمد إذ آتيناك ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كما آتيناهم فإن يكفر ﴿بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون من أهل مكة ومن حولها، فالضمير هنا مثله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي في النهار، فكأنه قيل: فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوءة هؤلاء، والمراد به: ما آتاه الله محمداً ﷺ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم السابقون من ورثة الكتاب؛ لأنهم حملة الدين وحماته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

وروى الشرفي في (المصابيح): «عن المرتضى محمد بن الهادي عليه السلام: أن الموكلين بها هم الأئمة المعروفة طاعتهم المحكوم من الله ـ عزَّ وجل ـ بطاعتهم.

ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى

قال الشرفي: قال الحسين بن القاسم عليهم السلام: يعني بذلك: أمير المؤمنين وذريته الأخيار الطاهرين، الذين وكلهم الله بالدعاء إلى جدهم بعد أمير المؤمنين والدهم، فهم بالدين والحكمة والنبوة موكلون، وعلى الله سبحانه متوكّلون، وبطاعته في ذلك وغيره عاملون» انتهى.

قلت: تاريخهم يشهد بحمايتهم للدين، وجهادهم لأعداء الله المفسدين، فجهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام، وحمزة، وجعفر، والحسن، والحسين، وزيد بن علي، وابنه يحيى، ومحمد بن عبد الله، وإبراهيم بن عبد الله، وإدريس بن عبد الله، ومحمد بن محمد بن زيد، والحسين بن علي الفخي، ومحمد بن إبراهيم، والهادي، والناصر الأطروش وكثير من ذرياتهم ظاهر، ولله در الهبل حيث يقول:

تفانوا على إظهار دين أبيهم ... كراماً ولا جبن لديهم ولا بخل

وروى الإمام أبو طالب في (الأمالي) بإسناده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان ولياً من أهل بيتي موكلاً يذبّ عنه يعلن الحق وينوره ويرد كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله» انتهى.

ومعنى ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ جعلناهم للإيمان بها ولحمايتها، وأمرناهم بذلك.

۝٩٠ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء المذكورون ومن معهم هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الصراط المستقيم لا المشركون من هؤلاء وآبائهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ فبهدى الله لهم ﴿ٱقْتَدِهْ﴾ بأن تحذو حذوه؛ لأنه الهدى إلى الصراط المستقيم.

لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على القرآن ﴿أَجْرًا﴾ فلا عذر لكم بمغرم تتحملوه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من ربهم، ينبههم من غفلتهم، ويثير دفين عقولهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:٩].

قال في (الصحاح): «الذكرى: ضد النسيان» انتهى باختصار، وعلى هذا: يكون وصف القرآن بأنه (ذكرى) بمعنى أنه سبب للذكرى.

وفي (لسان الميزان): «والذكرى: اسم للتذكرة» انتهى، وهو المتبادر في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

فأما الراغب فقال: «والذكرى: كثرة الذِّكْر، وهو أبلغ من الذكر، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص:٤٣] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] في آيٍ كثيرة» انتهى.

وعلى تفسير (الذكرى) بالتذكرة، يوصف بها القرآن حقيقة، و(العالمين) يعم الأمم كلها.

﴿٩١﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق عظمته» انتهى.

وقال في (الصحاح): «وقال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه» انتهى، وفي (المصابيح): «أي ما عظموه حق تعظيمه، عن ابن عباس، والحسن من قولهم: فلان لَه قدر، أي خطر» انتهى.

وهذا القول: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ قول اليهود، كما يدل عليه قوله تعالى في بقية هذه الآية، ولعل المشركين من أهل مكة سألوهم.

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء:٥١] ما يفيد ذلك.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ كما يليق بعظمته وجلاله وعزته وحكمته وفضله ورحمته، أن لا يهمل عباده ويتركهم في ظلمات الجهل بلا كتاب ولا رسول ولا شيء يهديهم وينير لهم الطريق إلى سعادتهم ويقيم به الحجة على الظالمين.

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ تدعون وتزعمون أنه قراطيس ﴿تُبْدُونَهَا﴾ وتلك القراطيس التي تبدونها ليست كل الكتاب بل إنما هي بعضه ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ لم تبدوه وهو من الكتاب؛ لأنكم تبدون ما لا يخالف هواكم وتكتمون ما يخالف هواكم، وهذا استطراد بديع حكيم يبين أنهم متمردون لا يريدون الحق، فغير عجيب منهم أن يقولوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ وقد كانوا يكتمون كثيراً مما أنزل الله على موسى في التوراة.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فأنتم تجدون عندكم من العلم ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿وَلَآ﴾ علمه ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ من عند أنفسهم، فمن أنزل هذا العلم؟ ومن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزله، وأنزل كل علم لا يبلغه الإنسان بعقله، فقد تبين بطلان قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ بعد هذا الجواب الحاسم ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ في كلامهم الباطل وجدالهم في الحق ﴿يَلْعَبُونَ﴾ جعل لعباً؛ لأنه مجرد اتباع هوى ولهو يلهون به، فأشبه اللعب بالكرة وغيرها من أنواع اللعب الذي يكون للتلهي به وإعطاء النفس هواها، فأعرض عن محاورتهم بعد الجواب المذكور، واتركهم يقولون ما شاءوا، وهذا كان قبل قوة الإسلام والتمكن من النهي عن مثل هذا المنكر.

﴿٩٢﴾ ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ ليبقى وتتوارثه الأجيال ﴿مُبَارَكٌ﴾ لكثرة فوائده العلمية والروحية وغيرها ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله بـ(التوراة) و(الإنجيل) و(الزبور) وسائر ما أنزل الله من قبل (القرآن) جملة.

﴿وَلِتُنذِرَ﴾ يا محمد ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهل أم القرى وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومن حول أم القرى فهم في أشد الحاجة إلى إنذارهم؛ لبعد عهدهم بالرسالة ولا كتاب عندهم قبل هذا القرآن مع كثرة الباطل عندهم من الشرك وغيره من أمور الجاهلية، فهذا وجه النص عليهم بعينهم، مع أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، كما دل عليه قوله تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا

ثم قال تعالى بعدها: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..﴾ إلى قوله: ﴿.. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٨] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وغير ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بهذا الكتاب؛ لأن الإيمان بالآخرة يبعثهم على النظر المؤدي إلى الإيمان بالقرآن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كما هو شأن كل مؤمن قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [التوبة:٧١] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩] والمحافظة على الصلاة العناية بإقامتها في وقتها حذراً من إضاعتها، وإضاعتُها تركها في وقتها.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي، لأن من الواضح شناعة هذا الظلم؛ لما يترتب عليه من الفساد العظيم فلا ظلم أشد منه، والإفتراء، والإختلاق: أن يقول على الله بلا مستند عقلي ولا شرعي، قال في (الصحاح): «وفَرَى فلان كذباً: إذا خلقه، وافتراه اختلقه والإسم الفِريَة» انتهى.

ويدخل المشركون إذا زعموا أن الله يرضى شركهم ومن ادعى الولاية من الله على عباده بلا مستند شرعي ولا عقلي، وقوله: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ فهو في معنى المفتري على الله كذباً مع فساد التغرير على عباد الله بالباطل ليتبعوه على باطله مثل مسيلمة الكذاب، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ وهذا مفسد بكفره بما أنزل الله ودعواه أنه سينزل مثله كذباً وكفراً وصداً عن سبيل الله، فهؤلاء الثلاثة قد ظلموا ظلماً عظيماً.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ هذا تصوير لحال الظالمين عند غمرات موتهم وشدة الملائكة عليهم حين يبسطون أيدهم لإخراج الأنفس، وغمرات الموت، قال في (الكشاف): «شدائده وسكراته، وأصل الغمرة: ما يغمر من الماء، فاستعيرت للشدة الغالبة» انتهى.

وفي قصيدة عنترة:

في حومة الحرب التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غير تغمغم

قال (شارح المعلقات السبع): «وغمرات الحرب: شدائدها التي تغمر أصحابها، أي تغلب قلوبهم وعقولهم، التغمغم: صياح ولَجَبٌ لا يفهم منه شيء» انتهى، فهذا يناسب تفسير (الكشاف) لغمرات الموت.

وقوله تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ أي خلصوا أنفسكم من الدنيا [أيدينا ــ ظن] أي لا تقدرون على الخلاص» انتهى المراد، وهو مناسب لذكر غمرات الموت، أي أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات.

وتفسير ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بأنهم باسطوها بالعذاب موافق لقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧] ويحتمل: ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لقبض أرواحهم عند معالجتها لقبضها، وقيل: معنى ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ هاتوها من أجسادكم، وهذا هو الذي صدره الشرفي، وهو قريب ليكون مفسراً للبسط أنه لنزع أنفسهم وهو أوفق لتصوير الحال من حذف ما بسطت الأيدي لَه، وذلك أوفق لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ الذي يوجه الذهن لاستماع شرح حال الظالمين عند النزع، وتصويره للسامع، وسواء كان أمراً حقيقياً لإهانتهم أم تعبيراً عن حالهم عند معالجتهم للنفس لتخرج كأنهم آمرون بإخراجها.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ الراجح: أن هذا حكاية لما يقال لهم عند بعثهم، كأنه مقترن بإخراج أنفسهم وقد طوي ما بينهما من الزمان في الواقع؛ لأنه يوم القيامة كأن لم يكن لقلته في نظر الأموات كأن لم يلبثوا إلا ساعة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥] ونظيره في طي المدة وتخطيها إلى ما ورائها قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٥-٤٦].

فكأن الظالمين خرجت أنفسهم ورجعت في أبدانهم، وقيل لهم ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾ في وقت واحد، والدليل على هذا قوله تعالى في الآية الثانية ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأفاد أن قد خلقهم المرة الثانية، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق على أنه عطف على قوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾ و﴿عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ عذاب الهوان، أي الذلة والصَّغار.

خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل على أن الذي قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ استخفَّ بالقرآن وأنِف من الإلتفات إليه والنظر في صدقه استعلاءً، فحمله ذلك على قوله: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ جحداً لكونه معجزاً واستخفافاً به.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨] فهو تأكيد للوعد بالإشارة إلى ما ذكرهم به في الدنيا من قدرته تعالى على الإعادة كما قدر على خلقهم أول مرة، وقوله تعالى: ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ تنبيه على ضعفهم يوم القيامة، بانفراد كل واحد عن الأنصار والقرابة والأعوان والإخوان والعشائر، فهو في حال ذلة بعد التكبر في الدنيا والغرور.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال في (الصحاح): «وخوَّله اللهُ الشيءَ: أي مَلَّكَه إياه» انتهى، ومثله في (لسان العرب) ففيه فائدتان:

الأولى: أن أسباب التعزز في الدنيا هي الأصحاب والأموال التي كان مالكاً لها فقد ذهبت، وصار كما قال تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٨٠].

الثانية: تذكيرهم نعمة الله عليهم كأنه لما قال: ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ قال: أنعمنا عليكم وذلك أبلغ في تبكيتهم؛ لأنهم كانوا يجعلون نعمة الله سبباً لاستكبارهم عن آياته وتكبرهم، وقوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تحقيق لتركه وارتحالهم عنه إلى الآخرة؛ لأن الراحل عن الشيء التارك له يخلفه وراء ظهره.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وهذا بعد بيان ذلتهم بالإنفراد عن الأعوان والأنصار ومفارقة المال، يبين ذلتهم مع خيبة أملهم بعدم الشافعين الذين كانوا يؤملون شفاعتهم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وأعظم من ذلك: أنه يبين بطلان ما كانوا يزعمون، ويذكر بجريمتهم العظمى وهم في يوم الحساب والجزاء، وذلك أعظم أسباب الذلة والصغار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ أي في هذه الحالة التي هي وقت الحاجة إلى الشفاعة، وفيه تهكم بالمشركين وشركائهم حيث نفى حضورهم معهم بنفي رؤيتهم، وفيه ـ أيضاً ـ تصوير لتلك الحال، وبيان أنها أمور ستكون مشاهدة وضرورية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ فيه فائدتان:

الأولى: أنه قد تبين لكم بطلان ذلك الزعم.

الثانية: تذكيرهم بجريمتهم العظمى زعمهم الباطل أنهم فيهم شركاء وهم لم يخلقوا ولم يرزقوا فجعلوا ما هو لله وحده خالصاً له جعلوا بعضه لغيره، وذلك أن عبادتهم زعم أنهم عباد لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [النساء:١٧٢] فأقام قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ مقام ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ فدل على أن معنى العبادة أن يجعل نفسه عبداً.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي الصلة بين الذين زعمتم أنهم شركاء فيكم وبينكم، كقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي ضاع عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنه يكون لكم من شركائكم من النصرة والشفاعة وما أشبه ذلك، فقد ضاع كله في هذا الموقف الحرج فما لكم من قوة ولا ناصر.

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا

ويحتمل في إعراب ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ﴾ أنه من التنازع فكل منهما يطلب ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فاعلاً له، فالمعنى: تقطع بينكم ما كنتم تزعمون، وضل عنكم ما كنتم تزعمون، وذلك على توزيع ما كانوا يزعمون أي ما كنتم تزعمون من الصلة بينكم وبين شركائكم، التي هي بزعمكم الصلة بين المملوك ومالكه التي من أجلها يحمي المالك مملوكه، وتزعمونه من حمايتهم لكم من أجل هذه الصلة، تقطع ذلك بينكم وضاع عنكم، وفيه تهكم بهم بجعل الصلة منقطعة، والحقيقة أنه لم يكن لها وجود، وإنما كانوا يتوهمونها جهلاً وضلالاً.

كما أن قوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ تهكم؛ لأن أصله أن يستعمل في ضياع ما كان موجوداً وهو هنا في ضياع ما كانوا يزعمونه ولا حقيقة لَه، ولما كان المشركون قد جعلوا لله شركاء، وخوفهم الله عاقبة شركهم أتبع ذلك بالدلائل على الله، الدالة على أنه يجب تنزيهه عن الأنداد التي جعلوها شركاء لله وهي لا تخلق ولا ترزق، وهذه الدلائل دلائل على قدرة الله على إعادة المشركين وجزائهم في الآخرة بما وعدهم، بل تفيد فوائد معرفة الله كلها، فقال تعالى:

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ لما كانت هذه وما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ احتجاجاً على المشركين، تبين: أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه العليم بكل شيء، القدير على كل شيء، وتعرض بشركائهم أنهم لم يفعلوا شيئاً مما

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ

عدد في هذه الآيات، كانت على هذا الأسلوب: (فالق الحب والنوى) (مخرج الحي من الميت) (فالق الإصباح) (وهو الذي أنشأكم..) (وهو الذي...) (وهو الذي...) بعبارة تعيين الفاعل لذلك أنه الله، لا بعبارة أن الله فعل ذلك.

ولما كان إخراج الحي من الميت غامضاً عند المشركين ناسب في الإحتجاج عليهم أن يأتي مفسراً فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فدل بهذه الآية على أنه هو الذي يفلق الحب فيخرج منه الزرع ويفلق النوى فيخرج منه النخيل والخوخ وغيرها؛ ولكون قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ آية واحدة لم يعطف ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ بالواو وبخلاف سائر الآيات فهي متعاطفة، فوصف الزرع والشجر بالحياة وبذرها بالموت بعد انفلاقه كوصف الأرض بالموت قبل نزول المطر والحياة بعده وبعد اخضرارها.

وقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ آية ثانية تدل على الله فالمولود الذي يكون قد مات في بطن أمه لم تخرجه هي باختيارها متى شاءت ولكن الله هو الذي يخرجه بتهيئة أسباب خروجه متى شاء.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر العالم الذي دل عليه إخراجه الحي من الميت والميت من الحي هو ربكم لا أصنامكم وما تعبدون من دونه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تؤفكون عن الحق إلى الباطل، أي تقلبون وتحولون، فليس لهم خلق، ولا لكم برهان فيهم.

﴿٩٦﴾ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بعد الليل المظلم الذي استمر وقتاً إما طويلاً كما في الشتاء، وإما دون ذلك كما في الصيف، فلماذا جاء الصباح ففلق بضوءه ظلمة الليل؟ إنها قدرة الله تعالى.

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ لما اشتمل عليه من الأرض والأشجار والمياه والحيوان كالبيت الذي يسكن فيه الحي، فالليل يحفظ رطوبة الأرض والأشجار وقوة المياه ورطوبة الحيوان، ويعدِّل حرارة الشمس وقد سماه الله تعالى: ﴿لِبَاسًا﴾ [النبا:١٠] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠].

قال في (الصحاح): «والسَّكن: النار، ثم قال: والسكن ـ أيضاً ـ كل ما سكنت إليه» انتهى، وفي (لسان العرب): «وقال اللحياني: والسَّكَن ـ أيضاً ـ سكنى الرجل في الدار، يقال: لك فيها سَكَن أي سُكْنَى، والسَّكَن والمسْكَن والمسكِن: المنزل والبيت، الأخيرة نادرة».

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ والله الذي جعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾ أي حساباً، فلولاهما ما عرف حساب الشهر الواحد، وحساب الشهور، والسنة الشمسية، والفصول الأربعة: الصيف، والخريف، والشتاء، والربيع، وهذا دليل على قدرته تعالى وعلمه المحيط بكل شيء، فحساب الشمس والقمر دقيق محكم مستمر آلاف السنين، فتبارك الله رب العالمين.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي فلق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً كله ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يعارضه معارض يغير ما أحكم ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿٩٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فيهتدى بنورها، ولولا هي لاشتدت الظلمة على المسافرين.. ألا ترى كيف تشتد الظلمة إذا حجب نورَ النجوم سحاب، ويهتدى بالنجوم لمعرفة الجهات ليهتدى إلى الجهة المطلوبة للمسافرين وأشد الحاجة إلى ذلك في ظلمات البر حيث لا جبال مثل (تهامة) وفي ظلمات البحر.

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ بينّاها وميّزنا بعضها من بعض، فهي آيات عديدة كثيرة يهتدي بها من يعلم، أي مَن من شأنه أن يعلم لسلامته من الهوى المعمي للبصيرة والخذلان، بسبب الإستمرار على التمرد والعصيان، والإعراض عن النظر في الآيات اشتغالاً بأغراض الدنيا، ففي الشمس آيات، وفي القمر آيات، والليل آية، والنهار آية، وفي النجوم آيات عديدة.

﴿٩٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ من أبينا آدم أنشأنا أوجدنا بعد أن لم نكن ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فلكم في إنشائكم مستقَر ومستودَع تكثرون بواسطتهما، فالمستقر: بطون الأمهات فإنشاء الذريات فيها وتربيتها حتى تتكامل ثم تخرج بعد كمالها، والمستودَع: مستودع النطفة حيث تخلق فتخرج إلى المستقَر، وهذه آيات عظيمة، وهذا رأي (صاحب الكشاف).

والراجح عندي: أن المستقر: هو محل المعيشة، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] والمستودع: هو القبر؛ لأن الإنسان فيه كالوديعة يرد عند البعث.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ الكلام فيفقهون كلام الله في تعديد الآيات وتبيينها، فيعلمون بما فصل من آيات الصنع الدالة على الله الخالق العليم القدير، فالآيات القرآنية تُذكّر بآيات الكون لمن يفهم الكلام.

﴿٩٩﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الجو، كقوله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الروم:٣٨] على تقدير محكم في كيفية نزوله بحيث ينفع ولا يضر، فتراه كأنه نازل من غربال

فيعم البلاد من الحرث والمراتع والمحتطبات بسبب نزوله من السماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي أخرج الله بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الزروع والشجر والمرعى، وغير ذلك مما لا يكاد يحصى لكثرة أنواع النبات.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ فأولاً يخرج من الأرض أصفر اللون أو أبيض ثم ينمو فيخرج منه الأخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ ﴿نُّخْرِجُ﴾ من الخضر بعد تكامله وخروج سنبله الأخضر، نخرج ﴿مِنْهُ حَبًّا﴾ وما هو الحب، وما الفائدة فيه، قد عرفه الإنسان وعرف فائدته فلم يحتج إلى وصفه بأنه طعام الإنسان الذي يعيش به، فتبارك الله رب العالمين يخرج هذا الحب ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ في السنبلة تستمد كل حبة غذاءها من السنبلة حتى تكمل وتصلح، فيتراكب لكثرته واجتماعه في السنبلة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ﴿طَلْعِهَا﴾ إما أكمامها التي تخرج أولاً وفيها الثمر ثم تنشق فيخرج منها العذق، قال في (المصابيح): «وهو [أي العذق] في النخل كالعنقود من العنب، فهو يخرج من الكم، والكم يخرج من النخلة.

وعلى هذا التفسير للطلع، يظهر: أنه مصدر القِنْو، وإما نفس الثمر الذي في الكمّ يكون قنواناً، فكأنه ـ أي الكم ـ مصدر للقنوان، والقنوان: جمع قنو، قال الراغب: القنو العذق تثنيته قنوان، وجمعه قنوان» انتهى.

أي تثنيته في حال الرفع كجمعه (قنوان) وقوله تعالى: ﴿دَانِيَةٌ﴾ دانية من الدنوّ وهو القرب، فإما بمعنى: قرب قطافها؛ لأنها إذا خرجت من الأكمام ينتظر صلاحها ثم تقطف، فتعتبر دانية لقرب قطافها، وإما دانية بالنسبة إلى منابتها ومخارجها من النخلة ومواضع أصولها؛ لأنها تتدلى عند ثقل البسر، كما قال امرؤ القيس:

فآتت أعاليه وآدت أصوله وأدلى بقنوان من البسر أحمرا

وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣] فهي آية حين تخرج من النخلة وحين تخرج من الأكمام فيرى فيها البسر ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ يستمد غذاءه من الشماريخ حتى يتم ويصير رطباً قوتاً لأهل بلده وفاكهة لهم ولغيرهم قد أتقن صنعَه صانعُه وجعله لذيذاً للإنسان نافعاً، فتبارك الله رب العالمين.

﴿وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وأخرجنا من النبات أو بالماء جنات شجراً ملتفاً يغطي مكانه من أنواع العنب ذوات الألوان المختلفة وأشكال حبها المختلفة والطعم اللذيذ المختلف والنفع للإنسان وفاكهة يستغنى بأكلها عن غيرها أكلة أو أكثر فقد يستغنى بها أياماً، إلا أنها تقوى شهوة الخبز إذا ترك أياماً، فالأعناب آية عظيمة أشجارها وثمارها.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ وهو يكثر وينمو شجره في الشام فيثمر الزيتون ثمراً يؤكل ويعتصر منه الزيت، فيكون إداماً نافعاً سهل الهضم بالنسبة إلى غيره من الأدهان، ودهناً جيداً نافعاً للإنسان، وقد قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠] وقال تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [النور:٣٥] ففي الزيت فائدة ثالثة، وهي أنه يستعمل وقوداً للمصباح.

﴿وَٱلرُّمَّانَ﴾ وهو آية عظيمة في صنعه، حيث يكون حبه الضعيف متراكباً في جيوب يستمد غذاء من أجزاء فواصل هي جيوبه، وجملتها تستمد من أصل الرمانة، ويجمعها خباء كالجلد يحفظها حتى تتم وتصلح، فإذا فلق الآكل خباءه وجده متراكباً مفصلاً في جيوب جميل المنظر منه حلو لذيذ نافع للإنسان، ومنه حامض دواء كالخل صنع الله الذي أتقن صنعه وصنع شجرته.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ أخرجنا هذا المذكور أي الحب والفواكه بالماء الواحد ﴿مُشْتَبِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً ﴿وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ أي بعضه مشتبهاً وبعضه غير متشابه، وذلك تقدير القدير العليم الذي خالف بينه وبين أنواع الصنف الواحد وجعل بعضه مشتبهاً وبعضه غير متشابه صنعاً محكماً مفيداً للإنسان، ففيه آيات مفصلات تدل على أن الله هو الخالق القدير العليم.

وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ كيف يكون تدبير صنعه من الشجرة التي تخالفه في شكله وطعمه ونفعه ويستمد منها غذاءه وكيف يكون حجمه وطعمه ولونه ﴿وَ﴾ انظروا إلى ﴿يَنۡعِهِۦٓ﴾ إذا أينع وتم صلاحه للإنسان كيف يختلف عن صفته في حجمه ولونه وطعمه ونفعه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إنزال الماء من السماء وهو واحد، وإخراج نبات كل شيء على اختلاف النبات وتطوير النبات حتى تخرج منه الثمرات النافعات للإنسان من الحب، والتمر، والعنب، والزيتون، والرمان، على صفاتها حين تخرج من أشجارها وصفاتها حين يتم صلاحها ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ مفصلات ودلائل بينات ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ من شأنهم أن يؤمنوا إذا رأوا الآيات، وسمعوا القرآن يعددها لهم، ويثير دفائن عقولهم ويذكرهم من غفلتهم، فأما المتمردون فما تغني عنهم الآيات، فتبارك الله رب العالمين لقد بين الآيات المفصلات الدالة على أنه الخالق الرازق الذي يستحق العبادة ويستحق الشكر على النعم العظيمة المتواصلة المتنوعة.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَ﴾ مع هذا كله ﴿جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لما كانت الآيات الماضية تدل على بطلان الشرك وأنه ظلم عظيم عطف عليه ذكر ما عليه المشركون مع اختلافهم في الشرك من جعلهم شركاء لله وبيَّن هؤلاء الذين جعلوهم شركاء بأنهم جن، وبيَّن أن الله خلقهم رداً عليهم.

فالأقرب: أن الجن بيان لشركاء، وسوغ ذلك تطابق البيان والمبين؛ لأن التعريف لفظي لأنه لم يقصد به عموم الجن ولا الحقيقة المعهودة، أو أن عطف

البيان لا يشترط فيه التوافق في التعريف والتنكير بين البيان والمبين كما اختاره الرضي في (شرح الكافية) أو هو بدل وليس المبدل منه ملغي بل هو عمدة كما اختاره الرضي وغيره، والجن إما من كانوا يعوذون بهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهذا أظهر، وإما الملائكة.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال: قال في (البرهان): ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي أن مشركي العرب جعلوا الملائكة بنات الله شركاء له، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] فسمى الملائكة جناً لاجتنانهم عن الأبصار» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الراجح: أن الضمير للجن، أي وخلق الجن فهم عباد لله مربوبون، لا شركاء له في عباده.

أما قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ﴾ ففي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: اختلقوا» انتهى، أي افتروا.

وقال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن (البرهان) للإمام أبي الفتح الديلمي: «أي كذبوا» انتهى، وفي (لسان العرب): «وخرَّق الكذب وتخرقه وخرَّقه كلّه اختلقه، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ قرأ نافع وحده ﴿وَخَرَّقُواْ لَهُۥ﴾ بتشديد الراء، وسائر القراء قرأوا ﴿وَخَرَقُواْ﴾ بالتخفيف، قال الفراء: معنى ﴿خَرَقُواْ﴾ افتعلوا ذلك كذباً وكفراً، وقال: وخرقوا واخترقوا وخلقوا واختلقوا واحد، قال أبو الهيثم: الإختراق والإختلاق والإختراص والإفتراء واحد» انتهى.

ومعناه في (المصابيح) و(الكشاف): «وخرق البنين، جعل عيسى وعزيراً عليهما السلام بنين، وظاهر الجمع: أن المشركين قد زادوا غيرهما، واختراق البنات قولهم في الملائكة عليهم السلام: بنات الله سبحانه.

كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يفيد: قبح قولهم هكذا، من حيث أنه اختلاق وافتراء، ومن حيث أنه قول على الله بغير علم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه لله ودلالة على أن ما قالوه بعيد عن الحق؛ لأن التسبيح تنزيه وتبعيد عن النقص ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ علوّ الشأن والعزّة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن وصفهم له بصفة المخلوق الضعيف وهو القوي العزيز، أي جل وعلا عما وصفوه به.

قال الشرفي في (المصابيح): فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا يبقى بين قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ فرق؟

قيل له: بل بينهما فرق ظاهر، فإن المراد بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ إن هذا القائل يسبحه وينزهه عما لا يليق به، والمراد بقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ كونه في ذاته متعالياً متقدساً عن هذه الصفات..» إلخ.

والظاهر عندي: أن مضمون التسبيح: نفي النقص، ومعنى ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ إثبات الكمال وعلو الشأن والغلبة، ولعل هذا مراد الشرفي رحمه الله.

﴿١٠١﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال في (الصحاح): «أبدعت الشيء: اخترعته على غير مثال، والله تعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والبديع المبتدِع، والبديع المبتدَع أيضاً» انتهى المراد.

ومثله في (مفردات الراغب) ورجح في ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، ورجح (صاحب الكشاف) أن المعنى: بديع سماواته، ولم يجوزه بمعنى مبدِع، بل قال في هذا المعنى: وقيل: البديع بمعنى المبدع» انتهى.

والراجح: أن ﴿بَدِيعُ﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه استعمال كثير شائع بخلاف فعيل بمعنى مفعِل، ومع هذا يصير حاصل المعنى بالإلتزام أنه تعالى مبتدع السموات والأرض؛ لأنها لما كانت مبدوعة لزم منه أنه مبدعها، أما مفهوم ﴿بَدِيعُ﴾ فالراجح: أنه راجع إلى اسم المفعول، نعم رجح (صاحب الكشاف) أنه صفة مشبهة، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف كقولك: فلان بديع الشعر» انتهى.

وهذا أقرب، قال في (لسان العرب): «والبديع، والبِدْع: الشيء الذي يكون أولاً، وقال قبل هذا: وركيّ بديع حديثه الحفْر ـ ثم قال ـ: وسقاء بديع جديد، وكذلك زمام بديع ـ ثم قال ـ: وحبْل بديع جديد أيضاً، حكاه أبو حنيفة، والبديع من الحبال الذي أُبتدئ فتله، ولم يكن حبلاً فنكث ثم غُزل وأعيد فتله ـ ثم قال ـ: والبديعُ الزِّقُّ الجديد» انتهى المراد، فهذه المعاني راجعة إلى فعيل بمعنى مفعول، إلا أنها صفات.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ من أين يكون ﴿لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وهذا في نفي الولد أي ولد الصلب، وهو غير نفي اتخاذ الولد بالتبني، وفي نفي الولد بالتبني، فالكل منفي عن الله.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ إما أن يكون مستقلاً بنفي الولد، فمعناه: من أين يكون له ولد وهو ليس له جنس فيتكثر بوجود فرع يتفرع منه، والولد إنما يكون من جنس الوالد، وهذا خاص بما يقبل الكثرة والقلة، وما يقبل القلة والكثرة يقبل العدم، وما يقبل العدم لا يستحق القدم؛ لأنه ليس واجب الوجود فمن أين يكون لله سبحانه فرع وهو لا يقاس على المخلوقين؟

وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ مرتبطاً بقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ فيكون المعنى: أن الولد إنما يكون من الأنثى وليس لله أنثى يتهيأ له منها ولد؛ لأنه ليس له صاحبة زوجة أو ما في معنى الزوجة، ولعل هذا كافٍ في نفي الولد؛ لأن المشركين لا يثبتون له صاحبة بمعنى أنثى يجامعها، فيكون له منها ولد، وإن أثبت بعض النصارى أنثى يكون فيها الولد الموجود عندهم من قبل، والذي هو عندهم ابن من قبل أن يكون في بطن مريم، بل هو عندهم قديم، والسؤال وارد عليهم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؟! ولم يوجد له بواسطة مريم، فليس جعله ابناً بأولى من جعله أباً؛ لأن الأب والإبن عندهم قديمان، فلا وجه لجعل أحدهما أباً دون الآخر، وجعل الآخر ابناً دون من جعلوه أباً، وكذلك ابن التبني أنى يكون ولداً؟! فالتبني لا يثبت للمتبني الولادة فليس ولداً.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكل شيء مملوك له وهو رب كل شيء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٢-٩٣] وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩] والعبودية تنافي البنوة التي معناها يستلزم المشاركة في الجنس ويستلزم للولد مكانة تنافي مكانة العبد، فهو رد على دعوى الولد وعلى دعوى اتخاذ الولد ما ليس ولداً بالأصالة، ولهذا رد الله تعالى على المشركين بإثبات عبودية شركائهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا لنفي الولد بواسطة التبني؛ لأن من الغلط في الرأي والمنافي للحكمة أن يتخذ عبده ولداً بجعله شريكاً له في ملكه،

تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠

فمن هو بكل شيء عليم لا يكون منه اتخاذ الولد؛ لأنه لا يغلط، ولا يجهل وجه الحكمة: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

﴿١٠٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلق كل شيء فلا شريك له في مخلوقاته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو رب كل شيء، فلا شريك له فيكم ولا في غيركم، والإله: هو المعبود بحق فلا تحق العبادة إلا لله؛ لأن معناها: اعتراف بالعبودية للمعبود.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده لأنكم عباده وحده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ فكِلُوا أموركم إليه لنفعكم ولدفع الضر عنكم فلا ترجوهما من غيره؛ لأنه لا يقدر على ذلك غيره وهو يقدر على كل شيء، ويعلم أحوالكم، وما تحتاجون إليه، وما ينفعكم وما يضركم، وهو مالككم والمتصرف فيكم كيف يشاء، فهو الوكيل على كل عباده الذي ينبغي أن توكل إليه أمورهم؛ لأنهم لا ينفعهم أحد إلا بإذنه، ولا يضرهم أحد إلا بإذنه، وما أراد لهم من نفع أو ضرٍّ لا يدفعه غيره، فلا وكالة لغيره بهذا المعنى.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ تحقيق لكونه لا يقاس على المخلوقين، فالذين جعلوا له بنين وبنات توهموا أنه يشبه المخلوقين، فجوزوا له البنين والبنات، سواء بمعنى: أنه ولد بنين وبنات،

أو بمعنى: اتخذ بنين وبنات ليكونوا له ريحانة يلتذُّ بهم كما يلتذ الوالد بالولد ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس:٦٨] فقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ تنبيه على مخالفته لكل ما تدركه الأبصار، فلا يقاس بالمخلوقين ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لأنه لا يخفى عليه شيء، وهذا تتميم لبيان الفرق بينه وبين المخلوقين، وعدم التشابه بينه وبينهم في الذات؛ لأنها جازت عليهم الرؤية وامتنعت رؤيته، فهذا وجه التمدح بها، فأما من يجعل ذلك لمجرد نفي الرؤية ويقول بإمكانها عليه فقد لزمه أن هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] سبحان الله وتعالى.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ عن أن تدركه الأبصار ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بخبر كل شيء وغامض سره، فاللطيف هنا بمعنى الخفي كاسمه تعالى الباطن ومن استعمال اللطف في الخفاء قول الحجاج: للطف ما توسلتَ به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف:١٠٠] أي يدبر لكونه من حيث لا يشعر المخلوق، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:١٩] أرادوا أن يترفق، بحيث لا يظهر بسبب إقباله أو تصرفه أو إدباره.

وفي (لسان العرب): واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي، فتفسير ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ هنا بالخفي الذي لا يدرك بالحواس وإنما يعرف بآياته أنسب للسياق من حيث قابل ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ كما قابل ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ وقد أفاده (صاحب الكشاف) وهو من أئمة اللغة العربية.

فأما تفسير ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ بلطيف التدبير، فهو يلزم منه أنه لا يصلح أن يقال لَه لطيف؛ لأن اللطيف تدبيره فيكون لطيف التدبير وصفاً جارياً على غير من هو له.

عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

وقال (صاحب لسان العرب): «ومعناه [أي اللطيف] والله أعلم: الرفيق بعباده، قال أبو عمر: واللطيف: الذي يوصل إليك أربَك في رفق» انتهى المراد.

وهذا يستقيم في تفسير ﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩] بل هو الظاهر فيه لأجل تقييده بعباده، ولا يلزم اتفاق المقيد والمطلق كما لم يلزم في ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] و﴿بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

وفي (مفردات الراغب): «وقد يعبر باللطائف [باللطيف] عما لا الحاسة تدركه، ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم» انتهى.

وجعل (اللطيف) بمعنى الخفي الذي لا تدركه الحواس، هو الذي يناسب جعل هذه الآية من البديع كما في (متن التلخيص) حيث جعله من مراعاة النظير، فقال: «ومنها [أي مراعاة النظير] ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه، نحو ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾» انتهى.

﴿١٠٤﴾ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ قد جاءتكم آيات بينات تهدي البصائر وتنير لها وتقويها، وتكشف عنها ظلمات الجهل وتحييها بإيقاظها للنظر الصحيح، فكأن الآيات من هذه السورة ومن غيرها تفيد بصائر وتوجدها في القلوب، والبصيرة للقلب كالبصر للعين، وجمع البصيرة: بصائر، فقد جاء في هذه السورة ما يكفي ويشفي للهداية إلى إخلاص العبادة لله وتوحيده، ورفض الشرك وتقبيحه.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ببصيرة قلبه واهتدى للحق ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر أي فائدة ذلك لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ قلبه بعد هذه الآيات فعلى نفسه ضَرُّ ذلك العمى ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن العمى وأردكم عن الردى، إنما أنا رسول الله لأبيِّن لكم سبيل الهدى وأنذر وأبشر.

وهذه الآية جاءت على الحكاية لكلام الرسول ﷺ كما جاء على الحكاية لكلام الملائكة عليهم السلام، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥-١٦٦] ولعل ذلك إشارة إلى أن الآيات في هذه السورة قد بلغت النهاية في بيان بطلان الشرك والتحذير منه، وفي إبطال الكفر فما بقي إلا التعقيب من الرسول ﷺ على ذلك الإحتجاج، والبيان الكافي بأنه قد جاء نوراً للبصائر.. إلى آخر الآية.

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ كهذا التصريف للآيات في هذه السورة وتحويلها من أسلوب إلى أسلوب، وهي متفقة في المراد كالآيات في أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا﴾ والآيات في إبراهيم والأنبياء عليهم السلام، ثم العودة إلى أسلوب أول السورة بشكل مخالف بعض المخالفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى..﴾ إلى آية ﴿..وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وبيان جهلهم بالله وقياسهم له على المخلوق، وبيان الفرق بشكل قريب للأفهام يبطل القياس، فكذلك يصرف الله الآيات في القرآن في هذه السورة وفي غيرها.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «معنى ﴿دَرَسْتَ﴾ حفظت وأتقنت فكانوا إذا سمعوا ورأوا ما يجيئ به رسول الله ﷺ من آيات الله ـ عزَّ وجل ـ وتصرفه من أحكامه وبينه من حلاله وحرامه، قالوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ يريدون أنه محكم لما هو فيه دارس لَه يوهمون أنه عليه السلام يتعلم ذلك ويدرسه من أخبار الأولين» انتهى.

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ

وقوله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا۟﴾ الراجح فيه: أنه مجاز شبه قولهم ﴿دَرَسْتَ﴾ بالغرض المقصود للدلالة على أن الله تعالى صرف الآيات القرآنية وهو يعلم أنهم يقولون من أجله درست، فكأنه صرفها ليقولوا درست، ومن فائدة ذلك: التنبيه على أن الله لا يبالي بقولهم هذا، ولا بضلالهم بعد البيان كما لو كان مقصوداً بالتصريف للآيات.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نصرف الآيات؛ لأن تصريف الآيات أبلغ في البيان فنصرفها لنبين القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيفهموا وينتفعوا، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي عادتهم أن يعلموا؛ لأن قلوبهم سليمة من موانع العلم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱتَّبِعْ﴾ هذا القرآن وسائر ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لأنه أوحى إليك فأنت أولى من اتبعه؛ ولأنه من ربك المالك لك، فعليك أن تطيعه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فعليك أن تعبده باتباع ما أوحي إليك منه ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تنزهاً عن مخالطتهم وبعداً عن سماع باطلهم وتطهراً عن رجسهم، وليس المراد ترك إبلاغهم الحجة، بل المراد الجمع بين الأمرين الإبلاغ فالإعراض.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ فلم يُعصَ مغلوباً، بل هو قادر على أن يحول بينهم وبين الشرك، ولكنه أراد أن يمكنهم من التوحيد والشرك، ويخليهم يختارون لأنفسهم؛ لأن حكمته في ذلك، فلا يحزنك شركهم.

ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فما عليك من شركهم أي ضرر ولا مسؤولية فلا تبال بهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فتردهم عن الشرك إلى التوحيد أو تصنع فيهم ما اقتضاه رأيك، كما هو شأن الوكيل الذي وكل إليه أمر غيره، إنْ عليك إلا البلاغ.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾ شركاءهم الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عبادة لهم لاعتقادهم فيهم ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ كما سببتم آلهتهم عدواناً منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بل بجهلهم وضلالهم عن الحق.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فلِمَيل طباعهم إليه يغضبون من تقبيحه؛ لأن من طبع النفس كراهة سب المحبوب، فأما نسبة التزيين إلى الله سبحانه وتعالى ففائدته الدلالة على أنه تعالى لا يبالي بهم ولا بشركهم، فأما معنى التزيين هنا، فلعله بفطرة النفس على حب ما تعودته وألفته أو اعتقدت أنه صواب ولو خطأ، ولعل مرجع حب العقيدة إلى حب النفس، وذلك من مقدمات الإبتلاء، فنسبة التزيين إليه بهذا المعنى مجاز وفائدته كفائدة نسبة الختم إليه تعالى مجازاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: لما أملينا لهم كان إملاؤنا تزييناً لفعلهم، وإن كنا لم نرضَ مع الإملاء بعملهم، وإنما هذا على المجاز لا الحقيقة، ومعنى أن يكون التزيين من الله هو لما جعل وركّب في أنفسهم من الشهوات التي جعلها محنة لهم ليفرق بذلك بين أوليائه وبينهم» انتهى.

جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ

أي ليفرق بين من اتبع هواه ومن خالف هواه طاعة لله ﴿ثُمَّ﴾ بعد تركهم يختارون لأنفسهم ما تهواه أنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ ليجزيهم بما عملوا ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم يرجعون إليه ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا، ويبين لهم حقيقته حتى يعلم أهل الباطل أنهم كانوا في ضلال مبين، وأنهم كانوا كاذبين، أو ينبئهم: يعلمهم بما كانوا يعملون؛ لأنه لم ينسَ بل ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] وذلك في موضع الحساب والتقديم للعقاب، وهذا أظهر والكل واقع.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾ هذا القسم نوع من محاربتهم للرسول والقرآن؛ لأنهم يزعمون أنها لم تأتهم آية، ويجعلون آيات الله لا شيء، أي يجحدون أنها آيات، وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١] و﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أبلغ طاقتهم في المبالغة في الحلف.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول المرتضى عليه السلام: هذا إخبار من الله ـ عزَّ وجل ـ عن أهل الكفر والنفاق والصدِّ عن الحق والشقاق من أهل الكتاب وغيرهم، كانوا يحلفون بالله ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾ ويصدقون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم عند إتيانها» انتهى المراد.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى عليه السلام: فقال الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إنما أراد بها من الله سبحانه.

مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر سبحانه بما علم من سرهم وأحاط به من غامض كفرهم، وأنهم إذا رأوا الآيات لم يؤمنوا بها ولا عند المعاينة لها يصدقونها ولا يرجعون بها، ولقد جاءهم من الآيات والمعجزات مع رسول الله ﷺ ما ثبت له به النبوة والتصديق وزاح به الشك عنه وسوء الظن فلم ينتفعوا بذلك ولم يؤمنوا به، بل ثبتوا على كفرهم وأصرُّوا على معصيتهم..إلى قوله عليه السلام: ..وإنما كان هذا منهم عبثاً وتمرداً وتعنتاً لغير قصد الهدى ولا لطلب التقوى» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ جواب عن مطالبتهم بآية تدل على أنهم كانوا يحلفون مطالبة للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف:٢٠٣] فأمره الله أن يجيب عنهم بأن الآيات ليست عنده ﴿إنما﴾ هي ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بها متى شاء وذلك لأن مطالبتهم له بالآية مبني على كفرهم بكونها من الله تصديقاً له فرد عليهم هنا وفي (سورة العنكبوت). وقد مرَّ ﴿مَا عِنِدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وهو يناسب ما هنا.

﴿١١٠﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال في (الصحاح): «وقلبت الشيء، فانقلب: أي انكب» انتهى، وفي (لسان العرب): «القلب: تحويل الشيء عن وجهه ـ ثم قال ـ : وقلبه، وقلّبه: حوّله ظهراً لبطنٍ، وقلبت الشيء، فانقلب: أي انكبَّ» انتهى المراد.

فالمعنى: تغيير القلوب والأبصار عن حالتها الطبيعية، كأنها كُبَّت كما يكب الإناء فلا يعي شيئاً هذا في الأفئدة، أما في الأبصار فكبها يبطل اتجاهها

إلى المبصَر فهي لكبّها لا تراه، وهذا مجاز لأن أفئدتهم وأبصارهم لو كبت حقيقة لبطل فهمهم ورؤيتهم لكل شيء، ولذلك فهو مجاز كجعل الصدر ضيقاً.

وحاصل المعنى: أن أفئدتهم وأبصارهم صارت بسبب إبائهم وامتناعهم من الإيمان عند سماعهم للقرآن ووضوح أنه من الله أنزله مصدقاً لرسوله فلتمردهم عن الإيمان بعد وضوح الحق صارت أفئدتهم لا تصلح للإيمان كأنها منكوسة؛ لأن معصيتهم أفسدتها ورانت عليها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤].

فأما نسبة تغيير القلوب والأبصار هنا إلى الله تعالى، فلأنه تركها مع أنه فطَرَها قابلةً للتغير والنفار من الحق، فلما تركها لأهلها يفسدونها بالتوجه إلى الباطل والتعود لَه واعتباره مطابقاً لأهوائهم وأغراضهم النفسية حتى كرهوا الحق ونفروا منه، كأنهم لا يستطيعون الرجوع إليه لفرط كراهتهم له، فاعتبر ترك الله لهم يفسدون قلوبهم إفساداً لقلوبهم، كما تقول: أفسد فلان ولده، إذا لم يؤدبه وأعطاه من المال والكسوة ولذات المأكول ونحو ذلك مع إهماله عن التوجيه الحسن والتربية الصالحة، فنسب إليه فساد ولده، واعتبر مسبباً له على طريقة المجاز.

فكذلك من هذه الجهة ترك الله للعصاة يفسدون قلوبهم جعل إفساداً منه لها مجازاً، إلا أنه من الله سبحانه وتعالى حسن؛ لأنه عقوبة لهم على تمردهم، وقد مر نحو هذا في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] وأفئدة: جمع فؤاد وقد فسر بباطن القلب في قوله تعالى: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٧].

ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ

﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ نتركهم في طغيانهم، والطغيان: تجاوز الحد المعتاد، نحو ﴿لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة:١١] والعمه: الحيرة والتردد، قال الراغب: «العمه: التردد من التحير» انتهى.

وفي (لسان العرب): «العمه: التحيُّر والتردد ـ ثم قال ـ: قال رؤبة:

ومَهْمَــهٍ أطرافــه في مَهْمَــهِ   أعمى الهدى بالجاهلين العُمَّهِ»

انتهى المراد. وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يفيد: أنه لا يهديهم بعد فساد قلوبهم، فهو فساد مستمر لا يكون بعده إيمان.

﴿١١١﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ هذا بيان لكذب الذين أقسموا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فبيَّن تعالى: أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم الآيات العظيمة المذكورة فأنزل الله ﴿إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مصدقين للرسول ﷺ ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي كلم هؤلاء الحالفين الموتى، فقالوا لهم: إن محمداً ﷺ نبي صادق، وحشر الله عليهم كل شيء مصدقاً له ﷺ.

﴿وَحَشَرۡنَا﴾ أي أخرجنا، وهذا عام للأحياء والأموات، فالحشر للأحياء: إخراجُها من أماكنها ومكامنها كأوجرة السباع وأوكار الطيور، والحشرُ للأموات: إخراجُهم من بطن الأرض، وإخراجهم ـ أيضاً ـ من أماكنهم بالبعث والإقبال بهم إلى هؤلاء الذين أقسموا، فقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾ عام لكل المخلوقات من الحيوانات والجمادات، لو حشرها الله على هؤلاء الذين أقسموا مصدقة للرسول ﷺ ما آمنوا.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي لم يكن من شأنهم مبالغةً في النفـي، كقول إبليس لعنه الله: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] وقوله تعالى: ﴿قِبَلاً﴾ قرئ [بكسر القاف، وفتح الباء] قال الراغب: ومن قرأ ﴿قِبَلاً﴾ فمعناه: عياناً، ومثله في (الصحاح)، وقرئ ﴿قُبُلاً﴾ [بضم القاف والباء] قال في (الصحاح): قال الأخفش: أي قبيلاً، قال في (الصحاح): «والقبيل: الجماعة، تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى، مثل الروم، والزنج، والعرب، والجمع: قُبُل» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهالسلام): «معناه: أصنافاً» قال في (الصحاح): «وقال الحسن: معاينة» انتهى، فجعل معنى القراءتين واحدة، ومعنى: معاينة، أن يعاين هؤلاء الذين أقسموا كل شيء محشوراً عليهم قد جاءهم مصدقاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليهالسلام: وإنما قال ذلك ـ عزَّ وجل ـ دليلاً على قدرته عليهم، وأنهم لا يمتنعوا [كذا] بغلبة، ولكنهم اختاروا هلاك أنفسهم، إذ مكنهم من الإختيار لفعلهم» انتهى.

قلت: فالمعنى لكنه شاء أن يخليهم يختارون لأنفسهم ويذرهم في طغيانهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ ظاهر الضمير عوده إلى الذين أقسموا أي ﴿يَجۡهَلُونَ﴾ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم تلك الآيات العظيمة، فهم عازمون على الإيمان لو جاءتهم آية كما يريدون، ولكن الله عليم بهم وبما يكون منهم لو جاءتهم، وقد بيّن سبحانه: أنهم لا يؤمنون ولو جاءت آية كما يقترحون، فلم يكن من الحكمة إجابتهم إلى ما اقترحوا، ولأن الله غني عن إظهارها لبيان كذبهم.

رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ

﴿١١٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما مكنا هؤلاء الكفار من معاداة الحق وسببنا لها ببيان الحق الذي يغيظهم حتى إنكم لو سببتم الذين يدعون من دون الله لسبوا الله، وحتى أقسموا جهد أيمانهم ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ جحداً لنزول الآيات البينات من القرآن وغيره ملكنا الكفار قبلهم الذين عادوا الأنبياء وجادلوا بالباطل وسببنا لمعاداتهم لهم بما أوحيناه إلى الأنبياء من الحق الذي يكرهه الكافرون ويبغضون من جاء به، كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ مفعول لـ(جعلنا) أي جعلنا شياطين الإنس عدواً، أو عطف بيان كما قدمت في ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠] من أنه لا يشترط التطابق في التعريف والتنكير على ما اختاره الرضي.

والشيطان: قال في (الصحاح): «والشيطان معروف، وكل عاتٍ من الإنس والجن والدواب شيطان، قال جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزل   وهن يهوينني إذ كنت شيطانا

والعرب تسمي الحية شيطاناً» انتهى المراد.

ولعله خاص بما يضر بطريقة خفية، كمن يغوي بتضليله أو بمكره وكيده أو حيلته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله تعالى: ﴿يُوحِى﴾ أي يوسوس أو يقول بطريقة خفية كما هي عادة المضلل يخفي تضليله لئلا يكشف باطله، وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لعله أظهر في وسوسة الجن للإنس، والزخرف: الزينة، فزخرف القول: ما زينوه بوجه مرغّب في قبوله، والغرور: ما يغتر به كما أفاده في (الصحاح) أي يخدع به الغافل صفة لزخرف القول.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي أنه أراد أن يخليهم وشأنهم، ولو شاء لسلبهم القدرة على ذلك فلم يفعلوه، فهو تعالى لم يعصَ مغلوباً، والضمير لما ذكر من العداوة والوحي ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ذرهم) أي دعهم أي اتركهم وما يفترونه مما يوحي بعضهم إلى بعض، أي اتركهم مع باطلهم أي كِلْ أمرهم إليّ ولا تشتغل بهم، فليس عليك إلا تبليغهم وقد بلغتهم فعادوك وخادعوا ليبطلوا الحق، والواو في قوله: ﴿وَمَا﴾ واو المعية.

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ (تصغى) تميل ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى ما يفترون الذي هو زخرف القول، أو إلى زخرف القول ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ فلا يخافون العذاب، فلذلك تميل أفئدتهم إلى سماع الباطل من شياطين الإنس والجن؛ لأنه لا غرض لهم في طلب الحق، وليرضوا زخرف القول ليرغبوا فيه ويقبلوه ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ وليكتسبوا من الإثم بسبب قبولهم لزخرف القول ما هم مكتسبون، أي جعلنا لكل نبي عدواً يفسدون ويضلون ويفترون ﴿لِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ أي أرسلنا وأوحينا ما يغيظ الشياطين فيكونون أعداء للنبي ليترتب عليه ما ترتب من محاربتهم للدين وإضلالهم لغير المؤمنين.

أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

(واللام) إما للتعليل المجازي، أي شبه ذلك بالغرض المقصود في أن الله تعالى أنزل الحق الذي يغيظهم وهو يعلم ما يترتب عليه منهم لكنه لم يبال بهم لغضبه عليهم واستغنائه عنهم، حتى كأنه يريد ذلك منهم، فأكَّد الدلالة على عدم المبالاة بهم باللام تشبيهاً له بإرادة ما يكون منهم في أنه لم يصرفه عن إنزال الحق الذي يغيظهم، وإما (لام العاقبة) كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] والأول أرجح في هذا السياق.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا يرجع إلى قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ ولكنه من التقديم والتأخير، (والواو) من قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ ليس لها معنى إلا الصلة والزينة للكلام، ومعنى ﴿لِتَصْغَىٰٓ﴾: أي فعل الشياطين ووحيهم وكلامهم، وزينوا [كذا] كذبهم ومحالهم لتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوا ذلك ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي ليكتسبوا من الكفر ما هم مكتسبون، أي ليكتسبوا ما كسب شياطينهم، ومعنى ﴿مَا هُم﴾ ها هنا اسم لشياطينهم» انتهى، يعني: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿مَا هُم﴾ راجع إلى الشياطين.

﴿١١٤﴾ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ قد حكم الله بإخلاص العبادة له ورفض الشرك، كما تسمعون في هذه

السورة حكماً مبيناً محفوفاً بالحجة الصحيحة ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أفغير أحكم الحاكمين، وأصدق القائلين، وعلام الغيوب الذي هو الله ﴿أَبْتَغِى﴾ أحداً شأنه أن يحكم، وأعدِلُ عن الله الذي قوله الحق إلى غيره ليحكم ببطلان الشرك أو صحته؟!

وهذا كقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠] فهو تنبيه وتعليم للجاهلين إنه ليس لمخلوق أن يقول في إثبات الشرك بما شاء، فالمقلدون لآبائهم في الشرك اعتمدوا على قول آبائهم بغير الحق؛ لأنه ليس لآبائهم أن يحكموا بما شاءوا ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ وقد مرّ في السورة هذه، إلا أنه في هذه الآية كالتفريع على ما مر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلاً﴾ وهو الذي أقام الحجة، وأتم النعمة بأن أنزل إليكم القرآن مفصل المعاني، كقوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] أي واضح الدلالة على سبيل الهدى فقد حكم بالحق وقطع العلة، فكيف أعدل عنه حكماً إلى غيره بلا برهان، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ ولم يقل: (إلي) ليدل على أنه قد حكم بيني وبينكم بالقرآن الذي أنزله خطاباً لكم وحجة عليكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ علماء بني إسرائيل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا الكتاب ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والصواب، فهو الحق وخلافه الباطل.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ من الشاكّين وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقصد به غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه عطف على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلاً﴾.

ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «وما أحسن قول المرتضى عليه السلام ذلك، فإنه قال: لم يكن محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الممترين، ولم يخبر الله سبحانه أنه من الممترين، وإنما قال: لا تكن منهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وهو فلم يشرك صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا في اللغة جائز..» إلخ.

﴿١١٥﴾ ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قرئ ﴿كَلِمَتُ﴾ بالإفراد و﴿كَلِمَاتُ﴾ بالجمع، وهو من العطف على قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ من حيث هو حكاية لكلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بمعنى: قل: أفغير الله، أو تقول: أفغير الله أبتغي حكماً، فأكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ فكلماته سبحانه: أحكامه فيما أنزل من الكتب، ومنها: ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤] وأمره: بأن لا نعبد إلا إياه، وكلمته هي هذه التي توارثها الأنبياء، أنزلها على الأنبياء أولهم وآخرهم ﴿صِدۡقٗا﴾ في معناها ﴿وَعَدۡلٗا﴾ في قضائها ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كقوله فيما مرّ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:٣٤] لأنه الحق لا يبدل لأن خلافه باطل ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لا يخفى عليه قول ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل شيء ولعله وعيد على من خالف حكمه تعالى من شياطين الإنس والجن وغيرهم.

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ هذا ـ أيضاً ـ راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ و﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المشركون وسائر المبطلين، فقد انتشر الشرك في الأرض باختلاف صوَره في العرب والعجم وفي أهل الكتابين وغيرهم، وكذلك انتشر الباطل وشاع في الأرض باختلاف أنواعه تبعاً لاختلاف الأهواء، وللجهل، وللشياطين.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في دياناتهم ومللهم ونحلهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لا البرهان ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ ليسوا علماء إنما هم أهل تخمين وتقدير وظن كخرص الثمر وذلك لا يفيد علماً ولا ينجي من الضلال، بل بسببه وقع الضلال والإضلال من التابع والمتبوع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يظنون ويكذبون» انتهى.

قال الراغب: «وحقيقة ذلك: أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال [له]: خرص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه» انتهى المراد.

ولعله يقال: الأولى تفسير ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ بيكذبون لأن الظن قد ذكر في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والجواب: أن قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ كلام في مستندهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ كلام فيهم أنهم ليسوا أهل علم في أباطيلهم ولا معتمدين على بينة معلومة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ فدل ذلك على أن أكثر أهل الأرض لا يعتمدون على كتاب من الله ولا مستند شرعي.

عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ

وهذا وإن كان قد فهم من قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لكن قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ يوضح أنه ليس لهم أصل معلوم يعتمدون عليه في ظنهم، كمن يعتمد على دليل صحيح في أنه من الله، ولكنه إنما يظن دلالته على ما يرى فليسوا كذلك، بل ليسوا أهل علم ولا بينة من الله وإنما هم يخرصون، فقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ كلام فيما يتبعونه.

وقوله: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ كلام فيهم ببيان جهلهم بما يصح اعتماده ـ والله أعلم، هذا ويحتمل: أنه بمعنى يكذبون، فقد ثبت استعمال الخرص بمعنى الكذب والكذب وسيلة من وسائل الإضلال، وقد قال تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤] لكنه سبب للضلال خاص بالسامع فأما الكاذب نفسه فليس سبباً لضلاله، والكلام عام لأكثر أهل الأرض لبيان سبب ضلالهم، فليتأمل.

﴿١١٧﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ وقد أعلمك بضلال أكثر من في الأرض وأعلمك بسبيل الإهتداء، فاستمسك بالذي أوحي إليك.

﴿١١٨﴾ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ تفريع على قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ وتأكيد ذلك بما عطف عليه لبيان أن حكم الله هو الحق، والتأكيد بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ لئلا نحرم ما حرم الجاهلون من الأنعام التي كانوا يحرمونها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وهذا ابتداء رد عليهم في هذا الشان بعد الرد عليهم في الشرك.

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ

﴿١١٩﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَا لَكُمْ﴾ كلمة إنكار واستبعاد، مثل: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ﴾ [الكهف:٤٩] وهي سؤال عن السبب لترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ وقد بيَّن لكم ما حرم عليكم بياناً كاملاً ولم يحرم عليكم تلك التي حرمتها الجاهلية ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والإستثناء من الضمير المحذوف الذي هو عائد الموصول أي حرمه عليكم ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فقد أحله، وقد تكرر في القرآن الأمر بالأكل مما ذكر.

والراجح: أنه كناية عن استحلاله؛ لأن الغالب في السامعين أن لا يمتنعوا من الأكل منه إلا لاعتقادهم تحريمه أو شكهم فيه إذا لم يؤمنوا، فقال: ﴿إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين بما أنزل الله لا يرتابون في حل ما أحله الله وإن حرمه آباؤهم، وإذا استحلوه أكلوا منه متى وجدوه لتوفر الداعي وعدم الصارف.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قرأ نافع بفتح ياء (يَضِلّون) ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الإنس والجن ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ عن طريق الصواب ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ التي يتبعونها، فتضلهم عن سبيل الله ﴿بِغَيْرِ﴾ استناد إلى ﴿عِلْمٍ﴾ وهذا لا ينافي اعتمادهم على الظن والخرص لأن اعتماده مما يهوون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ للحق الظالمين بتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فهذا اعتداء في ملك الله.

وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قال الراغب: «والإعتداء: مجاوزة الحق، وقال في (الصحاح): «والعدوان: الظلم الصراح، وقد عدا عليه، وتعدى عليه، واعتدى، كله بمعنى» انتهى، وهذا أقرب فتسمى مجاوزة الحق: اعتداء، من حيث هي ظلم فربك أعلم بالمعتدين؛ لأن علمه محيط بهم، وباعتدائهم، وبسبب اعتدائهم، وبسرّهم ونياتهم، فاستمسك بخبره عنهم.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ ﴿ذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ ما يظهر للناس من بعضهم ﴿وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ ما يخفى بإسرار أو كتمان، أو بإضمار في القلب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ قال في (الصحاح): «الإثم: الذنب» انتهى.

وعلى هذا: فهو عام يدخل في عمومه الفواحش والبغي، وكسب الذنب: تحمله، والإقتراف: الإكتساب هنا، وأصل الكسب العمل لتحصيل الرزق، فاستعمل في كسب الإثم لأن الإنسان يطلبه كأنه فائدة يستفيدها، أو هو تهكم بالمذنب، أو مشاكلة تقديرية، لأن الذي ينبغي للإنسان أن يسعى لما ينفعه، والمذنب جعل الذنب بدلاً مما ينفعه، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ يفيد التكرار، فيدل على أنه لا يدخل في عمومه صاحب الزلة الذي لا يصر عليها.

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ ﴿مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ يعم الميتة ونحوها، ويعم ما أهل به لغير الله ولم يذكر عليه اسم الله.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فنهاهم الله سبحانه عن أكل ذبائح الملحدين والجاحدين المشبهين والكفرة المتمردين؛ لأن هؤلاء كلهم غير عارف بالله ـ عزّ وجل ـ ولا مقرّ، وإنما يعرفه من آمن به وصدق رسله ووحّده، وذبائحهم فميتة غير ذكية لا يحل أكلها، ولا يسع مسلماً الإنتفاع بها» انتهى.

قلت: يعني: أن المشبه غير عارف بالله، فهو إذا سمى يعبّر باسم الله عن الصورة التي يتوهمها، فلم يسم الله على الحقيقة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) في (كتاب الذبائح): «فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فحرم بذلك الميتة وما ذبحت الجاهلية لغير الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌ﴾ يريد: أن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فمعصية» انتهى.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ الأقرب: أن المراد شياطين الجن يوسوسون إلى أوليائهم من الإنس الدعاة إلى ما هو اتباع الشياطين ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ ليغالبوكم بما يوسوسون به من الشبهة والتلبيس والتغرير والخداع ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ وإن وافقتموهم على ما جادلوكم لأجله وسلَّمتم لهم تحليل ما لم يذكر اسم الله عليه ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ بتحليل ما حرم الله؛ لأنكم جعلتم الحكم لغير الله، وهو إشراك في مُلك الله لغير الله سبحانه.

وقد أكد الحكم بالشرك بـ(إنَّ) و(اللام) فيبعد حمله على المجاز، مع أن الأصل الحقيقة، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١] فظهر: أن جعل الحكم لغير الله من الشرك الأكبر الذي هو شرك العدل بالله سبحانه.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟

﴿١٢٢﴾ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ هذه الآية الكريمة تبيِّن: أنه لا يستوي من هداه الله للإيمان وعلمه القرآن وسائر ما جاء به الرسول ﷺ، ومن لم يزل في الجاهلية الجهلاء قد أصرَّ على الكفر حتى خذل، فهو لا يزال في ظلمات الجاهلية ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فكأنه في الظلمات لا يبصر الطريق ولا يزال فيها، فقد تراكمت عليهم الظلمات: ظلمة الجهل البسيط، وظلمة العقائد الباطلة من الشرك وغيره، ظلمة الجهل المركب، وظلمة الأثام، والظُلَم التي ترين على القلوب، وظلمة الحواجز بينهم وبين الإيمان من الكبر والحسد والتعصب للآباء ولدينهم الذي نشأوا عليه، وتزيين الشياطين لهم ما هم عليه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾؟! سؤال إنكاري، أي لا يكون من كان ميتاً بالجهل أو بالكفر ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ هديناه للإيمان فصار مؤمناً حي القلب بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ علمناه ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يعمل بالخير مع المؤمنين ويكون مع الصادقين ﴿كَمَن﴾ صفته أنه ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

قال في (الكشاف): «ومعنى قوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كمن صفته هذه، وهي قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَٰرٌ﴾ [محمد:١٥] أي صفتها هذه، وهي قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَٰرٌ﴾» انتهى، فعلى هذا الظلمات مجاز عن الجهل والشرك وسائر ما ذكرت.

فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كما زين لهذا الذي في الظلمات ما كان مستمراً عليه آلفاً له من أعماله الباطلة ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ كلهم ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ولعل الكلام الأول في شياطينهم، أو في كبير شياطينهم كأبي جهل، فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فهم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو أنه قد زين له ما كان يعمل.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ وكما جعلنا هذا الذي في الظلمات حيث هو أي في مكة ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ وجعلهم في كل قرية: إسكانهم فيها حتى صاروا أكابر مجرميها ليمكروا بأهل الحق وبأتباعهم من مجرميها، وهذه (اللام) مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ وقد مرَّ قريباً مبسوطاً.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يضر المؤمنين مكرهم فالحصر إضافي، أو الضمير في أنفسهم راجع إلى ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:٨٤] وهذا لأنهم يضلون بالمكر من يتبعهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يشعرون أنهم لا يضر مكرهم إلا من هو مثلهم في الإجرام، والأول أرجح، فالمعنى: إنهم يمكرون ضد الإيمان ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هذا المكر ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن إثمه عليهم لا يتعداهم، فهم يمكرون بأنفسهم يحتالون في تعذيبها وما يشعرون بذلك.

رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن

﴿١٢٤﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ قال الشرفي رحمه الله: «قال المرتضى عليه السلام: هذا إخبار من الله - عزَّ وجل - عن الظالمين الخونة الكافرين أنهم إذا جاءتهم آية من آيات الله سبحانه مع محمد صلوات الله عليه وآله وسلم تبهر العقول وتصحح النبوة ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ مثلها كما أوتيها فإذا أوتينا ذلك آمنا وصدقنا أنه من الله - عزّ وجل - فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أراد أنكم لستم في موضع الرسالة ولا منزلة الطهارة، ولا بأهل ثقة ولا أمانة، فاختار الله سبحانه لرسالته وما أنزل من حجته محمداً صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأمانته، وفضله، ومعرفته بالله - عزَّ وجل - وقدره عنده، وقد يروى أن الذي قال هذه المقالة: الوليد بن المغيرة المخزومي وأبو مسعود الثقفي» انتهى [أي كلام المرتضى الذي حكاه في (المصابيح)].

وقد مرَّ في السورة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيحتمل أن هذا الجواب هو المراد في هذه الآية، أو كلا المعنيين، وهذا أظهر لاختلاف سبب الجواب، وما ذكره المرتضى عليه السلام من قوله: إنكم لستم في موضع الرسالة، تفيده الآية بطريقة التعريض ومعونة الحال.

فأما أصل السياق فهو يدل على أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أهل للرسالة وأن غيره لا يصلح أن توضع فيه الرسالة، وفيها مدح عظيم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حيث دلت على أن الله اختاره للرسالة لأنه محلها الذي يصلح لها.

يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا

وقد روي عن رسول الله ﷺ الدعاء بين الجلالتين: «اللهم أقل العثرة، واغفر الزلة، واغسل الحوبة، واقبل التوبة، وتجاوز عن الخطيئة، وارحم من لا ناصر له سواك» وهذا الدعاء خضوع لله تعالى، وابتعاد عن العجب أو الفخر، كما قال نبي الله نوح عليه السلام فيما حكاه الله عنه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا..﴾ إلى قوله: ﴿..إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿صَغَارٌ﴾ حقارة وهوان وذلة وهو جزاء مناسب لتكبرهم عن الإيمان، ومكرهم ضده، والذين أجرموا الذين جنَوا وأذنبوا وقوله: ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عند لقاء الله في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ بما تكرر منهم من المكر كله لا يضيع منه شيء، ولعل هذا راجع إلى ما حكاه الله ـ عزَّ وجل ـ عن شياطين الإنس والجن وعن أكابر المجرمين وعن القائل: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ وعيد على الكل.

﴿١٢٥﴾ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية وتفسيرها يقول القاسم عليه السلام: تأويلها من يرد الله أن يرشده فيزيده هدى على هدى؛ لأنه لا يعطي الهداية إلا من اهتدى، كما قال تبارك وتعالى في زيادته لهم هدى إلى هداهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧] والتقوى فمن الهدى، وآتى فمعناها: أعطى، فهو آتاهم التقوى بتبصرته وتقويته لهم على ما عملوا منها، وبمنعه لهم تبارك وتعالى من الضلالة ونهيه لهم عنها.

وليس بين الضلال والهدى منزلة هادية لأهلها ولا مضلة ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ بعد الهدى ﴿يَشْرَحْ﴾ يريد يفسح ﴿صَدْرَهُۥ﴾ للتقوى ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ بعد الضلالة والعمى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ بما اتبع من الضلالة والهوى ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يفعل الله بأهل الضلالة والإعتداء» انتهى.

وقال الشرفي حاكياً عن المرتضى، عن أبيه الهادي عليه السلام في جملة كلام: «وأما تضييق الصدر الذي ذكر الله سبحانه أنه يفعله بعبده، فإنما ذلك خذلان من الله لأهل المعاصي على ما يكون من جرأتهم على الله - عزَّ وجل - وإقدامهم على معاصيه، فإذا حادُّوا الله وخالفوه وبإظهار المعصية باينوه خذلهم وتبرأ منهم فعدموا التوفيق، فضاقت صدورهم واختلطت عليهم أمورهم بما استجلبوه في معصيتهم جزاء على فعلهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] والله تعالى ليس يظلم عبيده، ولا يخرجهم من طاعته، ولا يدخلهم في معصيته، بل طريق الرشد هداهم، وسبيل نجاتهم آتاهم، كما قال - عزَّ وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]» انتهى المراد نقله من (المصابيح).

وأما ﴿حَرَجًا﴾ فقال في (الصحاح): «مكان حرَج، وحرِج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية» انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فاستحقوا بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر، أن يضيق صدورهم عن الإسلام فيثقل عليها، لا بمعنى أنه يخلق الكفر فيها ولا يجبرهم عليه، ولكن يكرهونه لثقله ولضيق صدورهم عنه وعدم رغبتهم فيه، فجعل الرجس هو الإضلال المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾.

صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا

فيكون *حاصل المعنى*: كذلك يضل الله الذين لا يؤمنون، وسمى الضلال رجساً لقذارته، من حيث كونه كالسبب للعصيان والإستمرار على ترك الإيمان.

وقد فسر الإمام الهادي عليه السلام جعل الصدر ضيقاً بالخذلان المؤدي إلى الضيق، وذلك لأن الشياطين تزين لَه الباطل، وتذكره ثقل الإيمان لما فيه من التكليف لرفض الهوى وتحمُّل التكاليف الشرعية والخضوع للحق ورفض الكبر والحسد، وتوسوس لَه أنه لا يستطيع هذا في حال أنه فاقد للطف قد خلي بينه وبين شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

فنسبة التضييق إلى الله كنسبة الإفساد للولد إلى والده إذا أهمل تربيته وتركه يتبع هواه، إلا أن تضييق صدر الذي لا يؤمن حق؛ لأنه عقوبة على تمرده على الله، وفي هذا الكلام دلالة على أن الله غني عنهم لا يبالي بضلالهم، وأنه قد غضب عليهم وفي ذلك غاية التحذير من التعرض للخذلان.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ طريق ربك أي سنته في الهداية والإضلال ليس له طريق غيره وهو صراط مستقيم لا عوج فيه؛ لأنه إحسان إلى المؤمن وعدل في الكافر ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي قد بيَّنا الآيات بيان تفصيل ﴿لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ بتذكير الله لهم وينتبهون من غفلتهم ببيان الله لهم فهم الذين ينتفعون بالآيات، وقد فصل الله في هذه السورة وبين عظمته وجلاله واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، وبيَّن سبيل المشركين، وبيَّن ضلالهم واستحقاقهم للإضلال، وفصل الكلام في ذلك تفصيلاً نافعاً للمؤمنين، وكذلك في غير هذه السورة من القرآن الحكيم.

يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى

﴿١٢٧﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ للقوم الذين يذّكرون ﴿دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ وهي الجنة التي وعد المتقون، فهي دار السلامة من كل شر ومن كل ضر ومن كل عناء ومن كل هم وغم ومن كل مكروه، قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في ضمانه، كما تقول: لفلان عندي حق» انتهى المراد.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي ربهم ﴿وَلِيُّهُم﴾ المتولي لرعايتهم وإصلاح شأنهم وصرف كل مكروه عنهم، وإعطائهم من الثواب ما فيه سعادتهم ومن فضله ما يشاء بسبب ما كانوا يعملون في الأيام الخالية، أي أعمالهم الصالحات التي كانوا يعملونها.

﴿١٢٨﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ واذكر يوم نحشر العباد الذين هديناهم والذين أضللناهم، مجموعين في موقف العرض على الله فنقول:

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أخذتم من الإنس أتباعاً لكم كثيراً، وقد روي أنهم من بني آدم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أولياء الجن من الإنس، والمراد بالجن: شياطينهم، وفي هذا دلالة على كثرتهم بالنسبة إلى الصالحين منهم حتى كأن الصالحين غير موجودين لقلتهم، وكأن شياطينهم هم الجن كلهم، فقال ﴿أَوْلِيَآؤُهُم﴾ أي أتباعهم الذين صاروا معهم في الدنيا ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ استمتعنا بهم واستمتعوا بنا، أي نلنا بهم أي بسببهم أغراضاً دنيوية تهواها أنفسنا، ونالوا بنا أغراضاً لهم تهواها أنفسهم، أي بسببنا، فكأنا طلبنا بهم متاعاً لنا، وكأنهم طلبوا بنا متاعاً لهم.

﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا﴾ ﴿وَبَلَغۡنَآ﴾ نحن والجن ﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا﴾ والراجح: أن الأجل هنا أجل الحياة الآخرة، وموعد لقائهم لربهم إقرار منهم بذلك حين لا ينفعهم الإقرار، والأجل الواحد: هو موعد لقائهم لربهم ووقوفهم موقف الحساب.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ كقوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ فرتب على إقرارهم ببلوغ الأجل إخبارهم بأن النار مثواهم أي مقرهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا مدة الموقف والسؤال فيه والحساب وما يكون فيه من الإحتجاج عليهم، فهو استثناء من المدة المفهومة من قوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لأنه لولا الإستثناء لكان معنى الكلام: أنها مقركم باقين فيها من الآن.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذا الإستثناء منه في مدة العرض يوم القيامة، وذلك ما بين بعثهم من قبورهم إلى حين مصيرهم إلى جهنم، فكأنه قال: النار مثواكم إلا في هذه المدة التي ذكرها، فإنهم فيها غير خالدين [في النار]...» إلخ كلامه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يجزي على مقتضى الحكمة، ولا يهمل الجزاء بعد تمكينهم في الدنيا من أسباب العذاب من الشرك والظلم وأنواع الفساد في الأرض، وقد علل بعزته وحكمته تعالى في قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء:٥٦] وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يفيد: علمه باستحقاقهم العذاب الدائم، وعلمه بما عملوا في الدنيا مما استحقوا به العذاب.

بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

﴿١٢٩﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿نُوَلِّى﴾ نجعله والياً عليه يستحوذ عليه ويكون له عليه سلطان وقوة على إغوائه، وذلك بالتخلية والتمكين من غير سلب القدرة عن التابع ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما ولينا شياطين الجن أتباعهم من الإنس ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الجن أو الإنس ﴿بَعْضًۢا﴾ من الجن والإنس ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي عقوبة بذنوبهم التي كانوا يكسبونها أي تكررت منهم واستمروا وأصروا عليها حتى استحقوا الخذلان والتسليط عليهم، وهذه الآية الكريمة جملة معترضة بين قصة المشركين يوم الحشر.

﴿١٣٠﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ هذا تصوير لموقف المشركين يوم الحشر من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا سؤال احتجاج عليهم بأن الرسل قد جاءتهم يبينون لهم آيات الله الدالة عليه وعلى توحيده وعلى بطلان الشرك، وينذرونهم ملاقاة يوم حشرهم وما فيه من العذاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قيل: المراد من جملتكم تعرفونهم ويمكنكم التعلم منهم وهم من الإنس، والظاهر: أن الرسل من الثقلين ولا ينافيه أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول إليهم كلهم؛ لأنه يصدق بالرسل من قبله، ولا مانع من وجود رسل من الجن قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا موجب للتأويل.

وقيل: الرسل يعم رسل الله ورسلهم، فرسل الله من الإنس، ولهم رسل من الجن يبلغونهم فيقصون عليهم الآيات وينذرونهم وحجتهم حجة رسل الله، وهذا قريب إلا أن المتبادر من الرسل رسل الله، وليس في القرآن أنهم أرسلوا إلى الجن رسلاً من الجن.

فأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] فليس فيه أن محمداً ﷺ أرسلهم.

فإن قيل: هم رسل الله ـ أيضاً ـ إلى قومهم؛ لأنه وجب عليهم التبليغ؟

قلنا: هذا لا يثبت لهم اسم الرسالة من الله حقيقة، كما أن الطائفة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٢] لم يثبت لها اسم الرسالة من الله، وكذلك المبلغون من العلماء بعد الرسول ﷺ لا يقال لهم: (رسل الله) ولذا قال بعض المشركين: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي من الوحي إليهم وإيتائهم الصحف المطهرة، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فظهر: أن اسم الرسالة خاص بمن أوحى الله إليه شريعة ليبلغها.

وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ﴾ كقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ [الزمر:٧١] لأنهم يبلغون آيات الله كما جاءت الرسل من الله، قال الراغب: «القصّ: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره ـ ثم قال ـ : والقصص: الأخبار المتتبَّعة..» الخ.

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بأن الرسل قد أتتنا كما قال الله تعالى، أقرُّوا بما سألهم الله عنه ها هنا، وعلموا أن قد لزمتهم الحجة ولم يبقَ لهم حجة ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فآثروها على طاعة الله، وهذه جملة ذكرت بين قصة المشركين لبيان سبب إعراضهم عن الرسل المنذرين وردهم لآيات الله ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَٰفِرِينَ﴾ بالله ورسله وآياته.

وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ

﴿١٣١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إرسال الرسل إلى الإنس والجن وتبليغهم الآيات وإنذارهم يوم القيامة وما يكون فيه من الجنة والنار والجزاء بهما ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي لأن لم يكن، أي بسبب ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ ظلماً ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لم يعلموا لعدم إبلاغهم الآيات والإنذار ولم يأتهم تذكير من غفلتهم.

قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فأخبر سبحانه أنه لا يهلكهم وهم غافلون؛ لأن الإهلاك لهم على غفلة من غير دعوة ظلم، والله ـ عزَّ وجل ـ بريء من ذلك، متعال عنه لا يعذب إلا من بعد الإعذار والإنذار..» إلخ.

فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] إلا أن هذه الآية تشير إلى أن ما سبق في الدنيا من إهلاكه تعالى للقرى لم يكن إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وهي قرى المشركين من عادٍ وثمود وأصحاب مدين وغيرهم، كما ذكرها سبحانه في (سورة الأعراف) و(سورة هود) وغيرهما، قال تعالى في (سورة هود): ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [آية:١٠٠-١٠١].

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل القرى ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ متفاوتة من أعمالهم، فبعضهم أشد عصياناً وتمرداً وكفراً من بعض ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عن

مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ

أعيان معاصيهم وعددها ومقاديرها في القبح وتسبيبها لاستحقاق العذاب بل هي محصاة في علمه لا ينساها ذواتها وصفاتها، فهم صائرون بعد إهلاكهم العام بتدمير القرى إلى جزاء كلٍ منهم لكل سيئة بمثلها ﴿**وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف:٤٩].

﴿١٣٣﴾ ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من خلق جديد يستخلفه في الأرض، كقوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة:٣٠] فهو قادر على ذلك وغير محتاج إلى عيشكم في الدنيا.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ ولو كان محتاجاً إليهم ما أماتهم، ولو لم يكن قادراً على أن يأتي بآخرين يستخلفهم ما استخلفكم في الأرض، ولكنه برحمته يبقيكم في هذه الحياة إلى آجالكم، كقوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ**﴾ [الكهف:٥٨] فمن الرحمة تأخيرهم تعريضاً لهم على التوبة وتمكيناً منها في بقية أعمارهم مع أنه غني عنهم، أما تأخير المؤمنين فهو أبلغ في الرحمة؛ لأنهم يكتسبون في هذه الحياة ثواب الآخرة وسعادتها الدائمة، ويظهر: أن هذه الآية غير خاصة بالعصاة؛ لابتدائها بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ والظاهر: أنه خطاب للرسول ﷺ.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾ إنما توعدونه من الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب لا بد أنه آتٍ؛ لأنه لم يخلقكم في هذه الحياة بطريقة إنشاء قرن بعد قرن يُهلِك قرناً ويأتي بآخرين لم يخلقكم عبثاً ولا لحاجة إليكم، إنما خلقكم تقديماً وإعداداً للآخرة التي وعدتم.

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بل نحن قادرون على إعادتكم وجزائكم بعد الإعادة وقادرون على جزائكم لا تعجزوننا في الدنيا بقوة ولا بعد موتكم، وهذه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٢-٥٣].

قال الراغب في تفسير (العجز): «وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة قال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ [المائدة:٣١] وأعجزت فلاناً، وعجَّزته، وعاجزته: جعلته عاجزاً» انتهى المراد.

وهذا هو الظاهر، فتفسير الإعجاز بالفوات، إنما معناه: أنه عجز عن إدراك الفائت.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ ذكر (صاحب لسان العرب) و(صاحب القاموس) معنى المكانة: التُّؤدة، فعلى هذا يصح تفسير المكانة في الآية بالتؤدة، بمعنى: الأناة، أي اعملوا على أناتكم في عملكم أي غير معجَلين عنه، وهو تأكيد لتركهم على ما هم عليه إحالة لهم إلى الجزاء، وذكر الراغب تفسير المكانة المكان، وحكاه (صاحب لسان العرب) عن بعض أهل اللغة.

وقال (صاحب الكشاف): «المكانة تكون مصدراً ، يقال: مكن مكانة إذا تمكن أقصى التمكن، وبمعنى المكان، يقال: مكان، ومكانة» انتهى، وذكر (صاحب القاموس) تفسيراً للمكانة: المنزلة عند الملك، وحكاه (صاحب لسان العرب) عن بعض أهل اللغة.

وقال في (لسان العرب): «ابن سيده: وتمكّن من الشيء واستمكن: ظفر، والإسم من كل ذلك المكانة» انتهى، وحكى في (لسان العرب): «قال ابن برّي: وقد جاء مكن يمكن» انتهى.

وظاهره أنه غريب، وتفسير المكانة بالتؤدة أنسب؛ لاستعمال (على) في الآية، قال في (اللسان): «أبو زيد، يقال: امش على مكيتك ومكانتك وهينتك، قال قطرب: فلان يعمل على مكينته: أي اتئاده» انتهى.

فأما استعمال (المكانة) بمعنى: المنزلة عند الملك، فهو خاص بمحله ولا يناسبه سياق الآية، واستعمال (المكانة) بمعنى: المكان يكون مع (في) أو (الباء) فلو كانت التلاوة: (بمكانتكم) أو (في مكانتكم) صلح ذلك.

ويمكن تفسير (المكانة) بالظفر أي على ظفركم بمطلوبكم من دنياكم، كأنه قيل: على مكانتكم مما نلتم من المال ونحوه، وهذا المعنى هو الذي اختاره (صاحب المصابيح) إلا أنه فسره بقوله: أي من جهتكم التي أنتم فيها، فصيرها بمعنى المكان.

وقال الشرفي في تفسير (سورة هود): والمعنى: حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة، وفسره في أواخر (سورة هود) ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود:٩٣] على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها، انتهى.

فكأنه جعلها بمعنى المكان، أما (صاحب الكشاف) فقد فسرها على المعنيين الذين ذكرهما، فقال: «وقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أمِر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه» انتهى.

وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ

قلت: ليس في الآية: (اثبتوا) ولذلك يكون المعنى على كلامه الأخير اعملوا على ما أنتم عليه، وهذا ليس بالقوي؛ لأنه مجمل، والأقوى المناسب للسياق ما قدمته، وهو الذي صدره (صاحب لسان العرب) في تفسير المكانة و(صاحب القاموس) فالمعنى: اعملوا بدينكم متروكين عليه إني عامل بديني، وهو جارٍ مجرى ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠].

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عند الموت أو نزول العذاب العاجل أو يوم القيامة ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ الآخرة أي ما فيها من العاقبة المحمودة، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] أما أنا جزاء على عملي، وأما أنتم جزاء على شرككم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الفلاح: الظفر، والفوز، فلا يفلح الظالمون؛ لأن الظلم ليس إلا سبباً للعقاب لا للظفر بعاقبة الدار.

﴿١٣٦﴾ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ ﴿جَعَلُواْ﴾ بأن حكموا به ﴿لِلَّهِ﴾ أو نذروا به له ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ مما خلق، فهو في حكم الحق له وحده؛ لأنه الذي خلقه، والحرث: قال الراغب: «الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيُّؤها للزرع، ويسمى المحروث: حرثاً» انتهى المراد.

قال الشرفي في (المصابيح): «والحرث: الزرع هاهنا، ويقال: الحرث: أرض الزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]» انتهى.

مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ

قلت: الزرع هنا عبارة عن النبات المعروف، فجعلوا قوله تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ [القلم:٢٢] أي على زرعكم، ولعله تسمية الشيء باسم محله؛ لأن الله تعالى فرق بين الحرث والزرع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤].

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا﴾ الحرث ﴿لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ بدعواهم وبناء على دينهم الباطل لا على الحق إن ذلك كله لله وحده ﴿وَهَٰذَا﴾ أي الآخر من الحرث والأنعام ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾ وهذا من باطلهم.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ ما جعلوه لشركائهم لم ينفقوه لله حبًّا لشركائهم وحماية لحقها بزعمهم، وما جعلوه لله فهو وحده يصل إلى شركائهم لأي سبب عندهم، كأن يكون ما جعلوه لشركائهم قد تلف وأرادوا أن ينفقوا لآلهتهم فينفقون ما هو لله بزعمهم.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما أسوأ ما يحكمون، أي حكمهم الباطل الجائر من حيث أنهم جعلوا لشركائهم ما ليس لها ولا تملك شيئاً، ومن حيث أنهم يوصلون إليها ما قد جعلوه لله ولا يرضون بالعكس، ومن حيث أنهم جعلوا ما رزقهم الله في غير فائدة بل في الضر عليهم، ومن حيث أنهم جعلوا ما رزقهم الله في معصيته، ومن حيث أنهم جعلوا شركاءهم أنداداً لله سبحانه وتعالى ينذرون لهم كما ينذرون له، ومن حيث أنهم حكموا بغير حكم الله فيما هو لله وحده.

عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ

﴿١٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ فيه احتمال: أنهم ذبحوا أولادهم قرباناً لآلهتهم، وإما أن المراد بشركائهم: الذين يجعل المشركون لهم الحكم بغير حكم الله من الكهنة وغيرهم جعلوا شركاء لأنهم جعلوا لهم أن يحكموا فيهم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] وعلى هذا يصح أن يكون المراد بقتل أولادهم: وأد البنات، أي دفنهن وهن في حال الحياة.

﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ (اللام) على الإحتمال الأول هي (لام العاقبة) أما على الإحتمال الثاني فيصح أن تكون على أصلها، وأن تكون للعاقبة ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ ليهلكوهم بجعلهم من أهل النار بعملهم الباطل ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ الأصلي الذي هو التوحيد الذي ورثوه بعد أبيهم إبراهيم عليه السلام بما يوهم أن الشرك حق، أما إذا كان ذبح أولادهم لأصنامهم قرباناً، فذلك يوهم أنهم لو لم يكونوا يعلمون أن شركاءهم آلهة ما ذبحوا لها أولادهم؛ لأن العاطفة على الولد تمنع من قتله بغير سبب صحيح، بل لمجرد الخرافة والعقيدة الباطلة، فهذا لبس على المقلدين لهم.

وأما على الإحتمال الثاني، فلعله إيقاعهم في اللبس وظلمة الباطل، بسبب جرائمهم، ومنها هذه الجريمة الشنعاء التي هي ظلم يرين على قلوبهم، ويمنعهم من التبصر للحق، بإضافة هذه الجريمة إلى جرائمهم الأخر ـ والله أعلم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي هذا التزيين لقتل أولادهم، أو ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الشرك الذي زين لهم قتل أولادهم، أو ما فعلوا ما ذكر على أنه عائد إلى

حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ

جملة المذكور، أو ما فعلوا اللبس فلو ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لمنعهم؛ لأنه قادر على منعهم حتى لا يقع منهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فلا تشتغل بهم ولا يحزنك افتراؤهم فتحاول صرفهم عما هم عليه بأي وسيلة غير الإنذار والحجة والموعظة، والواو هي (واو) المفعول معه كما تقول: اتركه وشأنه، أو المراد: اترك أمرهم إلى الله، فهو يتولى جزاءهم على معنى الوعيد لهم، والإفتراء: الإختلاق.

﴿١٣٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ ﴿حَرْثٌ﴾ زرع ﴿حِجْرٌ﴾ محجور ممنوع أي محرم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن﴾ يشاء الله تفسير للتحريم ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أن الله يشاء لبعضهم أن يطعموها دون بعض، وهذا فيما جعلوه لأوثانهم من الأنعام والزرع، ولعل التعبير عنه بالحرث؛ لأنهم جعلوا الحرث الذي يزرع لشركائهم ـ والله أعلم.

قال في (المصابيح): «يعني خدم الأوثان والرجال دون النساء، فهن ممنوعات» اهـ، أي التحريم عليهن خاصة.

﴿وَ﴾ هذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي حرم ركوبها، ولعله الحامي الذي يقولون: قد حمى ظهره، وقد مر تفسيره في (المائدة) ﴿وَ﴾ هذه ﴿أَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ قال في (المصابيح) في الذبح: «وإنما يذكرون أسماء الأصنام» انتهى.

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ على الله سبحانه وتعالى، أي قالوا هذه الأباطيل افتراء على الله، افتراء إما مفعول مطلق لـ﴿قَالُوا۟﴾ وإما مفعول من أجله بالنسبة إلى الذين

لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ

ابتدعوا لهم هذه الأكاذيب ومن ماثلهم ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بافتراءاتهم التي تكررت منهم واستمروا عليها ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ يوم القيامة.

﴿١٣٩﴾ ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والذي في البطون أرادوا به الأجنَّة والألبان، وجعلوا ذلك لذكورهم دون الإناث وأزواجهم، وإنما جعلوا ذلك لأن الذكران كانوا يخدمون الأوثان ففضّلوا بذلك للخدمة والذكورة» انتهى.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ ما وصفوا به الأنعام افتراء على الله، وإفساد لأتباعهم، وجعل الوصف كأنه الجزاء لتأكيد الدلالة على التسبيب للجزاء، كقول الشاعر:

تردَّى ثياب الموت حُمراً فما أتى … لها الليل إلا وهي من سندس خضرُ

فجعل دم الشهيد كأنه تحول سندساً ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومقتضى الحكمة الجزاء وبالعلم لا يضيع شيء بدون جزاء.

﴿١٤٠﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ قتل الأولاد وتحريم ما رزقهم الله سبب لخسارتهم العظمى التي هي دخول النار وفوات كل خير في الآخرة فاجتمع ذلك لهم مع خسارتهم أولادهم وخسارتهم بعض

ما أحل الله لهم فحرموه فتحققت عليهم الخسارة، فقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ فيه تأكيد وتحقيق، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ ومن هذا الباب قول الشاعر:

فلا وأبي الطير المربّة بالضحى على خالد لقد وقعت على لحم

وقوله تعالى: ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي أن صنيعهم في قتل أولادهم سخف وقلة عقل؛ لأنهم لو استعملوا عقولهم ما فعلوه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنهم لم يعتمدوا فيه على حجة من الله، بل فعلوه جهالة فهي شناعة عظيمة؛ لأن قتل الأولاد ظلم ومخالفة للفطرة والإنسانية وقسوة شنيعة، وهو مع ذلك إهمال للعقول، ومجازفة بداعي الجهل.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى سبب خسارتهم لما أحل الله لهم من حيث أن الله رزقهم، ومن حيث أنه معارضة لحكم الله؛ لأنه لم يرزقهم إلا وقد أحله لهم، وقوله: ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ يبيّن شناعة ذلك التحريم وزيادة قبحه، وكونه سبباً للخسارة العظمى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ تسجيل عليهم بالغواية فيما صنعوه تديناً بأنه تضييع لطريق الحق والصواب وتيه في الباطل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إما بمعنى: أن شأنهم أن يضلوا لأنهم ما كانوا مهتدين قط، وإما بمعنى: الرد لاعتقادهم وظنهم أنهم مهتدون، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٩] وقد كان فرعون قال لهم: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] وبعد هذا التسجيل عليهم بالضلال بين الله الحجة البالغة على أن الحكم له في الحرث والأنعام لا لغيره، وبين أنها نعمة من الله يجب شكرها، وهذا مع كونها دليلاً على أنه الذي يستحق العبادة دون شركائهم فقال سبحانه:

مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ

﴿١٤١﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ قال الراغب: «والإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته» انتهى. ﴿جَنَّٰتٖ﴾ أنواعاً من الجنات مختلفة وأفراداً كثيرة ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ وهي ما يجعل على عريش كالعنب ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ وأنشأ النخل ﴿وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ فالنخل له ثمر مختلف في لونه وطعمه وغير ذلك من صفاته، والزرع كذلك، فالحبوب أنواع كثيرة البر أنواع والشعير أنواع والذرة أنواع والأرز أنواع والعلس قيل: هو من البر، وقيل: جنس برأسه، وذلك الإختلاف تابع لقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته وفضله ورحمته.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ﴾ أي وأنشأ ﴿ٱلزَّيۡتُونَ﴾ وأنشأ ﴿ٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾ وهو المتقارب في الصفة مثل نوعي الرمان الحلو ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖ﴾ مثل النوع الحلو والنوع الحامض، والوصف بالتشابه لعله عائد إلى جملة الزيتون والرمان إلا أني لا أعرف أنواع الزيتون، وقد قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] وهو قليل في اليمن.

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ ولا تحرموا شيئاً منه كما فعل المشركون ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ ﴿حَقَّهُۥ﴾ ما جعل الله فيه من الحق للفقراء والمساكين، ثم جعله لثمانية أصناف، والحصاد قال في (الصحاح): حصدت الزرع وغيره ـ ثم قال ـ : والمِحْصَد: المِنجَل، فأفاد: أن الحصد يكون بالقطع، كقطف العنب، وفي (لسان العرب): الحصد: جزُّك البر، ونحوه من النبات حصد الزرع وغيره من النبات يحصده.

حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ الضمير فيهما عائد إلى المذكور من أول الآية، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ ترخيص في الأكل منه قبل إخراج زكاته ولا يسقط زكاة ما أكل قبل؛ لأنه قال ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ فعاد الضمير إلى المذكور ـ أيضاً ـ أو إلى ثمره، فعم المأكول وغيره.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ عطف على ﴿كُلُوا﴾ و﴿آتُوا﴾ فالظاهر: أنه خطاب متعلق بالثمر، فيكون الإسراف إما بإنفاقه في معصية الله كمعاونة الظالم، وإعطاء خدم شركاء المشركين، وإما بالإنفاق الزائد على المنفعة، وهو إتلاف في غير فائدة كما يفعل في بعض الضيافات، وإما بجعله مسكراً، وإما بالإفراط في الأكل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ عام لكل مسرف ولو في أمر خارج عن الثمر كالإسراف في القتل والتبذير بالماء أو غيره، قال في (الصحاح): «والإسراف في النفقة: التبذير» انتهى، وقال الراغب: «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان في الإنفاق أشهر» انتهى.

والأقرب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أنه وعيد، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢] ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠] ولعله وعيد بالخذلان وترك الألطاف ـ والله أعلم.

﴿١٤٢﴾ ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي وهو الذي أنشأ لكم ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ تحملكم وتحمل أثقالكم وهي من الإبل، ومن الأنعام

﴿فَرۡشٗا﴾ والفرش يتخذ من جلود الأنعام ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها، وقال الراغب: «والفرش: ما يفرش من الأنعام، أي يركب» انتهى، وقال في (الصحاح): «والفرش: المفروش من متاع البيت ـ ثم قال ـ: والفَرش: صغار الإبل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾» انتهى.

قلت: الآية واردة في سياق تعديد النعم، فجعل الفرش صغار الإبل لا يناسب السياق إلا أن يسمى فرشاً لأنه ينحر ويكون جلده ووبره فرشاً جيداً أفضل من جلد الكبار فهو مناسب حينئذ، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البلغة): الحمولة الكبار من الإبل والفرش الصغار، ومثله في البرهان» انتهى.

وفي (لسان العرب): «وفرش الإبل وغيرها صغارها ـ ثم قال ـ: وقال الفراء: الحمولة ما أطاق العمل، والحمل والفرش الصغار، وقال أبو إسحاق: أجمع أهل اللغة على أن الفرش صغار الإبل، وقال بعض المفسرين: الفرش صغار الإبل وإن البقر والغنم من الفرش.

قال: والذي جاء في التفسير يدل عليه قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ فلما جاء هذا بدلاً من قوله [عزَّ وجل]: ﴿حَمُولَةً وَفَرۡشٗا﴾ جعله للبقر والغنم مع الإبل» انتهى المراد.

قال في (المصابيح): «وقيل: الحمولة ما حمل من الإبل والبقر، والفرش الغنم، قال الشاعر:

وحوينا الفَرشَ من أنعامكم والحمولات وربات الحجل»

انتهى، فترجح: أن الحمولة ما يحمل من الإبل والبقر، وأن الفرش صغار الإبل، وأن الغنم تسمى فرشاً أيضاً؛ لأن جلودها تصلح فراشاً ولا سيما الضان فهي كصغار الإبل لما ذكر من الدليل على ذلك.

ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أمر إباحة وتمنن وزيادة فائدة في الأنعام مع الحمل والفرش ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا عام لكل خطوات الشيطان، ويدخل فيه دخولاً أولياً تحريم ما أحل الله من الأنعام من السائبة والوصيلة والحامي.

قال في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والخطوات: مَثَل مضروب، يراد به: لا تفعلوا مثل فعله، والخُطوات ـ بالتخفيف ـ هي جماعة خطوة من الخطأ، وليست بجماعة الخطيئة فاعلم ذلك» انتهى.

قلت: لعل فائدة ذكر الخطوات التحذير من إضلال الشيطان التدريجي كأنه يخطو خطوة واحدة فيتبعه فيها من يتبعه ثم يزيد خطوة فيتبعه، وهكذا حتى يصير بعيداً من الصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ تعليل معقول لأن اتباع الإنسان لعدوه خطأ واضح لأن العدو مظنة الإضلال والإضرار ، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بيِّن العداوة، وكيف لا يكون بيِّنَ العداوة وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿١٤٣﴾ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أزواج حمولة وفرشاً من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى، قال الراغب: «يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد [كذا] زوج ـ ثم قال الراغب ـ : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي أصناف» انتهى.

ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ

قلت: الأقرب أنها سميت أزواجاً لأنها من كل نوع زوجان، كما أفاده (صاحب الكشاف) وهو المناسب للتفصيل الآتي:

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ﴾ الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ﴾ التيس والعنز، والنعمة متعددة منها في الضأن جودة اللحم والفرش، ومنها في المعز زيادة اللبن وصلاح الجلد وعاء للماء والسمن لزيادة قوّته ولغير ذلك مع أن المعز أقوى في المرعى، فهي لا تكلف أهلها كالضأن.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين الذين يحرمون ما أحل الله ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله ﴿أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ العنز والنعجة ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أم الحمل من أولاد الضأن والمعز الذي في أرحام الأنثيين، والأرحام: جمع رحم، وهي وعاء الجنين، اشتملت عليه لتحفظه وتربيه حتى يتم خلقه، أي أم ما اشتملت عليه حرمه الله؟!

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ أي ذلك حرمه الله، فهاتوا ما يفيد العلم من كتابٍ لله ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف:٤] عن رسول لله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم التحريم.

﴿١٤٤﴾ ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ من الثمانية الأزواج عطف على ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر من الإبل والأنثى من الإبل ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ الذكر والأنثى عطف على ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فهنا عطف أربعة على أربعة لتيسير فهم تفصيل الثمانية الأزواج.

قال الشرفي في (المصابيح): «عرفهم الله في الإبل والبقر مثل ما عـرفهم في الشا [كذا] والمعز موبِّخاً لهم ومنكراً عليهم ما فعلوه» انتهى.

قوله: في الشا، يعني في الضأن، ونظير ما هنا من عطف اثـنين علـى اثـنين قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [هود:٢٤] فالأصـم معطـوف علـى الأعمـى، والسـميع معطـوف علـى البصير، وهما عطـف علـى الأعمـى والأصـم، ولـذلك قـال تعـالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي من هو أعمى أصم ومن هو بصير سميع.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: الجمل والثور أم الناقة والبقـرة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ التحريم الذي تزعمونـه ﴿شُهَدَآءَ﴾ حاضرين على التحريم مشاهدين له أوحـاه الله إلـيكم ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمْ﴾ بـه بزعمكم، أي بل أكنتم شهداء وهم لا يدعون ذلك، فمن أين جاءهم تحـريم ما حرمـوا، ولـيس عنـدهم مـن الله وحـي بواسـطة كتـاب ولا رسـول ولا بمشاهدة، فقد تبين افتراؤكم على الله بتحريم ما حرمتم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لا أظلم منه لجمعه بـين الإفـتراء علـى الله والتسـبيب لإضـلال النـاس، أي ليغوي الناس عن طريق الحق بغير علم منهم أنه يغويهم، فهو خيانة لهم مـن حيث يفـتري الكـذب فيصـدقونه وهـو كـاذب، مـع كونـه تسـبيباً لباطلـهم ومشاركة في إثمه، فقد بان أنه لا أظلم منكم، وهذا مـن حسـن الجـدال مـن حيث أنه لم يواجههم بأن يقول لا أظلم منكم بل دل عليه بالعموم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تحقيق لكونهم مضلين للناس فهم لا ينالون هدى الله إياهم بالإفتراء عليه ليضـلوا النـاس؛ لأن الله سـبحانه لا يجعل الظلم سبباً للهدى، فليس افتراؤهم إلا إضلالاً خالصاً.

إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ

﴿١٤٥﴾ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فما حرمتموه لم أجده ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ أي إلا أن يكون المحرم على الطاعم ﴿مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ فقد وجدت فيما أوحي إلي تحريم الميتة والدم ولحم الخنـزير.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ أي الذي وجدته محرماً رجس نجاسة وقذر ليس من الطيبات إذا كان ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنـزير، وهذا حين نزلت السورة بمكة قبل نـزول (المائدة) وقبل تحريم كل ذي ناب من السبع، وهذا فائدة ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ لئلا ينفي تحريم غير الثلاثة لأنه إنما نفى الوجدان.

﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ عطف على ﴿مَيۡتَةً﴾ أي ﴿أَوۡ﴾ يكون ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ جعل كأنه فسق؛ لأنه ذبح ﴿فِسۡقًا﴾ فجوراً وخبثاً؛ لأن الله تعالى لم يحل ذبحه مع الإهلال به لغير الله.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد ـ عزَّ وجل ـ لا يحل لأحد أن يهل، ولا يتكلم بغير ذكر الله على ذبيحة ولا غيرها، وسمي ذلك الكلام فسقاً أهل به ونطق به لغير الله، والإهلال في اللغة: هو الجهر بالكلام» انتهى المراد.

وهو يعني: أن الآية دلت على أن الإهلال لغير الله فسق؛ لأنها دلت على أن المذبوح فسق إذا أهل به لغير الله وذلك بسبب كون الإهلال لغير الله فسقاً.

وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «والمسفوح: فهو السائل وهو القاطر، وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فإنه يقول: إنه رجس محرم، وأما [قوله تعالى]: ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فالفسق: هو المعصية والجرأة على الله بالذبح لغير الله والخطية» انتهى المراد.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى شيء من هذه المذكورات الميتة وما ذكر بعدها، قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «وأما قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ يريد غير باغٍ في فعله، ولا مقْدم على المعصية في أكله، ولا متعدٍ لأمر ربه، ولكن من اضطر إلى ذلك فجائز له أن يأكل منه، إذا خشي على نفسه التلف من الجوع فيأكل منه ما يقيم نفسه ويثبت في بدنه روحه إلى أن يجد في أمره فسحة..» انتهى المراد.

فالبغي: الإقدام على المعصية في الأكل من المحرم، والعدو تعدى ما أحل الله إلى ما حرم، كالزيادة على ما اضطر إليه.

﴿١٤٦﴾ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود، والظفر الذي ينمو في رأس الإصبع وبعض الحيوان يقتل به، وبعض الطيور يمسك به أعواد الشجر إذا وقع عليها فقد عم التحريم عليهم أكثر الطيور سباعها وغير سباعها كالدجاج، وكذلك سائر الحيوان الذي له ظفر كالوبر، قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هو ما كان له ظفر يعرف به ويقع عليه اسم الظفر فهو عليهم محرم، ولكن أباحوه وأكلوه وتعدوا فيه» انتهى.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي حرمنا عليهم الشحوم من البقر والغنم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ وهو أكثر الشحم إن دخل فيه ما علق على الظهر، كشحم الجنوب والإلية.

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ الأمعاء في قول الراغب، و(صاحب الصحاح) و(صاحب الكشاف) وقيل: ما تحوّى من الأمعاء كالمباعر أي استدارت فيه الأمعاء فتخرج الدقاق والمستقيم، وقيل: المباعر أي ما فيه البعر، وهذا لأن الحوايا إن كانت جمع حاوية فهي الأمعاء كلها لأن بعضها يحوي بعراً وبعضها يحوي سائلاً يصير بعراً عند مصيره في الأمعاء الغلاظ، وإن كانت الحوايا جمع حويَّة فهي خاصة بالمتلوية، أي ما حملت الحوايا من الشحوم ليس محرماً على الذين هادوا.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ فهو مستثنى كما حملت ظهورهما وذلك مثل ما بين عظام الصدر والرأس والعصعص وهو داخل الإلية المختلط بعظم العصعص فما بقي محرم إلا الذي على الكرش ثوب البطن، والأولى أن ما حملت ظهورهما خاص بما على الظهر فلا تدخل فيه الإلية ولا شحم الجنوب ولا شحم الكلَى ولا الشحم الذي على الصدر الطبقة الخارجة فوق عظام الصدر، وإلا لزم أن لا يبقى مستثنى إلا شحم الرأس والعنق والرجلين واليدين؛ لأن الكرش ـ أيضاً ـ معلق في الظهر فشحمه معلق معه، وظاهر جمع الشحوم تنوع الشحم، ولا تنوع في شحم العنق والرأس والرجلين واليدين، فظهر: أن المراد أنواع الشحم فالثروب نوع، والإلية نوع، وما على الظهر والجنوب والعنق وخارج الرأس والرجلين واليدين نوع، وشحم الكلى نوع.

كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم جزينا الذين هادوا عقوبة لهم ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ وتعديهم على عباد الله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ وصدق الله العظيم، وكذب اليهود الجاحدون لكونه عقوبة، أو الجاحدون لتحريمه.

﴿١٤٧﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ السياق في الذين هادوا فالأقرب أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي اليهود ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ في الدنيا ولذلك يمهلكم مع تكذيبكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ إذا جاء المجرمين أي عذابه، أو البأس أعم فيدخل فيه التسليط على قريظة والنظير وخيبر وغيرهم، و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعم المكذبين وغيرهم، ويدخل فيه المكذبون دخولاً أولياً.

﴿١٤٨﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ احتجاجاً بترك الله لهم على شركهم، وكذلك تركهم على تحريم ما أحل الله، أرادوا أنه لو كان كارهاً لذلك لمنعهم منه؛ لأنه لا يسكت عليه وهو قادر على منعهم، فقد جعلوه تعالى مقرراً لهم على شركهم وعلى تحريم ما حرموا، وهذه شبهتهم يريدون بها أنهم على حق، وأن الرسول كاذب في تحريم ما فعلوه من الشرك، والتحريم لما لم يحرمه الله.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب والجدال عنه ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم الذين نزل بهم العذاب حتى ذاقوا بأسنا، ولم ينفعهم ما شبهوا به ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ ﴿عِلۡمٖ﴾ بأن الله رضي تحريمكم وشرككم من كتابٍ لله، أو أثارة عن رسله، فتظهروه لنا ببيانٍ واضح، أي ليس عندكم فهو سؤال في معنى النفي.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ تكـذبون بسبب اتباعكم للظن وما تهوى الأنفس، وقد ترجح أن معنى ﴿تَخۡرُصُونَ﴾ تكذبون؛ لأنه لو كان بمعنى التخمين لكان من شأنه أن يجعل مع الظن متبعاً يبنى عليه قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ إلى آخره، فلما عدل به إلى قوله: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ ولم يقل: إلا الظن والخرص، ظهر أن المراد: تخرصون بأقوالكم الباطلة كلها، أو بهذا القول خاصة وذلك لأن الخرص إن كان يستعمل في الكذب على الإطلاق صلح حمله على أقوالهم الباطلة كلها ما استند إلى الظن وما لم يستند إلى شيء، وإنما هو افتراء، وإن كان الخرص خاصاً بالكذب المستند إلى التخمين حمل قوله: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ على قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ إلخ.

قال الراغب: «وحقيقة ذلك: أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال [له]: خرص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين، كفعل الخارص في خرصه» انتهى المراد.

وقوله: «ولا غلبة ظن» لعله يعني: ولا قوة ظن.

أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَٰخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ

﴿١٤٩﴾ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ﴾ التي قد بلغتكم وبلغت الأمم من قبلكم ﴿وَلَقَد بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] فأي منع ونهي عن الشرك والطاغوت أبين مما نزله على الرسل، وبلغوا أممهم، وكيف صح مع ذلك أن تدعوا أنه رضي لكم بالشرك وأنه لم يمنعكم.

﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ بعد بلوغ الحجة إياكم ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه قادر على ذلك بطريقة القهر، لكنه شاء أن يخليكم وما تختارون لأنفسكم، فلا حجة لكم في تركه لكم وما تختارون لأنفسكم، بعد بلوغ الحجة وقطع المعذرة.

﴿١٥٠﴾ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ ﴿قُلْ﴾ أحضروا ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ عن يقين ومشاهدة لحجة من الله لا من يشهدون افتراء على الله وجرأة على الزور، أي أنه لا يوجد شهداء على ما تدعون.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ لأنفسهم ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ لأنهم كاذبون ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَٰخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ يا محمد أهواءهم، ولا من كان مثلهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله؛ لأن الهدى هدى الله وما خالفه ضلال ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَٰخِرَةِ﴾ فلا يحجزهم خوف من الرجوع إلى الله والسؤال والجزاء

أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

عن تعمد الباطل واتباع ما تهوى الأنفس ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فإن من عدل بربه حجراً أو صنماً أو أي مخلوق ضعيف فقد تبين أنه على باطل، وأنه لا يبالي بالباطل فهو يتبع ما تهواه نفسه من الباطل ولا يبالي، والمعنى: ولا تتبع سبلهم فإن سلوكهم ليس إلا لمجرد الأهواء بلا حجة فعبر عن سبلهم بالأهواء؛ لأنها سببها، ويحتمل ولا تتبع أهواءهم وتحاول بذلك إرضاءهم فهم ليسوا أهلاً لذلك.

وفي جمع (الأهواء) إشارة إلى اختلافها وتعددها وذلك مما يصعب إرضاء أهله ولو لم يكن باطلاً، كيف وهم يكذبون ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون، فاتباع أهوائهم يستلزم التكذيب بآيات الله والكفر بالآخرة والعدل بالله ـ نعوذ بالله.

﴿١٥١﴾ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿أَتْلُ﴾ أتبع بالقراءة ما أوحي فأقرأه عليكم كما أوحي إلي، فهو الحق لا افتراؤكم واتباعكم للظن وخرصكم، وقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ﴾ إن كانت ﴿مَا﴾ مصدرية فظاهرٌ في صحة تفسيره، بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآية، وإن كانت موصولة أي ما حرمه، فالمراد: أتل بيان ما حرمه ربكم المالك لكم والذي له الحكم فيكم وعليكم فتحريمه الحق لا تشركوا نهي يقتضي التحريم، وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ يعم كل ما يشرك المشركون على اختلافهم بجعله شريكاً لله سبحانه وتعالى.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فلا يقع منكم إساءة إلى أحدهما، وقوله ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي أحسنوا بالوالدين ﴿إِحْسَٰنًا﴾ قال في (الكشاف في تفسير (سورة يوسف): يقال: أحسن به وأحسن إليه، وهذا صحيح؛ لأن الله تعالى قال في (سورة النساء): ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى..﴾ إلى قوله: ﴿..وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣٦] وقيل: معناه: لا تتركوا الإحسان إلى الوالدين، أي لأن السياق فيما حرم الله، ويحتمل أن المقصود النهي عن العقوق فعبر بالأمر بالإحسان إليهما؛ لأنه أبلغ في الدلالة على قبح العقوق.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ في (الصحاح) و(لسان العرب) و(القاموس): الإملاق: الفقر، قال (صاحب اللسان): «وأصله: إتلاف المال حتى لا يبقى شيء، فاستعمل في الفقر حتى صار أشهر» وقال في (الكشاف): «من أجل فقر ومن خشيته» انتهى، وقال في (المصابيح): «أي من خوف الفقر» انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: من فقر وفاقة» انتهى.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وهذا وعد من أصدق القائلين فلا ملجئ إلى وأد البنات ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ النهي عن قرب الفاحشة نهي الحوم حولها وعن مقدماتها، قال الراغب: «الفُحش، والفَحشاء، والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال» انتهى.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان بحيث يراه الناس أو يسمعونه، وما يخفى فليس قبحه خاصاً بالمعلن، والفواحش، مثل: الزنا، واللواط، والربا، وافتراء الكذب على الله، واليمين الفاجرة، وقذف البريء بالزنا، أو اللواط، والسب الزائد تعدياً، وفي قصيدة النابغة:

لم تؤذِ أهلاً ولم تُفحِشْ على جار

قال في (الصحاح): «وكل شيء جاوز حده فهو فاحش» انتهى.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ جعلها حراماً وأثبت لها الحرمة، فليس لأحد أن يعتدي عليها وهي نفس الإنسان الذي لم يقع منه ما يجيز قتله من قتل أو شرك بدون ذمة ولا صلح أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ جعل الحق، كأنه آلة للقتل لأنه وسيلته وسببه، وذلك الحكم من الله بقتلها لسبب من الأسباب المذكورة في محلها، وقد عدَّ الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) أسباب استحقاق القتل.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وصف للنفس بأن الله حرمها وليس للتقييد، لأنه لو كان للتقييد لكفى عن الإستثناء، فقوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ تأكيد للنهي بأن الله حرمها.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع مدلول الكلام الذي ذكر من قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَصَّاكُمْ﴾ بمعنى نهاكم وأمركم للمستقبل، كوصية الحي لما بعد الموت، من حيث أنه للمستقبل ليس للمكلف أن ينساه أو يهمله.

قال الراغب: «الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ» انتهى، وفي (القاموس): «وأوصاه، ووصَّاه توصية: عهد إليه» انتهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تعقلونه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] فالمعنى لعلكم تعقلون هذه الوصايا وتفهمونها؛ لأنها كلام محكم بيِّن يسير الفهم.

إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾
تحذير للطامع من قرب مال اليتيم بتوليه أو استعماله أو نحو ذلك، فالإبتعاد عنه أسلم له وأقرب إلى تركه.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قربه بالطريقة التي هي أحسن أو بالفعلة التي هي أحسن، وهي طريقة صاحب العدالة والإحسان الذي لا يقرب مال اليتيم طمعاً فيه، إنما يقربه ليصلحه ويحفظه فهي أحسن من تركه. وجازت مع ذلك مخالطة مال اليتيم تيسيراً لمصلحة اليتيم لئلا يؤدي التشديد إلى تركه، وذلك لا ينافي التصرف بالتي هي أحسن ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ استمروا على تركه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ قوته عند بلوغ النكاح، ولا تأكلوه بداراً أن يكبر، وأشده وبلوغه قوته أن يكون قد احتاج النكاح كما في آية (سورة النساء) ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ [النساء:٦] فعند بلوغه أشده يسلم إليه ماله إذا أونس رشده كما في (آية النساء).

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أمر معطوف على النهي لأن الوزن بالقسط يستلزم ترك الحيف على من يعاملهم بالبيع والشراء وغيرهما، فهي من النهي عن أكل المال بالباطل وخص الكيل والوزن لأن الأخذ بهما مع البخس يكثر ويسهل والإيفاء إكمال لحق من يعطونه من مشتر أو نحوه.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نضيق عليها بل نكلفها ما يسعها، قالوا: والوسع: دون الطاقة، أي أن ما يطيقه المكلف أكثر مما يسعه،

فاكتفى بالوسع تيسيراً على المكلف، وفي هذا دلالة على بطلان الجبر؛ لأنه يلزم من الجبر تكليف ما ليس في وسعه، أي أنه كلف ما ليس في وسعه؛ لأن القدرة عندهم موجبة فإذا لم يقع الفعل دل ذلك على عدم القدرة عليه، وإذا عدمت القدرة عليه فالمكلف لا يطيقه فضلاً عن كونه ليس في وسعه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ لا تجوروا في قول، والجور يكون في الخبر والإنشاء والصدق والكذب، فالأمر بما لا يحق للآمر ولا مصلحة فيه للمأمور ولا هو حق عليه جور، ومثله النهي عن الحق، والخبر الصدق قد يكون ظلماً كإخبار الظالم بمكان المظلوم ليأخذه أو يأخذ ماله، والكذب كله خلاف العدل إلا من أكره وقلبه مطمئن بالصدق، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي الذي تقولون فيه أو له، فلا تمنعكم العاطفة من العدل في شهادة أو غيرها.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ لا تنكثوا العهد ولا بعضه بل اثبتوا على موجب العهد وأضيف إلى الله لأن الوفاء بالعهد أوجبه الله وهو يعم المواثيق فيما بين العبد وربه والمواثيق بين الناس كالعهد في الصلح والعهد في البيعة للإمام والعهد المأخوذ على الشاهدين أو على الوصي أو غير ذلك، ويحتمل أن عهد الله يختص بما كان باسمه تعالى، كقولك: علي عهد الله، وبما كان لله على عبده، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهذا لأن جعل ما سوى ذلك من عهدٍ لا يظهر وجه لإضافته إلى الله وإن كان يجب لله الوفاء به، وليس كالشهادة التي أضيفت إلى الله في قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ [المائدة:١٠٦] لأن الشهادة بعد تحملها صارت حقاً لله على المتحمل، وأداؤها لله، وليس كذلك العهد إذا لم يكن باسمه ولا بين العبد وربه، فإن الواجب الوفاء به، أما العهد نفسه فهو على حاله لم يصر لله واجباً والذي لله يستحقه على العبد هو الوفاء به فقط، والعهد هو الكلام الموثق كالعقد.

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ تقدم به إليكم لتعملوا به وتثبتوا على التمسك به في المستقبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعلكم في المستقبل تذكرون ولا تنسون أنه قد وصاكم به ولا تغفلون عنه لتعملوا به ما عشتم.

﴿١٥٣﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ المتلوّ صراط الله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ والإشارة إلى قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآيات، فهو طريق واضح وهو مستقيم لا يعوج؛ لأنه الحق ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ فاتبعوا صراط الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ المخالفة لَه التي ليست سبيل الله بل سبل غيره ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فتتفرق ﴿بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي تفرق فيما بينها عادلة بكم عن سبيله، وبذلك تكونون قد تفرقتم عن سبيله فهذا أمر بالتمسك بالمتلوّ المذكور ونهي عن التفرق بواسطة اتباع طريقة غيره، وفتح همزة (أنَّ) لأنه معطوف على منصوب، أي وتعالوا أتل عليكم أن هذا صراطي.

ففي هذه الآيات إشارتان بلفظ ﴿ذَلِكُمْ﴾ وإشارة بلفظ ﴿هَٰذَا﴾ فلا بد من الفرق، والراجح: أن الفرق ما ذكر فالإشارتان إلى اتباع المتلوّ، وهذا إشارة إلى المتلوّ نفسه، وقد جعله الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في (الإعتصام) إشارة إلى القرآن جملة وهو قريب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء:٩] ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء:٥٠] والأصل في الإشارة إلى الكلام الذي تقوله في أوله أو آخره أو أثنائه أن تكون بإشارة القريب مثل (هذا) لأنه في معنى الحاضر، فلا يعدل عنه إلا لاعتبار آخر اقتضى تنزيله منزلة الغائب.

ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ

وفي الحديث الشريف في مدح القرآن «وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم» رواه الإمام أبو طالب في (الأمالي) عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، وعلى هذا: فقوله: ﴿صِرَٰطِي﴾ بضمير التكلم ظاهر فسياق هذه الآية غير سياق الآيتين قبلها إلى قوله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فقط، وضمير المتكلم في ﴿صِرَٰطِي﴾ مثله في قوله الشاعر:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري ... إني امرؤ صرعي عليك حرام

الشاهد في ضمير (صرعي).

وقوله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن السبيل الذي دل عليه القرآن، فيظهر منه أن القرآن جعل صراط الله لأنه بيان صراط الله الذي ارتضاه لعباده، أو لأن القرآن من صراط الله، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ فصراطه تعالى: هو سنته وأقواله، باعتبارها طريقة تقتضيها الحكمة في الأولين والآخرين فهي سنته، ومنها القرآن.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا..﴾ إلى ﴿..سَبِيلِهِۦ﴾ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ الله وتتقون التفرق؛ لأن تقوى الله هي طاعته وطاعته اتباع كتابه، ومن لازم اتباع كتابه ترك التفرق، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ من المتلو فلذلك جاء بضمير الغائب.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ تتمة للهدى على ما قد أعطاه الله من قبل، وقال الشرفي في (المصابيح): «والمعنى ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى﴾ بعد هذه التوصية لأنها قديمة يوصي بها كل نبي أمته لم تنسخ،

فصح العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ على ﴿وَصَّاكُمْ﴾ كأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب» انتهى.

ولا حاجة لقوله: ثم أعظم من ذلك؛ لأنه قد جعل العطف بثم للترتيب في الوقوع بالنسبة إلى توصية الأولين، ويحتمل أن العطف بثم راجع إلى الإحتجاج على الذين حرموا بعض ما أحل الله بغير علم، كأنه قيل: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات لتأكلوا من ثمره ومن الأنعام حمولة وفرشاً لتأكلوا مما رزقكم الله لم نحرم شيئاً من ذلك هل عندكم من علم بالتحريم فتخرجوه، ثم بعد ذلك أنزلنا التوراة والقرآن هدى للناس تبين ما أحل الله وما حرم، فعبر عن إنزال التوراة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وعن إنزال القرآن بقوله﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ فاحتج أولاً بأنه خلق هذه النعم للإنسان فحرم الجاهلون بعضها بغير حجة، وثانياً بأنه قد أنزل الكتابين مبينين لما أحل وما حرم.

ويحتمل ـ أيضاً ـ أن هذا العطف بـ(ثم) راجع إلى ما أفاده قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ لتضمنه معنى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ويؤيد هذا ما يأتي من تعليل إنزال القرآن بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ فإنه كلام في إبلاغ الحجة على المشركين المحرمين من دون الله مناسب، لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾.

فكأنه قيل: قل: فلله الحجة البالغة ببعث الرسل في كل أمة، ثم بإيتائنا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن موسى من بيان تحريم الله للشرك وبيان حل ما أحل الله من الثمرات والأنعام جملة وإنزال هذا الكتاب ـ والله أعلم.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ﴾ ﴿١٥٥﴾

وعلى هذا: فالعطف بـ(ثم) وقع لأن إنزال التوراة على موسى مضاف إلى بعث الرسل في كل أمة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] مع تأخرها عن معظم ذلك البعث، وهذا الوجه الأخير أرجح الوجوه عندي، ونظيره في العطف بـ(ثم) على مدلول ما تقدم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر:٣٢].

﴿وَ﴾ آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ محتاج إليه من الدين أي بياناً مفصلاً ﴿وَهُدًى﴾ إلى صراط الله ﴿وَرَحْمَةً﴾ تنقذ من النار ومن ضلالات الجهل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَّعَلَّهُم﴾ أي قوم موسى ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بحضورهم يوم القيامة موقف السؤال والحساب؛ لأنه موعود به في (التوراة) وهو موقف العرض على الله.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فقد بلغتكم به الحجة عليكم في تحريم الشرك وإبطال تحريم ما أحل الله وغير ذلك ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير عظيم الفوائد.

قال الراغب: «والبَرَكة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء ـ ثم قال ـ: والمبارك ما فيه ذلك الخير ـ ثم قال الراغب ـ: ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحَسّ وعلى وجه لا يحصى ولا يُحصَر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة» انتهى المراد.

وقد وصفه الله بالبركة في هذه السورة مرتين، وفي (سورة اقترب) و(سورة ص) تنبيهاً على أن فوائده أكثر مما يقدره الناظر على عدد سوره وآياته؛

مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ

لأن فوائده تكثر من حيث لا يحتسب، مثل كثرتها من حيث إضافة فائدة إلى فائدة، وتفرع فائدة من تلك الإضافة أو فوائد، وأما عظم فوائده فمن حيث أنها تفيد: معرفة أصول الدين، ومعرفة أسماء الله الحسنى، ومعرفة عظمة الله وجلاله، ومعرفة الجنة وطريقها، والنار وطريقها، ومعرفة الطريقة التي هي أقوم الطرائق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ الآية [الإسراء:٩] ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ واتقوا الله باتباعه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بصرف عذاب يوم عظيم.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ أي وهذا كتاب أنزلناه ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ أي لئلا تقولوا أو كراهة أن تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى أنزل عليهم من قبل وجودنا أي وجود المخاطبين بمكة وهم أهلها ومن حولها ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ لبعد بلدنا عنهم وكون دراستهم بالعبرانية ونحن عرب، وقوله: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿كُنَّا﴾.

﴿١٥٧﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا۟﴾ يوم القيامة ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لأنهم تفرقوا وتقاتلوا وكثير منهم يظهر يوم القيامة أنهم كانوا فاسقين ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ هذا الكتاب الذي هو ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية بينة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يدل على أنه من ربكم إعجازه لكم فهو آية بينة على أن محمداً رسول الله وعلى ضلالكم بالشرك ومنكرات الجاهلية ﴿وَهُدًى﴾ للتي هو أقوم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ينقذ من النار ومن ظلمات الجاهلية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ بعد هذا الإحتجاج العظيم فيه عليكم من قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ وإلى قوله تعالى: ﴿..فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أو من أول (سورة الأنعام) وهو أنسب لكونها كلها احتجاج على المشركين، ولكون هذه الآية في أواخر السورة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد وضوح الحجة فيها أنها آياته، وبعد وضوح الحجة على المشركين بما دلت عليه الآيات، وهذا يدل على أنه لا أظلم من المشركين المحرمين لما أحل الله، المكذبين بآيات الله الصادفين عنها.

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ قال الراغب: «صدف: أعرض إعراضاً شديداً» انتهى المراد، وفي (الصحاح): «صدف عني أي أعرض» انتهى، ومثله في (القاموس) وفي (لسان العرب): «الصدوف: الميل عن الشيء، ثم قال ابن سيِّده: صدف عنه يصدف صدفاً وصدوفاً عَدَل، وأصدفه عنه عدل به وصدف عني أعرض. وقوله تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون» انتهى.

فالعذاب واقع بهم على الإعراض لا على التكذيب بآيات الله وحده ولا عليه وعلى الشرك وتحريم ما أحل الله ونحو ذلك وحده بل على الكل وعلى الإعراض، لأنه جريمة عظمى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا..﴾ الآية [السجدة:٢٢] وذلك لأنه لو لم يعرض عنها بل أقبل عليها ونظر فيها لكان مظنة أن يرجع إلى الصواب إذا لم يكن قد تمرد سابقاً حتى خذل.

يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي

﴿١٥٨﴾ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون ليؤمنوا ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كقوله حاكياً عنهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ [الفرقان:٢١] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ كقولهم: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] وقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء:٩٢]. فهم يطلبون أن يأتي الله ويؤكد لهم نبوة محمد مشافهة.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ التي تضطرهم إلى الإيمان، فهي بعض مخصوص، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًا﴾ ولعلهم انتظروا بإيمانهم هذه الآية، حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا..﴾ إلى قولهم: ﴿..أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢] فجعلوا ذلك آية تبعثهم على الإيمان، ولو سقطت السماء كسفاً لكانوا ملجئين إلى الإيمان فلم ينفعهم إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يحتمل: أنه المذكور أولاً، أي سقوط السماء كسفاً، ويحتمل: أن المراد أعم مما ينتظرون، أي يوم يأتي بعض آيات ربك من الآيات الملجئة إلى الإيمان التي هي سقوط السماء وغيره ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾ ويحتمل أن المراد بها غير ما ينتظرون، فيكون كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٢٢] بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ [الفرقان:٢١].

وعلى هذا: يصح تفسير ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الثانية بطلوع الشمس من مغربها، كما أخرجه أحمد بن حنبل في (مسنده) [ج٣/ ص٣١]: حدثنا وكيع، حدثنا بن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا...خَيْرًا﴾ قال: «طلوع الشمس من مغربها» انتهى، وفي طلوع الشمس من مغربها روايات عديدة، وأكثرها لا يدل على أن طلوعها من مغربها معنى الآية؛ لاحتمال أنه من التطبيق، بمعنى: أنه داخل في عموم الآية.

أما حديث أبي سعيد ـ وسنده جيد ـ فظاهره تفسير الآية به، والتفسير للآية بطلوع الشمس من مغربها روي عن ابن مسعود من كلامه.

فإن كان ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الثانية يعم الملجئ وغيره، أي الآيات عام لا البعض، فالتفسير بالبعض الملجئ مناسب لسياق الآية، مع دلالة قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء:٩٢] وهذا أظهر من جعل آيات ربك الثانية خاصاً بالملجئة.

فأما قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ فهو يبين أن انتفاع المؤمن الصحيح الإيمان بإيمانه وبعمله الصالح أما كسب الخير في حال الإختيار من غير المؤمن فلا ينفع، فإذا جاء بعض الآيات الملجئ لم يكن له ما ينفعه لأن كسبه الخير في الماضي حابط كسراب بقيعة، وإيمانه حال الإلجاء لا ينفعه، ولا معنى لتقدير كسبه خيراً حال الإلجاء لا ينفعه؛ لأنه لا كلام في كسبهم الخير حال الإلجاء فلا دليل على تقديره مع عدم ذكره في الآية، وليس مفروضاً في غير هذه الآية إنما يفرض الإيمان؛ لأنه أعظم ما يتوسل به عند الإضطرار أما الأعمال التي هي كسب الخير فلا يقدّر نفعها عند نزول العذاب الملجئ؛ لأنها منسية حينئذ فلا معنى لتقديرها في الآية ولا دليل عليه فتقديره مجرد دعوى وعطف للقرآن على الهوى، وإن زخرفه أحمد في (حاشيته) على (الكشاف).

شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وعيداً بأمر ممكن، فاحتاجوا إلى تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وقوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

والراجح عندي: أنه حكاية لما يعلقون به إيمانهم كما بينت في أول الكلام في معناها؛ لأنهم جعلوا ما اقترحوه غاية لامتناعهم من الإيمان فكأنهم انتظروا بإيمانهم وقوعه، وقد تبين جعل بعضه غاية في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢] فمعناه: أن تركهم الإيمان ممتدّ حتى يقع أحد المقترحات في الآيتين، فهو بمنزلة المنتظر وإن فرض أنهم لا ينتظرونه حقيقة في قلوبهم فيصح تسميته انتظاراً مجازاً من الإستعارة التبعية لمشابهة تأخيرهم للإيمان بتأخير المنتظر به، وبذلك يستقيم ذكر الملائكة وذكر إتيان ربه.

ويفيد ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ..﴾ إلى آخر الآيتين في أنه تعليق لإيمانهم بالمقترحات، وأنهم متمردون، والوعيد بعده مناسب بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي ﴿ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بإيمانكم ما علقتموه عليه فهو تهديد ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ نزول العذاب بكم لهذا التمرد.

﴿١٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ دفع لتوهم تحسين طريقة الطائفتين كليهما، وأن محمداً ﷺ أنزل عليه هذا الكتاب المبارك ليكون هو ومن اتبعه بمنزلة إحدى الطائفتين فيكونوا طائفة ثالثة، لأنهم أهل كتاب كالطائفتين.

فبيَّن سبحانه أن محمداً ﷺ متبعاً لهذا الكتاب داعياً إلى اتباعه ليس كأولئك الطائفتين اليهود والنصارى المتفرقين لأنهما وإن كانتا أهل كتابين من الله يدَّعيان اتباعه فإنهم قد تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينة في كتابهم، وتركوا اتباع ما أنزل عليهم فليس محمد ﷺ مثلهم ولا على طريقتهم في الإنتماء إلى ما أنزل الله قولاً بلا عمل، ومحمد ﷺ منزه عما هم عليه من الشرك وغيره من الباطل.

وقوله تعالى: ﴿شِيَعًا﴾ بمعنى فرقاً، كل فرقة شيعة لمتبوعهم وطريقتهم ينصرون متبوعهم وطريقته ويتشايعون فيما بينهم ضد الفرق الأخرى بغياً بينهم بالتعاون ضد الآخرين، فهم أهل أهواء وأغراض سياسية لا أهل دين واتّباع لما أنزل الله، فليس رسول الله ﷺ مثل فرقة منهم في شيء من الطريقة والتدين، وهذا الكلام في المتفرقين منهم وهم أكثرهم وجمهورهم وغالبهم، ولذلك نسب إليهم جملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ليحكم بينهم يوم القيامة، ولأن أمرهم إليه تركهم يتفرقون في أباطيلهم ولم يتركهم لأنهم على حق في ذلك ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي أنه عالم به لا ينساه فهو ينبئهم يوم القيامة عند الحكم بينهم فيجزيهم بما كانوا يعملون، وهو وعيد شديد على التفرق في الدين وتحذير منه.

وقد جاءت روايات كثيرة من وجوه عديدة يقوي بعضها بعضاً في افتراق اليهود والنصارى، وهلاك كل منهم إلا فرقة، وأن هذه الأمة ستفترق

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ

إلى ثلاث وسبعين كلها هالكة إلا فرقة، وقد صححها الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) [ج١/ ص١٤] وقال في [ج٣/ ص٤٨٠] في سند رواية عوف بن مالك لهذا الحديث: «وهذا إسناد جيد» انتهى.

ثم بيَّن وجه كونه جيداً والعمدة عندنا كثرة الأسانيد، وقال الألباني في [ج١/ ص١٤]: «على أن للشوكاني في هذا المقام خطأً آخر أفحش من هذا [أي من خطئه في تقليده للسخاوي في كلامه في هذا الحديث] وهو تضعيفه في تفسيره لهذه الزيادة مقلداً ـ أيضاً ـ في ذلك غيره مع أنها زيادة صحيحة وردت عن غير واحد من الصحابة بأسانيد جيدة، كما قال بعض الأئمة» انتهى، وحكى الألباني في [ج١/ ص٢٠] رد المقبلي في (العلم الشامخ) على من ضعّف هذه الزيادة.

﴿١٦٠﴾ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فسوف يجزى بالحسنة الواحدة جزاء عشر حسنات ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي بقدر جزاء سيئة واحدة لا يزاد مع السيئة تضعيف لها بطريقة الغضب أو لزجر غيره كما يفعل الظلمة.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص من ثواب أو زيادة في عقاب، وسمي نقص الثواب ظلماً والمراد لا ينقصون من ثوابهم؛ لأن العرب تسمي النقص ظلماً، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [الإسراء:٧١] ويحتمل: وهم لا يظلمون أي ظلم حقيقي.

(١٦١) ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، فهو المستقيم الذي لا عوج فيه طريق واضح لا خفاء فيه يوصل إلى رحمة الله ورضوانه مستقيم لا عوج فيه؛ لأنه الحق فكيف أعدل عنه إلى أباطيل الجاهلية وقد هداني ربي ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ تفسير للصراط المذكور بأنه دين أي طاعة لله ومعاملة مع الله ﴿قِيَمًا﴾ لا بدعة فيه ولا ميل عن الحق، فوصفه بالإستقامة من حيث هو صراط يمدح باستقامته وسلامته من العوج الذي يسبب طول السير وبعد المسافة، أو يسبب الغلط بانحرافه عن القصد حيث لم يشعر السائر بانحرافه فيتقدم خارجاً منه فهو مدح للمشبه به ليفيد مدح الدين المشبه بأنه خير طريقة.

أما قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فهو يفيد أن الدين نفسه قيم سليم من عيوب الأديان التي تدخلها بسبب الإبتداع والإنحراف أو الأديان التي يختارها الإنسان ليست من الله فهي من أصلها معوجّة عن الصواب، وهذا على قراءة ﴿قَيِّماً﴾ [بفتح القاف وكسر الياء وتشديدها].

فأما على قراءة ﴿قِيَماً﴾ [بكسر القاف وفتح الياء وتخفيفها] فهو بمعنى: قوام، فهذا الدين قوام لي تقوم به حياتي لصلاحه لها وإصلاحه لها وجعلها حياة طيبة لسلامتها من ضرر المخالفة اللازم لها كضرر الخمر والميسر والقوانين الإنسانية المخالفة لدين الله ولسلامتها من تضييع العمر في غير فائدة للمستقبل، وجعل هذا العمر مؤدياً إلى عذاب الآخرة وسلامتها من العيش الضنك الذي لا بد منه لمن أعرض عن ذكر الله، وعلى هذا مرجع القراءتين إلى معنى واحد.

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ

فأما الشرفي فقال في تفسير ﴿قِيَمًا﴾: «مصدر بمعنى القيام وصف به وهو أبلغ من قائم» انتهى، فجعل قيّماً وقيماً القراءتين، بمعنى واحد.

﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِّلَّةَ﴾ أبيكم ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي اتفق أهل الملل أنه على الحق وادعى أهل كل ملة أنهم على دينه بلا حجة أو الذي تدعي العرب أنها على دينه خطأ منهم ﴿حَنِيفًا﴾ خاشعاً لله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فزعمكم أيها المشركون أنكم على دينه زعم باطل؛ لأنكم مشركون وما كان من المشركين قط.

﴿١٦٢﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ لله وحده فأنا أدعوه في صلاتي وحده ولا أدعو غيره كما يفعل المشركون ﴿وَنُسُكِى﴾ نحري وذبحي له وحده لا أنسك لغيره كما تصنعون أيها المشركون.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ كذلك هما لله، أي منذوران لله تعالى، فسأجعل كل أعمالي في حياتي كلها وفق مراد الله وفيما يحقق لي رضاه، وكذلك أسخِّر موتي فيما يرضي الله وسأجعله في سبيله وأنذره ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لي، وهذا هو الإسلام الكامل في أعلى درجاته إسلام نفسه لله وحده إسلاماً كاملاً؛ لأنه لا يبقي لنفسه من نفسه شيئاً.

﴿١٦٣﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرني ربي بأن أجعل حياتي ومماتي له وفي سبيله، ناصراً لدينه ومجاهداً لإعلاء كلمته ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ سابقهم في الإسلام لا يبلغ مبلغي فيه أحد من البشر، أو أول المسلمين في زماني سبقت بإسلامي من اتبعني كلهم وكنت قدوتهم في الإسلام وهذا أقرب.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

﴿١٦٤﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي هذا لا يكون مني أبداً، فالسؤال بمعنى النفي كقول (مؤمن آل ياسين): ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا..﴾ [يس:٢٣] وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ احتجاج على المشركين بأن الله رب كل شيء فلا يستحق العبادة غيره، ومعنى ﴿أَبْغِي﴾ أطلب أن يكون لي رب غيره وجعل (غير) بعد همزة السؤال؛ لأن (غير) محط الإنكار، أي كيف غير الله اتخذ ولياً؟!

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ احتجاج آخر بأني لو فعلت ذلك ما ضررت به إلا نفسي﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ احتجاج ثالث بأني لو فعلت ذلك لم يحمل أحد عني ذنبي فهو ردٌّ على القائلين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] ومعنى ﴿تَزِرُ﴾ تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ حاملة ﴿وِزْرَ﴾ حمل ﴿أُخْرَىٰ﴾نفس أخرى.

قال في (الصحاح): «والوزر: الإثم والثقل ـ ثم قال ـ: وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة حمل أخرى» انتهى.

والدليل على أنه استعير من حمل الثقيل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ فقوله: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ استعارة، وقوله: ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ ترشيح، وفي (لسان العرب): «الوزر: الحمل الثقيل، والوزر: الذنب لثقله ـ ثم قال ـ: ووَزَرت الشيء أزِره وَزْراً حملته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾» انتهى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ترتيب على الإحتجاج الماضي، وعلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي..﴾ وما بعدها

بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ أنت ومن معك والمشركون ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ إليه وحده في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم في القيامة في مقام الحساب والجزاء ﴿بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من طاعة وعبادة خالصة لله ومعصية وشرك لم يخفَ عليه منه شيء، ولم ينسَ منه شيئاً، فيبين لكم الذي كنتم تختلفون فيه حين يبين لكم الحق من الباطل مما اختلفتم فيه، كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩].

﴿١٦٥﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، وإضافة الخلائف إلى الأرض لخلافتهم من قبلهم في عمارتها والإصلاح لما يصلحون فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٣-١٤] فالخلافة في الأرض قسمان: خلافة قرن لقرن وأمة لأمة ينتفعون بالأرض انتفاع من قبلهم، وخلافة إنسان لله، كقوله تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

فقوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الخطاب للموجودين عند نزول الآية وخلافتهم لمن قبلهم معروفة، ولكن بين الله هنا أنه هو الذي جعلهم خلائف لا غيره ممن يعبدهم المشركون أو غيرهم فهو كقوله تعالى: في السورة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ في آيات عديدة يرد فيها على المشركين ويبين لهم أنهم مبطلون.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف:٣٢] إلا أن هذه أعم من آية الزخرف.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ عام للنعم كلها من الأموال والأولاد والأزواج ومن القوة والفطنة والعلم والحكمة بل والعقل والسمع والبصر ومن الولاية لما تحت أيديهم من ناس أو أنعام وغير ذلك ونتيجة الإبتلاء الذي هو الإبتلاء بما ذكر: الجزاء لكل نفس بما كسبت، والمغفرة لمن هو أهل في الحكمة لأن يغفر لَه، فرتب على ذكر البلوى ذكر الجزاء والمغفرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وسرعة العقاب وقوعه عقيب المعصية لمن استحق ذلك، ومن أعظم أنواع العقاب وأشده: الخذلان، وإرسالُ الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] فهذا نعوذ بالله عقاب عاجل سريع.

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ كالنتيجة لما تقدم في السورة كلها خاتمة لها، فقد تبين فيها أنه سريع العقاب بخذلان المتمردين المدلول عليه في السورة، وتبين أنه غفور رحيم بالدعوة للعصاة إلى التوبة والمغفرة لهم والرحمة، وبتأجيلهم وإمهالهم حتى تتهيأ لهم التوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ دعوة إلى مغفرته ورحمته، وبيان لما في السورة من وعيد المشركين وتقبيح طريقتهم وأعمالهم الجاهلية أنه كله تقبل التوبة منه، ويغفر كله لمن تاب لأنه غفور رحيم، وما في السورة من الإحتجاج عليهم هو نفسه دعوة إلى التوبة ليغفر لهم ويرحمهم، وكذلك يرحم عباده ويغفر لهم بتأجيلهم في هذه الحياة، ولو يؤاخذهم حين يكسبون الإثم

لكان ذلك عظيماً عليهم، ولكن يعرضهم على التوبة بتأجيلهم ويدعوهم إليها ليغفر لهم ويرحمهم فكان التأجيل والدعوة مغفرة ورحمة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وجعل خاتمة السورة ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب لذكر جرائم المشركين وعنادهم وهو يدعوهم ليغفر لهم من ذنوبهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فكأنه يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعجل لهم العذاب وهم كما قد بين في هذه السورة مبطلون ومكذبون ومجادلون ومصرون على باطلهم، معاندون بعد وضوح الحق وقيام الحجة عليهم بهذا القرآن العظيم، فذلك التأجيل والدعوة إلى رحمته مع أنهم كما ذكرنا؛ لأنه غفور رحيم.

والحمد لله رب العالمين.



فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

محتويات الجزء الثاني



